

**الفرقان**  
**في تفسير القرآن**  
**بالقرآن والسُّنة**



# الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

الجزء الثامن عشر

تتمة سورة الكهف - سورة مريم

سورة طه

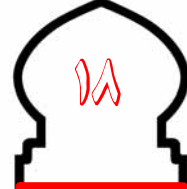
سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي





٥



تتمة

سُورَةُ الْكَهْفِ





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأْتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

صرف للرسول ﷺ عن القيل والقال والإصغاء إلى أصحاب المقال في آرائهم واقتراحاتهم الناكبة عن الصراط، والاتحاد إلى الرب وكلماته، وأن يصبر نفسه مع الذين يدعون، ماشياً على صراط الحق، متمسكاً بصراح الحق فتعم الثواب ونعم المرتفق!

﴿وَأْتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ

مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ :

أصل التلاوة هي المتابعة ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا ﴿٢﴾﴾ (١) فلا شأن لك ولا واجب عليك إلا متابعة كتاب ربك قراءة وتفهماً وتفهماً وإبلاغاً وتطبيقاً، ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ﴾ . . . لا ما أوحاه عقلك آمن سواك، وإنما ﴿مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ القرآن العظيم، دون أن تبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً، أو أن تستعجل وحي ربك فتعدهم الجواب ناسياً ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ودون الالتحاد إلى أي وحي أو استفناء أو استيحاء، وإنما ﴿مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ فحسبك ربك وكتاب ربك إذ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ : ربك ولا كتابه ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ﴾ : ربك ولا كتابة ﴿مُلْتَحَاً﴾ .

فهما وصفان متلاحمان «الربك» و﴿كِتَابِ رَبِّكَ﴾ : ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ والقرآن أفضل كلماته، ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَاً﴾ وملتحمه الموحى إليك هو قرآنه كما هو تعالى ملتحمك في كل ما تحتاجه، ملتحم تكويناً وملتحم تشريعاً لا مبدل لهما!

فكلماته التشريعية التدوينية ككل لا مبدل لها من غيره تعالى نسخاً إلا تحريفاً في غير القرآن : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٢) وكلماته الأخيرة القرآن، لا مبدل لها إطلاقاً إذ تَمَّت ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣) لا مبدلاً من غير الله تحريفاً وتجديفاً، مهما كان لغير القرآن تحريف وتجديف، ولا مبدلاً إلهياً نسخاً وتبديلاً كشرعة تنسخ وتبديل، فالقرآن كما كان وكما هو الآن قائم مر الدهور والأعوام إلى يوم القيام لا نسخ فيه ولا تحريف يعتريه دون سواه من كلمات الله وكتابه.

و﴿مُلْتَحَاً﴾ : متمائلاً يجير إليه، أولاً هو الله لأي ملتحم وعلى أية حال

(١) سورة الشمس، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

إجارة وجواراً: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ...﴾ (١) ومن ثم لن أجد ملتحداً من وحيه إلا كلماته الأخيرة القرآن المبين، فهناك الله وهنا كتاب الله ثم لا سواه ولا سواه.

هنا ﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ في استغراق نفي التبديل يجعل من القرآن كتاباً لا نسخ له ولا تحريف، إذاً فهو كتاب الزمن وخاتمة الوحي لا كتاب بعده ما طلعت شمس وغربت!

ومن ثم ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ تحيل ملتحداً من دون القرآن كما تحيله من دون الله، ضرباً إلى أعماق الزمن ما بقي الدهر، فمهما غاب شخص الرسول ﷺ لا تغب رسالته القرآنية وإذا الرسول وهو أول العابدين «لن تجد...» فغيره أحرى أن «لن يجد» ف«لن تجد» وإن كان خطاباً لشخص الرسول ﷺ ولكنه بإحالة «لن» وأول العابدين في «تجد» يطوي كل زمان ومكان وكل إنس وجان حتى القيامة الكبرى. فتحيل أي ملتحد طول الزمان وعرض المكان سوى القرآن كما آله القرآن!

﴿وَلْيَتُوبُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾:

ولماذا ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ دون إضافة وبتتميز جمع ﴿سِنِينَ﴾ خلاف القاعدة المطردة من إضافتهما إلى مفرد؟

الآن ﴿سِنِينَ﴾ نزلت بعد ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ حين سئل الرسول: أياماً أو شهوراً أو سنين؟ (٢) ونزولها دون سنين إهمالها في إجمال تبعد عنه ساحة القرآن البيان!

(١) سورة نوح، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢١٨ أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: نزلت هذه الآية ﴿وَلْيَتُوبُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ...﴾ [الكهف: ٢٥] قيل يا رسول الله ﷺ أياماً أم شهوراً أم سنين؟ فأنزل الله: سنين وازدادوا تسعاً.

أم إنها بدل عنها فلا إضافة إلى مفرد خلاف التميز، فثلاثمائة هي سنين مُضمَّنة معنى التمييز؟ وهذا خلاف المألوف مما يلحق العدد فإنه - دوماً - التمييز!

أم إنها قاعدة راجحة أو مخيرة فيما إذا كان مضاف العدد المركب جمعاً، فالتمييز أيضاً لجمعه، أو مفرد للمضاف إليه «مائة» والقرآن أفضل أصل لاقتباس القواعد فلا يقاس بسائر القياس المستفاد من سائر الأدب العربي شعراً أو نثراً؟ فليؤخذ أدب القرآن لفظياً كما هو معنوياً نبراساً لكل قاعدة وفائدة.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨):

نفس مطمئنة يروضها ربها بالتقوى إيناساً بربها ووحيه، وصبراً مع الذين يدعونه يريدون وجهه، ويرفضها عن الطغوى بطاعة من أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً.

هنا أمر بصبر نفسه المقدسة معهم ونهي أن يعدو عيناه عنهم ونهي ثانٍ أن يطبع غفلان القلوب، يتبنى صرح هذه الرسالة السامية على بساط الفقراء إلى الله، دون الأثرياء الأغبياء الأغنياء في حسابانهم عن الله، مهما طالت وعودهم وأبرق وقودهم: «لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم حادثناك وأخذنا عنك»<sup>(١)</sup> وكما كان يقول أضرابهم للأنبياء

(١) الدر المنثور ٤: ٢١٩ - أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن سلمان الفارسي قال: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ، وعنده عيينة بن بدر والأقرع بن حابس فقالوا يا رسول الله ﷺ: وجلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم - يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف =

قبله من نوح مفتح الرسالات: ﴿قَالُوا أَنْوْمُنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴿١﴾ وإلى غيره من رسل الله!

يطلب من الرسول هكذا فيرفض كما أمر الله قائلاً: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا والممات» ﴿٢﴾ ولقد كان يجامل فقراء المؤمنين ويكرمهم طول حياته المنيرة على ميزانية تقواهم.

وهل أن الرسول ﷺ حدثه نفسه فيما طلبوا إليه رغبة في إيمانهم كما يدعون؟ هذا بعيد عن ساحته وغريب عن أخلاقه وسماحته ﴿وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣﴾ وكيف يطرد المؤمنين رغبة في إيمان المستكبرين، ثم وأين إيمان من إيمان لو صدقوا وآمنوا! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم!.

إنما يأمره ربه بما يأمر وينهاه عما ينهى تثبتاً للمؤمنين وتنديداً

= جالسناك أو حادثناك وأخذنا عنك فأنزل الله: «ورتل ما أوحى» . . إلى قوله: ﴿اعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ .

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١١١-١١٤ .

(٢) المصدر أخرج أبو الشيخ عن سلمان قال: قام رسول الله ﷺ يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله فقال: . . وأخرج عبد بن حميد عن سلمان قال: نزلت هذه الآية في رجل دخل على النبي ﷺ ومعني شن خوص فوضع مرفقه في صدري فقال: تنح حتى ألقاني على البساط ثم قال: يا محمد! إننا ليمنعنا كثير من أمرك هذا وأضرباءه أن ترى لي قدماً وسواداً فلو نحيتهم إذا دخلنا عليك فإذا خرجنا أذنت لهم إذا شئت، فلما خرج أنزل الله ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ - إلى - فُرُطًا﴾ وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عمر بن زر عن أبيه أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من أصحابه منهم عبد الله بن رواحة يذكروهم بالله فلما رآه عبد الله سكت فقال له رسول الله ﷺ: ذكر أصحابك، فقال: يا رسول الله ﷺ! أنت أحق! فقال ﷺ: أما إنكم الملاء الذين أمرني الله أن أصبر نفسي معهم ثم تلا ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ . . .﴾ .

(٣) سورة القلم، الآية: ٤ .

بالمستكبرين، وتبعيداً لهم عن اقتراحهم عليه من طرد المؤمنين، لا أنه طرد ثم نهى! ف ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) ﴿... وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ (٢) ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) وهو ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ...﴾ (٤)! ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ (٥)!

فإنه لا تقوم الدعوات الرسالية إلا على من يعتنقونها إيقاناً وإيماناً مهما كانوا فقراء دون من يعتورونها متاجرين بها يمشون معها ما تمشيهم في شهواتهم فإذا محصوا بالبلاء قلَّ الديانون!

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ وكيف «نفسك» مفعولاً والصبر لازم حيث يتعدى بواسطة؟ إن الصبر وهو الحبس متعدٍ إلى مفعول محبوس به، مهما يتعود تعديته بمحبوس فيه أو عليه أو معه أم ماذا؟ فاصبر نفسك في الحياة الدنيا على مشاقها وحرماناتها ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ﴾ صبراً في الله والله وإلى الله!

كل إمساك واحتباس في ضيق صبر، منه ممدوح ومنه غير ممدوح، والصبر مع المؤمنين احتباس للنفس عن الشهوات وتحرير لكافة الطاقات النفسية في التقدم معهم إلى قمة الإيمان بمواصلة المجاهدات وتحمل الحرمانات!

وما هي النفس المحمدية المأمورة بالصبر معهم؟ إنها كله ﷺ من روحه وجسمه، بعقله و صدره وقلبه، في حله وترحاله، وعلى كل حاله،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٦١.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.



فكما يصبر في الله في أوامره ونواهيه وفي قوله الثقيل كذلك مع الذين يدعونه بالغداة والعشي يريدون وجهه، يحملهم ويتحملهم يهديهم ويذود عنهم، يجاريهم ويداريهم ولا يفضل عليهم ولا يسوي بهم!

أجل ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

ولماذا تطردهم وهم مؤمنون؟ أرغبة في إيمان من يتأنفون عنهم، والإنذار لا يفيدهم ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاِلٰهٌُ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢)!

ترى وماذا تعني ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ حيث يدعون بهما ربهما؟ لأنهما وقت الصلاة بداية الفرض في العهد المكي طرفي النهار كما في مكيات أخرى ﴿وَأَسْتَعْفِرُ لَدُنْكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٣) ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ...﴾ (٤)؟ ولا بد في سمة الإيمان دوامتها والفرض في المدينة خمس وعلى طول الخط، فليقل: مع المصلين لتشمل الفرض مكياً ومدنياً! وآية العشي والإبكار لا تخص المكي، بل والمدني أيضاً ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٥) وكما الكهف علها مدينة أو البعض من أيها وعلها منها!

أم لأن الغداة هي الوقت الذي يتنقل فيه الإنسان من نومه إلى يقظته، والعشي تنقلاً من يقظته إلى نومه، وهما يذكّران الحياة بعد الموت ثم الموت بعد الحياة، وهما ركنا أوقات الليل والنهار. فذكرهما أهم الذكر!

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥١.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

إذاً فهما يعينان أهم الأوقات من الليل والنهار، فالغداة صباح والعشي عصر إلى ليل، وكما هما في الجنة والنار ركنان في رحمة وعذاب: ﴿وَهُمْ رَزَقُوهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١) ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ (٢) فهما أهم أوقات الذكر وسواه وفيما مضى كما هنا: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (٣) لا فحسب الإنسان فالجبال أيضاً: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (٤).

ثم وفي ردف العشي بالإشراق والغدو بالعشي - على كونهما ركني الأوقات - عطف إلى ما بينهما من أوقات الليل والنهار، إلا فيما يخصهما بقرينة كرزق البرزخ وعذابه، فالغداة والعشي في ذكر الرب ودعوته تعني الغداة إلى العشي والعشي إلى الغداة كما يقال «أنا دارس صباح مساء» أو «ضارب أعداء الله ظهر بطن».

فدعوة الرب هي حالهم ومقالهم، حلهم وترحالهم، غداتهم وعشيهم بما فيها الفرائض الخمس (٥) كأركان الدعوات وتلحقها سائرهما، كما الغداة والعشي من أركان الأوقات وتلحقها سائرهما.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ... يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ وماذا يعني «وجهه»؟ هنا وجهه

(١) سورة مريم، الآية: ٦٢.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ١١.

(٤) سورة ص، الآية: ١٨.

(٥) الدر المنثور ٤: ٢٢٠ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن إبراهيم ومجاهد في الآية قالوا: الصلوات الخمس وفي نور الثقلين ٣: ٢٥٨ عن تفسير العياشي عن زرارة وحمران وعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في قوله: ﴿وَأَصْبِرْ... بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] قال: «إنما عنى بها الصلاة».

الرب كما في عديد سواه<sup>(١)</sup> وهناك وجه الله كما في عديد سواه<sup>(٢)</sup> وبينهما فرق كما بين وجه الله وسواه.

والوجه من كل شيء ما يواجه شيئاً أو يواجه بشيء، فيختلف حسب اختلاف الأشياء والمواجهات، فلا يقاس وجه الرب الإله بسائر الوجه، كما لا تقاس إقامة الوجه إليه وتسليمه لديه بسائر الوجه.

فوجه الرب هو الواجهة التربوية التي يواجه الله بها خليقته يوم الدنيا والآخرة، ويواجهونه بها في الدنيا والآخرة، فوجه الله من الواجهة التشريعية يدعون ربهم بالغداة والعشي، وبهذه الدعوة يريدون الواجهة التربوية ليوم الدنيا تقرباً إليه وتكرماً لديه، وحظوة مما عنده من حياة إيمانية، فالمؤمن دنياه آخرة! وليوم الآخرة الواجهة التربوية ثواباً عند الرب وزلفى، واجهات خمس هي كلها وجه الرب<sup>(٣)</sup> حيث يريدونه بدعوتهم ربهم بالغداة والعشي! كما ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾<sup>(٤)</sup> يعني الواجهة التربوية الأخروية التي تخصصها دون الدنيا، والدينية تخصصها دون الأخرى! فليس وجه الرب وجهاً عضويّاً لذاته المقدسة، فلا أحد يقول به، ولا من المشبهة المجسمة، الذين يشبّون الله سبحانه أبعاضاً مؤلفة وأعضاء مُصَرَّفَة، ومن ثم لوجه الله معنى غير ما يعنيه وجه الرب على اشتراكهما في وجه.

(١) كما في ١٣ : ٢٢ : ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ - و ٥٥ : ٢٧ : ﴿وَيَتَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَنَّةِ وَالْإِكْرَامِ﴾ - و ٩٢ : ٢٠ : ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ - و ٦ : ٥٢ : ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ - فالمجموع خمسة موارد.

(٢) كما في ٢ : ١١٥ : ﴿فَأَيْنَمَا تُولُونَ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ - و ٢ : ٢٧٢ : ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ - و ٣٠ : ٣٨ : ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ و ٢٨ : ٨٨ : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

(٣) فللرب وجه يوم الدنيا : شرعته - التقرب إليه بها - الحظوة بهما يوم الدنيا - ووجه يوم الآخرة - قرباه الحظوة الثواب.

(٤) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

فلأنك كأول العابين وكرسول لا تعني من الحياة جاهاً ولا متاعاً ولا عرضاً من الحياة الدنيا، وإنما وجه ربك، فاصبر نفسك مع الذين يريدون وجهه، تناسباً فتناسقاً وتناصرماً في هذه السبيل.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾:

العينان لهما عدو ومد، وعينا أهل الله لا تمدان إلى غير الله وأهله، وما سوى الله كله الحياة الدنيا: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) ... مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٢).

وإنما هما ناظرتان ناظرتان إلى الرب والذين يدعونه يريدون وجهه، منحصرتان بهم منحسرتان عن سواهم.

وهل ﴿عَيْنَاكَ﴾ هما الظاهرتان الباصرتان؟ ومدَّهما إليهم دون رعاية ورقابة ومرحمة ليس مد الرسول ﷺ! أم هما عينا عقله وقلبه، فبعقل الوحي يعقلهم عما لا يحمد، وبعين القلب يحبهم أم ماذا؟ ولا يكفیان مداً، والباصرتان الظاهرتان تعدوانهم إلى سواهم! أم هما عينا القلب بما معه، والقالب بما معه، أن يكرس نفسه بطاقتها وإمكاناتها نظرة ناضرة إليهم، مراقبة عليهم؟ وهو جمع جميل والله على ما نقول وكيل!

﴿... وَلَا نُطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبُهُ عَن دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾:

وهل أن إغفاله سبحانه قلباً يعني وجدانه غافلاً فهو في الحق غافل عاطل، كما يقال «الله دركم يا بني سليم! والله لقد قاتلناكم فما أجبناكم

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣١.

وهاجيناكم فما أفحمناكم وسألناكم فما أبخلناكم» أي: لم نجدكم جبانين عند النزال ولا أعياء عند المقال ولا أبخال عند السؤال<sup>(١)</sup>.

وذلك احتشاماً عن أن يُغفل الله قلباً وهو مذكر لا مُغفل؟ ولكننا الصحيح والفصيح للتدليل على هذا المعنى لفظه الخاص ك (وجدنا قلبه غافلاً) ك ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾<sup>(٢)</sup> دون أصبرناه.

ثم الإغفال لا يختص المسير، أن يُغفل الله قلباً دونما اختيار منه وتقصير، بل إنه غفلة معمّدة ثم إفعال ومن ثم إغفال فامتناعاً للذكر بتعمد واختيار: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾<sup>(٣)</sup> . . . وَلَكِنْ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٦٨﴾<sup>(٤)</sup>.

فالمتغافلون الغافلون الدائبون في غفلتهم وغفوتهم ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾<sup>(٥)</sup> أولئك هم الغافلون الذين غفلوا عامدين فأغفل الله قلوبهم عن ذكره طبعاً عليها وختماً.

ثم ترى أن إغفاله لقلوبهم هو تركه لهداها أن ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾<sup>(٦)</sup> وفي غيهم ووعيهم يترددون، ف ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾: تركناه غفلاً من السمات والكتابات الإيمانية، ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمُ

(١) مجازات القرآن وتلخيص البيان للسيد الشريف الرضي ينقله عن عمرو بن معد يكرب لبني سليم ص ٢١٢.

(٢) سورة ص، الآية: ٤٤.

(٣) سورة الصف، الآية: ٥.

(٤) سورة النحل، الآيات: ١٠٦ - ١٠٨.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.

بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴿١﴾ وهم خلو القلوب منها، وكما يقال: أغفل البعير: تركه بلا سمة يعرف بها على عادة العرب في إقامة السمات مقام العلامات، اللهم إلا الطبع والختم ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢﴾؟ ومجرد الترك وإن كان ينتج بقاء الغفلة ولكنه ليس إغفالاً، فإنه إيجاد للغفلة بعد الذكر، أم غفلة على غفلة!

أم إنه مزيد في غفلة معقدة معاندة أن تستمر فتزيد جزاءً وفاقاً في الدنيا وفي الآخرة عذاب أليم: إن الله أقفل قلوبهم عن الذكرى فأغفلها استمراراً فيها فمزيداً عليها ﴿وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ بعد الإغفال كما قبله وأكثر دونما تفكير في هداه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ قبل الإقفال والإغفال، حيث الغفلة المعقدة دركات بعضها فوق بعض، فأغفالها على حسبها دركات بعضها فوق بعض، آخذة من ترك التوفيق، فختم وطبع فدفع إلى مزيد من الغفلة وهو الدرك الأسفل من الإغفال.

وقد يعني ﴿أَغْفَلْنَا﴾ هنا كل هذه مترتبة: إن وجدنا قلبه غافلاً عن عمده فلما استمر في غفلته تركناه على غفلته وحتى شرح بالكفر صدرأً فطبعنا على قلبه حتى لا يسطع الرجوع عن غفلته، إذ كان له قبل طبعه الرجوع إلى ربه ثم يمدهم في طغيانهم يعمهون ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ قبل أن أغفلنا قلبه واتباع هواه من قبل ومن بعد في تزايد دركاته، وما أجمله جمعاً بين معان مترتبة يقتضيها أدب اللفظ وواقع المعنى! .

اتباع الهوى على غفلة معقدة وأمر فرط مضيع يتبعه جزاءً له إقفال القلب فأغفاله فاتّباع مفرط للهوى وأمر فرط في اتباع الهوى! ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ ﴿٣﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ ﴿٤﴾!

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢ .

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٥ .

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٩ .

(٤) سورة المجادلة، الآية: ١٩ .

لا تطع - وإن كانت رجاء لاهتدائهم - من غفلوا عن أنهم عبيد وهو ربهم فأغفلنا قلبه عن ذكرنا فلم يطامنوا من نخوتهم ولا خففوا من غلوائهم، ولم يستشعروا جلال الله الذي تتساوى في ظله العباد إلا من التقي أو هو أتقى! .  
ذلك القلب المقلوب، المليء من الشهوات والطنطنات، في أمرٍ من فرطات، إنه ليس قلب إنسان، بل هو مريض الحيوان ومزبل الشيطان! «لا تطع . . .» .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ :

آية محكمة تحكم عرى الاختيار وتجتث جذور الإجبار «فمن شاء . . . ومن شاء» فمشية الإيمان والهدى تجلب زيادة الهدى من الله واستمراريتها: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ (١) كما مشية اللاإيمان والردى تجلب غفلة دائبة أو زيادتها بإغفال من الله .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ حيث يريكم دلالة فتوفيقاً للهدى فمن شاء وتقبل الحق يثبته عليه ويزيد، ومن لم يشاء وأعرض عن الحق يختم على قلبه ويغفله، فإنه ظالم في نكران الحق، يظلم نفسه ويظلم الحق وأهله، ليس الحق ملكاً لأحدٍ ولا مخولاً فيه لأحد حتى يجامل فيه فيماري ويداري ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾! فالحق - إذاً - لا يعتز ولا ينتصر بمن لا يبغونه إلا عوجاً، وإنما يعزّ وينصر من يبغونه خالصاً بلا تجوير ولا تحوير، والذي يترفع عن الذين يبغونه ناصحاً ناصعاً لا يرجى منه أي خير ولا لنفسه فضلاً عن قبيل الإيمان! .

إنه لا حقّ لائقاً غير زائف ولا خليطاً بغير حق إلا من ربكم، والخطأ

(١) سورة محمد، الآية: ١٧ .

جائر كائن لغيره أياً كان إلا من عصمه ربه بوحيه، فلا تطلبوا مني دخلاً في حقه ولا بخلاً وانحصاراً في مواجهة حقه - وهذا ختام الكلام ومن ثم .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا... ﴾:

السرادق هو الفسطاط وسرادق النار هو زبانيته المحيطة والمشملة على أهلها. فلا ينجو منها ناج ولا يطلق منها عان حيث ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (١) حسباً يحصرهم وطولاً يقصرهم ف ﴿ إِنهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴾ (٨) في عمدة مُمدّدة ﴿ ٩ ﴾ ﴿ فسطاط من نار هي حصير مؤصدة: مغلقة مطبقة.

هذا وكما أحاطت بهم سرادقات نيران الشهوات وحصرتهم في دنيا الحياة فهي هي تتمثل سرادق في الحياة الأخرى.

﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُوا ﴾ على إياسهم من مُغيث، ولكنما الحالة تلك المزرية المضطربة قد تدعوهم أن يستغيثوا ﴿ يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾: دردي الزيت المغلي ﴿ يَشْوَى الْوُجُوهُ ﴾ بمواجهته قبل شربه، وهل يشربونه. وهو كالمهل؟ أجل (٣)! لأن الإغاثة ليست فقط عرضاً للماء وإن لم يشربوا بل هي إشراب

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨.

(٢) سورة الهمزة، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٦٠ ح ٧٩ في تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿ يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] قال: تبدل خبزة نقيه يأكل الناس منها حتى يفرغ من الحساب فقال له قائل: إنهم يومئذ في شغل عن الأكل والشرب؟ فقال عليه السلام: له: إن ابن آدم خلق أجوف لا بد له من الطعام والشراب، أهم أشد شغلاً أم هم في النار فقد استغاثوا ﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ [الكهف: ٢٩].

وفيه عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن أهل النار لما غلى الزقوم والضريع في بطونهم كغلي الحميم سألوا الشراب فأتوا بشراب غساق وصيد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ وحميم يغلي به جهنم منذ خلقت كالمهل يشوي الوجوه بشس الشراب وساءت مرتفقاً.



لهم، ولأن سرادق النار يضطرهم لشرب أيًّا كان ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامٌ الْأَثِيرِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلَى الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ (١) ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (٢) ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ (٣)!

﴿يَسْكُ الشَّرَابُ﴾ ماءه كالمهل ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكئاً يعتمد عليه بالمرفق، كما المرفقة هي المخدة، وكما ﴿مَأْوَتْهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْمِهَادُ﴾ (٤) هذا مرتفق النار ثم أهل الجنة ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وأين مرتفق من مرتفق؟!

شراب كالمهل «كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه» (٥) مشوياً، حرقاً من حرارته وحرقاً من ثخونته، أو فضة مذابة وهي أحر وأحرى أن تشوي الوجوه (٦)!

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ :

﴿أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ لا فقط إيماناً، وإنما عمل الإيمان، حيث ينبثق العمل

(١) سورة الدخان، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٥.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩٧.

(٥) الدر المنثور ٤: ٢٢٠ - أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَمَاءٌ كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] قال: كعكر الزيت وفي تفسير القمي قال أبو عبد الله ﷺ: المهمل الذي يبقى في أصل الزيت المغلي.

(٦) فلعل التشبيه بعكر الزيت لأنه المشهود لهم دون الفضة المذابة، ووجه التشبيه هو الثخونة بحرارة وإن كانت أكثر من الدردي بكثير، بل ومن الفضة المذابة أيضاً. وفي الدر المنثور ٤: ٢٢١ أخرج جماعة عن ابن مسعود أنه سئل عن المهمل فدعا بذهب وفضة فأذابه فلما ذاب قال: هذا أشبه شيء بالمهمل الذي هو شراب أهل النار.

من الإيمان، لا إيماناً دون عمل، ولا عملاً دون إيمان، وإحسان العمل هو أن يعمل الصالحات: التي تصلح انبثاقاً من الإيمان، وتصلح لساحة الربوبية قولاً بعمل، وقولاً وعملاً بنية، وقولاً وعملاً ونية بإصابة السنة!

لا ضياع هناك في حساب الله لا إيماناً: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(١)</sup> ولا عملاً ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولا إحساناً أياً كان في عمل أم إيمان ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

لا تجد في سائر القرآن إيماناً صالحاً إلا قرناً بعمل صالح، كلما ازداد الإيمان ازداد عملاً صالحاً، وكلما ازداد صالح العمل ازداد إيماناً، جناحان متناصران في تحليق الإنسان أجواءً صافية ضافية تصلح لطائره كدحاً إلى ربه فملاقيه!

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ بساتين تجنّ أشجارها أرضها، تجري من تحتهم الأنهار» تحت الأرضية أم سطح الأرضية، فهما تحت الأشجار التي جنتهما بأرضها ﴿يُحَلُّونَ فِيهَا﴾ حلية الرجولة للرجال، وحلية الأنوثة للنساء «من أساور»<sup>(٣)</sup> جمع سوار: حلية المعصم، أم: دستواره الفارسية «من ذهب» فمهما كانت هي محرمة يوم الدنيا للرجال ولكنها حلية محللة يوم الأخرى، إلا المحرمات الذاتية التي تخرج العبد عن طور العبودية وتمس من كرامة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

(٣) الدر المنثور ٤: ١١ - أخرج ابن مردويه عن سعد عن النبي ﷺ قال: لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدت أساوره لطمس ضوءه ضوء الشمس كما يطمس ضوء النجوم أقول يعني شمس الآخرة ونجومها فلا يرد عليه أنها مكورة أو مطموسة وفيه أخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في البعث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لو أن أدنى أهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً.

الربوبية ﴿وَلْيَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ﴾: مارق من ديباج و«إستبرق»: ما غلظ منه وقد حلت لهم بعدما حرمت (١) ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: السرائر الأريكة (٢) ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ خلاف ما للظالمين في النار ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وأين مرتفق من مرتفق!

في مرتفق الجنة تنعم حلوة قير، وفي مرتفق النار تهكم مرير: لأولاء نار معتدة مؤصدة في عمد ممددة، ولهؤلاء حلية من أساور وثياب خضر من سندس وإستبرق، أولاء يستغيثون من ظمأ النار وحريقه فيغاثون بما يزيدهم ظمأً وحريقاً ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ فكيف بالحلوق والبطون، وهؤلاء لهم بهجة المنظر واعتدال النسيم ولهم فيها ما يشتهون نزلاً من غفور رحيم!



(١) المصدر أخرج النسائي والحاكم عن عقبه بن عامر أن رسول الله ﷺ كان يمنع أهل الحلية والحريير ويقول: إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا وفيه أخرج الطيالسي والبخاري في تاريخه والنسائي والبخاري وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عمر وقال: قال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلقاً تخلق أم نسجاً تنسج؟ قال: بل يشقق عنها ثمر الجنة.

(٢) المصدر أخرج البيهقي في البعث عن ابن عباس قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان سريراً بغير حجلة لم يكن إريكة وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة فإذا اجتمعا كانت أريكة، وفيه عن الحسن قال: لم تكن ندرى ما الأرائك حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن، فأخبر أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير وأخرجه مثله عن قتادة وعكرمة.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ  
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَطْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا  
وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُمْ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا  
أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ  
مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ  
إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِمَّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ  
أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا  
هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا  
شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّيًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى  
رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِمَّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِمَّنَ السَّمَاءِ فَنُصِصَ  
صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصِصَ مَآؤَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا ﴿٤١﴾  
وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِحْ يَقْلِبُ كَفْتِهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا  
وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِتْنَةً يَبْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ  
اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا  
﴿٤٤﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ  
نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا  
﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ  
رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلُهَُا وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾﴾:

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ﴾ لقبيل الإيمان والكفر، أهل الجنة والنار ﴿مَثَلًا﴾ يمثل حالتهم وحوارهم وجوارهم، مبدأهم ومنتهاهم، كنموذجين في مسرح الحياة لطغوى النفس وتقواها، نفس فقيرة مفتقرة إلى الله، ونفس ثرية مستغنية عن الله، هذه تذهله الثروة وتبطره النعمة فينسى نفسه وينسى الله، وتلك مؤمنة معتزة بإيمانه ذاكرة لربه راضية بقضائه، ماضية في قضائه، حيث يذكر الله ويذكر نفسه أنه عبد مفتقر إلى الله!

والقرآن يقص القصص الحق من حاق التأريخ وحقه قصصاً صالحاً عما سبق، وتذكيراً بها صالحاً فيما يلحق، دونما اختلاف لقصص لا أثر عنها في التأريخ، أم تاريخية لا تأثير لها تربوياً في إبناء التأريخ.

وها هي قصة الجنتين، لهما ميزات أربع تجعل لهما جمالاً راقياً وثماراً رابياً:

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ﴾ كأنها جمع يلمح بمختلف الأعناب، فلولا هذه اللمحة لكانت «من عنب» جنساً، لا جمعاً: ﴿أَعْنَبٍ﴾.

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ حفاظاً على الأعناب، وتجميلاً للجنتين، وردفاً لما يشمر كثمرها، غذاءً وإداماً وشراباً، وعللّ النخل كأعناب تعني مختلف النخل حيث تأتي مفردة: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْفَعِرٍ﴾<sup>(١)</sup> وجمعاً: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾<sup>(٢)</sup> إذا ففيهما ألوان النخل والأعناب، حافة ومحفوظاً بها.

٣ - ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ يزيدها ثمرأً وجمالاً فوق جمال وثمر، وعلّه

(١) سورة القمر، الآية: ٢٠.

(٢) سورة ق، الآية: ١٠.

مختلف الثمر كمختلف النخل والأعنان، فإن يكن واحداً جيء بصيغته،  
حنطة أو شعير أماذا؟.

٤ - ﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ خلافاً بينهما يفصلهما عن بعض، وخلافاً في  
كل منهما سواقي تجري من تحتها، كما تجري من تحت الجنة أنهاراً!  
جنتان مثمرتان من مختلف الكروم، محفوفتان بسياج من مختلف  
النخيل، بينهما زروع، ونهر متفجر، ويا له من منظر بهيج وحيوية دافقة  
وجمال رائع ومال جامع!:

﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّةِ إِنَّا أَنْتَ أَكُلَهَا﴾ من أعنان ونخل وزرع عدلاً.

﴿وَلَمْ تَطْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ لم تنقص من أكله شيئاً، حيث الظلم هو الانتقاص  
أي كان ومن أي كان، جماداً أو نباتاً أو حيواناً أو إنساناً، مهما اختلفت إرادة  
وشعوراً أم دونهما، اختياراً أو اضطراراً، أم بينهما كما النحل حيث تنحل بيتاً  
وعسلاً غريزياً دون اختيار تام أو اضطرار!

ولكنما الجنة دون النحل اثمارة وتركاً، والظلم في الأصل من الأفعال  
الاختيارية القبيحة، ولا تُقبح الجنة في انتقاص الثمر أم تركه، وإنما حسن  
التعبير عن هذا المعنى اللاتخاذ والاختيار بالظلم حيث كان ثمر الجنة  
البستان كالمستحق لمالكها، الساعي لها، المتعب فيها، فإذا أخذ حقه منها  
على كماله وتمامه حسن القول: إنها ﴿وَلَمْ تَطْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ حيث لم تمنع منه  
مستحقه، فتكون كالظالم إذا انتقصت من ثمرها، ولأن الظلم أصله  
الانتقاص اختيارياً أم دونه قبيحاً أم سواه حسب اختلاف الفواعل شعوراً  
وسواه في درجاته، تكليفاً وسواه في درجاته، فهو إذاً حقيقة أم استعارة  
لطيفة جميلة!

﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ ما يزدادها بهاءً وثمراتاً وارتياحاً!.

ومما يزيده جمالاً مقابلة اللأظلم من الجنة بالظلم من صاحب الجنة

حيث ازدهى ولم يشكر وبطر فاستكبر، وقد امتلى نفسه بالجنيتين وازدهى النظر إليهما، إحساساً بالزَّهْوِ، وتنفساً كالديك، واختيالاً كالطاووس، تعالياً على صاحبه وهو يجاوره ويحاوره: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أماذا من كلام فاضٍ أجوف أخوف.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤):

﴿وَكَانَ لَهُ﴾: لما جعلناه له من جنيتين - لصاحب الجنيتين - لا كُـل الجنيتين - أو للنَّهْرِ ﴿ثَمْرٌ﴾ وكلها معنية - وعلّ تنوين التنكير هنا تلويح لكثرة الثمر عدة وعُدة ومُدَّة أماذا من ثمر - وقد تلمح «كان» بسابق الثمر زمناً متداولاً، أم وعلى أقل تقدير بوجود الثمر حينه كما ﴿ءَأَنْتَ أَكْثَرُ﴾.

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ الذي يصاحبه ملكاً أو شغلاً أماذا من صحبة وتعارف ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ حول شؤون الحياة ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا﴾ حيث ﴿لَهُ ثَمْرٌ﴾ ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ من ولد وخدم وأعوان مناصرين لأن لي مالاً وثمرًا!

وفي الحق لقد ألهاه التكاثر في حوارهِ هذا، وتفخيماً لجانبهِ وتذليلاً لصاحبه، وتغافلاً عن ربه، ظلماً مثلثاً يرجع إلى نفسه فنكراناً للنشأة الأخرى!:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥) ﴿وَمَا أَظُنُّ

السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦):

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ وكيف دخل؟ وكيف هي جنته وهي جنة الله حيث

أعطاه إياه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾؟

إنه دخل على رعونة وكبرياء، وطنطنة وخيلاء، متحسباً أنها منه وله دون

الله، وكما قاله أخوه قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (١) وتلك الجنة أم أي

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.

مال ومنال لأي كان وأيان هي من الله ابتلاءً، امتحاناً أو امتهاناً، فكم من كادح كثيراً لا يفيدُه إلا قليلاً، وكم من كادح قليلاً أو مرتاح يستفيد كثيراً!.  
فهي - إذاً - جنته إذ جعله الله مستخلفاً له فيها ردحاً باختيار، وهي جنة الله لأنها من الله فلا قوة إلا بالله.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ انتقاصاً لها تناسياً عن فطرته وفكرته وعقليته تجاه ربه وهو معترف به: ﴿وَلَمَّا رُذِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ تأبيداً لجنته وهي بائدة فانية بعد ردح قل أو كثر ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وماذا يعني هذا الأحمق النكد البطر من أبد جنته؟ هل البقاء دون فناء! بقوته أم قوة الله؟ والدنيا بحذافيرها دار فناء! أم البقاء ما هو باق، وماذا الذي يضمن له ذلك البقاء، وكم من ثراء أثرى أصبحت فناء! أم ماذا، مما يشهد على آية حال أنه ﴿ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ في قوله الخواء البتراء!.

ومن خلفيات هذا الأبد نكران الساعة: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ترى وما هي الرباط بين الأبد لهذه الجنة ونكران دار الأبد، إن هي إلا جنة الثراء من ثمره وجنته، ف ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ في جنونه المعمد المختار، تسامحاً عن عقله.

وجنة ثالثة من جنته ﴿وَلَمَّا رُذِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ كاحتمال أخير على بعده فما يضرني إذاً حيث ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ تخيلاً بخيلائه وكبريائه أنه يملك جنة الساعة بأحرى من جنة هذه الساعة! وما هي الرباط بين الجنتين حيث يجعلهما في ظنه لزام بعض؟

هذه ظنة الجاهلين من أثرياء وفقراء أن من أوتي الحياة الدنيا فهو في الآخرة أحرى ممن لم يؤتها، ويكأن الله يجازي ذوي الأنفة والكبرياء والثراء بما طغوا وبغوا، يجازيهم في الأخرى ثواباً بدل العقاب، فما أظلمه إذاً من إله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup>!

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.



يظنها الأثرياء بجنة الغرور والكبرياء، والفقراء لظنهم أن الثراء ثواب من الله وعطاء، إذا فلتكن الطغوى بديل التقوى يُستحق بها ثواب الآخرة بعد الأولى!.

﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ وكيف وبماذا؟ ألا أنكم تملكون الأخرى كما ملكتم الأولى ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (١) ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٢).

أم لأن الله يخافكم فيفضلكم فيها كما فضلكم - بحسابانكم - في الدنيا - وهو يُخاف منه ولا يخاف!

أم لأنه يُخلف وعده جهلاً أم ظلماً أو عجزاً أم ماذا؟ وما ذلك إلا جهالة وجنة ممن أترفته الحياة الدنيا، تنفخاً منها وتنفجاً فيها!

هذه مقالة وحالة صاحب الجنة هنا، وأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر، ولكنه غني بالله، فقير المال غني الحال، إنه يواجه صاحبه الفقير الحال، غني المال، كواعظ منبه، تنديداً به في حوار، وتهديداً له في بداره:

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ (٣) وَهُوَ يُجَاوِرُهُ: أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا (٣٧) لَنِكَتًا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨)﴾:

(١) سورة النجم، الآية: ٢٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٠.

(٣) قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ [الكهف: ٣٧] - ومن قبل - فقال لصاحبه، حيث يعبر عن كل من الموحد والمشارك أنه صاحب للآخر يدلنا على أن لفظة الصحبة والصحابة ليست لتدل على الصحبة الإيمانية أو الشركية، وإلا لأصبح هنا المؤمن مشركاً والمشارك مؤمناً، فاستدلال إخواننا بآية الغار ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠] أن أبا بكر لكونه صاحب الرسول في الغار وليس غيره في نص القرآن فهو الصحابي المؤمن الوحيد لرسول الله إنه مخدوش بآيتي الكهف، فالثابت من الصحبة ليس إلا صحبته في الغار وأما الصحبة الإيمانية فلا تثبتها كما قد لا تنفيها اللهم إلا قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ﴾ =

هل أنت كافر بمثلث: ﴿خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾؟ وأنت مقرر أنه ربك ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾! .

الصاحب المؤمن الفقير لا يهاب في حوارهِ صاحبه الكافر النكير، فلا يبالي مالاً ولا نفراً، ولا يداري ثراءً ولا بطراً، ولا يماري إلا مرأى ظاهراً وجدالاً بالتي هي أحسن بصامد الإيمان وخالص اليقين والاطمئنان، بتنديد شديد وتبديد حديد هدم صرح كفره، تزييفاً لموقفه الكافر وتثبيتاً لموقفه المؤمن: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ لا سواه من آلهة مختلفة مختلفة، هو ربي في حلي وترحالي، في كافة أحوالي، تتمثل ربوبيته الوحيدة فيّ على أية حال، دون أن أوحدّه في لفظة القول ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ ثم أشرك به في الفعل: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجْدَنَ خَيْرًا ﴿٣٦﴾﴾ كأنه رب لربه يملكه، دون أن يملكه ربه . . لكننا . .

﴿لَكِنَّا . . . وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ في أي مقال أو حال، في ماضٍ أو مستقبل أو حال!

أترى ﴿لَكِنَّا﴾ هي لكننا مخففة يعني بها قبيلة الإيمان؟ وقد يصح لفظياً ومعنوياً ثم يبعده ﴿رَبِّي﴾! أم هي مدغمة «لكن أنا» وهو أقرب، إعرافاً عن الإنية والأنانية المشتركة لمحاورة الكافر وتعريفاً بكيانه كمؤمن، ف﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ بيان واف لكيانه «أنا» وأين «أنا» من كافر و«أنا» من مؤمن؟! .

الكافر يجعل «أنا» محوراً رئيسياً وحتى لربه وكما قال ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ كأنه يملك ربه، والمؤمن يجعل «أنا» لا شيء إلا ما رباه ربه «لكن أنا»: ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾!

= [التوبة: ٤٠] حيث اختص سكينته بالرسول ﷺ دونه وهو بحاجة حين يحزن إلى السكينة وقد ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦] و(٤٨ : ٢٦)! راجع تفسير سورة الفتح

من الفرقان ج : ٢٦ .

هنالك ثالث من «أنا» أنحسه دعوى الألوهية من غير الله ﴿أَنَا رَبُّكُمْ  
 الْأَعْلَى﴾<sup>(١)</sup> ثم دعوى الوحدة الحقيقية مع الله «أنا هو وهو أنا» ثم أنا المحور والله  
 الحائر حول هذا المحور، ثالث الانحراف والانجراف إلى الإنية والأنانية.  
 وصالحه «أنا هو الله ربي» حيث ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هو الأصل الأصيل  
 ولا خبر عني «أنا» إلا ما هباني ربي، فأنا صفر الوجود وهو صرف الوجود،  
 أنا مبتدئ هو مُبتدئ وخبره ومبتدئه ومنتهاه ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ وما أحلاه  
 توحيداً<sup>(٢)</sup>.

أترى أن صاحبه كان مشركاً ناكراً للمعاد لمكان الطنّة الكافرة ذات أبعاد  
 ١ - ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ تأبيداً للحياة الدنيا ٢ - ﴿وَمَا أَظُنُّ أَلْسَاعَةَ  
 قَائِمَةً﴾ ترديداً في الحياة الآخرة ٣ - وتنديداً بوعد الله للمؤمنين ووعيده  
 لغير المؤمنين: ﴿وَلَيْنَ رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي...﴾!

أم إنه لم يكن مشركاً وثنياً يعبد أصناماً، حيث المشركون ينكرون المعاد  
 وهو متردد ﴿مَا أَظُنُّ...﴾ ﴿وَلَيْنَ رُدِّدْتُ﴾ ولهم أرباب متعددون وهو يقول:  
 ﴿رَبِّي...﴾ وهم بعاد عن ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إلا أن يؤمنوا، وقد  
 رجاه صاحبه أن يقوله!

فهو إذاً أشرك بربه بزهوة الثراء والخيلاء كما هو للأغنياء الأغنياء ذوي  
 الأنفة والكبرياء، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ في تمنيه بعد الحسبان تنديد بنفسه  
 أن حسب قوته وجنته تكفيان بقاء بإدراار واستمرار لثمره من دون الله، وهذه  
 حالة شريكية تتمثل لكل من جنته الثراء وإن كان من الموحددين في قوله  
 الخواء. ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٢٢ - أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب «الله الله ربي لا أشرك به شيئاً».

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ...﴾ :

«لولا . . قلت : ما شاء الله كائن لا ما شئتة أنا ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ دونني أنا، فأنا إنما أمشي وأمضي على هامش مشيئة الله، دونما استقلال في نفسي ولا استقلال لمشيئة الله، و﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ تعم المشيئة التشريعية والتكوينية سواء، لا شريك له فيهما سواء، فلا شرعة صالحة إلا من الله، ولا تكوين أيًّا كان إلا من الله، من خير ف «الخير كله بيديه» ومن شر ف «الشر ليس إليه» لأن تكوينه - أيًّا كان - ينتهي إلى إذنه، فلولا إذنه أخيراً بعد اختيار المختار لم يحصل إذ «لا مؤثر في الوجود إلا الله»: فإنه «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين».

ليست الاختيارية في فعل إلا بمقدمة أو مقدمات اختيارية، لا إنه بمقدماته كلها اختيارية، مهما اختلفت الأفعال الاختيارية ثواباً وعقاباً بقلة أو كثرة في مقدماتها الاختيارية والاضطرارية، فما يشاءه الله من شر أنت تفعله باختيارك لا يصبح اضطرارياً لأنه شاءه، إذ ما شاءه إلا بعدما شئتة ولكي لا تجبر على ترك الشر كما ولا تجبر على فعله وفعل الخير أو تركه، مهما يمتاز الخير بتوفيق من الله، وليس الله بموفق شريراً في شره:

ف ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ كلمة جامعة تجمع عالمي التكوين والتشريع، إذ ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فإن كل قواك من الله، وهي لا تكفي حولاً عن معصية الله وقوة في طاعة الله إلا بالله، فهما بُعدان متناصران في قوة بالله، ثم ولا تكفي فعلاً لمعصية الله وتركاً في طاعة الله إلا وأخيراً بقوة الله، فبقوته أعطاك امتحاناً ما تشاء التخلف عنه، ثم بقوة منه أخرى يشاء ما تشاء مما لا يرضاه تشريعاً، فهو تكوين في امتحان يخالف تشريعاً، ليس لأنه مغلوب في عصيانه، بل تحقيقاً لواقع الاختيار الامتحان.

وقد يعني ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله»<sup>(١)</sup> حيث القوة في ترك المعصية حولاً عن معصية الله، والقوة على الطاعة قوة بالله، فـ «لا حول عن معصية الله إلا بقوة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله»<sup>(٢)</sup>.

وإنها باب من أبواب الجنة<sup>(٣)</sup> وكنز من كنوز الجنة<sup>(٤)</sup> ودافعة كل آفة حتى تأتي المنيعة<sup>(٥)</sup> ومبقية لكل عطية إلهية<sup>(٦)</sup> وترجر الشياطين بها الملائكة<sup>(٧)</sup>

(١) المصدر - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: ألا أدلك على باب من أبواب الجنة؟ قال: ما هو؟ قال ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله»:

(٢ - ١) المصدر - أخرج ابن مردويه والخطيب والديلمي من طرق عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: أخبرني جبرئيل أن تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله أنه . . .

وفي معناه ما رواه في كتاب التوحيد عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: سألته عن معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله» فقال: معناه: لا حول لنا عن معصية الله إلا بعون الله ولا قوة لنا على طاعة الله إلا بتوفيق الله ﷻ .

(٣ - ٤) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ وأخرج نصه أو ما في معناه جماعة آخرون.

(٥) المصدر أخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته وقرأ ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

(٦) المصدر أخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «من أنعم الله عليه نعمة فأراد بقاءها فليكثر من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أقول: وقد فسره الرسول ﷺ بإضافة الحول كما قدمناه وهنا وقبله يستدل لها بالآية وليس فيها «حول».

(٧) نور الثقلين ٣: ٢٦١ ج ٨٥ في محاسن البرقي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قال لي: إذا خرجت من منزلك في سفر أو حضر فقل: بسم الله آمنت بالله توكلت على الله، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله، فتلقاه الشياطين فتضرب الملائكة وجوها وتقول: ما سبيلكم عليه وقد سمى الله وآمن به وتوكل على الله وقال «ما شاء الله ولا قوة إلا بالله»؟! .

ودواء من كل بلية<sup>(١)</sup> مهما كانت حرقاً أو غرقاً<sup>(٢)</sup> أم آية بلية! ف ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ و ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾<sup>(٣)</sup> :

فليقل الموحد ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وليفعل ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾ . . .  
وليعتقد ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾ ! فيصبح بكيانه ككل ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾ لا في لفظة القول دون فعل واعتقاد أم وفي أي منهما أم فيهما دون لفظة القول .

أنت وكل فاعل مختار إنما تعمل بقوة الله، منك المشية والاختيار وتقديم ما عندك من طاقات وإمكانات، ومن الله التوفيق بإزالة الموانع وتهيئة ما لا تسطع من الأسباب ف «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين»!

﴿... إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِيعَ صَعِيدًا زَلْقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصِيعَ مَآوُهَا غَوْرًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لِمُ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ :

لك جنة قد يرسل عليها ربي حسباناً<sup>(٤)</sup> من السماء خلاف حسبانك فيها: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾! ولي جنة خير من جنتك هي لا تبید أبداً ولا يرسل ربي عليها حسباناً من السماء إلا رحمة متواصلة ورضواناً، فأين جنة من جنة، وأين عقلية إيمان وجنة؟:

(١) الدر المشثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولا حول ولا قوة بالله» دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٦٠ ج ٨٤ في تهذيب الأحكام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أربع لأربع - إلى قوله: والثالثة للحرق والغرق: ما شاء الله ولا قوة إلا بالله وذلك أنه يقول: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] - قول - وقد أحرقت جنته بحسبان من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٤) الحسبان هو الحساب وهو هنا ما يحاسب عليه فيجازى وهو الظن، فالحسبان الأول في المتن هو الثاني والثاني، هو الثالث، فقد يكون عذاباً بحسبان أو رحمة بحسبان فليس الحسبان إذاً - فقط - حسبان العذاب.

و«عسى» هنا ترجح دون تردد تأدباً أمام وعد الله الحق، علّه يؤهل له! أنا هنا أقل منك مالاً وولداً وهنالك في يوم الله أكثر بل ليس لك هنالك إلا حسابان بدل الجنة والرضوان، وأنت هنا أكثر مني مالاً وولداً قد يرسل عليها حسابان كما لك هنالك حسابان، وأين حسابان من رضوان.

جنتك قد تصبح بكفرانك صعيداً زلقاً: لا ماء فيها ولا كلاء ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا﴾!

فقد تصطدم الجنة ببرودة أم حرارة زائدة فتبيس ثم تجبر حيث تعمّر، ولكنما الحسابان من السماء يجعلها غير قابلة للزرع والإنباء - إذ ﴿فَنُصِّحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾: دحضاً لا نبات فيه.

أم قد يقل الماء المتفجر أم يُسد بسدات تحت الأرضية فيرجع بالتنقية، ولكنما الغور إبعاد له أو إفناء ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا﴾!

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢):

لقد حصل فعلاً ما أنذره صاحبه حيث ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بما أحاط الله ثمره بحسبان من السماء أماذا، فاستأصل ثمره ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ وقد تكون هذه الإحاطة السماوية من كل الجوانب كالبحرية: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ...﴾ (١) والإصابة المحيطة هي التي لا منفذ عنها ولا مخلص منها: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾: ثمر مدمر من كل جانب وكأنه لم يكن له ثمر، حيث لم يبق له أثر إلا ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ و﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ كناية عن الإنفاق النادم حيث تهدر دون أي ثمر ﴿وَهِيَ﴾ الجنة ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ مهشمة محطمة تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا «وهو يقلب كفيه» أسفاً على ماله الضائع بحاله

(١) سورة يونس، الآية: ٢٢.

الضائعة ﴿وَيَقُولُ يَا بَنِيَّ لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾ ولات حين مناص وفرار عما قدمه ، ومن ورائه جهنم وبئس القرار! ترى ولماذا أصبحت الجنتان في سرد القصة كأنهما جنة واحدة: آتت - أكلها - لم تظلم - جنته - هذه - منها - جنتك - من جنتك - عليها - فتصبح - ماءها - فيها - عروشها -؟

علهما لأنهما أصبحتا كجنة واحدة لمكان زرع بينهما كما فيهما مهما فصل بينهما جدارٌ من نخل، فدخوله في قسمٍ منها دخول فيهما، أو أنه دخلهما .

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتَّةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ :

ورغم نفره من ولد وسواهم ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتَّةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حيث أحاط الله وقد كان يعتز بمال ونفر ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ وبمن ينتصر؟ بمن لا ينصرونه أو ينصرونه؟ أمن الله؟ ولا قوة إلا بالله! أو من حسابان السماء؟ وليس إلا أمر الله! ف ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ لا لسواه إلا باطلاً .

وماذا تعني ﴿هُنَالِكَ﴾ حيث تخص بها الولاية لله؟ وكيف يوصف الله بالحق ولا إله إلا الله الحق؟ ثم ثوابه وعقبه خيرٌ من أيِّ كان ولا خير إلا منه؟

فهل ﴿هُنَالِكَ﴾ تشير إلى مكانة الحيطة الإلهية بعذاب ألا ناصر فيها إلا الله حيث تعني الولاية النصره، فمهما كانت الإصابة من غير الله تُدفع بغير الله، فالإصابة الخاصة من الله لا دافع عنها إلا الله الحق، دون الآلهة الباطلة التي يتخذونها آلهة دونه، فحين تتقطع الأسباب وتحار دون الحيطة الغيبية الأبواب، تصرخ الفطرة أن لا إله إلا الله، و ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ دون سواه!

ولكنه على صحته في نفسه لا يناسب ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ حيث الموقف هنالك هو العقاب وليس الثواب!



أم إن ﴿هُنَالِكَ﴾ البعيد هي الحياة البعيدة الأخرى، فالولاية النصره والمالكية للتدبير هي ﴿لِلَّهِ الْحَقُّ﴾ دون الآلهة الباطلة ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ من سواه لو كان لهم ثواب ولا ثواب لسواه ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ عاقبة من سواه لو كان لهم عُقب ولا عقب لسواه، أو إن ﴿خَيْرٌ﴾ مقابل الشر فليس هنا تفضيلاً، فليس الخير ثواباً وعقباً إلا له، ولمن سواه الشر ثواباً وعقباً!

وهذا على حقه في نفسه، وبالنسبة لثوابه وعقبه قد لا يناسب الحيطة المدمرة الإلهية، اللهم إلا وهو أشد تنكيلاً وعقباً!

أم إن ﴿هُنَالِكَ﴾ يجمع بين الموقف يوم الجمع ويوم الدنيا حين يحاط بالإنسان فيجمع بين المناسبتين، فإذا كانت ولاية النصره والتدبير لله الحق دون آلهة الباطل، ففروا - إذاً - إلى الله الحق، فهل تريدون من الآلهة إلا ثواباً وعقباً فهو ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾!

إن الولايات الهامشية الاختيارية لمن سوى الله ليست إلا من قبل الله كما ولّى استخلاقاً دون تخويل، فلا تركنوا إليها اللهم إلا إلى حقها<sup>(١)</sup> دون باطلها، تذرعاً إلى تحقيق أمر الله، والزلفى إلى ولاية الله، ولتكونوا على نُبهة دائبة ألا ولي إلا الله، ولا ثواب ولا عُقب إلا من الله، ففي ظل ولاية الله تتوارى الولايات كلها، و﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾!

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنِدًا﴾ (٤٥):

(١) ومن حق الولايات الهامشية ولاية الرسول ﷺ وفي ظلها ولاية علي عليه السلام والأئمة المعصومين من ولده، وقد تبرز ولاية علي عليه السلام تأويلاً لـ ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤] كمصدق مختلف فيها في الولايات تحت ظل الولاية المحمدية كما رواه في الكافي بإسناده عن علي بن حسان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قوله ﷺ: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤] قال: ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ورواه مثله عن عبد الله عبد الرحمن بن كثير عنه عليه السلام.

هنا مثل للحياة الدنيا يأتي في يونس أكثر تفصيلاً: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرَكَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدْ إِزِرُونَهَا عَلَيْهَا أَمْثَلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

ألا إن الدنيا «كروضة اعتمت مرعاها وأعجبت من يراها، عذب شربها، تمج عروقها الثرى وينظف فروعها الندى، حتى إذا بلغ العشب أبانه واستوى بنانه، هاجب ريح تحت العروق، وتفرق ما اتسق، فأصبحت كما قال الله ﴿ هَشِيمًا نَّذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا ﴾ (٢) فهي إذا «لا تعدو إذ تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ... ﴾ (٣).

أترى ﴿ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ هنا هي الرديئة الدنيئة؟ و﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾؟ قد لا يناسبها، فإنه رحمة من سماء الرحمة اختلط بها نبات الأرض!

أم هي أدنى الحياة العقلية إلينا وأقربها، من ورائها الحياة البرزخية والأخرى وهما العليا؟ ويناسبها ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ولكننا العاقبة ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا... ﴾ قد لا تناسبها! -

أم هي الدنيا بمعنيها حيث يناسبان موضعها «ماء وهشيماً»؟ وهذا أنسب وأحرى!

فكما الماء النازل من السماء طاهر في نفسه، عالٍ في مكانه ومكانته، وحين ينزل يختلط به نبات الأرض لينبت، فلولا الماء فلا نبات ولا كلاء،

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٦٢ ح ٩٢ في روضة الكافي بإسناده عن علي بن الحسين عليه السلام حديث طويل في الزهد في الدنيا وفيه يقول عليه السلام: «فهي كروضة...».

(٣) عن نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

كما لولا بذور النبات لم يفد الماء، ومن ثم نبات الأرض الظاهر الزاهر بزخرفاته يصبح هشيماً تذروه الرياح، حيث تنتهي شريط الحياة للنبات.

كذلك الروح الإنساني الطاهر ينزل من سماء المشيئة الإلهية إلى أرض البدن ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾<sup>(١)</sup> وأرض الأرض: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾<sup>(٢)</sup> فاختلط به نبات الأرضين زينة وزخرفة، ثم يصبح البدن ومن ثم أرض البدن بنباته هشيماً تذروه الرياح! والهشيم: الكسير الرخو، والذرو: التفريق، فالرياح تفرق كسير النبات ورخوها كأن لم تكن شيئاً!

مشهد للحياة الدنيا، خاطف قصير يلقي في النفس لها ظل الفناء في مثلث نزول ماء السماء وخلطه وهشيمه، فلا بقاء إذاً لدنياها، والباقي هو ماء السماء، روح الإنسان بعد تهشم البدن بدنياه، فليتزود نازل السماء من منزل الأرض زاداً لأخراه.

ألهذه الخليطة الهشيمة، الحطيمة اليتيمة الزهيدة، القصيرة الوهيدة، لهذه تتنافس، فتتقاعس عن واجب الحياة، عن أخراها إلى أولها، لحدّ تظن ألا تبيد هذه أبداً؟!

حتى متى الغفلة والغفوة عن حق الحياة وحقها، إلى باطلها وزائلها ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ

أَمَلًا﴾<sup>(٤)</sup>:

أترى أن زينة الحياة الدنيا محرمة على أهلها؟ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي

(١) سورة السجدة، الآية: ٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الروم، الآية: ٧.

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ... قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ... ﴿١﴾!

فمن هذه الزينة باقيات صالحات هي خير عند ربك ثواباً وخير أملاً، ومنها زائلات طالحات لا خير فيها ولا ثواب إلا شرٌّ وتباب!

الأعمال كلها باقيات أقوالاً وأفعالاً ونيات، من صالحات وطالحات باغيات، فالصالحات خير عند ربك ثواباً كما الطالحات شرٌّ لا تخلف إلا عقاباً، والصالحات خيرٌ أملاً يأملها فاعلها في الدارين، والталحات شرٌّ أملاً في الدارين: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٢) وإذا كان الإنسان يتعلق بالمال والأولاد ثواباً وأملاً ومرداً، فالباقيات الصالحات منهما وسواهما خير ثواباً وخير أملاً وخير مرداً!

وزينة المال والأولاد قد تكون باقية صالححة لحد توخذ في كل مسجد ﴿يَبْنِيْ ءَادَمَ خُذُوْا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (٣) حيث تشمل المال إنفاقاً له في كل مسجد والأولاد تعبداً كأمثالكم في كل مسجد، فيصحبان على زينتهما من الباقيات الصالحات، فزينة المال والأولاد كسائر الزينة في الحياة الدنيا هي زينة الله حيث زينها الله وجعلها وسيلة للحياة الأخرى، ولكنما الشيطان يزينها زينة أخرى أنها دائبة تُرغَب في نفسها فتزلُّ فيها قدم بعد ثبوتها، أو تضل حين ورودها لمن أبصر إليها فأعمته ولم يبصر بها فبصرته: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ (٤) ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

مِنَ السَّكَّاءِ وَالْبَيْنِ وَالْقَنْطَرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ  
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ (١)

فللزينة قيمة ما تزيد في قيمة الإنسان وهي الباقية الصالحة، وليست لها  
قيمة ما تنقص من قيمة الإنسان وتجعله كحيوان، وهي الباقية الطالحة، وما  
أهونها وأحونها زينة تسلب قيمة الإنسان بدل أن تجلب قيمة للإنسان!



(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوبِلْنَا مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذِينَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَبُجْدِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ  
 بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى  
 أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

﴿وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾:

وترى أين وأنى يبرز خير الباقيات الصالحات ثواباً وأملاً ومرداً؟:

﴿وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ...﴾ وهنا يجمع ردفًا بين يومي القيامة إمامة: ﴿نُسِّرُ  
 الْجِبَالَ...﴾ وإحياء: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ...﴾ جمعاً للموتى في الحياة فحساباً  
 وجزاءً وفاقاً!

وبماذا يعطف ﴿وَيَوْمَ﴾ في بروز الباقيات الصالحات والطلحات؟ عله  
 قبله يوم البرزخ فإنه دار جزاء برزخ، وقبله الدنيا حيث يرى فيها الباقيات  
 الصالحات والطلحات بشيء من آثارها، مثلث من الحياة في كل حسبها  
 يرى آثار الصالحات والطلحات، وكما آية السعي تسعى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ  
 إِلَّا مَا سَعَى﴾<sup>(١)</sup> كضابطة عامة تبتدىء من الدنيا ﴿وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى﴾<sup>(٢)</sup>  
 انتقالاً إلى البرزخ ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾<sup>(٣)</sup> إلى الحياة الأخرى، فليست  
 المساعي والصالحات موقوفة في ثوابها وأملها ومردّها في الحياة الأخرى،  
 بل تبرز بدرجات أو دركات في مثلث الحياة.

و﴿نُسِّرُ الْجِبَالَ﴾ هي قيامة الأرض بما فيها وعليها، باقتلاع الجبال عن  
 أصولها وتسييرها سريعة لحد ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ب بروز قواعد الجبال

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة النجم، الآية: ٤٠.

(٣) سورة النجم، الآية: ٤١.

والأتلال، وسراباً: ﴿وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾<sup>(١)</sup> حيث «تذل الشم الشوامخ والصم الرواسخ فيصير صلدها سراباً ررقاقاً ومعهداً قاعاً سملقاً» ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾<sup>(٢)</sup> أرضاً مستوية ملساء دون انخفاض فيها ولا ارتفاع.

﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ في قيامه التعمير بعد قيامه التدمير، ولكل رجفة تناسبه ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾<sup>(٣)</sup> ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾<sup>(٤)</sup> ولعل من بروز الأرض إشراقها بنور ربها حيث تطوى ظلمتها وظلاماتها طياً، كما وأنها تبرز أثقالها المخبوءة فيها ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾<sup>(٥)</sup>.

وإنه الحشر العام والتام دون إبقاء: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ من الأولين والآخرين: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا﴾<sup>(٦)</sup> ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَلْمَعُشَرُ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾<sup>(٧)</sup>.

حشر تبدى فيه الأرض بارزة عارية من أتلال وأشجار وجبال وعن بنايات أمّاذ من حواجز وفواصل بروزها صافية مستوية، فالقوة التي تسيّر الجبال وتصيّرهما كالعهن المنفوش، ماذا ترى تفعل بما دونها من أتلال أم ماذا؟: فللأرض بروز أول رفعاً لحواجزها، وبروز ثانٍ إخراجاً لأثقالها،

(١) سورة النبأ، الآية: ٢٠.

(٢) سورة طه، الآيات: ١٠٥ - ١٠٧.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٦، ٧.

(٤) سورة الزمر، الآيتان: ٦٨، ٦٩.

(٥) سورة الزلزلة، الآية: ٢.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٩٩.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.



وبروز ثالث إشراقاً بنور ربها، ومن ثم جمع على ظاهرها الساهرة ﴿وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾<sup>(١)</sup> والمغادرة هي المشاركة والإخلال بالشيء، فلا متاركة مع أحد ولا إخلال بأحد!

تتكشف الأرض وتتكشف خبايا من يُحشر على الأرض فلا تخفى منها ولا منه خافية:

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾<sup>(٤٨)</sup>:

أترى أنهم لم يكونوا بمعرض ﴿رَبِّكَ﴾ حتى ﴿وَعُرِضُوا﴾ بعد حشرهم، ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾<sup>(٢)</sup> في الدنيا والآخرة، ثم ومن هذا المطلع عليهم قبل ﴿رَبِّكَ﴾ حتى يعرضهم على ربك؟

إن الكون كله بمعرض الله أيًا كان وأيان، ولكنما العرض على ﴿رَبِّكَ﴾ عرض على ربوبية، فهنا عرض أول طول الحياة الدنيا على ربوبية التكليف وهو أمانة الرب على العواتق ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾<sup>(٣)</sup> وهنالك عرض على ربوبيته الجزاء ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ ولا يعرضهم إلا ربك أو من يعرضهم من عماله بإذنه لموقف التساؤل والحساب فالجزاء، دون أن

(١) نور الثقلين ٣: ٢٦٥ ج ١٠٦ في كتاب جعفر بن محمد الدرويستي بإسناده إلى ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] غشي عليه وحمل إلى حجرة أم سلمة فانتظره أصحابه وقت الصلاة فلم يخرج فاجتمع المسلمون فقالوا: ما لنبي الله؟ قالت أم سلمة: إن نبي الله عنكم مشغول، ثم خرج بعد ذلك فرقى المنبر فقال: أيها الناس إنكم تحشرون يوم القيامة كما خلقتم حفاة عراة، ثم قرأ علي أصحابه: ﴿وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]:

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

تخفى منهم خافية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾<sup>(١)</sup> فليس العرض كما الأشهاد لأنه خافٍ عليه خافية ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولأن العرض فيه الهول المطلع، وآياته تخص عرض الظالمين، فهو - إذاً - خاص بغير المؤمنين، وأما هم فوافدون إلى ربهم وفد الكرام إلى الكريم.

﴿وَعَرِضُوا﴾... ﴿صَفًّا﴾ فهم بصفهم في عرضهم يزدادون هولاً، فهنا صف هائل لأهله، حيث لا حكمة فيه إلا هوله، وفي القتال صف هائل للعدو ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُم بَيْنَ مَرَّضٍ﴾<sup>(٣)</sup> وأين صف من صف! ثم الخطاب الهائل لذلك الصف والعرض الهائل: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾... ويكأنه خطاب حاضر، لا مستقبل، تجسيمياً وتحضيراً لموقف الخطاب العتاب!

وترى كيف المجيء بمعرض الرب ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؟ لقد خلقتنا فرادى دون ما حوّلنا ولا شفعاء وكذلك نجيتهم كما خلقنا: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾<sup>(٤)</sup> هذا مجيء ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ومجيء آخر معه ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾<sup>(٦)</sup> فكما خلقناكم فرادى جئتمونا

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٨.

(٢) سورة هود، الآية: ١٨.

(٣) سورة الصف، الآية: ٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

فرادى، وكما خلقناكم من تراب جئتمونا عائدين كبدئكم من تراب، كما خلقناكم أول مرة جئتمونا ثاني مرة:

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾<sup>(١)</sup> زعمتم إحالة موعد العرض والحساب، وحسبتم عبث الخلق وعدم الرجوع والإياب، ولذلك اثاقلتم إلى الأرض ورضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة!:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾<sup>(٢)</sup>:

ذلك الكتاب هو كتاب الأعمال الصوتية والصورية أماذا كما استنسخه الله ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَطُّقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> استنسخاً لنفس العمل كأعمال ف ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ «كأنه فعله تلك الساعة»<sup>(٣)</sup> فلو لم تكن نفس الأعمال وكانت حكاية أخرى غيرها لم يجدوا ما عملوا حاضراً! ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أن يكتب ما لم يعمل من سوء، أو يكتب العامل أزيد من استحقاق جزاء غير وفاق، أم لا يكتب سوءاً أو ينقص من سوء ظلماً على تاركي سوء أماذا؟.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ بمعرض المحشر حيث يراه ويسمعه ويفهمه صاحبه

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٦٦ في تفسير العياشي عن خالد بن نجيج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة رفع الإنسان كتابه ثم قيل له: اقرأه - قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: إنه يذكره، فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم إلا يذكره كأنه فعله تلك الساعة فلذلك قالوا: ﴿يَوَدُّ لَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] وفي نقل آخر وقال عليه السلام: يذكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه كأنه فعله تلك الساعة - ثم استدلل عليه السلام بالآية.

وسواه، وواويلاه من هذا العرض وذلك الوضع، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ وهم يتأملونه ويتملونه فإذا هو جامع لما أجرموا دون إبقاء ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ خائفين على حبه، حباً لأنه منهم، وخوفاً من عقابه الحاضرة، فالإشفاق «من» يزيد خوفه على حبه، والإشفاق «في» يزيد حبه على خوفه، فلأن إشفاقهم خالٍ عن رجاء فخوفه زائد على حبه، بل ولا حب بعد هنيئة يرون جزءاً ما فيه ويتمنون فراقه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَيَقُولُونَ﴾ والهيئ حائرين آسفين ﴿يَوَلِّينَا مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ﴾ ما له من قوة ضابطة حافظة، لهذا الشريط والمسجلة ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ معصية ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾<sup>(٢)</sup> إحصاءً لنفس الصغيرة والكبيرة ورسمها لا اسمها، وكل مسجلة أم شاشة تلفزيونية إنما تحضر ما تلقته إذا سلمت وبقيت على حالتها الأولى حين سجّلت، وهذا الكتاب، المسجلة الأرضية بفضائها، والبدنية بأعضائها أماذا، نراها تودي أمانتها بعدما تمزقت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْفًا يَوْمَئِذٍ تَخْدُتُ أَخْبَارَهَا... بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾<sup>(٣)</sup> ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ بما سجله الله وأحضره ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ...﴾! وليس حضور العمل حضوراً لما يحكي عنه من قولة حاكيه أم كتابه، اللهم إلا حضوره نفسه وقد انقضى أم تجسّمه وهو

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٢٩ - أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء فقال النبي ﷺ: اجمعوا من وجد عوداً فليأت به ومن وجد عظماً أو شيئاً فليأت به، قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاباً فقال النبي ﷺ: أترون هذا فكذلك تجتمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعت هذا فليتب الله رجل لا يذنب صغيرة ولا كبيرة فإنها محصاة عليه.

(٣) سورة الزلزلة، الآيات: ١-٥.

تجسّم! إذ ليس انقلاب العمل - وهو صورة - إلى جسم - على فرض إمكانيةه ليس هو أو صورته، ثم لا مبرر لهكذا قلب للعمل ولا يجدي نفعاً!

إن العمل أياً كان يُستبقى دون عامله بزمانه ومكانه، ويستنسخ منه صور أخرى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ يعني أصل العمل المستمر وزيادة هي ما استنسخ منه في كتب صوتية وصورية أخرى من أرض بفنائها، ولا حضور للعمل معقولاً هو حجة على العامل إلا نفسه، وتزيده ما معه من صور مستنسخة أخرى، إذا فتجسّمه تجسّم وليس به، واللفظ أو الكتاب الحاكيان ليسا نفس العمل، فلا معنى صحيحاً ممكناً هو حجة على العامل إلا حضور العمل، أم حضور صورته التي استنسخها الله ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سواء أكان عمل القلب أو القالب، في مثلث من الصور المعنوية والصوتية والصورية، كذلك الله يفعل ما يشاء، حجة عينية حاضرة، وصورة حاذرة، وحصباً في سيرته، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> مثلث من الأهداف العادلة الكافلة لما يرام من العمل يوم القيامة! ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾!

في ذلك الكتاب مربع من الشهادات، عينية سجلتها الأرض:

١ - والأعضاء، ٢ - وقوليه، ٣ - يشهد بها الشهداء من الأنبياء،  
أمّاذا، ٤ - كتبها الكرام الكاتبون، يعلمون ما تفعلون، علّه قوله أم كتابة التعبير، أم تسجيلة لصور الأعمال وأصوات الأقوال في سجلات الأرض والأعضاء أمّاذا؟

وعلّ هنالك كتباً ودواوين منها ديوان السيئات كما الحسنات والنعمة

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الطور، الآية: ١٦.

على حدّ المروي عن الرسول ﷺ (١) فالكتاب الموضوع جنسه الشامل لها ، يشمل كل كتاب يحصى الأعمال كما يشمل كتاب كلّ من العمّال! :  
وترى هذه الكبيرة تُحصى في كتاب الأعمال فما بال الصغيرة تحصى وهي مكفّرة؟

إن الصغيرة مكفرة إذا تركت للذين آمنوا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (٢) ولكنما الصغيرة التي تعمل مع الكبيرة، أو لغير المؤمنين لا تكفر! ويكفي الكفر كبيرة تحصى معه كل صغيرة وإن لم يأت بكبيرة أخرى!

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٣)

لقد كرمكم ربكم إذا أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأهانكم إبليس إذ فسق عن أمر ربه، ثم أنتم هؤلاء تتخذونه وذريته أولياء وهم لكم عدو، وترفضون ولاية ربكم، فاذكروا فيما تذكرون... ﴿وَإِذْ قُلْنَا...﴾ .

وترى أن إبليس ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ فلم يكن من الملائكة، كيف - إذاً - يشمله ضمن الملائكة الأمر بالسجود لآدم؟

أجل إنه لم يكن من الملائكة - قطعاً - فإنهم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٤) لا يَسْقُوتُهُ بِالْقَوْلِ (٥) ويفعلون ما يؤمرون - «إن الملائكة معصومون محفوظون من الكفر والقبائح بالطفاف الله تعالى» (٤) .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٢٩ - أخرج البزاز عن أنس عن النبي ﷺ قال : يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين ، ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله عليه .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٣١ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) نور الثقلين ٣ : ٢٦٧ ج ١١٧ في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) في هاروت =

إنه ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ وكان مع الملائكة وكانت الملائكة تراه أنه منها، وكان الله يعلم أنه ليس منها فلما أمر بالسجود كان منه ما كان»<sup>(١)</sup> «فاستخرج ما في نفسه بالحمية والغضب»<sup>(٢)</sup>.

نتلمح كتصريحة من عدم اعتراضه على الله: «لم يشملني الأمر إذ لم أكن من الملائكة» وإن الله أمره بخصوصه أم في الملائكة ﴿مَا مَعَكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾<sup>(٣)</sup> إنه شمله الأمر ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ فهو أعقل من أن يتحول إلى قياس باطل بدل البرهان! فقد ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ كوناً، ومن الملائكة كياناً ومحتملاً في ظاهره حتى تبين أمره حين تخلف عن أمر ربه!

وقد فرغ فسوقه عن أمر ربه بكونه من الجن، ولو كان من الملائكة لم يفسق.

أم ويعني معنى ثانياً: كان ممن يجن ويستتر عن الملائكة كونه من الجن وكونه كافراً ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فتبين لهم أنه كان من الجن وأنه كافر، وعلى المعنيين معنيين وما أجملهما جمعاً ومما يلمح لثانيهما «كان» حيث الأول كائن ما كان دون حاجة إلى صيغة الماضي، ولكن إخفاءه عنهم كوناً أو كينونة هو الذي «كان» ثم ﴿فَفَسَقَ﴾ تفرغ للأول، وعطف ترتيب للثاني!

= وما روت وفيه بعد أن مدح ﷺ الملائكة وقال: معاذ الله من ذلك أن الملائكة . . . بالطف الله تعالى - قالوا: قلنا له ﷺ: فعلى هذا لم يكن إبليس أيضاً ملكاً: فقال: لا - كان من الجن أما تسمعان الله تعالى يقول: ﴿... كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] فأخبر ﷺ أنه كان من الجن وهو الذي قال الله تعالى: ﴿وَلَجَّانَ حَلَقْنَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾ [الحجر: ٢٧].

(١) نور الثقلين ٣: ٢٦٧ ج ١١٩ في تفسير العياشي عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله ﷺ: قال: سألته عن إبليس كان من الملائكة وهل كان يلي من أمر السماء شيئاً؟ قال: لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي من أمر السماء شيئاً كان من الجن . . .

(٢) المصدر ج ١١٨ في أصول الكافي عنه عن أبي عبد الله ﷺ قال: إن الملائكة كانوا يتحسبون أن إبليس منهم وكان في علم الله أنه ليس منهم فاستخرج:

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

فسق عن أمر ربه لأنه لم يكن من الملائكة وهم معصومون بل كان من الجن الوارد منهم الفسق، وكان ممن يجن حالته الكافرة، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(١)</sup> ففسق عن أمر ربه بالسجود إذ لم يتمالك نفسه العاتية المستكبرة أمام آدم! ثم و﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ عله استثناء منقطع إذ كان من الجن، وأمره بالسجود يخصه كما أمرهم يخصهم، أم متصل عني من الملائكة الكيان الملائكي في واجهة الأعمال الإيمانية الملائكية، إذ كان معهم يعبد الله بضعة آلاف من السنين لحد اعتبروه منهم ولأقل تقدير كياناً، أم أمر بأمرين يخصه ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾<sup>(٢)</sup> ويعمه مع الملائكة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ وعله أجمل حيث المتمرد بحاجة إلى تأكيد من الأمر، فليؤمر بأمرين!

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ حيث لم يسجد لآدم، وعدو لله حيث عصاه - تتركوني وأنا ربكم وتتولونه وهو عدو لكم ولربكم ﴿يَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير! وماذا تعني ولاية الشيطان وذريته؟ قد تعني الولايات الإلهية كلها حسب مختلف دركات العقائد في اتخاذ الشيطان وذريته أولياء.

من ولاية العبادة ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾<sup>(٣)</sup> ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾<sup>(٥)</sup> فمن الناس من يعبد الشيطان خوفاً منه وتقية لكيلا يضره، وعبادته أضر الأضرار، فراراً أخبث من الحفرة بدخول البئرة.

ومن ولاية الطاعة ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.

(٥) سورة سبأ، الآية: ٤١.



إِنَّهُمْ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴿٢﴾ .

ومن ولاية التكوين والتدبير والتشريع والتقدير، بمختلف العقائد الشاردة الماردة عن صراط الحق في ذلك البدل البعيد السحيق و﴿يَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا!﴾ و﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (٣) :

وترى كيف انتشاء الذرية وانتسال الأنسال من إبليس؟ أمن زواج الزوجين؟ ولم يأت ذكر ولا إشارة في الذكر الحكيم عن شيطانة، وقد ذكرت إنسانة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (٤) !

ولكن التعبير بـ ﴿رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ (٥) يلمح أن فيهم أيضاً نساء حيث الرجولة والأنوثة من المضايقات، كلُّ تطلب الأخرى، فلتكن الذرية منهم بين رجال ونساء، دون أن تباض بيضات كما في بعض الروايات!

و﴿رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ هنا هم من القدة غير الصالحة ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ (٦) فلا موقع للقول: لعل التناسل هو بين صالحى الجن دون من دون ذلك! مع أن الصلاحية هنا لا تعني صلوح التناسل، وإنما العقيدة والعمل، ووحدية الجنس بين الصالحين ودون ذلك الشامل للشياطين، إنها تحكم بوحدية الكيفية في انتسال الأنسال!

(١) سورة يس، الآية: ٦٠ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧ .

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٩ .

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩ .

(٥) سورة الجن، الآية: ٦ .

(٦) سورة الجن، الآيتان: ٦، ٧ .

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُونَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (٥١) :

أترى من «هم» في ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ ﴾ و﴿ أَنْفُسِهِمْ ﴾؟ أهم فيهما إبليس وذريته كما هما محور البحث في آية السجود من عصيانه النكير وولايته بذريته! فسلب الأَشْهَادِ في الخلقين لزامه سلب ولايتهم الإلهية كيفما كانت؟ حيث الولاية التامة لزامها الإحاطة العلمية وفي القدرة، أن يحيط فيهما بخلق السماوات والأرض، أم - وعلى أقل تقدير - بخلق أنفسهم، فيصبحوا إذاً من أعضاد الربوبية، بُعدان بعيدان عن سوى الله أياً كان!

فلو كان الإِشْهَادُ بإحضارهم على علم، فليكونوا كائنين قبل كونهم، وقد خُلِقُوا بعد خلق السماوات والأرض فكيف يُشْهَدُونَ خلقهما، وقد خُلِقُوا ولم يكونوا شيئاً مذكوراً فكيف يُشْهَدُونَ خلق أنفسهم؟

وإن كان إِشْهَاداً دون إحضارهم، بأن عرفهم حقيقة خلقهما وخلقهم أنفسهم بعد خلقهما وخلقهم، كأنهم كانوا حضوراً حين الخلقين، فأحاطوا بهما علماً وقدرة، فلهم الولاية إذاً بما أُشْهَدُوا؟ ولكن الله ما أشْهَدَهُمْ! ولو أشْهَدَهُمْ لكانوا يعلمون غيب السماوات والأرض كما الله، أم وغيب أنفسهم كما الله، فكانوا قادرين عليهما وعلى أنفسهم كما الله، حيث العلم التام هو القدرة التامة! وهي الولاية الإلهية على سواء.

ثم لو أمكن اعتضاده تعالى بعضد مستحيل في بعدين كالأول، أم في بعد واحد كالثاني، لكان يعتضد بعدول هادين دون المضلين ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُونَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾!

إن الله تعالى يحيط بعض الشيء كإشهاد ثان بعض عباده شيئاً من كونه أو كله، إراءة للملكوت، وولاية جزئية دونما اعتضاد لنفسه ولا تخويل لهم، ولكنهم هداة وفي قمة العبودية والعدالة، وأما أن يتخذ المضلين عضداً

﴿وَمَا كُنْتَ﴾ منذ بدء التكوين ﴿مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ ولماذا عضد لمن هو على كل شيء قدير ﴿وَلَا يُوَدُّ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾<sup>(١)</sup>؟ ولماذا المضلين وشأنه الرحمة والهداية؟!

إذاً فأية ولاية إلهية بعيدة عن الشيطان وذريته في أبعاد عدة، بعد الاستحالة في نفسه كما الإشهاد الاوّل أم في ساحة الربوبية كما الثاني! .  
ثم ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ كما هم أعداء الله، فكيف يتخذهم عضداً، اللهم إلا لمزيد إضلال فيما الله يعجز عنه فيعتضد بالشيطان وذريته! فسبحانه سبحانه وتعالى عما يشركون!

فهل يتخذ الله من غير المضلين عضداً حتى يتخذهم وهم مضلون عضداً صيغة صائغة مجاراتاً لأوهام المشركين لاستئصالها ببرهان مكين متين!  
إنه لا عضدَ لله يعتضد به، وإنما له أولياء في شرعته بما أشهدهم إياها: ولاية شرعية، دون ولاية تشريعية، أن لم يشهدهم جذور مصالح التشريع حتى يشرعوا بل هو الذي ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾<sup>(٢)</sup> دون أن يخولهم تشريعاً اللهم إلا حكماً بشرعته جماعياً وفردياً وفي كافة الحاجيات المختلف فيها بين الأهواء والعقول وفي مختلف الحقول!

وأما ولاية التكوين، فهي منحصرة في الله في أصلها: التكوين لا من شيء، وقد يمنحها الله في فرعها: التكوين من شيء كآيات النبوات بقلة في إراءة الملكوت كإحياء الموتى فيما تطلبه إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾<sup>(٣)</sup> وبكثرة فيما هم فيها مظاهرُ لفعله كخلق الطير للمسيح فإنه في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

جسمه بإذنه، وفي روحه بإذنه، دون تكوين للمسيح إلا خلق الطين كهية الطير في صورة، وأما هيئته في حقيقته ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ فضلاً عن روحه ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾<sup>(١)</sup> وإنما هما من تكوينه تعالى لا تكوينه!

فلا ولاية إلهية هي من خلفيات العلم المحيط بالكون، لأحد من خلقه، اللهم إلا شرعية بما أوحى، أو تكوينية كأداة صورية لا حقيقية! ثم لـ «هم» في ﴿أَشْهَدُهُمْ﴾ و﴿أَنْفُسِهِمْ﴾ وجوه ثلاثة أخرى وما قدمناه أصح وأحرى.

١ - إنهما راجعان إلى من يتولون الشيطان وذريته في كل ما مضى من إسهاد وهو في نفسه صحيح، لا لهم فحسب، بل ولمن سوى الله ككل، حيث ما أشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم - ولكنه لا يناسب ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ حيث المتولون هؤلاء لم يدعوا كونهم أنفسهم أعضاء الله، وإنما الشيطان وذريته حيث يتولونهم كأنهم أعضاء الله!

٢ - إن الأول راجع إلى الشياطين والثاني من يتولونهم، أن الشياطين ما أشهدوا خلق الكون ليأخذوا أولياء، وهم ما أشهدوا خلق أنفسهم، أنها في الكيان بحيث يتخذونهم أولياء؟ ولكننا التولي هكذا لا يحتاج هكذا إسهاد لخلق أنفسهم، وإنما وحي أو كتاب أو أثاره من علم أمّاذا؟ ثم يكفي سلباً لهذا التولي ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

٣ - عكس الثاني أن المتولين الشياطين ما أشهدوا خلق السماوات والأرض، والشياطين ما أشهدوا خلق أنفسهم، فإذا لا يحيطون علماً بالسماوات والأرض فكيف يتخذون الشياطين أولياء من دون الله، أتخرصاً

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

على الغيب أن الله اتخذهم لهم أولياء وأذن لهم؟ أم علماً بالغيب ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ﴾ وما أشهدت الشياطين خلق أنفسهم أنهم خلّقوا أولياء؟ ولكنما الولاية الإلهية يكفيها الإعلام، دون إسهاد لخلق أنفسهم!

أو يقال: إذا لم يشهدوا خلق أنفسهم فأولى ألا يشهدوا خلق السماوات والأرض، فأنى لهم الولاية الإلهية ولزامها العلم التام والقدرة؟

وهذا في نفسه صحيح، ولكنه بنفسه غير فصيح، ولا تتحملة لفظ الآية، حيث ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ عطف على ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ﴾ ف «هم» فيهما - إذا - جماعة واحدة، حيث اللفظة الصحيحة الفصيحة لاختلافهما «ولا أشهدتهم خلق أنفسهم» بل «ولا أشهدت هؤلاء...»! ٤ - وقد تعنيهما الآية جمعاً بين الحجتين.

ووجه خامس ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي ما أشهدت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض سناداً لولايتهم، ولا أشهدت المتولين لهم خلق أنفس إبليس وذريته ليحيطوا علماً بتأهلهم لتلك الولاية!

ووجه سادس يجمع بين الوجوه الصحيحة في نفسها.

وأولى الوجوه هو الأول، ثم هي بين غلطٍ وصحيحٍ ما ضمن الأول، والجمع بين الصحيحة هو أصح الوجوه!:

إنه تعالى ما أشهد الشياطين ولا المتولين لهم ولا المؤمنين ولا أولياءه المكرمين، خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، لا إسهاد الحضور حيث لم يكونوا حضوراً، ولا إسهاد الإحاطة علماً وقدرة، فإنه ولاية إلهية لا تثنى ولا إسهاد الإطلاع للمتولين الشياطين أن لهم ذلك التولي! أو لشياطينهم تلك الولاية - ولا أنه يعتضد بمن سواه، ولو كان معتضداً لم يكن بالمضلين ﴿وَمَا كُنْتُمْ مَتَّحِدَةً بِالْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ - .

فالرسول ﷺ وهو أول العابدين وآخر المرسلين ليس عضداً ولا وكيلاً

ولا ولياً تكوينياً ولا تشريعياً عن رب العالمين: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١) ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ...﴾ (٢).

وإشهاد خلق السماوات والأرض وإشهاد نفس المشهود له لنفسه ككل فيه علم الغيب كله، والقدرة على الغيب كله، فإذا لا ولاية عامة لأول العابدين الهادين فكيف إذا حال أول المضلين؟ ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾!

وكما أن للعضد الخير الهدى درجات كلها منفية لله، كذلك للعضد الشر الضلال دركات وأحرى أن تكون منفية عن الله، من عضد الولاية الإلهية، أو الرسالة وما دونها من دعوة إلهية بمراتبها، ثم وغير العضد المستحيل لله أياً كان، من أنصار الله فيما صح وأمكن، ليس إلا لمن هو على هدى ويهدي إلى الحق ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣) ذلك اعتضاد مستحيل لله على أية حال ولندرس منه حرمة اعتضاد المضلين فيما أمكن على أية حال كما لم يتخذ الإمام علي معاوية عضداً (٤).

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٤) نور الثقلين ٣: ٢٦٨ ج ١٢٢ في أمالي شيخ الطائفة بإسناده إلى جيلة بن سحيم عن أبيه قال: لما بويع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بلغه أن معاوية قد توقف عن إظهار البيعة له وقال: إن أفرني على الشام أو الأعمال التي ولائها عثمان بايعته، فجاء المغيرة إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين! إن معاوية من قد عرفت وقد ولاه الشام من كان قبلك، فوله أنت كيما يتسقى عرى الأمور ثم اعزله إن بدا لك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أتضمن لي عمري يا مغيرة فيما بين توليته إلى خلعه؟ قال: لا! قال: لا يسألني الله تعالى عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سوداء أبداً ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]. =

إن المضلل وإن في جهة من الجهات أو وجه من الوجوهات - ما صدق عليه مزل - لا يعتضد، كما لم يعتضد الإمام الحسين عليه السلام من تأبى عن نصرته بنفسه، وعرض عليه فرسه وسيفه<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ

مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ :

هنا يوم يتجاهلون أن شركاءهم لا يجيبونهم إذ يدعون، وهناك يوم لا يستطيعون تجاهلهم... ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ...﴾ موقف بائس كارث لا تجدي فيه دعوى بلا برهان حيث الديان يطالبهم قائلاً: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وهل يقدرين أو يجسرون ألا ينادوهم لأنهم يعلمون أنهم لا يستجيبون؟

= وفيه ١٢٤ في كتاب الخصال عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام وقد ذكر معاوية بن حرب: وأعجب العجب أنه لما رأى ربي تبارك وتعالى قد رد إلي حقي في معدنه وانقطع طمعه في أن يصير في دين الله رابعاً وفي أمانة حملناها حاكماً كر على العاص بن العاص فاستماله فمال إليه ثم أقبل به بعد أن أطمعه مصر وحرام عليه أن يأخذ من الفيء دون قسمته درهماً، وحرام على الراعي إيصال درهم إليه فوق حقه، فأقبل يحيط البلاد بالظلم ويطأهم بالغشم، فمن تابعه أرضاه ومن خالفه ناواه، ثم توجه إلي ناكثاً علينا مغيراً في البلاد شرقاً وغرباً ويميناً وشمالاً، والأبناء تأتيني، والأخبار ترد علي بذلك فأتاني أعور ثقيف فأشار علي أن أوليه البلاد التي هو بها، لأداريه بما أوليه منها، وفي الذي أشار به الرأي في أمر الدنيا لو وجدت عند الله عز وجل في توليه لي مخرجاً، أو أصبت لنفسي في ذلك عذراً، فأعملت الرأي في ذلك، وشاورت من أثق بنصيحته الله عز وجل ولرسوله عليه السلام ولي وللمؤمنين، فكان رأيه في ابن آكلة الأكباد رأي ينهاني عن توليته، ويحذرنى أن أدخل في أمر المسلمين يده، ولم يكن الله ليراني أن أتخذ المضلين عضداً!

(١) نور الثقلين ٣: ٢٦٨ ج ١٢٣ في كتاب مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف أن الحسين عليه السلام قام يتمشى إلى عبد الله بن الحر الجعفي وهو في فسطاطه حتى دخل عليه وسلم عليه، فقام إليه ابن الحر وأخلى له المجلس فجلس ودعاه إلى نصرته فقال عبيد الله بن الحر: والله ما خرجت من الكوفة إلا مخافة أن تدخلها، ولا أقاتل معك، ولو قاتلت لكنت أول مقتول، ولكن هذا سيفي وفرسي فخذهما فأعرض عنه بوجهه فقال: إذا بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في مالك ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُخَذُّونَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]:

كَلَّا! ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أصناماً لا يعقلون ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أو طواغيت يعقلون ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ نداء من زعموهم بدعائهم شركاء حيث تبلى السرائر ولا تخبأ الجرائر، أم صلحاء من ملائكة وأنبياء، آمن ذا وحاشاهم أن يستجيبوا نداء المشركين ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ إذ يعلم هؤلاء وهؤلاء أنهم ما كانوا أيّاهم يعبدون فقد كانوا يعبدون أهواءهم ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْلًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾: مهلكاً يهلك رباطاً بينهم كانوا يزعمون ويهلكهم بما كانوا يزعمون، ويهلك غير المؤمنين من شركائهم أوثاناً وطواغيت: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>:

﴿وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾<sup>(٣)</sup>:

ترى وإذا ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ وهم عارفون أنهم أهل النار وهم يرونها، فكيف ظنوا ﴿أَنَّهُمْ مُّوَافِعُوهَا﴾ ولم يستيقنوا؟

إن واقعة النار وهي الوقوع من جانبي النار وأهل النار، هي دخولهم في النار واشتغال النار بهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ . . .﴾<sup>(٣)</sup> هذه الواقعة رغم أنها واقعة لهم دون شك، ولكنهم حيث يترجون مهلة لهم بين رؤية النار ومواقعتها من ناحية، ويرونهم قريبين إليها من أخرى ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَافِعُوهَا﴾ أو أنهم على احتمال النجاة من النار أن يجدوا عنها مصرفاً كما يرجو كل مجرم ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَافِعُوهَا﴾ حال أنهم ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾: صرفاً أو مكاناً أو زماناً للصرف عنها، خلاف ما ظنوه من مصرف أيّاً كان وأيان.

فليس الظن هنا ولا في غيرها علماً كما العلم أيّاً كان ليس ظناً، فأبي

(١) سورة يونس، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠.



منهما ليس بفصيح ولا صحيح حتى إذا قرن بقريته وليست في أي منها! والحديث الوارد في ظن اليقين مطروح أو مؤول<sup>(١)</sup>.

(١) نور الثقلين ٣: ٢٦٩ ج ١٢٥ في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي عليه السلام يقول فيه وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات وأما قوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا﴾ [الكهف: ٥٣] يعني أيقنوا أنهم داخلوها ورواه في الاحتجاج مثله عنه عليه السلام وقد يكون بعض ظن الكافرين يقيناً وذلك قوله ﴿وَرَأَى...﴾ [الكهف: ٥٣].

أقول: قد يعني كون ظنهم يقيناً إنما يظنونه متيقن الوقوع وإن كانوا يظنونه دون تيقن كما نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يرى ظنهم ففي الدر المنثور عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ينصب الكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة ما لم يعمل في الدنيا وأن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها موافقته من مسيرة أربعين سنة والله أعلم.

أقول: فظن الموافقة من هذه المسيرة كما قلناه: أنهم يرونهم قريبين إليها من جهة وبعيدين من أخرى فظنوا قربها ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا﴾ [الكهف: ٥٣] فاسم الفاعل دليل الوقوع حالاً رغم استقبال الوقوع مسيرة أربعين سنة في مرآهم!

ففي ٦٢ موضعاً من القرآن ذكر فيها الظن بمختلف صيغة لا نجد ظناً بمعنى اليقين كما العلم واليقين لا نجدهما في سائر القرآن بمعنى الظن، ولماذا يستعمل كل في الآخر أحقيقة وليس بها أم مجازاً ولا مجوز محسناً له ودون أية قرينة، وحتى لو كانت ما كانت محسنة لمجازه! ولو تأملوا فيها تأولوه بالعلم واليقين لرجعوا إلى معنى الظن دون تأويل وإليكم موارد من ٦٢ موضعاً:

(١) ﴿وَدَا التُّونَ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] - ظن بربه خيراً أن لن يضيق عليه بذهابه عن قومه مغاضباً، فلا موضع هنا لليقين، حيث المقام محتمل الضيق جزاء ذهابه عن قومه، ولكنه ظن لحسن ظنه بربه، ف ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا﴾ [الفتح: ٦]!

(١) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً﴾ [الحاقة: ٢٠] وهو ظن من أوتي كتابه بيمينه وملاقاته حسابه هو لقاء ثوابه، وظنه تواضع منه وحسن ظن بربه، فاليقين منه كان مطالبة حق ثابت.

(٢) ﴿وَوَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ مُطِيعًا فَلَا مَمْلُوكَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤-٢٥] - فإنها ترجو رجاء كاذباً ألا يفقرهم العذاب تنحياً عن فقاره أم عن أصل العذاب.

(٣) ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] في وصف الخاشعين وهو ظن القلب حيث الخشوع فعل القلب، وظن القلب يوازي يقين العقل ثم وفي ثالث اليقين ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] يصبح يقيناً في القلب كما في العقل وقد يعنيه:

(٤) ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمَ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ﴾ [ياد: ١٠]

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ

جَدَلًا﴾ (٥٤) :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا

كُفُورًا﴾ (١) (٢) :

ومهما كان الإنسان أكثر شيء جدلاً ف ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ لكل جدلٍ مثلاً يواصف المقصود بما يمثله ويقربه إلى الأفهام تحقيقاً للحق المرام.

فأية صورة من جدل الإنسان لا تقوى دحضاً لمثل القرآن حيث يضرب إلى أعماق البرهان، فطرة وعقلاً وحساً حيث لا تبقى باقية، مهما بغت جدال الإنسان باغية، فأين مثلٌ من جدل، وهطلٌ من وحل!

هنا نعرف مدى جدل الإنسان في حق أو باطل، فهو ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ من شيء الملائكة في حق ومن شيء الجن في حق أو باطل، ومن شيء كائن يوازي الإنسان أياً كان!

إنسان الحق يجادل في التفتيش عن الحق وتحقيقه بكل مثل، وإنسان الباطل يجادل في تهديم صرح الحق وتحقيق الباطل، وأمثال القرآن تحلق في أجواء الباطل لإبطاله، وفي أجواء الحق لإحقاقه، دحضاً لحجج الباطل دون إبقاء، وقفراً لتحقيق الحق دون إبقاء.

إن مثل الحق صيغة سائغة للتصريف بمختلف الصيغ، والله يصرف مثل الحق إلى كافة الصيغ السائغة لتنظيم جدل الإنسان فتقويم حقه وتحطيم باطله!

= ﴿[البقرة: ٢٤٩]﴾، أفهل يكون صحيحاً أو فصيحاً حمل الظن في هذه الخمس على اليقين دون قرينة إلا عدم التأمل ضمن ٦٢ موضعاً من القرآن العظيم؟

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٩.

(٢) مضى تفسيرها في الإسراء فلا يفصله هنا - .

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ ﴿٥٥﴾:

موانع مخيرة لا مسيرة تصد عن الإيمان والاستغفار، من أمنعها الترف والاستكبار: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾<sup>(١)</sup> سنة بئسة تعيسة للأولين منهم والآخرين، طيلة الرسالات الإلهية حتى الأخيرة، في جدال بالتي هي أسوأ: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾<sup>(٢)</sup> ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ﴾<sup>(٤)</sup> وأضرابها من الأعذار اللامعقولة حيث تمنعهم أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم.

ومن هذه السنة مطالبة العذاب إن كانت الهدى حقاً: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْتِنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾<sup>(٥)</sup>.

ولكن هذه السنة أو تلك كائنة للمستكبرين ككل وهنا ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ ومن أين تأتيهم وكيف وهي لزام لهم عندهم؟

قد تدخل في هذه السنة أو هي الأصل هنا، سنة الأولين في عذاب الاستئصال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ﴾<sup>(٦)</sup> فعدم إتيان عذاب الاستئصال، أو عدم إتيانه قبلاً كان من موانع الإيمان في زعمهم إلى سائر موانعه! وعند تحقق سنة الأولين عذاباً واقعاً لا يبقى مدعي الإيمان حينه حتى

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٧.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

(٦) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

يؤمن! وعند رؤية العذاب قبلاً لا يفيد الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا...﴾ .  
فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ ۗ ﴿١﴾ حيث خيل  
لهم أن مانعهم عن إيمانهم عدم إيقانهم، فبرؤية البأس يوقنون فيؤمنون .

فإتيان سنة العذاب المستأصل أو العذاب قبلاً - ولما يأت - هو في  
عداد موانع الإيمان والاستغفار، موانع حمقاء، ليست إلا أعداراً أسوأ من  
حماقات الطغيان .

وليس إتيان سنة العذاب قبلاً أو استئصالاً لإثبات الحق من سنة الرسل  
وإنما هم يبشرون وينذرون حجاجاً وجدالاً بالتالي هي أحسن دونما حاجة إلى  
عذاب أماذا؟ ثم العذاب أو الثواب من الله :

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۗ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ  
لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ :

هذه الآية وكثيرة أمثالها تحصر رسالة المرسلين في التبشير والإنذار  
وتحسرها عما سواها مما يتعنته الكفار من الإتيان بما يتطلّبون من آيات وما  
يتكلمون خلاف الرسالة الإلهية من أصحاب الرسالات، أمّا يتمناه الرسل  
فيتحسرون إذ لا ينالون من هدي من لا يهتدي، فتتواتر الآيات قارعة  
متطلبات المتفتي، متصدية لتسلية خواطر المرسلين ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا  
مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۗ وَلَكِنْ :

﴿وَجَعَلْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ...﴾ فقد يكون الجدال بالحق، وبالتالي  
هي أحسن تفتيشاً عن الحق وتثبتاً للحق فواجب على أهل الحق ودعائه،  
وقد يكون لتزييف الحق أو تضعيفه، بالباطل كان أم بالحق (٢) ، وكلاهما  
جدال بالباطل لدحض الحق، فحرام مطلق!

وأصل الدحض الزلق، فهم أولاء يجادلون بالباطل ليُزلقوا الحق بعد

(١) سورة غافر، الآيات: ٨٤، ٨٥ .

(٢) كأن يجادل ويستدل بقرآن أم سنة لياً لإبطال القرآن والسنة وهو من أنحس الجدال، وهو =

ثباته، ويزيلوه عن مستقراته، فيكون كالكسير بعد قوته والمائل بعد استقامته ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾: آيات الرسل وآيات الرسالات، وما أنذروا من مُخَلَّفَاتِ التَّكْذِيبِ بتلكم الآيات، اتخذوها هزواً، يجادلون بالباطل: طريقة باطلة لا تعني حقاً، وإنما هزواً ولعبة لتوهين الحق وتهوينه أمام العالمين وهم أظلم الظالمين.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾:

هنالك قلوب مفتحة لاستقبال الحق، تفتحها أصحابها فزادهم الله تفتيحاً ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾<sup>(١)</sup> وهنا قلوب مقلوبة مغلقة عن تقبل الحق بإعراض أصحابها عما ذكروا بآيات الرب وتناسي ما قدمت أيديهم فزادهم الله إغلاقاً جزاءً وفاقاً ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾! فكنّ القلوب عن استقبال الحق ووقر الآذان عن استماعه ووعيه هما بما أعرضوا وقدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد.

هنالك تذكير بآيات الرب ﴿ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ لكي يهتدوا ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ ولكنهم بدل أن يتذكروا ويهتدوا ويشكروا نعمة ربهم بالذكرى والهدى ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾: عناداً وتعمداً ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ﴾: نسيان التناسي المتعمد ما قدمت يده من إعراض عن آيات الرب وخلفياته، لحدّ قد يحسبه يحسن صنعا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾<sup>(٢)</sup>.

= جدال بالباطل حيث الاستدلال لإبطال الحق بمادة الحق وصورته، بتحريف في كيفية الجدال هي من أضل المزال للاقدام.

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

فهناك - إذاً - الطامة الكبرى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾  
 أكنة بما قدموها ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بما وقروها فما وقروها، اثنان باثنين في  
 وفاق عدداً وعدداً، ثم النتيجة العاجلة ﴿وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا  
 أَبَدًا﴾ ثم الآجلة هي أشد وأنكى!

﴿وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ  
 لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَمَمُوا  
 وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾:

﴿الْغَفُورُ﴾ هو معدن الغفر والستر ومنبعه، فهو إذاً ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الواسعة  
 ما وجد لها سبيل، لا الرحمة الفوضى التي هي زحمة على الصالحين وراحة  
 للظالمين! ﴿لَوْ﴾ أنه ﴿يُؤَاخِذُهُمْ﴾ هؤلاء البغاة الطغاة ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ آخذة  
 عاجلة ﴿لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ﴾ في الأولى قبل الأخرى ﴿بَلْ﴾ كضابطة عامة لا  
 تستثنى ﴿لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ لمؤاخذتهم بما كسبوا منذ الموت إلى يوم يقوم  
 الحساب ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾: مخلصاً.

ثم وموعده آخر لمن تمادى في الطغيان يوم الدنيا ومن أمثاله «تلك  
 القرى» الغاربة في عمق التاريخ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَمَمُوا﴾ حيث الظلم ليس  
 ليُصبر عليه مهما كانت الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ  
 مَوْعِدًا﴾ بالسنة رسلهم، فلا يغرنكم إمهال الله لهم فإنه إملال، وإن موعدهم  
 آتٍ في مستقبل أم حال، وسنة الله لا تتخلف على أية حال.



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا نَادَيْنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ

شِئْتَ لَتُخَذَتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ  
بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ  
يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا  
﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا  
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا  
الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ  
أَبُوهُمَا صَالِحًا فَآرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً  
مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

حلقة منقطعة النظير في القرآن كله عن سيرة موسى عليه السلام مع من تعلم هو منه شيئاً مما كان يجهله، تقص مقاطع هامة من قصته تهم السالكين سبيل الهدى، المتعلمين على سبيل نجاة من الردى.

إنها ليست أسطورة مختلفة كما يهرفها الخارفون، بل هي حقيقة تُقَصُّ من عمق التاريخ كسائر القصص القرآنية، تحمل أمثالاً حقة من التربية الإلهية، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وترى أن موسى القصة هو ابن عمران ثالث أولي العزم من الرسل الذين دارت عليهم الرحي؟ وأولو العزم هم المفضلون على من سواهم من رسل وأنبياء أمن ذا في زمنهم وحتى ولاية عزم أخرى علماً وعملاً لدنيا من عند ربنا، فكيف يحمل موسى هذا نصباً في سفره حتى يلقي لنفسه معلماً بأمر الله: ﴿عَبَدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأَنبَتُهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن...؟! ومعلمه هذا أياً كان هو من أمته ومتعلمه في شرعته خضراً أمناً ذا؟!



فهل هو - إذاً - موسى غير ابن عمران، نبياً أو أياً كان، يتعلم من معلّم له هو فوّه علماً وخبراً؟ وقد ذكر موسى فيما ذكر (١٣٤) مرة يُعنى به ابن عمران، أفي هاتين المرتين اليتيمتين هنا يُعنى به غيره دونما أية قرينة ولا إشارة؟ سبحانك اللهم إن هذا إلا خرافة جارفة جازفة لا صحيحة في أدب التعبير ولا فصيحة! (١).

(١) الدر المنثور ٤: ٢٩ - أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوماً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل؟ قال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا! فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً تجعله في مكنت فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتاً فجعله في مكنت ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكنت فخرج فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً - إلى آخر القصة وقد نذكر مواضع منها حسب المناسبات - إن شاء الله تعالى.

وفي نقل آخر بنفس السند عنه ﷺ أن موسى بنى إسرائيل سأل ربه فقال: إي رب إن كان في عبادك أحد أعلم مني فدلني عليه قال: نعم في عبادي من هو أعلم منك فنتعت له مكانه، فإن له في لقيه فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح قد قيل إذا حيي هذا الحوت في مكان فصاحبك هنالك وقد أدركت حاجتك..

وفي نور الثقلين ٣: ٢٧ ج ١٢٨ في تفسير القمي وفي العياشي عن أبي عبد الله ﷺ وكان سبب ذلك أنه كلم الله موسى تكليماً وأنزل عليه الألواح وفيها كما قال الله ﷻ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] رجع موسى ﷺ إلى بني إسرائيل فصعد المنبر فأخبرهم أن الله ﷻ قد أنزل عليه التوراة وكلمه وقال في نفسه: ما خلق الله خلقاً أعلم مني فأوحى الله ﷻ إلى جبرئيل ﷺ أدرك موسى قد هلك واعلمه أن عند ملتقى البحرين عند الصخرة رجل أعلم منك فسِر إليه وتعلم منه فنزل جبرئيل ﷺ على موسى ﷺ وأخبره فذل موسى في نفسه وعلم أنه أخطأ ودخله الرعب وقال لوصيه يوشع: إن الله ﷻ قد أمرني أن أتبع رجلاً عند ملتقى البحرين وأتبع منه فزود يوشع حوتاً مملوحاً فلما خرجا وبلغا ذلك المكان وجدا رجلاً مستلقياً على قفاه فلم يعرفاه، فأخرج موسى الحوت وغسله الماء ووضع على الصخرة ومضيا ونسيا الحوت وكان ذلك الماء ماء الحيوان فحيى الحوت ودخل الماء:

إنه هنا موسى بن عمران كما في سائر القرآن، وقد ابتلى بسفره النَّصَب بسبب منه حيث خيَّل إليه أنه أعلم ممن سواه في علمي الظاهر والباطن، فقد وُكِّل موسى بعلم لا يطيقه خضر كما وُكِّل خضر بعلم لا يطيقه موسى فليتعلم كلَّ ما عند الآخر ليكتمل بما عند الآخر كما وعلَّ آصف بن برخيا وزير سليمان كان أعلم منه حيث آتاه عرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه، وكان آصف من أمتة في الشريعة الظاهرة.

فعلم الشريعة الظاهرة وعلم الباطن قد يفترقان كما في موسى وخضر وسليمان وآصف وقد يجتمعان كما في أهل بيت الرسالة المحمدية ﷺ وكما قد ينتفیان كمن يجهلهما وحيًا أمًاذا؟.

وخضر هذا نبياً كان أم غير نبي هو كلقمان<sup>(١)</sup> كان أعلم من موسى بن عمران في التأويل: ﴿ءَأَيُّنَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا... قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا! ﴿١﴾ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾﴾ اللهم إلا علام الغيوب، أو من علّمه من علم ما كان وما يكون وما هو كائن كالرسول محمد ﷺ وأهل بيته المعصومين!

ولأن القرآن لا يذكر زمن هذه القصة، أكانت في نبوءة موسى قبل رسالته؟ أم كانت في بداية رسالته ولما تنضج النضجة الكاملة بعلم التأويل، أم في نبوته بولاية عزيمة وفي قمتها، إذا فكلُّ محتمل، مع العلم أنه كان يوحى إليه، وإلا فكيف عرف ذلك الموقف لمجمع البحرين و﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِّغُ﴾ ولا يأتي مثل هذا الغيب إلا بوحي، اللهم إلا وحيًا دون نبوءة كما ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمْرًا مِّن مَّوَسَىٰ أَنْ أَرْضِعِي﴾<sup>(٣)</sup> فقد تكون هذه المصاحبة قبل نبوته أم

(١) تتضارب الروايات هنا في أن الخضر كان نبياً أو لم يكن نبياً، ولا دلالة في هذه الآيات على نبوته، ولا أثر عنه في سائر القرآن.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧.

فيها قبل رسالته، أم فيها قبل ولاية عزمه، أم وفي ولاية عزمه، فعلى أية حال لا يبقى إشكال في كيف يتعلم موسى من خضر؟ فإن ولاية العزم في الشريعة الظاهرة لا تلزمها الولاية الباطنة مهما تجتمعان في البعض من أولياء العزم كالرسول محمد ﷺ .

ولكن الرقابة على تكاليف الشريعة تنتج نورانية في الباطن ف ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (١) و ﴿إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (٢) ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ (٣) فكيف إذا كانت رقابة العصمة في ولي العزم، فليعلم موسى من علم الباطن ما يعلمه خضر وسواه بل وأكثر وأحرى، فكيف يتطلب منه أن ﴿تُعَلِّمِنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾؟

علّه لأنه كما علم الشريعة قد يحصل بتحصيل، وقد لا يحصل إلا بوحى، فما كل متعلم يحاول للحصول عليه يوحى إليه، كذلك علم الباطن منه ما يحصل بتلك الرقابة، ورقابة العصمة أخرى وأجرى للحصول عليه ولكن منه ما لا يحصل برقابة كالعلم الباطن اللدني، فعلم الوحي الشريعة لا يستلزم ذلك العلم اللدني مهما يستلزم علماً دون ذلك، فقد أوتي خضراً رحمة من عند الله وعلم علماً من لدن الله ليس من مخلفات وحي الشريعة والرقابة التامة عليه! .

ولأن ولاية العزم لزامها الحفاظ على حقوق الأمة ومصالحها في الباطن كما الظاهر، فليعلم موسى الرسول في ولايته العظيمة العزيمية، تأويل قضايا كمثل السفينة والغلام والجدار، فقد يحتمل أن القصة كانت في بداية أمره ولما يعظم ويعزم أمر رسالته القمة - والله أعلم حيث يجعل رسالته! .

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢ .

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩ .

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٨ .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ

حُقُبًا ﴿١٦﴾﴾:

مجمع البحرين هو عنوان ملتقاه مع خضر كما أوحى إليه ولكن موسى لا يعرفه بتفصيل، فلو كان عارفه فلماذا ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ سنة إلى ثمانين وكما جاوزه إذ نسيا حوتهما، فقد يعرف أن فيه ملتقاه وأنه في سفرته هذه يمرّ عليه، كما تلمح له ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ لا «مجمعا لبحرين» حتى تكون له مصاديق عدة، وإنما قال كغير عارف بالملتقى ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ لأن مجمع بينهما كان متسعاً شاسعاً قد يحتاج الوصول إلى منتهاه إلى أن يمضي حقباً وأقله التأكيد على ذلك التصميم وإن لم يحتج وصوله إلى مضي حقب، فحق لموسى وفتاه لما بلغا مجمع بينهما أن ينسيا حوتهما حيث بهرهما بلوغ المجمع نظرة الملتقى، وأما فتاه فزاد نسياناً على نسيان لما أويا إلى الصخرة.

موسى الرسول ما كان يعرفه بعينه، ولا أن القرآن عرفه لنا، فما لنا من سبيل إلى معرفته القطعية إلا حدسيات: إنه منطقة كانت مسرح تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر كملتقى بحري الروم والقلزم أي الأبيض والأحمر، ومجمعهما في منطقة البحيرات المرة وبحيرة التسماح، أو مجمع خليجي العقبة والسويس الأحمر، أو ما ينتهي إليه بحر الروم من الجانب الشرقي وبحر الفرس من الجانب الغربي أماذا؟

إلا أن مسرح تاريخ بني إسرائيل المعلوم لدى الجميع يختلف عن مسرح موسى الرسول (صلوات الله عليه) الخاص به، وهو لا يعرفه بتفصيل، وإلا فلماذا ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾؟ فلنترك ما تركه القرآن ونسكت عما سكت الله عنه، وقصارى ما يعرفه موسى من ذلك الملتقى أنه مجمع البحرين وفيه حياة الموتى كما اتخذ غداءه الحوت فيه ﴿سَيِّلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا...﴾ و﴿عَجَبًا﴾ ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٤﴾ فَوَجَدَا...﴾.

وفتى موسى هو صاحبه الخاص فعله وصيه يوشع بن نون بفتوة صحبة الإيمان<sup>(١)</sup> وقد يكون ﴿وَإِذْ قَالَ...﴾ معطوفاً على محذوف يناسبه أم على قصة أصحاب الكهف أن يذكره الرسول ومن معه ذكرى ثانية للرحمة الخاصة الإلهية الحانية على عباده الأخصاء وهو من أخصهم، فلتواتر عليه رحمة من لدنه وعلم من لدنه، ربوة على كل عالم ومرحوم!

ولا ﴿أَبْرَحُ﴾ تصريحاً بملاحقة السير في هذه السفرة إذ يقصد من ورائها أمراً أمير بالحصول عليه إعلاناً لفتاه في البداية استعداداً لوعثاء السفر ونصبه، مهما طال الزمن: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ تعبيراً حاسماً عن تصميمه القاطع، عارفاً صارماً بوصوله عاجلاً أو آجلاً إلى ملتقاه في مجمع البحرين.

وهذه من السنن الحسنة مع رفقة السفر التابعين لك أن تعلن دون إسرار كالشمس في رابعة النهار مسيرك ومصيرك في سفرتك دون تحميل عليهم كما ﴿قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ﴾ دون «لا نبرح حتى نبلغ...» وليجعل صاحبه في سعة من أمره إن شاء لزمه عارفاً بالسفرة وإن شاء تركه.

و﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ يعني لا أزال سائراً مسافراً دونما انقطاع، مما يوحي بأهمية بالغة للهدف المرام، إعداداً لفتاه إن شاء استعداد على علم بهامة السفر ونصبه.

وليبلغه مدى تصميمه مقصداً وزمناً لأقصى حدّه كما أبلغه ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾! و﴿مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ﴾ هنا هو الغاية القصوى من السفر النَّصَب وليجمع فيه بين بحري العلم الظاهر من موسى والباطن من خضر، أو بحري الرسالة الظاهرة والولاية الباطنة، وكما قال له خضر في ملتقاه «إني وُكِّلتُ بأمر لا تُطيقه وُكِّلتُ بأمر لا أُطيقه».

(١) الدر المنثور في الحديث السابق عنه ﷺ «ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون... وفي نور الثقلين ٣: ٢٧٢ ج ١٣٠ عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان وصي موسى بن عمران يوشع بن نون وهو فتاه الذي ذكره الله في كتابه.

فيا لمجمع البحرين من نبضات الحياة وومضاتها حيث الحوت المطبوخ  
الغذاء فيه يحيى (١) ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ «وعجباً» وموسى الرسول  
يزداد حياةً من علم الباطن إلى علمه الظاهر وكما الخضر يزداد علم الظاهر  
إلى علمه الباطن.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ ﴿١٦﴾ ﴿فَلَمَّا  
جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ آئِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ﴿١٧﴾ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا  
إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي  
الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ﴿١٨﴾ ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْعُ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ ﴿١٩﴾ :

الحوت هو السمك العظيم، والسَّرْب هو المنحدر المسبّل ذهاباً مخيراً،  
لا سقوطاً أو انقفاً مسيراً، أترى أن حوتهما الغذاء أخذه من مجمع  
بينهما؟ و﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ عند بلوغ المجمع! فقد كان معهما قبل بلوغه! أو  
أنه كان حياً معهما في سفرتهما ليطبخاه إذا جاعا؟ ولزامه أن يأخذا معهما  
ماءً بقدر يكفيه بقية الحياة، وهذا غريب في سفرة كهذه النصب، حملاً لكثير  
الماء ليعيش فيه الحوت: السمك العظيم ولماذا هذا التعب الشغب نصباً  
على نصب؟!!

حوتهما هذا كان غداؤهما فليكن مطبوخاً جاهزاً لغدائهما حيث السفرة  
لا تسمح للطبخة ولا سيما تلك الساذجة الناصبة، فقد كان ميتاً مطبوخاً  
وكما في حديث رسول الله ﷺ (٢).

(١) في الدر المنثور في حديثه ﷺ عن القصة: فلما نزلوا ومس الحوت الماء حيي فاتخذ سبيله  
في البحر سرَباً. . . وكما في أحاديث عدة ولا نجد في أي حديث أنه كان حياً.

(٢) اتفقت الأحاديث التي تنقل القصة أن الحوت حيي عند الصخرة واتخذ سبيله في البحر سرَباً  
وعجباً، ولكنها تختلف في أنه كان مشوياً أو مملوحاً وفي مرسله القمي وروايات الشيخين  
والنسائي والترمذي وغيرهم أنه كانت عند الصخرة عين الحياة وفي رواية مسلم أن الماء كان  
ماء الحياة من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت إلا حيي فلما نزلوا ومس الحوت الماء =

ثم ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ تصريحة بحياته، فلتكن بعد موته، إذ لا عجب لحيوان البحر أن يتخذ سبيله في البحر سرباً منحدرًا إليه، بل وتركه عجب<sup>(١)</sup>.

تري وماذا كان يدري موسى من الملتقى وماذا لا يدري؟ ﴿حَقَّ أَتْلَعُ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ﴾ دليل أنه كان يدري أن مكاناً من المجمع هو الملتقى، ولكنه أين هو الذي يحيى فيه ميت وما هو؟ لا يدري أنه حوته وإلا لم ينسه! ولم يطلبه بعد ذكره غداء!

فقد ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْعُ﴾ فما كان يدري أن الملتقى هو المجمع الذي بلغاه، وإلا لما تجاوزه! ولا أن الذي فيه يحيى هو حوتهما، وإلا لماذا اتخذه غداءهما، ولماذا نسيه؟ معلومان ومجهولان لموسى، وفتاه يجهل ثالثاً هو أن حياة ميت فيه آية أنه الملتقى المبتغى وإلا لما نسيه إذ رأى الحوت ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾!

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾: بين البحرين وبين موسى وخضر، وما درى

= حيي، وفي بعضها أن فتى موسى توضع من الماء فقطرت منه قطرة على الحوت فحيي، وفي ثالث أنه شرب منه الفتى ولم يكن له ذلك فأخذه الخضر وطبقه في سفينة وتركها في البحر فهو بين أمواجه حتى تقوم الساعة، وفي رابع أنه كانت عند الصخرة عين الحياة التي كان يشرب منها الخضر ثم الباقية خالية من ذكرها -

ثم في رواية الاحتجاج وغيرها أن الحوت سقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، وفي بعض أن موسى لما رجع أبصر أثر الحوت فأخذ أثر الحوت يمشيان على الماء حتى انتهيا إلى جزيرة من جزائر العرب، وفي حديث الطبري عن ابن عباس فرجع موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة، وفي أكثرها أن موسى لقي الخضر عند الصخرة، وفي بعضها أنه ذهب من سرب الحوت أو على الماء حتى وجده في جزيرة من جزائر البحر، وفي بعضها أنه وجده على سطح الماء جالساً أو متكئاً.

(١) المصدر السابق نفسه.

موسى منه ملتقاه وإلا لما تجاوزاه ﴿نَسِيًا حُوتَهُمَا﴾ موسى وفتاه، نسيان موسى كان بطبيعة الحال حيث السالك يركّز على الغاية الملتقى فينسى الغداء أماذا من وسائل اللقاء، ولكنما الفتى لماذا ينسى وقد حمل حمله والحفاظ عليه؟ علّه لأنه يُتابع مسيرة موسى فعلى هامشه ينسى أمام الغاية غيرها! وهذا النسيان المشترك كان عند بلوغهما المجمع.

ثم هنالك نسيان ثان يخص فتاه لما أويا الصخرة ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾: أنسياناً مع موسى فهنالك نسياً وهنا نسييت؟ فهو إذاً نسيان ثان تدخل فيه الشيطان يخص فتاه: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا...﴾ هنا ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ...﴾ عطفاً على نسيانه، وهناك ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ...﴾ تفريراً على نسيانهما، فبينهما فرق قد لا يكون إلا أن النسيان الأوّل أغفلهما عن كونه معهما ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ...﴾ والنسيان الثاني هو بعد ذكر ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ فالواو إذاً للحال، أنني نسيته حال أنه اتخذ سبيله في البحر عجباً، نسييت أن أذكره بعد ذلك وأذكرك، وعله لأنه ما أهمته غداؤهما رغم ذلك العجب أمام غايتيهما القصوى، فقد يُنسى الطريق والرفيق فضلاً عن الغداء أماذا:

﴿فَلَمَّا... نَسِيًا حُوتَهُمَا﴾ استغفلاً عنه إذ لم يكن محوراً في تلك السفارة ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرِيًّا﴾ لم يدره موسى ودراه فتاه وكما أخبر ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ وترى ما هي سبيله السرب؟ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِيَآ إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ فمن الصخرة العالية منحدرٌ يُتخذ إليه سبيلٌ سرب فالسبيل هو الطريق المنحدر، والسرب هنا انحدار ثان يزيد السبيل سُبلَةً وانحداراً.

أو هي عين الحياة المنحدرة من الصخرة إلى البحر<sup>(١)</sup> وقد حيي بها

(١) في عديد من الروايات أنه عين الحياة كما في نور الثقلين ٣: ٢٧٢ ح ١٣١ في عيون الأخبار=



الحوث فاتخذها سبيلاً؟ أم ساقية أخرى وقد حيي بغيرها؟ أم قفزة من منحدره أم لزقة فانزلاقاً إلى البحر وبينه وبينه برُّ أمّاذاً؟ على أية حال ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا - مَجْبَأً!﴾

فاتخاذ سبيل سرب عجب ذو دلالات على أن حوتهما الغداء الشواء أصبح حياً على الصخرة على غفلة لموسى وذكر لفتاه، ومن ثم تناساه فنسي أن يخبر موسى بأمره:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ بداية المجمع والسرب العجب ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتْنَةٍ إِنَّا غَدَاءَنَا﴾ الحوت ﴿لَقَدْ﴾ تأكيداً ذا بعدين ﴿لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ فلنتغذى لكي نستجدّ طاقة بدنيّة نواصل بها سفرنا، مما يدل أنه كان متغافلاً جوعهما مع نسيان حوتهما، ثم النَّصَب ذَكَرَهُ غَدَاءَهُمَا الحوت فطلبه من فتاه، فإنه التعب المنصوب تأتياً في مُدَاه:

والغداء هي غذاء الغداة، فلعلّهما جاوزا مجمع بينهما ليلاً، ولم يعتبره موسى ملتقاه إذ لم ير ما يريه أنه هو ملتقاه حتى أخبره به فتاه:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ المطلّة على البحر، فأنت رأيت إذ أويْنَا إليها تخفيفاً عن وعشاء السفر، أو وانتظاراً علّه هو الملتقى ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ ماذا حصل له وماذا فعل، بعدما نسيناه مع بعض ﴿وَمَا أَسْنِينُهُ إِلَّا

= عن الرضا عليه السلام قال: قال علي عليه السلام وقد سأله بعض اليهود عن مسائل - وأنتم تقولون: إن أول عين نبعت على وجه الأرض العين التي ببيت المقدس وكذبتم، هي عين الحياة التي غسل يوشع بن نون السمكة وهي العين التي شرب منها الخضر عليه السلام، وليس يشرب منها أحد إلا حيي؟ قال: صدقت والله إنه لبيخط هارون وإملاء موسى ورواه مثله في كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى أبي الطفيل عامر بن واثلة عن علي عليه السلام وفيه أيضاً بإسناده إلى إبراهيم بن يحيى المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام أن علياً... وفيه أيضاً بإسناده إلى الحكم بن مسكين عن صالح عن جعفر بن محمد عليه السلام عن علي عليه السلام أقول: على اختلاف في بعض الألفاظ واتفاق في عين الحياة:

الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكَرَهُ ﴿١٠﴾ واتخذ: حال أنه ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ نسيان عجب بعدما رأته اتخذ سبيله في البحر عجباً حيث الحوت الميت المطبوخ يمشي في سبيله السرب إلى البحر! ولم يكن نسياناً مني تغافلاً عن أمره العجب وإنما ذلك الشيطان أنسانيه أن أذكره فاذكرك بسربه العجب.

أفترى الشيطان له سبيل إلى الأنبياء، وكان فتاه يوشع منهم؟ علّه لم يكن حينذاك نبياً، فقد كان وصياً ثم بعد موت موسى أصبح نبياً وصياً! أم بقي وصياً دون نبوة؟<sup>(١)</sup>.

أم إن هكذا نسيان ليس في عداد نسيان ذكر الرب حتى يُنحى عنه الشيطان، وإنما هو حسب الظاهر نسيان الغداء أولاً ومن ثم نسيان السرب العجب، وقد يبرران أمام الهدف الإمام وهو التحري عن مللقى البحرين، ولم يكن يدري فتاه أن من آيات ملتقاه حياة ميت أو علّها هي منها حتى يتذاكر الحوت، رغم أن سربه العجب هو آية الملتقى:

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰءِآثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ ﴿١٤﴾: ذلك البعيد المدى العظيم المحتوى، الملتقى المدلول عليه بآية السرب العجب ﴿مَا كُنَّا﴾ طول سفرنا ﴿نَبِغُ﴾ هـ - فلنرجع إلى مجمع بينهما من نفس الطريق الذي جئنا ﴿فَأَرْتَدَّا﴾ رجوعاً إليه ﴿عَلَىٰءِآثَارِهِمَا﴾ آثار الأقدام في مشيتهما ﴿قَصَصًا﴾: تتبّعاً لتلكم الآثار كي لا يخطأها.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأْتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿١٥﴾:

فيا لوجد الوجدان من شغف وشغف، ما يُنسي نَصْب السفر ووعثاءه، وكيف عرف موسى خضره؟ طبعاً كما عُرّف بوحى الله مكانه، كذلك عُرّف مكانته والمؤمن ينظر بنور الله!

(١) لا دلالة في القرآن ولا في السنّة واضحة أن فتى موسى كان حينذاك نبياً.

تعريف إلهي لطيف بخضر في زوايا ثلاث ١ - ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾  
 ٢ - ﴿ءَأَيُّنْتَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ ٣ - ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾!

هنالك عبودية في كمالها دون أكملها - فإنه لأوّل العابدين - فرحمة على صاحبها: ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ خاصة، ثم ﴿مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ دون تعلم خلقي، إنما علماً لَدُنِّيًا بوحى أو إلهام ليس في نطاق وحي النبوة لزاماً، إلاّ الأنبياء الأولياء الذين جمعوا علمي الوحي ظاهراً وباطناً كالرسول محمد ﷺ وأضرابه في الوحي القمّة أو إلهامه<sup>(١)</sup>.

وتلك الرحمة ليست هي العلم لقرنها به، فهي من مدارج الرحمة المعرفية والمعارج العملية، فلقد كانت عبودية ذات جناحين، لا علماً دون معرفة ولا معرفة دون علم، مهما كان علم ظاهر الشريعة تقليدياً عن رسول كما كان هو يقلد موسى الرسول ﷺ، رغم أنه معلمه من علم الباطن وكما قال: «إني وكلتُ بعلم لا تطيقه ووكلت بعلم لا أُطيقه»<sup>(٢)</sup> وقال «إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله لا أعلمه»<sup>(٣)</sup>.

وقد يكون تنكير ﴿عَبْدًا﴾ هنا للتفخيم كما الإضافة ﴿مِّنْ عِبَادِنَا﴾ للإفاضة والتعظيم.

(١) نور الثقلين ٣: ٢٧٥ ج ١٤٢ في أصول الكافي بإسناده إلى سيف التمار قال: كنا مع أبي عبد الله ﷺ جماعة من الشيعة في الحجر فقال ﷺ: علينا عين، فالتفتنا يمنة ويسرة فلم نر أحداً فقلنا: ليس علينا عين فقال: ورب الكعبة ثلاث مرات لو كنت بين موسى وخضر لأخبرتهما إني أعلم منهما وأنبأتهما بما ليس في أيديهما لأن موسى والخضر ﷺ أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة وقد ورثناه من رسول الله ﷺ وراثته.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٨١ ج ١٥٤ في كتاب علل الشرائع عن جعفر بن محمد ﷺ قال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] لأنني وكلت.. وفي البحار ١٣: ٢٧٩ بدل بعلم «بأمر».

(٣) المصدر.

وخضر هذا تتواتر في شأنه الروايات الإسلامية وسواها<sup>(١)</sup> وأنه باق إلى قيام المهدي (صلوات الله عليه) ولا تنافي حياته لهذا الحد أصلً من الأصول الإسلامية، اللهم إلا إذا كان نبياً، إلا بانقطاع الوحي عنه يوم نبي الرسول محمد ﷺ حيث لا نبوة بعد نبوته ولا وحي بعد وحيه إلى يوم القيامة، وكما في المسيح ﷺ وهو في السماء حيث ينزل زمن المهدي (صلوات الله عليه)، فالخضر والمسيح وسائر المكلفين أياً كانوا وأيان، إنهم منذ بزوغ الرسالة المحمدية أصبحوا من أمته وتحت لوائه، وهل عزل المسيح عن رسالته بعد نصبه؟ إنه انعزال عن أمته وليس عزلاً! ثم لا بأس بعزل ليس فيه مهانة!

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (١١):

عند اللقاء الحبيب سلم عليه موسى ﷺ فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى! قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم - أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، يا موسى! إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه<sup>(٢)</sup> «إني وكلت بأمر لا تطيقه»<sup>(٣)</sup>:

(١) هنالك في مختلف النقل والتاريخ قبيلات ومقالات حول الخضر لا يهمننا ذكرها إلا ما نبه عليه القرآن في مثلث التعريف بـ ﴿عَبْدًا مِّنْ عَبَادِنَا ءَأْتَيْنَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عَلَّمْنَا﴾ [الكهف: ٦٥]!

وقد رويت القصة عن النبي ﷺ كما في الدر المنثور بعدة طرق من أرباب الجوامع كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وغيرهم عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ:

(٢) من حديث رسول الله ﷺ وقد ذكرنا شطرات منها.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٧ ح ١٢٨ - القمي حدثني محمد بن علي بن هلال عن يونس قال: اختلف يونس وهشام بن إبراهيم في العالم الذي أتاه موسى ﷺ أيهما كان أعلم وهل يجوز أن يكون على موسى حجة في وقته وهو حجة الله ﷻ على خلقه؟ فقال قاسم الصيقل: فكتبوا إلى أبي الحسن الرضا ﷺ يسألونه عن ذلك فكتب في الجواب أتى موسى العالم فأصابه =

موسى الرسول ﷺ بعدما يتحمل أعباء السفر ووعثاءه ليلقى الخضر، تراه كيف يحترمه ويتأدب عنده، وهو رسول إليه في الشريعة الإلهية، وولي عليه، وإن كان الخضر علم من علم التأويل ما لم يعلمه موسى فليكونا - لأقل تقدير - على سواء!

ولكنه يعلمنا أن المتعلم أياً كان عليه في سبيل التعلم من أي كان أن يحترمه ويتأدب لديه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ...﴾؟ دون أن تأخذه طنطنة الأهمية الرسالية فيقول: «اتبعني آخذ عنك مما عندك»، أو يتنزل شيئاً: ﴿أَتَّبِعُكَ...﴾ ولكنه قال: «هل أتبعك...» استئذاناً منه في اتباعه تعلماً، حال أنه رسول الله، وقد أمره الله أن يتعلم مما عنده!

﴿أَتَّبِعُكَ﴾ اتباعاً لأمر في سبيل التعلم، ومتابعة لك أينما تذهب، دونما استقلال أمامك فاستغلالك لصالح التعلم، وإنما ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ إن تسمح لي، تواضعاً مضاعفاً أمام المعلم مهما كان المتعلم أمامه في شرعته وهو يقتضي كونه متبوعاً أو مساوياً ومستقلاً بجنبه لا تابعاً، ولكنه في مقام التعلم يتأدب هكذا!

﴿مِمَّا عَلَّمْتَنِي﴾ دون «ما علمت» تواضع آخر أنني لا أعني من هذه المتابعة أن أصبح مثلك وإنما ﴿مِمَّا عَلَّمْتَنِي﴾ أن تعلمني بعض ما علمت! ثم وليس ذلك الاتباع تقليداً أعمى وإنما ﴿عَلَيْكَ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَنِي رُشْدًا﴾:

رشداً في اتباعك ورشداً فيما تعلمني ورشداً مما علمت، فاتباع المعلم وتعليم الرشد في أسلوب غير رشيد، غير سديد، كتعليم الضلال في أسلوب رشيد، فإنه ضلال بعيد حيث يخيل إلى المتعلم أنه رشيد.

= في جزيرة من جزائر البحر فإما جالساً وإما متكئاً فسلم عليه موسى فأنكر السلام إذ كان بأرض ليس فيها سلام قال: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران - قال: أنت موسى بن عمران الذي كلمه الله تكليماً؟ قال: نعم - قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إني وكلت بأمر لا تطيقه ووكلت بأمر لا أطيقه.

فعلى المتعلم أن يكون على بصيرة للحصول على رشدي التعلم بعد  
 رشد الاتباع: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾<sup>(١)</sup>: أي إلى علمه الذي يأخذه عمن  
 يأخذه وكيف يأخذه؟

وبهذا الأدب اللائق بنبي يستفهم دون جزم ويطلب العلم الراشد من  
 المعلم الراشد، باتباع راشد فإنه ليس ليستسلم أمام ذلك التعليم ما لم توافق  
 مواده موازين العقل والشرعة الإلهية! لذلك ينبهه العبد الصالح بما يؤول  
 أمره، لاختلاف ميزاني الظاهر عند المتعلم، والباطن عند المعلم.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾<sup>(١٧)</sup> وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾<sup>(١٨)</sup>:

إحالة في تأكيدي: «إن - لن» أن يصبر معه صبراً، ولا في مادة واحدة،  
 حيث النكرة في نطاق النفي المؤكد ولا سيما المُحيل، إنها تفيد الاستغراق  
 الحاسم الجاسم.

ولكي لا تكون هذه البداية مزعجة غير مترقبة من صالح إلى نبي، وبعد هذه  
 الآداب، والحرمان المسبقة، يعذره المعلم في ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ﴾ بـ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾  
 على ما ترى من خلاف الشرعة وهو خلاف العدالة والعصمة أن يسكت صاحب  
 الرسالة عن التنديد بأمر إمر، أو نُكر، أو خلاف العقل، حيث التقرير زاوية من  
 مثلث السنة! يعذره عن أن يصبر ﴿عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ وحيطة الخبر لزامٌ  
 عقلي وشرعي فيما يخالف ظاهره الشرع أو العقل، لكي يتغلب باطنه الأمين  
 على ظاهره غير الأمين فيصبر على إمر الظاهر لأمر الباطن، والصبر ما أوله مرّ  
 وآخره حلو فمن دخله من أواخره فقد دخل ومن دخله من أوائله فقد خرج ومن  
 عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر. . .»<sup>(٢)</sup> وموسى يعرف قدر الصبر

(١) سورة عبس، الآية: ٢٤.

(٢) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام واستدل في ختامه بالآية قال الله تعالى في قصة  
 موسى والخضر عليهما السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]!

وموقعه فلا يصبر عما منه الصبر وهو عصيان في ظاهر الشرعة وحتى في احتمال أن آخره حلوا!

فالشرعة الإلهية أعلى محتداً وأوجب رعاية وحرمةً من حرمة المعلم أياً كان، إذا تناحرتا، فلا طاعة لمخلوق - ولا رعاية - في معصية الخالق، وكما لا معصية لمخلوق في طاعة الخالق، وإنما هي طاعة الله لا سواه، وإحاطة الخبر فريضة عادلة في كل فعل أو ترك أن يعرف وجهه في شرعة الله فيؤتى به أو يترك، بوحى أو اجتهاد أو تقليد صالح، وليس موسى ممن يقلد خضراً فإنما يمشي ويمضي بوحى، ثم التقليد الصالح قد يجابه بما يُحير العقل فسؤالاً وجواباً مقنعاً أم تركاً واعتراضاً محتاطاً!

ومهما يكفي خبراً ما في فعل أو ترك لا يرفضه العقل، ويفرضه ظاهر الشرع، فلا يكفي فيما يرفضه حكم العقل وظاهر الشرع إلا إحاطة الخبر لحدِّ يحوله إلى مسموح أو مفروض!

نرى موسى حينما يواجهه ويجابه بـ ﴿لَنْ نَسْتَطِيعَ﴾ حيث تحيل أهليته لذلك التعلم، لا يتبرم وينزعج فيترك تعلماً فيه مهانة، بل يجيبه بما يؤهله ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وبعذره ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فيمضي في هذه الرحلة الدراسية على ضوء ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليم صعب وتعلم صعب على عبيد من الرعيل الأعلى في علم الظاهر والباطن.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٦٩):

يقولها موسى ولا يدري أنه يواجه أمراً إمبراً أو نكراً أو خلاف العقل! وحيث الصبر - وبمشية الله في هكذا أمر - لا يترجأه مؤمن فضلاً عن موسى الرسول ﷺ.

و﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هنا هي مشية الله تشريعاً فتكويناً فـ ﴿سَتَجِدُنِي... صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ مهما أبهم أمره، ما وافق شرعة الله ثم شاءه الله توفيقاً لما أشاءه.

وهذه تكفل حتمية الصبر من موسى عليه السلام شرط **﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾** في بُعديها، فلا خلف في وعده ولا تخلف عن مشيئة الله إذ لم يصبر على أمرٍ إمر أو نكر، إذ لا يشاءه الله في شرعة ظاهرة، ولا تكويناً بعد أن لا يصبر موسى حسب تكليفه الظاهر.

أجل **﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾** إلا أن يكون أمرك عصياناً لله وإمراً، فقد تمت شروط وأداب التعلم من موسى عليه السلام وثم ماذا من الخضر؟

**﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾** (٧٠):

ينبّه أن أمره يثير السؤال العاجل وقد لا يصبر عنه إلى أجل، فلذلك يشترط عليه لآخر المطاف ترك العجال في السؤال ويربطه بمتابعته التي هي أوّل المطاف في هذا المجال! **﴿فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي﴾** دون أن يفرض عليه عدم السؤال إلا بشرط اتباعه المطلق في رحلته المدرسية، الذي لزامه التسليم أمام المعلم كما يراه لصالح التعليم، تبدأ أمام موسى الرسول عليه السلام كما تأدب هو أمامه مع أنه إمامه في الشرعة الإلهية!

إذاً فلا سؤال فيما يأتي من أمره كيفما كان **﴿حَتَّى أُحَدِّثَ﴾** دون سؤال **﴿لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾** هو إجابة عن كل سؤال على أية حال في هذه الرحلة العلمية إحداثاً منه وابتداءً دون سؤال! ويا لها من صعوبة أن موسى الرسول المحيط خبراً بكل ما يفعل أو يقول، أو يؤتى أمامه عن أي فاعل أو قائل، أن يسكت طول هذه الرحلة عن مجاهيل الأمر، على احتمال أن فيه نكراً أو إمراً!

لكنه مأمور لمواصلة هذه الرحلة، وهكذا مأمورٍ معذورٍ إلا فيما لا يُعذر، فعليه التحمل ما لم يكن حملاً لا يحمله الشرع والعقل، فيرضى موسى محتاطاً في صبره وعدم عصيانه وسؤاله بـ **﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾** رقابة تامة على ظاهر الشرعة، وعلى ضوئها ما يحدث في رحلته مواصلة لها، وقد



يتناسى لرعاية الشرعة لزوم صبره وإن كان على أمرٍ إمري، وخضر يستأجله في تأويل ما لم يحط به خبيراً، ولكننا التعود على الالتزام بظاهر الشرع ولرسول معصوم لا يمهل أن يصبر حيث يراه إهمالاً للشرع! ..

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَا لِئُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ

شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧﴾﴾ :

﴿فَانْطَلَقَا﴾ هنا دون «انطلقوا» دليل أن موسى ترك فتاه في الملتقى، ولأن الانطلاق هو التخلي عن وثاق كما الطلاق تخلية عن وثاق، فقد كان وثاق حتى الملتقى فمن هناك الانطلاق، وثاق موسى بفتاه، ووثاقه بعلم الظاهر، ثم وثاق خضر بوحدته وبعلم الباطن، ﴿فَانْطَلَقَا﴾ يعني لكل [انطلاقين وإلى مجمع بحري الظاهر والباطن :

﴿... حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ...﴾ ﴿السَّفِينَةِ﴾ معرفة تلمح أنها بخصوصها كانت مقصودة للخضر كأول المطاف في هذه الرحلة، فلم يقل «سفينة» كما وأن ﴿إِذَا﴾ تؤيد هذه المعرفة المستبقة عن السفينة، فهما إذاً في هذه الرحلة المدرسية ﴿فِي السَّفِينَةِ﴾ يتابعان واجب التعليم والتعلم! -  
﴿خَرَقَهَا﴾! مسافر بأجرة أم دون أجرة<sup>(١)</sup> ولا يملك السفينة وحتى لو

(١) الدر المنثور في حديث رسول الله ﷺ عن القصة «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة فكلموهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول فلما ركبا السفينة فلم يفتأه إلا والخضر وقد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عهدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً أمراً...»  
قال رسول الله ﷺ : كانت الأولى من موسى نسياناً قال وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل نقص هذا العصفور من هذا البحر.

وفي نور الثقلين ٣: ٢٧ ح ١٥١ في تفسير العياشي عن عبد الرحمن بن سيابة عن أبي عبد الله ﷺ وساق القصة إلى قوله ﷺ فانطلقا حتى انتهيا إلى معبر (سفينة) فلما نظر إليهم أهل المعبر قالوا: والله لا نأخذ من هؤلاء أجراً اليوم فحمل عليهم فلما ذهب السفينة وكثرت الماء خرقتها... .

ملكها ﴿خَرَقَهَا﴾؟ أمرٌ إمراً: داهية عظيمة، تستقبل موسى بداية الأمر! لن يستطيع موسى أمامه صبراً فيبتدر في اعتراض: ﴿قَالَ أَخَرَقَهَا لِئُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ كغاية يخلفها خرقها وإن لم يقصد به غرقها ولكنه حسب العادة يعرف غرقها بخرقها! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ حكم على أمره بإمره في تأكيدين: «لقد» حيث الإمر وهو الداهية العظيمة هناك، كان إمرًا من جهات عدة أعظمها الذي ذكره كغاية كأنها المقصودة فقط: ﴿لِئُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وفيه ضمن أهلها غرقهما، وفيه - لأقل تقدير - تصرف ضار في مال الغير، فلأن تعريض الغير ولا سيما جماعة إلى الخطر أنكر من تعريض النفس كما هو أنكر من إتلاف المال، لا يأتي هنا من إمر أمره إلا ﴿لِئُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ حيث الخرق كان لحد الغرق.

لقد كان موسى ﷺ هنا معذوراً في اعتراضه بلفظة قاسية، ويعذره موقفه الرسالي من ناحية، وعله لم يدر أن خرق السفينة هو من موارد تعليمه ومواده من أخرى، حيث تعود التعلم بوحى الشرعة قولاً، وأما أن عملاً ما كهذا داخل في التعليم فلم يتعوده رسالياً، ففوجيء هنا بالخرق الغرق فانبرى غضباناً أسفاً ﴿أَخَرَقَهَا... إِمْرًا؟!﴾

سفينة تحملهما بركاب لها وهم وسط اللجة تلعب بها في جزرها ومدّها، ثم يأتي عبد الصالح في رحلة تعليمية لموسى الرسول ﷺ فيخرقها ليغرقها وأهلها، إنها طامة كبرى وداهية عظمى تغطي على موقف المعلم وما وعده موسى ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ ولكن كيف يشاء الله صبراً في مثل هذه الداهية، فحق له أن ينسى ما وعده وإن لم يستثن وقد استثنى! ثم العبد الصالح لا يزيد على ما بدأ.

﴿قَالَ اللَّهُ أَقَلَّ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٦):

وهذه أوّل خطوة في رحلتنا ما صبرت معها، وكما قلت لك بداية

الرحلة، وما هي الفائدة في تعليم لا تتوفر شروطه ولن:؟! إذا فاتركني وشأنك وشأني، أم حاول لإحالة ظاهر الحال الأمر إلى باطن الأمر بصبر هو مفتاح الفرج!

﴿قَالَ لَا تَأْخُذْ بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْ مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾: ﴿٧٣﴾

فإنما نسيت وعدك دون تقصير، بل نسيان أو تناس واجب بظاهر الشرع فترك ذلك النسيان عصيان، فلا تؤاخذني! ﴿وَلَا تُرْهِقْ﴾: لا تعشني بقهر في تكليف التكلف ألا أنسى ومن حقي أن أنسى أو أتناسى ﴿وَلَا تُرْهِقْ مِنْ أَمْرِي﴾ تعلماً في هذه الرحلة العسيرة ﴿عُسْرًا﴾ على عسرها، فإن لم أصبر أنا ولن.. فاصبر أنت إذاً، ولكي نُنهي أمرنا على أمره، فلا تزد إمرأً على إمر وعسراً على عسر! والتكليف في عسر مرفوض في ظاهر الشرع فـ ﴿وَلَا تُرْهِقْ مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾!

و﴿أَمْرِي﴾ يشمل أمري النسيان والرحلة المدرسية، فلا تندد بي إذ نسيت ولا تترك تعليمي بعدما نسيت.

نرى هنالك اجتمعت المشيئتان التكوينية والتشريعية التي تبنتها إن لم يصبر على أمره الأمر، وينهاه موسى عن مؤاخذته بما نسي وإرهاقه من أمره النسيان والتعليم عسراً، ولو كان نسيانه محظوراً لكانت المؤاخذة عليه حقاً في ظاهر الشرع، فلماذا ينهاه موسى عن مؤاخذة وإرهاق وليس لينهى إلا حسب الشرع، كما لم يصبر حسب الشرع!

وترى ﴿أَخْرَقْنَاهَا لِتُغْرِقَ...﴾ لم تكن فرية على الخضر وحكماً على أمره بإمره، ومجال الاحتمال لحلية أمره واقع حيث التنبيه المسبق ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا...﴾ ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي...﴾؟

الجواب إنه سؤال استفهام وليس حكماً، ولم تكن المؤاخذة ﴿أَلَمْ أَقُلْ...﴾ إلا على سؤاله لا فريته، و﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ حكم على فرض

عدم الجواب المقنع، أو حكم بظاهر الشرع دون باطنه فلا محذور فيه، وقد أعذره الخضر!

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِنَفْسِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ :

﴿فَانطَلَقَا﴾ انطلاقة ثانية في مواصلة الرحلة المدرسية، انطلق موسى تخلياً وتخلصاً عن وثاق الوعد: النسيان الاعتراض في سؤال التنديد، وانطلق الخضر عن المؤاخذه بما نسي موسى عليه السلام إرهاقه العسر ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ وقعا في وثاق ثان ﴿لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾: قتله فور لقائه دون حوار، وحسب الظاهر دون معرفة مسبقة عن حاله، وهذا أمرٌ وأدهى من خرق السفينة<sup>(١)</sup> فإنه يخلف الغرق وقد يمنعه مانع من سدّ الخرق كما فعل، ولكنما القتل واقع لا يجبر بشيء، فانبرى موسى نبرة أشد من الأولى ناسياً وعده هنا وكان أخرى إذ يرى نكراً بعدما رأى إمرأاً ﴿قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِنَفْسِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

ترى وكيف عرف أن الغلام نفس زكية، أو أن قتله كان بغير نفس؟ أكانت زكية حيث الغلام لائح في غير البالغ، وهو نفس زكية على أية حال حيث كونه مرفوع القلم حتى وإن قتل نفساً فالدية إذاً على العاقلة دونه.

ولكن فرض الدية على العاقلة لا يجعل القاتل غير البالغ زكياً وغير قاتل، وإن لم يجر قتله حيث القلم عنه مرفوع!

أو أنه كان بالغاً والغلام من بلغ حدّ الغلومة والشبق بالغاً وسواه، وقد نتبلّغ بلوغه هنا من ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ اللائح في تجويز قتله بنفس، ومن ثم

(١) الدر المثور في حديث رسول الله ﷺ عن القصة ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى... وهذه أشد من الأولى..

الجواب في تجوز قتله بكفره المرهق ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾  
والكفر المرهق الطاغي مما يفرض القتل فإنه فتنة وفساد كبير ﴿وَأَلْفِتْنَهُ  
أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾<sup>(١)</sup> فإنها قتل لنفوس مؤمنة لإيمانها!

وكيف عرف موسى إنه نفس زكية دون معرفة عنه مسبقه، وإنه لم يقتل  
نفساً أو لم يأت بما يهدر دمه؟ علّه لأنها كانت لقياه الأولى، والأصل في  
كل نفس كونها زكية غير كافرة، وأنها لم تقتل نفساً، أو أنها زكية عن قتل  
الغير إن كانت اللقيا في أرض كافرة، ف ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ تأكيد لكونها زكية،  
وأصل البراءة حكم من ظاهر الشرع يحكم بهذه وتلك، إلا ما خرج بدليل،  
ولا دليل على خلافه حاضراً في هذه اللقيا، وموسى ﷺ رسول وإمام  
يحكم بظاهر الشرع: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾: يستنكره كل عارف بموقفه!.

أو أن حكمه لم يكن بتأ حيث احتمال البراءة قائم، فإنما حكم شرط  
كونها ﴿نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ وإذا ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

ولماذا يذكر موسى مسوغاً واحداً للقتل ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ إن قتل النفس  
إنما يجوز بنفس؟ علّه لأنه المسوغ الأصل لقتل النفس قصاصاً ثم يلحقه  
غيره من فساد في الأرض أم ماذا ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي  
الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾<sup>(٢)</sup> نقلاً قرانياً عن ذلك الحكم في  
التوراة!

أو أن ﴿زَكِيَّةً﴾ تلمح إلى سبب عام في هدر الدم، إنها كافرة بارتداد  
أمّاذ، أم مفسدة في الأرض؟ وقد أجمل عن أسباب أخرى كهذه حيث  
الغلام بعيد عنه إفساد على علمته!

فإذا كانت المرحلة الأولى من هذه الرحلة خرق السفينة واحتمال غرق

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

من فيها، ففي الثانية «قتل نفس زكية بغير نفس» أمرٌ نكر لا يستطيع موسى أن يصبر عليه، فقد يستنكر هنا دونما نسيان، وكما لم يعتذر كالأولى ﴿يَمَا نَسَيْتُ﴾ وإنما ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي...﴾ دونما تأول سبب يعتذره -

هنا - وبعد هذا السؤال العضال - يردد المعلم تنديده الأديب.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥):

كما مضى دون زيادة إلا ﴿لَكَ﴾ أقل لك موسى الرسول كليم الله متابعي في هذه الرحلة، لك لا سواك، لك مرتين: قبل الرحلة وعند الخطوة الأولى ﴿إِنَّكَ لَنْ...﴾ كمستحيل عليك أن تستطيع معي صبراً، حيث «وكلتُ بأمر لا تطيقه ووكلتُ بأمر لا أطيقه» فكما لا تطيق أنت معي صبراً بحكم الشرعة الظاهرة، كذلك أنا لا أطيق على سؤالك صبراً بحكم الشرعة الباطنة!

ولو كانت لهذا المعلم ولاية مطلقة إلهية على ذلك المتعلم كان عليه التسليم المطلق، ولكنما الولاية المطلقة هناك إنما كانت لموسى ﷺ على الخضر ﷺ وهو من أمته، فكيف يستلم له في رحلته وإن كان وعده متابعته واتباعه، ولكنه استثنأها بمشيئة الله في بعديها، وهذه تختلف في بعد المشيئة التشريعية عن المتابعة المطلقة لمن له الولاية المطلقة كأنباء الله وأضرابهم، والبعد التكويني في استثناء المشيئة كائن أياً كان ولأبي كان وكما الرسول ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ.

لذلك لا يستسلم موسى أمام الخضر إلا على ضوء ظاهر الشرعة الإلهية مهما بلغ في رحلته من رهق الصعوبة أو الحرمان.

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٦):

إن المرة الثالثة بعد الأولى والثانية هي آخر المرات وليست آخر

الخطوات، ولكنك لا تحملني وأنا لا أحملك لاختلاف المعيارين، ف ﴿إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ وأحاول ألا أسأل ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ - ﴿فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾ استمراراً في هذه الرحلة ف ﴿قَدْ بَلَغْتَ﴾ إذا ﴿مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا﴾ حيث أعذرني في ترك الصحبة إذ لا تتحمل سؤالي قبل أن تحدث لي جواباً، ولكنني أتحملك في تأجيل الجواب مهما لا أتحملك عن تعجيل السؤال، والفرق لائح من ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي﴾ دون «قد بلغت عذراً من لدني ولدنك!» فحياءه إلى المشهد الثالث والأخير.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنَّىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآكَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧):

خطوة ثالثة وهي الأخيرة من تلك الرحلة المدرسية هي أخف وطأة من سابقتها فإنها في ظاهر الحال خلاف العقل وليس محرماً شرعياً أم يخف!

﴿فَانْطَلَقَا﴾ كلٌّ من وثاقه ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَنَّىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا﴾ الأهل الثاني عليهم الأهل من أهلها: من فيه الأهلية أن يُستطعم، أترى كيف يجوز عليهما الاستطعام؟ أسوئاً وهو حرام إلا عند الضرورة المدقعة ببقية على حياة ولم تكن حيث أقام الجدار! أم استضيافاً كما ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾؟ فكذلك الأمر وإن كان أهين.

علّه كان جوعاً لحد الحرج حيث لا يستطيعان مواصلة الرحلة الواجبة، والاستضياف عنده، وممن يُؤهل للإضافة هو في حدّ الوجوب، أم لأقل تقدير يجوز، ثم وليظهر لهم لؤمهم، فتظهر إقامة الجدار دون طلب لأجر أكثر وأظهر عجباً لموسى فتكتمل الرحلة بذلك الأمر الإمر العُجاب، وليخجلوا لما رأوا إقامة الجدار دون بغية الأجر، أمّاذا من حكم مجوزة أو موجبة لاستضيافهما.

وما الأهم حيث أبوا ﴿أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وقد يروى أنهم لما سمعوا نزول

هذه الآية استحيوا وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ بحمل من الذهب وقالوا يا رسول الله ﷺ: نشترى بهذا الذهب أن تجعل الباء في «أبوا» تاء: «أتوا» ليندفع عنا هذا اللؤم؟ فامتنع رسول الله ﷺ . . (١).

أترى بعد هذه اللآمة اللعينة والإهانة المهينة يستحق أهل هذه القرية كرامة مُتعبة مجانية وعلى رهق الجوعة المهلكة؟ ولكن ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ﴾ على وعشاء السفر وشقوة الجوع ولآمة أهلها ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر، وطبعاً لا يساعده موسى حيث السؤال الفادح: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ و«لو» هنا تلمح إلى حالة من الجوع والنصب يُرثى لها وتُحيل أي عمل فضلاً عن إقامة الجدار، ف ﴿لَوْ شِئْتَ﴾ عملاً كمستحيل تحميلاً على نفسك لاتخذت قبله عليه أجراً.

جدار يريد أن ينقض، وكيف يريد الجدار ولا إرادة للجما، إلا تصويراً لمقارفة الانتقاض، حيث ظهرت فيه أماراته من ميل بعد ثبات واضطراب بعد انتصاب!

وترى أن الخضر استأذن صاحب الجدار فأقامه! وكان ﴿لُعْلَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ إنه أقامه بولاية شرعية، ولكنه مجهول لدى موسى فيعترض ﴿لَوْ شِئْتَ . . .﴾. وترى ﴿لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ بعدما أقامه؟ وليس لغير الأجير أجر، بل وعله عليه وزر تصرفاً في مال الغير بدون إذنه! طبعاً قبل ما أقامه عليه أن يستأذن أهله على أجر، حيث الضرورة قائمة هناك على أخذ الأجر، مما يفرض عرض الإنسان نفسه لعمل بأجر ببقية على حياة وتداوماً في تلك الرحلة الواجبة.

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢١ ص ١٥٧: رأيت في كتب الحكايات . . . وفي رواية ابن بابويه والقمي أن هذه القرية هي الناصرة التي تنسب إلى النصارى، وفي بعضها أن الأرض كانت آذربيجان والقرية باجر وكان أهلها لثاماً وعن القرظي أنها طنجة.



فحسب الظاهر ليس هذا الموقف موقف الترحم على هؤلاء اللئام،  
فليرحم نفسه وصاحبه بأخذ الأجر، فتركه خلاف العقل ولا يسمح الشرع! .

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنِيكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٧٨) :

فراق حسب الشرط ﴿ فَلَا تُصْغِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنَ لَدُنِّي عَذْرًا ﴾ وقد تعلم منه  
مما علمه رشداً، وقد تبين الرشد في كليهما معلماً ومتعلماً بكل احترام دون  
اخترام.

في الخطوة الأولى والثانية اعتذرت فأعذرتك وللثالثة أعذرت دون  
اعتذار ف ﴿ هَذَا ﴾ السؤال دون إعدار ﴿ فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ كما اتفقنا  
﴿ سَأْنِيكَ ﴾ كما وعدتك: ﴿ حَتَّى أُحْدِثَ . . . ﴾ بتأويل مأخذ ومرجع ﴿ مَا لَمْ  
تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ !

فراق حنون بعد وفاق حنون وكلّ خطى خطواته كما علم، وقد حصل  
ما قصد كأن يعلم موسى أن في أمته من هو أعلم منه في علم الباطن، مهما  
كان هو أعلم منه في علم الظاهر، ف ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ اللهم إلا  
علام الغيوب، فلا يزعم أحد أنه أعلم الخلق أجمعين وإن كان كموسى  
الرسول، فضلاً عن سواه، حيث العطيات موزعات بعلم العليم الحكيم  
حسب القابليات!

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ

يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٧٩) :

أراد الله أن تبقى السفينة لمساكينها، ولو شاء لحقق ما يشاء بصرف أماذا  
من خارقة. ولكنه شاء بفعل من غيره غير خارق: ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أردته  
تحقيقاً لمشية تشريعية، وأخرى تأييدة تكوينية إلهية كما في كافة الواجبات .

لم يقل أردنا حيث لم يشاركه موسى، ولا أراد الله حيث لم يرد الله

الإعابة بفعله خارقة، وإنما أراد تعالى إصلاحها بما أعابها الخضر، فالإعابة فعله بسماع شرعي، والإصلاح فعل الله بسماع تكويني.

﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾: ملك وراء المساكين يلاحقهم أي كانوا ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فليست الورا هنا وراء الخلف<sup>(١)</sup>، وإنما وراء التخلف والملاحقة من أية جهة كانت و﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ تعني من مساكين وسواهم حيث هي صالحة للاستثمار، فلتكن صالحة غير معيبة، ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ في الظاهر لأصلح أصلها لكيلا تغتصب.

على الملوك أن يكونوا وراء الشعوب ولا سيما المساكين خدمة لهم وإصلاحاً، وهذا الملك كان وراءهم خيانة وإفساداً ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فلأنني أحطت بذلك خيراً أعبتها للحفاظ على أصلها، ثم الحفاظ على أهلها عن غرقها حاصل بما سدنا ثغرتها.

بهذا العيب الصغير نجت السفينة عن الضرر الكبير الذي يكنه الغيب إن لم يكن لها عيب، ولتكن هذه سنة للحفاظ على الأصلح وكما عاب الإمام الصادق عليه السلام زارة في ظهر الغيب حفاظاً على نفسه، وبهذا المعنى الغاية تبرر الوسيلة، فإعابة السفينة محرمة لولا هذه الغاية، دون أن تبرر كل وسيلة بكل غاية، وإنما الغاية الأهم بوسيلة دون الأهم، فغاية توطيد أركان

(١) الدر المنثور ٤: ٢٣٧ - أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقرأ «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً».

أقول: أما «صالحة» فهي تفسير بيان للسفينة، وأما «أمامهم» فقد يعني «بين أيديهم» دون أن يكون «أمامهم» بدل «وراءهم» و«صالحة» محذوفة عن القرآن، حيث تطارده أحاديث العرض ولا نصدق إلا كتب القرآن المتواتر والمجمع عليه طوال القرون الإسلامية! ويشهد لذلك ما رواه العياشي عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أنه كان يقرأ ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] يعني أمامهم «يأخذ كل سفينة صالحة غصباً».

الخلافة بواسطة تثبيت معاوية رديحاً من الزمن لا تبرر، حيث الخلافة العادلة لا ترتضي ظلماً يتبناها أو يوظدها، وإبقاء معاوية إبقاء للظلم ريثما يثبت العدل ثم يزيل معاوية الظلم، ومن ذا الذي يضمن بقاء الإمام في هذه الفترة حتى يعزل معاوية، ومن ذا يضمن إمكانية عزله إن بقي الإمام وهو يقوى كما الإمام يقوى، حيث هما في سبيلهما إلى الاستبقاء!

فهنا نرى أن في إمهال معاوية الطاغية رعاية لاستحكام حكم علوي مجهول، وإبقاء لاستمرار واستحكام ظلم الطاغية وهو معلوم، بيد أن غاية العدل لا يبررها أي ظلم!

فليست «الغاية تبرر الوسيلة» ضابطة صالحة لا تستثنى، ولا حابطة طالحة لا تصلح، وإنما الضوابط الشرعية الأخرى هي التي قد تبرر وقد لا تبرر، كما بررت في خرق السفينة، دون إمهال معاوية!.

إذاً فكل ما دون قتل النفس من المحرمات تبرر كمقدمات للحفاظ على النفس، كأن تغتاب أخاك أو تفترى عليه أو تهتكه وتضربه أمّاذا حفاظاً على نفسه، وكل ما هو فوق القتل كضياع الشرع أمّاذا لا تبرر للحفاظ على النفس، وهذه الفوقية والتحتية مستفادة من الشرع، فإذا كانا على سواء فعلى سواء، ضابطة عامة في تقديم الأهم على المهم!

هنالك شروط عدة في تبرير الغاية الوسيلة، من كونها أهم من الوسيلة كما في زرارة والسفينة، وكون الغاية الأهم قطعية كالوسيلة، فإن كانت هي محتملة والوسيلة قطعية فلا تبرر، إلا فيما المحتملة أيضاً أهم من تلك الوسيلة، كمظنة حفظ النفس أو احتمالها حيث تبرر وسيلة خفيفة كضرب أو شتم أو اغتياب أمّاذا؟

وأن تتوارد الغاية والوسيلة على فرد أو جماعة، كأن تظلم فرداً أو جماعة بظلم لئلا يظلم بأكثر منه كما في السفينة، فأما أن تظلم فلاناً ليسلم غيره من

ظلم وإن أكثر منه فلا كما في إبقاء معاوية تُظلم الجماعة المؤمنة في فترة بقاء معاوية لسدّ ظلم أكثر منه - ولا أكثر منه! - في مستقبل مجهول وعن جماعة غير معلومة، علّ فيها من هؤلاء - لا كلهم - وعلّهم ليسوا فيها! .

لا نستطيع في هذا المجال الخاص الحاصر أن نستعرض كل المعارضات بين الوسائل والغايات من الفقه كله، فنحشر الفقه لنحشركم على حافة من المسرح العام، فليتبّع وفي كلّ ضابطته علماً بأن الغاية ليست لتبرير الوسيلة كضابطة عامة، فقد تبرر بضابطة وقد لا تبرر بضابطة، فليست هي إذاً ضابطة وإنما السلب والإيجاب لتبريرها حسب الضوابط المقررة في مجالاتها .

ومن أهم السياسات الحفظية على الصالحين كسرهم عند من يريد كسحهم حتى لا يبدهم وكما فعل الإمام الصادق عليه السلام بزيارة معتذراً إليه في تعيينه إياه موضعاً له موقفه قائلاً له: «يرحمك الله فإنك والله أحب الناس إلي وأحب أصحاب أبي إلي حياً وميتاً فإنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام وإن من ورائك لملكاً ظلوماً غصبواً يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد من بحر الهدى ليغصبها وأهلها فرحمة الله عليك حياً وميتاً ورحمته ورضوانه عليك ميتاً<sup>(١)</sup> .

(١) نور الثقلين ٣: ٢٨٥ ح ١٦٣ في كتاب تلخيص الأقوال في تحقيق أحوال الرجال في ترجمة زيارة بن أعين روى في الصحيح أن أبا عبد الله عليه السلام أرسل إليه إنما أعيبك دفاعاً مني عنك! فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدنا مكانه لإدخال الأذى فيمن نجبه ونقربه ويذمونه لمحبتنا له وقربه ودنوه منا ويرون إدخال الأذى عليه وقتله ويحمدون كل من عبناه فإنما أعيبك لأنك رجل اشتهرت بنا وبمملك إلينا وأنت في ذلك مذموم عند الناس فيكون ذلك دافع شرهم عنك لقول الله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] هذا الرسل من عند الله صالحة، والله ما عابها إلا لكي تسلم من الملك، فإنهم المثل يرحمك الله فإنك والله أحب الناس إلي وأصحاب أبي إلي حياً وميتاً فإنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام وإن من ورائك لملكاً ظلوماً غصبواً يرقب عبور كل سفينة .

وفي دوران الأمر بين المهم والأهم لا بد من تشخيص ذلك من اجتهاد أو تقليد كما يصح: دون الهوسات والتصورات السطحية الخاطئة، حيث تورط إلى طامة كبرى لا علاج لها أم يصعب.

ف «الغاية تبرر الوسيلة» ليست ضابطة فقهية عامة، حتى تلعب بها العامة كما تستعملها الخاصة، وحتى إذا كانت ضابطة فلا تنضبط في التحقيق والتطبيق إلا عند أهلها الخاصة، ولكنها كما نبهنا ليست آية من كتاب أم رواية من سنة، بل هي حسب المظاهر المواتية للواقع، ضابطة سياسية يبرر بها الساسة دسائسهم الجهنمية، وكما نجدتها في الأصل عند الصهيونية العالمية، حيث أوصلوها إلى حدّ إقحام آيات في التوراة وتحريف آيات أخرى أمّاذا من اقتحامات ضالة مضلة.

ثم على ضوء الفقه الإسلامي السامي نصلح هذه الضابطة غير الضابطة بحيث تصلح في العناوين الثانوية حسب الضوابط الإسلامية القاطعة.

﴿وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِجْماً خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رِجْماً ﴿٨١﴾﴾:

هنا يبرر الخضر قتل الغلام بفساده كفراً وإفساده أن يرهق أبويه المؤمنين طغياناً وكفراً، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ والإفساد في الأرض من مبررات القتل ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ...﴾<sup>(٢)</sup> وإرهاق الأبوين المؤمنين طغياناً وكفراً - وهما يستحقان رحمة أكثر ممن سواهما - أنه من أبرز الإفساد والسعي فيه.

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

فكون الغلام حينذاك كافراً دليلاً كونه مكلفاً! <sup>(١)</sup> وكون أبويه مؤمنين يجعله مرتداً فطرياً يستحق القتل ولا يستتاب وإن تاب لم تقبل! فخشية إرهاقه إياهما طغياناً وكفراً يهدّر دمه ثانياً بعد تهدره بارتداده! وإرادة إيدألهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً، زاوية الثالثة تفرض قتله! فحتى لو كان غير بالغ لكان يحق القتل دفعا للإفساد المحتوم.

فهذا الغلام الذي لا يبدو في ظاهره وحاضره أنه مستحق القتل، إذاً هو في متن الغيب كافراً طاغ يخشى أن يرهق أبويه طغياناً وكفراً.

وترى لماذا هنا ﴿فَخَشِينَا... فَأَرَدْنَا﴾ وهنالك ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ لأن إرادة الإعاية لم تكن إلاً منه دون موسى حيث ندّد بها! وحتى إذا عرف موسى جوازها فلا حاجة في الإعاية إلا إرادة وإعاية واحدة، وأما الخشية من الإرهاق، فهي كائنة للخضر ومقدرة لموسى وعلى كل مؤمن بالله أن يخشى الإرهاق، مهما كان دفع الخشية بالقتل يكفيه واحداً، وبعد العلم والخشية تأتي الإرادة «أن يبدلها ربهما خيراً...».

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٣٦ - أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز في قوله : لقباً غلاماً قال كان غلاماً ابن عشرين سنة فيه - أخرج مسلم وأبو داود والترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن مردويه عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال : الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ولو أدرك لأرهق أبويه طغياناً وكفراً وروي مثله عن ابن عباس عنه ﷺ إلا ذيله ، أقول : قد يعني «طبع كافراً» أنه منذ أن بلغ طبع نفسه كافراً فإن الله لا يطبع أحداً على الكفر فكل مولود يولد على الفطرة ، ثم «ولو أدرك» يؤول إلى إدراكه أبويه على كفره إرهاباً لهما كافراً .

وفي نور الثقلين ٣ : ٢٨٥ ح ١٦٤ في مجمع البيان روي عن أبي عبد الله ﷺ «أما الغلام فكان كافراً وأبواه مؤمنين - أقول : وهذا تفسير وليس نقلاً لأصل الآية .

وفيه (١٦٧) عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله ﷺ قال : سمعته يقول : بينما العالم يمشي مع موسى إذ هم بغلام يلعب قال : فوكزه العالم فقتله قال له موسى ﴿أَقْنَلْتِ...﴾ [الكهف : ٧٤] قال : فأدخل العالم يده فاقتلع كتفه فإذا عليه مكتوب «كافر مطبوع» .

يا موسى لست أنا الوحيد في هذا الميدان، فأنت معي وكل مؤمن بالله أن نخشى ما أخشاه ونريد ما أريده بعد العلم بموقف الغلام وأبويه المؤمنين، وأما إرادة الإعاقة فيكفيها واحد ثم لا يريد سائر من يعرف الواقع إلا الحفاظ على سفينة المساكين بأية طريقة ممكنة، دون ضرورة إيمانية في إرادة جماهيرية للإعاقة!

وترى أن خشية الإرهاق طغياناً وكفراً وهي دون العلم كيف تبرر القتل ولا علم ولا إرهاق حينذاك؟

هنالك المبرر لقتل الغلام يكفي كونه مرتدّاً فطرياً وفي حالة الإفساد ولما يرهق أبويه، ثم الخشية لا تنافي العلم الحاضر الظاهر، حيث الواقع قد يتخلف عما تعلم، فالصيغة الأدبية عن العلم الظاهر فيما لا يجوز هي الخشية، خوفاً أن يستقبل خلاف ما يعلمه حاضراً، فلم يكن - إذاً - قتل الغلام قصاصاً قبل الجنابة، حيث الارتداد الفطري هو جنابته الحاضرة، إضافة إلى خشية الإرهاق حيث تلمح إلى حاضر السعي في الإفساد، ولكي يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً.

أترى أن الغلام كان خيراً وقريب الرحم حتى يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً؟ كلاً فلا خير في هذا الكافر ولا رُحم لأبويه، وإنما الأفضلية في «خيراً وأقرب» مجازاة ظاهرة في خير الغلام ورُحمه.

وهل إن «طغياناً وكفراً» مفعولان لـ «يرهقهما» أن يغشيهما بقهر طغياناً وكفراً وليطغيا ويكفرا؟ أم حالان لـ «يرهقها» إرهاقاً لهما حالة الكفر والطغيان؟

قد يعنيهما المنصوبان حالين حال كونهما مفعولين حيث يتحملهما أدب اللفظ وجمال المعنى، فالمرهق حالة الطغيان والكفر يرهق إلى حالة الطغيان والكفر دون زكاة منه ولأرحم أكثر مما في غير حالته.

ولقد سلبت «خشينا» بقتله وتحققت «أردنا» حيث أبدلها ربهما خيراً منه زكاة: ظهارة وإيماناً في نفسه، وأقرب رُحماً: رحمة لأبويه<sup>(١)</sup>.  
 مثلث من موجبات القتل يسبب قتل هذا الغلام الكافر وزاوية منه كافية ومثلث آخر هي من موجبات الرحمة يفرض إقامة الجدار دون أجر:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَلِكِ فَأَوْيَلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾:

... جدار هو ليتيمين في المدينة يريد أن ينقض، تجب إقامته مجاناً على ولي اليتيم والخضر من أفضل الأولياء «وكان تحته كنز لهما» يجب الحفاظ عليه بإقامة الجدار مجاناً، «وكان أبوهما صالحاً» ويكرم الرجل في ولده، فتجب إقامة الجدار إكراماً لوالديه المؤمنين مجاناً، زاوية ثلاث من فرض إقامة الجدار لا أجر فيها مادياً وكما قال الله ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾<sup>(٢)</sup> ولم يكن موسى والخضر فقيرين رغم حاجتهما الحاضرة المفقرة، ولو كان فقيرين فكيف يأكلان هنا بالمعروف ولا مال لليتيمين إلا الكنز<sup>(٣)</sup> الواجب حفظه حتى ﴿يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا

(١) في تفسير القمي عن عثمان عن رجل عن أبي عبدالله عليه السلام في الآية أنه وُلدت له جارية فولدت غلاماً فكان نبياً وفي أكثر الروايات أنه ولد منه سبعون نبياً.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦.

(٣) وفي بعض الروايات أن الكنز كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه مواعظ، وفي الأب الصالح أنه أبوهما الأقرب أو السابع أو العاشر أو بينهما سبعون أباً أو سبعائة سنة.

وفي الدر المنثور ٤: ٢٣٥ - أخرج ابن مردويه عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله: «وكان تحته كنز لهما» قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: شهدت أن لا إله إلا الله شهدت أن محمداً صلى الله عليه وآله رسول الله عجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح عجبت لمن تفكر في قلب الليل والنهار ويأمن فجأتها حالاً فحالاً!

وفي تفسير العياشي عن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إن الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده ويحفظه في دويرته ودويرات حوله فلا يزالون في حفظ =



كَذَهُمَا ﴿ وَحَتَّى إِذَا كَانَ لَهُمَا مَالٌ سِوَىٰ كُنْزِهِمَا فَالْفَقِيرَ الْمَجْزُورَ لِأَكْلِ الْوَالِي هُوَ النَّاتِجُ عَنِ وِلَايَتِهِ عَمَلِيًّا ، وَلَوْلَاهَا لَمَا افْتَقَرَ ثُمَّ وَلَوْلَا إِقَامَةُ الْجِدَارِ لَمْ يَكُنْ هُنَا شِغْلٌ لَهُ أَجْرٌ! وَالرَّحْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَقْتَضِي أَلَّا يُؤْخَذَ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَلَيْسَ ﴿ فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ لِلْوَالِي الْفَقِيرِ إِلَّا سَمَاحًا حَالَةَ الضَّرُورَةِ لَا فَرْضًا ، فَتَرَكَ الْأَكْلَ ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ كَمَا إِقَامَةُ الْجِدَارِ حِفَاظًا عَلَيْهِ وَعَلَى الْكَنْزِ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَالْإِطْلَاقُ عَلَى وَقَعِ الْأَمْرِ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴿ وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ فَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ بِأَمْرِ مِنْ رَبِّكَ ، يَرَىٰ مُوسَىٰ فِي الْخَطْوَةِ الْأُولَىٰ إِمْرًا وَفِي الثَّانِيَةِ نِكْرًا ، هُمَا فِي الظَّاهِرِ مِنْ أَشَدِّ الْقِسَاوَةِ ، ثُمَّ يَرَىٰ فِي الثَّلَاثَةِ رَحْمَةً زَائِدَةً لِحَدِّ لَا يَبْرُرْهَا مُوسَى الرَّسُولُ وَهُوَ رَسُولُ الرَّحْمَةِ ، كِتْضَادٌ فِي خُلُقِ الْخَضِرِ يَشْبَهُ طَرْفِي النَّقِيضِ ، فَكَانَ لِمُوسَىٰ مَوْقِفًا حَرَجًا لَّن يَسْتَطِيعُ مَعَهُ صَبْرًا!

ولماذا ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ (و) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴿ ولم يَقم الجدار إلا الخضر ، لا موسى ولا ربه؟ أما الإرادة فلم تكن إلا من ربك فإن بلوغهما الأشد من إرادة ربك ، وكذلك الرحمة هنا في كل زواياها ليست إلا من ربك . إعلاماً له أن تحته كنز لهما ، وأمراً باقامته حفظاً لكنزهما ، وترك الأجر وجوباً في شرعة الله كأجر ، وأكلاً دون أجر رحمة وفضلاً!

ثم و ﴿ رَبِّكَ ﴾ تعني التربية التشريعية وليس رسولها المبلغ لها إلا موسى ، والتربية التكوينية وموسى هو إمام الخضر فيما أخذ منها ، فهذه

= الله لكرامته على الله ثم ذكر الغلامين فقال: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢] ألم تر أن الله شكر صلاح أبيهما لهما .

وفيه عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله ليخلف العبد الصالح بعد موته في أهله وماله وإن كان أهله أهل سوء ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢] .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم .

حرمة وحسن أدب من الخضر إلى موسى أن ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ . . . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فإنما أنا الخضر ماشٍ على ضوء التربية الإلهية المتمثلة فيك كإمام، المتحقة عملياً بيدي كمأموم، وإن كنت لم تدره حيث الشرعة ظاهرة وتلك من الغيب، كما لم أكن أدريه لولا رسالتك بالشرعة الظاهرة ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾!

وقد نرى الأفعال المنسوبة إلى فاعليها كلها في محالها، فإرادة الإعابة بفاعلها هي من الخضر، لا وموسى ولا أن الله أرادها تكويناً إلا كما يريد فعل كل مختار، وخشية الإرهاق هي شريطة الإيمان لكل مطلع على ضمير الغيب ولكنما الله لا يخشى، وإرادة إبدالهما خيراً تتبع قتله وخشيتهما، وما أراد الله الإبدال إلا في ظرف هذه الإرادة، والإبدال فعل من الله دون سواه، كما وإرادة بلوغهما أشدهما ليست إلا من الله . .

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ كل ذلك ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ وإنما عن أمر ربك، فمهما غاب عنك الموضوع فالحكم نازل عليك رسولاً إلي وإماماً علي فأنا على ضوء شرعتك، فبأمر من ربك فعلت ما فعلت: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾!

في هذه المسارح الثلاثة كانت معارضة بين الحكم الظاهر والباطن باختلاف ظاهر الموضوع وباطنه، وقد طبق كل من موسى وخضر واجبه، وترجى رسول الله ﷺ فيما يروى عنه «يرحم الله موسى وددنا أنه لو صبر حتى يقصّ علينا من حديثهما» يضرب إلى عمق الغيب دون تنديد بموسى ﷺ كما وهو ﷺ يحيله بـ «لو» وكما أن «علينا» قد تعني غيره ﷺ حيث جمع، وقد أوتي ﷺ ما أوتي كل من يعلم ظاهراً أو باطناً في الطول التاريخي والعرض الجغرافي وكل خليفة أياً كان وأيان!

وقد أعذر الإمام الحسن نفسه في صلحه مع معاوية في قوله ﷺ: «إذا كنت إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفّه رأيي فيما أتيته من

مهادنة أو محاربة، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبساً، ألا ترى إلى الخضر عليه السلام لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى عليه السلام فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي، هكذا أنا سخطتم علي بجهلكم بوجه الحكمة فيه ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل»<sup>(١)</sup>.

وأنتم أدنى من موسى وكان يحق له السؤال لولايته على خضر، وأنا أعلى من خضر وموسى، ولي الولاية عليكم فما كان يحق لكم سؤالي سخطاً وتنديداً!!..



(١) نور الثقلين ٣: ٢٩ ج ١٩٢ في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى أبي سعيد عقيصا قال: قلت للحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام: يا بن رسول الله ﷺ! لم هادنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه وأن معاوية ضال باغ؟ فقال: يا أبا سعيد! أأستحجة الله تعالى ذكره على خلقه وإماماً عليهم بعد أبي عليه السلام قلت: بلى - قال: أأستحجة الذي قال رسول الله ﷺ لي ولأخي الحسين: إمامان قاما أو قعدا؟ قلت: بلى - قال: أنا فإذا إمام لو قمت وأنا إمام إذا قعدت، يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله ﷺ لبني ضمرة، وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل، يا أبا سعيد إذا كنت إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفّه رأيي فيما أتيته...».

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجدهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَأْتِي الْقُرْنَيْنِ بِمَا آتَىٰ أَنْ تَعْلِبَ وَإِنَّمَا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَا مِنْ ظَلَمٍ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَا مِنْ ءَامِنٍ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجدهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَأْتِي الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَفُتِحَ فِي الصُّورِ فَنَجَّعْنَهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَائِهِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾:

﴿ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ لم يذكر في سائر القرآن إلا هنا جواباً عن سؤال، فهل كان نبياً؟ لخصوص ﴿قُلْنَا يَذَا الْقُرْنَيْنِ﴾ خطاباً يلمح أنه وحي، وعموم ﴿وَأَيْنَتُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ ومنه سبب الوحي؟ ولكنما القول من الله لا يخص وحي النبوة وحتى قول الوحي كما ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ (١) فضلاً عن ﴿قُلْنَا﴾ وفي هذه اليتيمة فقط! ويشاركه فيه غيره ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ (٢) ولم يكونوا أنبياء! ﴿وَقُلْنَا يَتَّادِمُ مَا تُكْفِرُ بِهَا فَاتَّكِرُ فِيهَا﴾ (٣) وما كان نبياً حينذاك أو ﴿قَالَ يَتِإِبْلِيسُ﴾ (٤) ولن يكون نبياً! فقد يعني ﴿قُلْنَا يَذَا الْقُرْنَيْنِ﴾ إلهاماً دون وسيط كما في هؤلاء، أم وحيّاً بوسيط ما في سائر الوحي إلى الناس أجمعين! وظاهر القول الخطاب هو الإلهام كما في أم موسى، وليس في قوله تعالى هنا ما يحمل مادة الوحي النبوة!

والسبب هو ما يتوصل به إلى المقصود لا يشمل سبب الوحي والنبوة، فلا يؤتى النبي سبب النبوة بل نفسها، وإنما سببها عند الله وبيد الله، ومن ثم لو كان نبياً لكان من أبرز التعريف به تصريحاً النبوة، دون اختصاصه بالقدرات الأرضية، فلم يك نبياً وكما في أحاديثنا (٥).

وهل كان ملكاً؟ قد يعنيه ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَايَتْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾! ولا يؤتى ملكٌ من كل شيء سبباً! فقد يكون دون النبي وفوق الملك عبداً صالحاً (٦)

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٣٢.

(٥) كما في الدر المنثور ٤: ٢٤١ أخرج ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال سئل علي عليه السلام عن ذي القرنين أنبي هو؟ فقال: سمعت نبيكم عليه السلام يقول: هو عبد ناصح الله فنصحه.

(٦) الدر المنثور ٤: ٢٤١ - أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن المنذر وابن أبي حاتم =

قوياً بما آتاه الله، مؤيداً من عند الله! كمثل طالوت الملك على ضوء نبوة منفصلة!

ونعرف من الإجابات التالية حول ذي القرنين أن السؤال كان حول أفعاله الخارقة، دون نبوته أو ملكه أو نسبه وبلده، أم وإذا كان يعم ذلك كله أو يخص الثاني كما هو دأب القصصيين فلم يأت الجواب حسب الحكمة إلا المفيد المفيد الذي فيه دعوة إلهية وذكرى إيمانية!

ثم ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يشمل زمن الرسول ﷺ وإلى أعماق المستقبل، فلا جواب صالحاً عن ذي القرنين إلا ما أجاب، ومهما كان السؤال عنه في العهد الرسولي من اليهود<sup>(١)</sup> ولكننا العهد الرسالي وهو منذ الرسول إلى يوم الدين تشمله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾!

= وأبو الشيخ في العظمة عن خالد بن معد أن الكلاعي أن رسول الله ﷺ سئل عن ذي القرنين فقال ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب وفيه أخرجه مثله الشيرازي في الألقاب عن جبير ابن نفيير أن أحباراً من اليهود قالوا للنبي ﷺ: حدثنا عن ذي القرنين إن كنت نبياً فقال... وقد تضارب الحديث عن علي عليه السلام أنه كان نبياً أم لا وقد نفى كونه ملكاً وعله بفتح اللام رداً على من زعمه ملكاً، وهناك روايات متضاربة أخرى في نفي نبوته وإثباتها.

(١) المصدر ٢٤٠ - أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: قالت اليهود للنبي ﷺ: يا محمد! إنما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبين، أنك سمعت ذكرهم منا فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد، قال ﷺ: ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين، قال: ما بلغني عنه شيء فخرجوا فرحين وقد غلبوا في أنفسهم فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبرائيل عليه السلام بهؤلاء الآيات ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقُرْنَيْنِ...﴾ [الكهف: ٨٣].

وفيه وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر مولى غفر قال: دخل أهل الكتاب على رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا: يا أبا القاسم كيف تقول في رجل كان يسيح في الأرض؟ قال: لا أعلم لي به! فبينما هم على ذلك إذ سمعوا نقيضاً في السقف ووجد رسول الله ﷺ غمة الوحي ثم سرى عنه فتلا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقُرْنَيْنِ...﴾ فلما ذكر السد قالوا: أتاك خبره يا أبا قاسم حسبك!

وفي نور الثقلين: ٢٩٣٢ ج ١٩٩ في قرب الإسناد للحميري بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام حديث طويل يذكر فيه آيات النبي ﷺ وفيه: ومن ذلك أن نفراً من اليهود أتوه فقالوا لأبي الحسن جدي استأذن لنا على ابن عمك نسأله قال: فدخل علي فأعلمه فقال النبي ﷺ: =

و﴿ذِكْرًا﴾ هنا يدلنا أنه لا يقص قصص ذي القرنين إلا طرفاً منهما هاماً يذكّرنا موقفه في تمكنه في الأرض، حيث لم يستخدمه إلا خدمة للناس وطرذاً للسناس الخناس... و﴿ذِكْرًا﴾ يعني قرآناً يذكر قدر الواجب الصالح تذكرة.

ولا يستثني هنا بمشيئة الله حيث القائل هو الله، وإنما الناقل هو رسول الله والله لا يستثني ما يريده بمشيئته اللهم إلا تعليماً ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]!

ولقد تضاربت الآراء والروايات حول «من هو ذو القرنين هذا»؟ ولا يهمننا شخصه كما سكت عنه القرآن وإنما شخصيته بذكره أياً كان وأيان!

قصارى ما يستفاد من اسمه أنه عربي، وليس من دأب القرآن مسح الأسماء الأعجمية، وإنما تغيير ما قدر ما يجعله وفق الأدب العربي كإبراهيم معرب أبراهام وموسى معرب موشه، و﴿ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ لا يلمح بسمه غير عربية، و﴿ذِي﴾ تلمح كأنه من الأذواء اليمنيين وأنه اسمه الخاص أم أشهر أسمائه قضية للغة الفصحى في ﴿بَيِّنٌ لِلنَّاسِ﴾<sup>(١)</sup>!

فاسمه يدلنا على أنه أحد التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن وقد تردد ذكره في عديد من أشعار الحميريين وبعض شعراء الجاهلية<sup>(٢)</sup>.

= وما يريدون مني؟ فإني عبد الله لا أعلم إلا ما علمني ربي ثم قال: ائذن لهم فدخلوا فقال: أسألوني عما جئتم له أم أنبئكم؟ قالوا: نبئنا - قال: جئتم تسألوني عن ذي القرنين؟ قالوا: نعم - قال: كان غلاماً من أهل الروم ثم ملك وأتى مطلع الشمس ومغربها ثم بنى السد فيها قالوا: نشهد أن هذا كذا وكذا:

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(٢) ذكر جمع من المؤرخين أن ذا القرنين أحد التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن كالأصمعي في تاريخ العرب قبل الإسلام وابن هشام في السيرة والتيجان وأبي ربحان البيروني في الآثار الباقية ونشوان بن سعيد الحميري في شمس العلوم - واختلفوا في اسمه أنه مصعب بن عبد الله أو صعب بن ذي المراند وهو أول التبابعة وهو الذي حكم لإبراهيم =

ولأن هذا الاسم وصفي وليس الاسم الخاص فقد يجوز كونه ترجمة عربية عن حالته الخاصة التي تميزه عن غيره بميزة وحيدة، إضافة إلى سائر

= في بئر السبع أو تبع الاقرن واسمه حسان أو أسعد الكامل الرابع من التبابعة ابن حسان الأقرن ملكي كرب تبع الثاني ابن الملك تبع الأول أو اسمه «شميرعش»: وقد ورد ذكر ذي القرنين والافتخار به في عدة من أشعار الحميريين وبعض شعراء الجاهلية ففي البداية والنهاية أنشد ابن هشام للأعشى:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً بالجنو في جدث أشم مقيماً  
وأنشد عثمان بن أبي الحاضر لابن عباس قول بعض الحميريين:  
قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ملكاً تدين له الملوك وتحشد  
بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد  
فراى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثأط حرمد  
وفيه يقول النعمان بن بشير:

فمن ذا يعاودنا من الناس معشراً كراماً فذو القرنين منا وحاتم  
ويقول فيه الحارثي:

سموا لنا واحداً منكم فنعرفه في الجاهلية لاسم الملك محتملاً  
كالتبعين وذي القرنين يقبله أهل الحجى فأحق القول ما قبلنا  
ويقول ابن أبي ذئب الخزاعي:

منا الذي بالخافقين تغرباً واصعد في كل البلاد وصوباً  
فقد نال قرن الشمس شرقاً ومغرباً وفي ردم يأجوج بنى ثم نصبا  
وذلك ذو القرنين تفخر حمير بعسكر فيل ليس يحصى فيحسب

ولقد حفظت أسماء الأذواء كالملوك المثامنة وهم ثمانية أذواء حيث ناهضوا حمير أيام دولتهم كما يقول شاعرهم:

أين المثامنة الملوك وملكهم ذلوا لصرف الدهر بعد جماح  
ذو ثعلبان وذو خليل ثم ذو شجر وذو جدن وذو صرواح  
أو ذو مغار بعد أو ذو جوفز ولقد محاذا عشكلان ما حى

ثم سائر الأذواء أكبرهم مرثد وهو جد الناظم قال فيه:

أو ذو مرثد جدنا القيل بن ذي شجر أبو الأذواء رحب الساح

ثم يذكر في أشعاره التسعة عشر ٥٣ آخرين من الأذواء ك: ذونين - ذو سفر - ذو عمران - ذوبيان - ذو الرمحين - ذو يرحم - ذو بهر - ذو يزن - ذونوش - ذو نوح - ذو الأنواح - ذو تيقان - ذو أصبح - ذو الشعبين - ذو حوال - ذو مناح - ذو غمدان - ذو فائش - ذو رعين



أفعاله المذكورة في هذه الآيات، فقد يجوز عدم كونه عربياً كاسكندر الثاني المقدوني المعروف لدى الخاص والعام بذي القرنين، المنسوب إليه السد لحدّ صار مثلاً يقال: كسد الإسكندر؟ وكما ورد في بعض الروايات<sup>(١)</sup> وقد سيطر على الشرق والغرب بما لا مزيد عليه<sup>(٢)</sup>.

ولأن هذه السيطرة لا تخصه، وأنه كان وثنياً من الصابئين وقد ذبح ذبيحته للمشتري، والقرآن يصف ذا القرنين بالعدل وصلاح العبودية لله، إذاً فليس هو المقدوني، وقد يجوز أنه الإسكندر الأوّل، وبينهما أزيد من ألفي سنة (٢٣٠٠ ق.م) فقد كان عبداً مؤمناً صالحاً وملكاً عادلاً<sup>(٣)</sup> وكان وزيره الخضر.

(١) كرواية عقبة بن عامر عن النبي ﷺ ورواية قرب الإسناد عن موسى بن جعفر عليه السلام وذهب إليه جماعة من قدماء المفسرين من الصحابة والتابعين كعماد بن جبل وقتادة ومن المتأخرين الإمام الرازي في تفسيره.

(٢) يؤكد عليه الرازي في تفسيره قائلاً: إن اسكندر المقدوني جمع ملوك الروم والمغرب وقهرهم وانتهى إلى البحر الأخضر ثم إلى مصر وبنى الاسكندرية ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم انعطف إلى أرمينيا وباب الأبواب ودان له العراقيون والقبط والبربر واستولى على إيران وقصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ثم رجع إلى العراق ومات في شهر رز أو رومية المدائن وحمل إلى اسكندرية ودفن بها وعاش ثلاثاً وثلاثين سنة ومدة ملكه اثنتا عشرة سنة، فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك أكثر المعمورة وثبت بالتواريخ أنه الاسكندر فليكن ذو القرنين هو الاسكندر.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٤١ - أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر الجهني قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ - وساق حديث سؤال جماعة من أهل الكتاب عنه في ذي القرنين إلى أن قال - : إن أول أمره أنه كان غلاماً من الروم أعطي ملكاً فسار حتى أتى ساحل أرض مصر فابتنى مدينة يقال لها اسكندرية فلما فرغ من شأنها بعث الله عز وجل إليه ملكاً فعرج به فاستعصى بين السماء ثم قال له: انظر ما تحتك فقال: أرى مدينتي وأرى مدائن معها ثم عرج به فقال: انظر فقال: قد اختلطت مع المدائن فلا أعرفها ثم زاد فقال: انظر قال: أرى مدينتي وحدها ولا أرى غيرها قال له الملك: إنها تلك الأرض كلها والذي ترى يحيط بها هو البحر وإنما أراد ربك أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطان فيها فسر فيها فعلم الجاهل وتثبت العالم فسار حتى بلغ مغرب الشمس . . . .

ولأن التاريخ لا يسجل لنا ملكاً قبل المسيح بأكثر من ألفين وثلاثمائة ملك الأرض من أقصاها إلى أقصاها وبنى السدود. . فقد لا ينطبق ذو القرنين على واحد منهما!

وإن كان المحتمل هو الأول قوياً، مهما لا يوجد «ذو» في الإغريقيين اليونان حيث الوصفية في التسمية تحل هذه المشكلة!.

وعلة هو «كورش» أحد ملوك الفرس الهخامنشيين (٥٣٩ - ٥٦٠ ق.م) فقد جمع بين مملكتي الفارس ومادو سخر بابل وأذن في رجوع اليهود من بابل إلى أورشليم وساعد في بناء الهيكل وسخر مصر ثم اجتاز إلى اليونان فغلبهم وبلغ المغرب ثم سار إلى أقاصي المعمورة شرقاً<sup>(١)</sup> وتشهد كتب العهد العتيق على إيمانه وصلاحه<sup>(٢)</sup> كما النقوش والكتابات المخطوطة بالخط المسماري الماثورة عنه ناطقة بكونه موحداً، وقد سار نحو المغرب فاستولى على ليديا وحواليها ثم نحى نحو المشرق حتى بلغ مطلع الشمس

(١) سار نحو المغرب لدفع طاغية «ليديا» الطاغي عليه ظلماً دون عذر فحاربه وعاصره في عاصمته ففتحها وأسره ثم عفى عنه وأحسن إليه .

ثم سار نحو الصحراء الكبير بالمشرق حوالي بكتريا لإخماد نائرة قبائل بدوية همجية انتهضوا هناك للإفساد وبنى السد الموجود في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر إلى البحر الأسود ويسمى «داريال» وهذا السد واقع بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه وهو وحده الفتحة الرابطة بين جانبي الجبال الجنوبي والشمالي، وكان يهجم في تلك الأعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز إلى ما يواليها من الجنوب وهجموا في حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلاً وسبياً ونهباً حتى بلغوا نينوى عاصمة الآشور وكان ذلك في القرن السابق على عهد كورش تقريباً:

(٢) كما في كتاب عزرا (الإصحاح ١ : ١-٤) ودانيال (الإصحاح ٦ : ٢٨) وكتاب اشعيا (الإصحاح ٤٤ : ٢٨ و ٤٥ : ١-٢٧) وقد سمي في اشعيا راعي الرب وفي (٤٥) منه «هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت يمينه لأدوس أمامه أمماً وأحقاد ملوك أحل لا فتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق: أنا أسير قدامك والهضاب أمهد أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف: وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخايي: لكي تعرف أنني أنا الرب الذي يدعوك باسمك: لقبتك وأنت لست تعرفني»:

ووجد عندها قوماً بدويين همجاً ثم بنى السد المعروف بمضيق داريال بين جبال قفقاز قرب مدينة تفليس .

ولماذا يعبر عنه القرآن بذي القرنين - أياً كان من المذكورين -؟ علته لأنه أدرك قرني الشمس شرقاً وغرباً<sup>(١)</sup> وعاش قرنين وضرب على قرنيه وكان لتاجه قرنان وسخر له القرنان الليل والنهار<sup>(٢)</sup> وأيد في قرنيه بكشف من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق<sup>(٣)</sup> وقد اكتشف تمثال «كورش» الحجري أخيراً في مشهد مرغاب جنوبي إيران، مثل فيه ذا قرنين<sup>(٤)</sup> نابتين من أم رأسه من منبت واحد أحدهما مايل إلى قدامه وثانيهما إلى خلفه، وكما في كتاب دانيال في رؤياه كورش على صورة كبش ذي قرنين<sup>(٥)</sup> .

- (١) نور الثقلين عن الإمام العسكري عليه السلام أنه رأى في المنام أنه أخذ بقرني الشمس فعبه له بملك الشرق والغرب وسمي بذي القرنين .
- (٢) نور الثقلين ٣: ٢٩٦ ج ٢١٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة سأل رجل علياً عليه السلام أرأيت ذي القرنين كيف استطاع أن يبلغ الشرق والغرب؟ قال: سخر له السحاب ومد له في الأسباب ويسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وفي نقل آخر عنه عليه السلام فسر بسط النور بـ «كان يضيء بالليل كما يضيء بالنهار» .
- (٣) نور الثقلين ٣: ٢٩٣ ح ٢١٥ عن الأصغر بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث اقتسمناه حسب مختلف مواضعه وكما في الرقم (٢):
- (٤) المصدر ٢١٥ عن الأصغر بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال سئل عن ذي القرنين قال: كان عبداً صالحاً واسمه عياش اختاره الله تعالى وابتعثه إلى قرن من القرون الأولى في ناحية الغرب وذلك بعد طوفان نوح عليه السلام فضربوه على قرن رأسه الأيمن فمات منها ثم أحياه الله بعد مائة عام بعثه إلى قرن من القرون الأولى في ناحية المشرق فكذبوه وضربوه ضربة على قرنيه الأيسر فمات منها ثم أحياه الله بعد مائة عام وعوضه من الضربتين اللتين على رأسه قرنين في موضع الضربتين أجوفين . . أقول وأخرجه مثله في معنى قرنيه في الدر المنثور أبو الشيخ في العظمة عن أبي الورقاء عن علي عليه السلام (٤ : ٢٤١) ورواه مثله في الاسم القمي عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام :
- (٥) في الإصحاح ٨ : ١-٩ من دانيال «في السنة الثالثة من ملك «بيلشاصر» الملك ظهرت لي أنا دانيال رؤيا بعد التي ظهرت لي في الابتداء فرأيت في الرؤيا وكأن في رؤياي وأنا في «شوشن» القصر الذي في ولاية - عيلام : ورأيت في الرؤيا وأنا عند نهر «أولاي» فرفعت يميني وإذا =

وأياً كان ذو القرنين فإنما يهمننا شخصية قوية روحية منه عن التاريخ لا شخصه، ولا مفخرة في كونه عربياً أم رومياً أم إيرانياً آمن ذا، ولذلك أهمل القرآن إلا عن شخصيته ولكيلا يجعل مثار التفاخرات! فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود في قصص القرآن وإنما هو العبرة المستفادة من القصة وهي حاصلة منها دون أن تزيدنا معرفة الشخص دلالة اللهم إلا دلالة قومية عنصرية والقرآن يطاردها!

ثم التأريخ أياً كان ومن أي كان ليس إلا ركاماً من خليط الحق والباطل،

= بكبش واقف عن النهر وله قرنان والقرنان عاليان والواحد أعلى من الآخر والأعلى طالع أخيراً: رأيت الكبش ينطح غرباً وشمالاً وجنوباً فلم يقف حيوان قدامه ولا منفذ من يده وفعل كمرضاته وعظم.. ثم يذكر بعد تمام الرؤيا أن جبرائيل تراءى له وعبر رؤياه بما ينطبق فيه الكبش ذو القرنين على كورش وقرناه مملكتا الفارس وماد، والتيس ذو القرن الواحد على الاسكندر المقدوني.

وفي «قاموس كتاب المقدس» ترجمة سترهاكس الأمريكي باللغة الفارسية صفحة ٧٤٣ تحت عنوان «كورس» يقول يعني الشمس، مؤسس الملك الفارسي وفتح الممالك الأخرى، ثم ينقل عن كتاب دانيال (٦ : ٢٨) أن دانيال كان حينذاك في ديوان كورش وقد توفي كورش عن الجراحة التي أصابته في حربه (٥٢٥ ق : م):

فلكورش دور في الكتب المقدسة مجيد يهمله أهل الكتاب ولذلك سألوا الرسول ﷺ عن ذي القرنين، ولا أثر في الكتب المقدسة عن شخصية هذه سيرته إلا كورش:

ومما يبعد كونه كورش إلا أثر عن هذا الاسم في الروايات الاسلامية إطلافاً، ففي بعضها أنه عياش<sup>(١)</sup> وثان: اسكندر<sup>(٢)</sup> وثالث: مرزيا بن مرزبة اليوناني من ولد يونن بن يافث بن نوح<sup>(٣)</sup> ورابع: مصعب بن عبد الله من قحطان<sup>(٤)</sup> وخامس: عبد الله بن ضحاك بن معد<sup>(٥)</sup> وإلى غير ذلك: (١) كما في تفسير العياشي عن الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام وفي البرهان عن الشمالي عن الباقر عليه السلام:

(٢) كما يظهر من رواية قرب الإسناد للحميري عن الكاظم عليه السلام ورواية الدر المنثور عن عدة عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

(٣) كما في الدر المنثور عن بعض من أسلم من أهل الكتاب.

(٤) كما في البداية والنهاية.

(٥) البداية والنهاية عن ابن هشام في التيجان.

وبعضه باطل كله، ولا نجد الحق كله إلا في قصص القرآن، فهي القصص الحق الجارفة تخيلات باطلة معتمدة أو ساهية تسربت ودخلت في التاريخ! ولئن استفتينا التاريخ حول ذي القرنين أم أي شخص مجهول، فإنما نصدق منه ما يصدقه القرآن، ونكذب ما يكذبه ونتردد فيما يسكت عنه! دون أن نستفتيه كأصل نفرع عليه القرآن فإنه منكر من القول وزور!

ثم هؤلاء الأذواء الثلاثة المؤمنون لكل منهم رجاحة متقابلة، فاليميني يترجح بأن اليمن بلد الأذواء قرابة مائة، واليونياني يترجح لشهرته العالمية بذي القرنين وذكره في بعض أحاديثنا ورغم وفرة الأذواء في اليمن فلا قرنين فيه! والإيراني يترجح لذكره في التوراة ولكن ليس فيه ذو ولا قرنين اللهم إلا وصغباً ولكل وجه.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَايَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾:

دعامتان إلهيتان لهذه السلطة العالمية المنقطعة النظير، اللهم إلا في داوود وسليمان عليهما السلام سلفاً، وفي المهدي القائم من آل محمد عليه السلام خلفاً: ١ - تمكين إلهي في الأرض كلها. ٢ - وسبب إلهي من كل شيء على ضوء هذا التمكين وفي سبيله!

هنالك تمكين للمترفين الأثرياء ذوي السلطة والكبرياء يعني امتحاناً وامتهاناً وهو من مخلفات التخاذل من أهل الدين المستضعفين: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup> ومن ثم تمكين لبسط الخير إكراماً لمن يعرفون نعمة الله ويشكرونها: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤١.

وذلك التمكين قد يكون جانبياً كما في يوسف ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ...﴾ (١) حيث يخص أرض مصر، وآخر عالمي في درجات أعلاها لبقية الله وحجته الكبرى وآيته العظمى محمد بن الحسن المهدي صلوات الله عليه وعلى آبائه الكرام، تمكين له ولصحبه الخصوص ولمن تابعه على وجه العموم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أُسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢).

ثم وأدنى منها ما كان لداود وسليمان بين النبيين ولذي القرنين بين الملوك الصالحين، وأدنى منه ما كان لطالوت آمن ذا؟

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ﴾ في تأكيدات ثلاثة ترفع من شأن هذه السلطة المباركة و﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تعممها في كافة أرجاء المعمورة، فقد ذلت له الصعاب واستسلمت له البلاد!

والسبب أياً كان هو الذي يتوسل به إلى غاية لا تحصل إلا به، من عقلي أو علمي أو عملي.

ثم الأسباب لبسط الملك أمّاذا؟ قد تكون حاضرة ظاهرة، وأخرى حاضرة غير ظاهرة، أم ظاهرة غير حاضرة تحصل بمحاولة بشرية مهما طالت أم قصرت، صعبت أم يسّرت، فهي في نطاق العلم والقدرة البشرية ممكنة! وثالثة لا من هذه ولا تلك، بل هي خفية عن العلم بعيدة عن القدرة، فلا يؤتيها إلا الله لمن يشاء ويرضى! ﴿وَأَنبِئْهُم مِّن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ يعني ثالثها وهي الأسباب الخارقة الإلهية التي تقصر دون التوسل بها العقول والعلوم وسائر القدرات غير الإلهية!

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ هنا لا يعني الاستغراق الشامل لسبب الوحي والنبوة وأضرابها! وإنما ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ في سبيل تمكينه في الأرض، ثم ولا يعني كلاً من هذا الكلم، وإنما البعض من كلِّ قدر ما يحتاجه كما تلمح له ﴿مِنْ﴾!

فقد آتاه الله بعضاً من الأسباب اللائقة من كل شيء في سبيل تمكينه في الأرض، ومن أسباب معرفة الحق الناصع الصراح عن الباطل<sup>(١)</sup> ومن أسباب السفر كالسحاب الذلول أمّاذا<sup>(٢)</sup>؟ ومن أسباب الضوء حيث تضيء له ليلاً كما تضيء الشمس نهاراً فهو ذو قرني الليل والنهار حيث هما عليه سواء؟

ومن أسباب الشبع والريِّ منّا أو سلوى أمّاذا؟ ثم ومن أسباب التفتح في مشارق الأرض ومغاربها كسبب تفهّم مختلف اللغات<sup>(٣)</sup> وأضرابه كالطرق وكلها خارقة إلهية.

(١) المصدر ج ٢١٦ ص ٣٠٤ عن تفسير العياشي جبرائيل بن أحمد عن موسى بن جعفر رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: إن ذا القرنين عمل صندوقاً من قوارير ثم حمل في مسيره ما شاء الله ثم ركب البحر . . . و٢١٥ العياشي عن الأصبع بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سألت عن ذي القرنين - ثم سار في جوابه عليه السلام إلى قوله: ثم رفعه إلى السماء الدنيا فكشط له عن الأرض كلها جبالها وسهولها وفجاجها حتى أبصر ما بين المشرق والمغرب وآتاه الله من كل شيء يعرف به الحق والباطل وأيده في قرنيه بكشف من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ثم أهبط إلى الأرض وأوحى إليه أن سر في ناحية غربي الأرض وشرقيها فقد طويت لك البلاد وذللت لك العباد فأرهبتهم منك، فسار ذو القرنين إلى ناحية المغرب . . . فلم يبلغ مغرب الشمس حتى دان له أهل المشرق والمغرب وذلك قول الله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا . . .﴾ [الكهف: ٨٤].

(٢) في الدر المنثور ٤: ٢٤٢ - أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة . . . فخير بين ذلال السحاب وصعابها فاختر ذلالها فكان يركب عليها.

وفي تفسير البرهان ٢: ٤٨١ ج ١١ عن الباقر عليه السلام أما إن ذا القرنين قد خير بين السحابتين فاختر الذلول وذخر لصاحبكم الصعب فقلت: وما الصعب؟ فقال: ما كان من سحاب فيه رعد وصاعقة وبرق فصاحبكم يركبه أما إنه يركب السحاب ويرقى في الأسباب أسباب السماوات السبع والأرضين السبع خمس عوامر وثنتان خراب.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٤٧ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ =

تُذكر له في تالية الآيات ثلاثة أسباب لثلاثة أسفار بعيدة المدى، قد تكون هي من أهم الأسباب التي أوتيتها في سفراته، وقد أطبقت أحاديثنا أنها السحاب الذلول وأن الصعب منها تختص بالإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف<sup>(١)</sup>!

ولا ﴿سَبَبًا﴾ تأتي بنفس الصيغة ثلاث مرات، دون أن تأتي ثانية وثالثة «السبب» إشارة إلى الأول، فقد تعني ثلاث مركبات فضائية مهما كانت كلها من صعبة السحاب أمّاذا؟

هنالك أسباب غيبية أرضية أم فوق الأرضية أم السماوية تُستخدم في مثلث الأسفار بما آتاه الله، قد يشار إلى وجودها وإمكانية التسبب بها: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾<sup>(٢)</sup> ولولا أن هناك أسباباً ترقى إلى السماوات لم يكن لهذا التحدي مجال على أية حال، ومنها المركبة المعراجية المحمدية ﷺ، وقد يشار إلى إمكانية الارتقاء إلى السماء بأسباب مصطنعة أمّاذا؟: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾<sup>(٣)</sup>.

ولقد خيّل إلى فرعون إمكانية البلوغ إلى أسباب السماوات، وطبعاً لم يك يعرف واقعها إلا بمعرفة الوحي من موسى أم سواه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنَّ

= سَبَبًا... ﴿[الكهف: ٨٤] قال: علماً من ذلك تعليم الألسنة كان لا يعرف قوماً إلا كلمهم بلسانهم.

(١) نور الثقلين ٣: ٢٩٦ ج ٢١٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة سأل رجل علياً عليه السلام رأيت ذا القرنين كيف استطاع أن بلغ الشرق والغرب؟ قال: سخر له السحاب ومدّ له في الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء و٢١٣ في تفسير العياشي عن أبي بصير عليه السلام قال: إن ذا القرنين خير بين السحاب الصعب والسحاب الذلول فاختر الذلول فكان إذا انتهى إلى قوم كان رسول نفسه إليهم لكي لا يكذب الرسل.

(٢) سورة ص، الآية: ١٠.

(٣) سورة الحج، الآية: ١٥.



أَبْنِي لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَدَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴿١﴾ (٢).

### المركبة الفضائية الأولى لذي القرنين:

﴿فَأَنْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْغُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قَلِيلًا يَلْدَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً أَحْسَنُ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ :

هل الاتباع هو الإلحاق يتبعه مفعولان؟ كما ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴿٣﴾﴾ إذاً فما هو المفعول الثاني لـ ﴿فَأَنْبَعَ سَبَبًا﴾؟! أم هو اللحق ولا يتبع إلا مفعولاً واحداً: ﴿فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ (٤) أو أنه كما نراه يستعمل متعدياً إلى مفعول واحد أحياناً وإلى مفعولين أخرى؟ إذاً أليس من الأوضح «فتبع» نصاً في اللحق؟ ولكنه قد يعني في مفعول واحد سرعة اللحق وكما نراها في مواده (٥).

وهذه طبيعة الحال في المركبة الفضائية السحابية أم ماذا؟ وهي دائبة السير، فليلحقها ذو القرنين سريعاً كما لحقها! ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ وهو المغرب الأقصى، وبينه وبينه شاسعة المسافة بين المشرق الأوسط أو الأدنى إلى المغرب الأقصى، ولا تجتاز تلك البعيدة المدى مشياً أو ركوباً

(١) سورة غافر، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) راجع تفسير الآية في المؤمن تجد فيه تفصيلاً عن أسباب السماوات.

(٣) سورة القصص، الآية: ٤٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.

(٥) ﴿فَأَتَّبَعَهُمُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ [يونس: ٩٠] ﴿فَأَتَّبَعَهُمُ فِرْعَوْنُ جُنُودَهُ﴾ [طه: ٧٨] ﴿فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] ﴿فَأَتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨] أو ﴿تَأْتِبُ﴾ [الصفوات: ١٠].

بالوسائل القديمة إلا في سنين بمعدات قد تستحيل مهما طال الزمن، وهي أولى السفرات الثلاث الطائلة لذي القرنين، فلولا أنه «أتبع سبباً» سماوياً آناه الله لما قطع واحدة منها إلا انقطع ولما!

مغرب الشمس وقتذاك هو آخر المعمورة اليابسة من الجانب الغربي، وإلا فلا مغرب للشمس كنقطة خاصة من المعمورة، ولكل أفق من الشمس مشرق ومغرب عدد أيام السنة! .

فلأن ذا القرنين كان من الشرقيين أياً كان، فمغرب الشمس بالنسبة إلى مبدئه في سفرته هو المغرب الأقصى إلى جانب البحر حيث الأفق البحري لغروبها مد البصر في البحر، هو بحر الظلمات المسمى بالمحيط الأطلانطيقي .

﴿وَجَدَهَا تَعْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أترى الشمس تغرب في عين حمئة أم غير حمئة، ولا غروب حقيقياً للشمس، فلها مشارق ومغارب منذ خلقت حتى يوم تكويرها، دون شروق مطلق، أم غروب مطلق بالنسبة لأرضنا وأضرابها، أم هي شارقة دون غروب بالنسبة لنفسها . . . ثم وهي في مشارقها ومغاربها، وفي مشرقها ومغربها، وفي مشرقها ومغربها، لا تشرق أو تغرب إلا في ملتقى أفقي الأرض برياً أو بحرياً وافق السماء<sup>(١)</sup> دون عين حمئة أمآذا؟

(١) نور الثقلين ٣: ٣٠٦ ج ٢٢١ في كتاب التوحيد حديث طويل عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: كنت أخذاً بيد النبي ﷺ ونحن نتماشى جميعاً فما زلنا ننظر إلى الشمس حتى غابت فقلت: يا رسول الله! أنى تغيب الشمس؟ قال: في السماء ثم ترفع من سماء إلى سماء حتى ترفع إلى السماء السابعة . . . أقول قوله «في السماء» ظاهر لا مرية فيه أنها تغرب في ملتقى الأفقين الأرضي والسماوي، وأما «ترفع في سماء إلى سماء . . . حتى ترفع إلى السماء السابعة» أنه إما مؤول أو مختلق مردود، وتأويله أنه ﷺ اقتسم ملتق الآفاق الأرضية السماوية إلى سبعة ولماذا؟ لا ندري! إن الشمس تحول حول الأرض ويتراى لها مغارب سبعة وعلها في الأقاليم السبعة أم ماذا .

ثم أقول: وما روي أن الشمس تغرب وتطلع بين قرني الشيطان اختلاق ممن يكرهون الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، ولم ترد في بعض رواياتنا إلا تقية في الكافي عن محمد =

نجد الجواب في الآية نفسها: ﴿وَجَدَهَا تَعْرُبٌ...﴾ لا أنها «غربت» فهي تنظر إلى منظرها في غروبها دون واقعة ﴿وَجَدَهَا...﴾ بياناً لمنتهى المعمورة الغربية بالمحيط البحري الأطلانطيقي.

فكما أننا نجد الشمس تغرب في الآفاق الصحراوية، في قتل الجبال أو الأتلال أو مستوية الأرض أماًذا، كذلك سكان الجزائر لا يجدون غروب الشمس أو طلوعها إلا في الآفاق البحرية.

وكان ذا القرنين وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) حيث يُخيّل أن اليابسة منتهية عنده، وكان عند مصبّ أحد الأنهار حيث تكثر فيه الأعشاب وتتجمع حولها طين حُمي: لزج، فرأى الشمس تغرب هناك كأنها ﴿عَيْنٌ حَمِيَّةٌ﴾: المحيط الغربي الذي فيه الجزائر «الخالدات» حيث كانت مبدأ الطول الجغرافي مسبقاً ثم غرقت.

والعين الحمئة قد تعني إضافة إلى السوداء حيث الحمأة هي الطين الأسود، قد تعني الحارة حيث الحمأ هي الحارر المتولدة من الجواهر المحميّة والمغرب الأقصى في إفريقيا الحارة من أحرّ ما فيها، فبحره حار

= ابن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: يصلى على الجنائز في كل ساعة، إنها ليست بصلاة ركوع ولا سجود وإنما تكره الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها التي فيها الخشوع والركوع والسجود لأنها تغرب بين قرني الشيطان وتطلع بين قرني الشيطان، وتقيه الفرار هنا لائحة، حيث النص الذي يروون إن كان بلفظة الصلاة فيشمل كل صلاة، وإن كان نصاً فيما فيها الركوع والسجود لم تك حاجة إلى الاستدلال، ثم الخشوع يعم كل صلاة دون اختصاص بما فيها الركوع والسجود، ثم نرى نقضاً صارماً يجتث هذه الحكمة المختلقة أو أنها تقيه، فيما أخرجه اكمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن جعفر الأسدي قال: كان فيما يورد عليّ من الشيخ أبي جعفر محمد بن عثمان العمري في جواب مسألتي إلى صاحب الزمان: وأما ما سألت عنه من الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ولئن كان كما يقولون إن الشمس تطلع بين قرني الشيطان وتغيب بين قرني الشيطان فلا شيء أفضل من الصلاة وأرغم أنف الشيطان!

كما برّه، فهي ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ في حمأتين! حرارة في سواد وحمرة، كما الشمس ترى عند غروبها محمّرةً.

لا نعرف بالضبط المحدّد ذلك المكان إلا ما عرفنا الله ﴿تَقَرَّبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وكفانا!

وإنما القصد القوم الذين عند المغرب الأقصى حيث ظلّموا وأتاهم ذو القرنين تأديباً وتقويماً: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾؟ وجد عند الشمس في مغربها قوماً، في منتهى اليابسة الغربية، لا عند الشمس ذاتها! أم عند العين الحمئة فيفيد نفس المعنى.

يجد هناك قوماً حمئاً عند عين حمأة. أتراه تغاضباً عن أقوام ظالمين بينه وبين مغرب الشمس والأقرب يمنع الأبعد؟ طبيعة رسالة عادلة كملكية كهذه تقتضي وتقتضي بعدم التغاضي، ولكنه كيف؟ لا ندري!

﴿... قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

هل القول الخطاب هنا دليل على نبوة للمخاطب؟ كلا! حيث الخطاب أعم من وحي النبوة والإلهام كما في مريم وأم موسى وآدم قبل توبته وقد يجوز أنه كان معه نبي يوحى إليه بواسطته كما كان لطالوت بنبيّ معه!

وترى الترديد التخيير بين التعذيب واتخاذ الحسن ليس تخييراً بين الحسن والقبيح، لقرن التعذيب باتخاذ الحسن؟

اتخاذ الحسن فيهم هو السماح عما يستحقونه من النكال رجاء الرجوع والتوبة، والتعذيب تحقيق النكال، وكلُّ يتبع ظرفه الصالح، إذاً فالتخيير هنالك صالح! تخويلاً قيادياً صالحاً لسلطة صالحة حسب المصلحيات العادلة الفاضلة.

وترى كلهم كانوا ظالمين يستحقون العذاب؟ وتقسيمهم في الجواب

﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ... وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ...﴾ يطارده! أم جلّهم والباقون لا يستحقون العذاب؟ فلكل حكمه ولا تخيير!

إنهم جلّهم وليس التخيير إلاّ فيهم، فلم يقل «إما أن تعذبهم» وإنما ﴿تُعَذِّبُ﴾ يعني من يستحق العذاب منهم ﴿وَأَمَّا أَنْ نُنْخِذَ فِيهِمْ﴾ هم أنفسهم ﴿حَسَنًا﴾.

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ...﴾ يعني استمرارية الظلم من قبل وحتى لقاء ذي القرنين دون أن يفيق فيؤمن<sup>(١)</sup> فلا مجال له إلاّ عذابه ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنُ...﴾ آمن بعد كفره توبة عما سلف فحسن، أم آمن من قبل واستمر في إيمانه فأحسن، ولكل حسب إيمانه وعمله الصالح عِدَّةٌ وَعُدَّةٌ وَمُدَّةٌ ﴿جَزَاءٌ الْحَسَنُ﴾: أحسن مما آمن وعمل صالحاً فضلاً من ربك عطاءً حساباً!.

والتخيير بين التعذيب واتخاذ الحسن ليس إلاّ في فيمن آمن بعد ظلمه، وقد يشمل المستمر على كفره في فرض بعيد، اللهم إلاّ في غير الواجب قتله جوازاً في قتله والسماح عنه، تخيراً عاقلاً عادلاً دون فوضى وكما في المحاربين والمفسدين في الأرض: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ...﴾ فالتخيير هناك كالتخيير هنا راجع إلى ما يختاره الحاكم الشرعي وفق مختلف الموازين في مختلف المجرمين دون أن يكون أعمى وفوضى أن يجزى أقل الساعين في الأرض فساداً قتلاً، ثم ينفي أشد المحاربين حساباً!

المعذب هنا يعذب حسب مرسوم الشرعة الإلهية بيناً وعرفاً: ﴿فَسَوْفَ

(١) نور الثقلين ٣: ٢٩٨ ج ٢١٥ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أما من ظلم» ولم يؤمن أقول: يعني لم يؤمن عند ذي القرنين بعد كفره قبله، ولم يقل: وأما الظالم لكيلا يشمل الذي ظلم سابقاً ثم تاب عن ظلمه فأمن.

نُعَذِّبُهُ ﴿١﴾ ومن ثم نُكْرَأُ: غير معروف ولا منتظر هنا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرَأً﴾ حيث ظلم دون إفاقة بعد الذكرى ورؤية البأس، وأما التائب عند رؤية البأس فقد لا يُعَذَّبُ هنا إذا كانت توبة صادقة أو تُحْتَمَلُ، ثم أمره إلى ربه!

فالظرف هنا للظالمين الجُلِّ بمختلف ظلمهم، وتوبتهم وعدم توبتهم، هو يقتضي تخير الحاكم فيهم كما اختار ذو القرنين وما أحسنه، وحسب مرسوم الشريعة العادلة والفاضلة الإلهية: إعلاناً في هذه الإذاعة القرآنية أن للظالمين المعتدين عذابهم عاجلاً، وأجلاً يزيد نكراً، ولغير المعتدين منهم إمهال دون إعجال رجاء الرجوع إلى عدلهم، وللتائبين الآئبين قول يُسر دون عُسْر ﴿وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ دون تعذيب ولا تأنيب في قوله لاذعة، فالإسلام يُجِبُّ ما قبله! وإنما قول يُسر حيث تاب عما سلف: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ثم قول يُسر فيما يتوجب عليه تداركاً لما قد سلف، والأمر في ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ شرعي للحاكم المتمكن، إشارة إلى أنني لست ممن يتذرع الحكم للقول العسر والتكليف العسر، وإنما يسر في يسر.

ثم مقابلة ﴿مَنْ ظَلَمَ﴾ بـ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾<sup>(١)</sup> يوسع نطاق الظلم إلى كفر عقائدي وعملي لازماً أو متعدياً، وإلى فسق عملي لمن آمن على مراتبهما بأحكامهما الجزائية.

وما هو ﴿جَزَاءُ الْحَسَنَاتِ﴾ للذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ أنه جزاء أحسن مما عمل ومما يجزى في الحياة الدنيا، فهناك تصریحة بعذاب الدنيا لمن ظلم «فنعذبه» لأنه ثابت حكماً على أية حال وعملاً لمن مكن في الأرض، وهنا تلمیحة للجزاء الحسن وتصریحة بالأحسن حيث الثواب يوم الدنيا غير ثابت ولا موعود إلا أحياناً!

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

ولماذا ﴿جَزَاءً﴾ منصوباً لأن الحسنى مبتدأ لـ ﴿لَمْ﴾ وقدم الخبر للحصر «له لا لسواه»: فله الحسنى جزاءً، والنصب على التمييز، دون حاجة إلى تكلفات أدبية أخرى لا يرضاها أدب القرآن! : فله - فقط - من حيث الجزاء المثوبة الحسنى أحسن مما قدم ويستحقه في الحياة الدنيا<sup>(١)</sup>.

وهذه طريقة مثلى ومعاملة حسنة مع فريقى الظلم والإيمان، تخيراً للحاكم المبسوط اليد بالتي هي أحسن في ﴿أَمَّا... وَأَمَّا﴾ دون تخير فوضى وأعمى، وإنما عدل صارم عقاباً لزاماً، وفضل كارم ثواباً كراماً!

إنه ليس الحكم والسلطة الإلهية ظلماً وزوراً وغروراً ما وجدت لها سبيلاً، وإنما هي رحمة على المجموعة وقضيتها القضاء على المعتدين، فإمهالهم اعتداءً على المظلومين، فهي رحمة ما وجدت لها سبيلاً وحتى للذين ظلموا إذا كان السماح عنهم لا يضر بالمجموعة وإن لم تنفعهم توبة، فضلاً عن يفيق ويتوب، دستور إصلاحى بكل معانيه، يتبنى الصلاح بكل مبانيه!

نرى القمة الرفيعة من هذا الدستور في الشريعة الإسلامية، وتدلنا سيرة الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول ﷺ على مدى هذه الأخلاق الفاضلة ومن نماذجها ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾<sup>(٢)</sup> فقد يدفع السيئ بالسماح، أم إذا لزم الأمر لدفع ظلمه بتأديب وتأنيب كما يصلحه أو يحجز عن ظلمه، وأخيراً كآخر الدواء الكي، القتل، إذا كانت حياته على أية حال ظلماً على المجموعة، فكل ذلك الدفع ليس إلا بالتي هي أحسن، وكصورة أولى ﴿... فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>!

إن التعذيب في ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ﴾ يشمل مراتب النكال هنا اعتداءً بالمثل

(١) فالحسنى وصف لمقدر المثوبة وجزاء تمييز عن سائر ما له في الأخرى، وتقديم جزاءً لإفادة تهيب أكثر من العادة، وما أحسنه لفظاً ومعنى!

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

أو دون ذلك، من ضرب إلى قتل وبينهما متوسطات، وكما أن حسن الجزاء وحسنه في الأولى والأخرى له درجات حسب الدرجات ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾<sup>(١)</sup>.

وبصيغة أخرى إن تحقيق ذلك التخيّر في مراتب التعذيب وحسن الجزاء هو يمثل ﴿وَأَيَّمَا أَنْ نَنخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ فإن تعذيب الظالمين إحسان بالمجموعة وحتى بالنسبة للظالمين رجاء رجوعهم أم - لأقل تقدير - تقليلاً لظلمهم. فلو ظلوا طويلاً لأضلوا وظلموا كثيراً!

كما ومن اتخاذ الحسن فيهم إرشادهم عن غيهم ومساعدتهم عن عيهم ولكي يجيدوا الإيمان وعمل الصالحات ويحيدوا عن الطالحات.

﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا﴾<sup>(٨٩)</sup> حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾<sup>(٩٠)</sup> كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾<sup>(٩١)</sup> :

خطوة ثانية في مثلث الرحلة كأنها أطولها فإنها من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق طوال اليابسة الأرضية مهما كانت بينهما بحار وأنهار!

﴿ثُمَّ﴾ هنا تلمح للتراخي بين وصوله إلى أقصى المغرب ومغادرته عنها، وهذه طبيعة الحال في سفرة إصلاحية كهذه، وفي قوم لم تسبق لهم سابقة إصلاح كهذه السابغة اللائقة، هذا وإن كنا لا ندري زمن ذلك المكوث اللهم إلا لمحة ثمة من ﴿ثُمَّ﴾.

﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا﴾ وتنكير ﴿سَبَبًا﴾ يدلنا أنه غير السبب الأول شخصاً، مهما كان من جنسه أمّاذا؟ فلا يهمننا شخص السبب ولا جنسه ونوعه، وإنما ﴿سَبَبًا﴾ إلهياً لم يحصل إلا بما آتاه الله.

اتبعه لحوقاً سريعاً ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ مطلعها من أقصى الآفاق

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.



الشرقية في عين الرائي، وكما في مغربها لأقصاه، في يابسة المعمورة بجانب البحر المحيط، فما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها دون اختلاف بينهما إلا فارق المغرب عن المشرق وعين حمئة.

﴿... وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ لا سترًا خلقياً من مرتفعات غابات وجبال وأشجار وأتلال، ولا سترًا مصطنعاً من بيوت (١) أو خيام أماذا فتتكبير ﴿سِتْرًا﴾ يستغرق نفي الستر أياً كان وحتى الملابس (٢) فإنها سترٌ عن الحر والقر! ومهما كان جعله إلهياً دون وسيط من سكان الشرق الأقصى حينذاك، كالأول، أم بوسيط كالثاني، فهما على أية حال راجعان إلى الله!

إذا فهم قوم بدائيون ومن أبداهم، كانوا يسكنون في أرض مستوية مكشوفة لا تظلمهم إلا شمسهم ولا تقلبهم إلا أرضهم، دون أي ظل أو قَلِّ سواهما! فـ «قد أحرقتهم الشمس وغيرت أجسادهم وألوانهم حتى صيرتهم كالظلمة» (٣).

فهل كانوا كلهم مؤمنين؟ وهو في العادة مستحيل ولهذه البداءة القاحلة البعيدة عن الدعوات الإلهية أم وسواها! ثم ولماذا لم يحدث لنا بحديثهم البارع أو حديثه لهم!

(١) نور الثقلين ٣: ٣٠٧ ج ٢٢٢ في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ كَذَلِكَ ﴿الكهف: ٩٠-٩١﴾ قال: لم يعلموا صنعة البيوت.

وفي الدر المنثور ٤: ٢٤٩ - اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن جريح في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ الآية قال: حدثت عن الحسن عن سمرة بن جندب قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أنها لم يبن فيها بناء قط كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى نزول الشمس أقول: وقد لا يلائم هذا الحديث استغراق النفي في «سترًا» حيث الأسراب ستر كما البيوت.

(٢) المصدر في تفسير القمي في الآية قال: «لم يعلموا صنعة الثياب» أقول: تشمل الخيام.

(٣) من حديث الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام.

أم كانوا كلهم فاسقين؟ فأحرى بهذا المصلح إصلاحاً لهم أو تعديباً ولم يلمح هنا بشيء في هذا البين .

أم كالقوم الأول: منهم مؤمنون ومنهم دون ذلك؟ فلماذا لم يكرر لهم ما حصل لهؤلاء ﴿تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ ضَبْرًا﴾<sup>(١)</sup>!

وإذا هم خارجون عن هذا المثلث من المكلفين فمن هم إذا؟ ولماذا يتحمل هذا المصلح العالمي الكبير هذه السفر البعيدة المدى، وهي أبعد من الأولى والأخرى، دون إنتاج له ولهم؟! .

يبدو كما تلمّحناه أنهم من أبدى البدائيين، كانوا ضللاً غير عارفين، لا مؤمنين ولا فاسقين، ومهما كانوا هم من المكلفين، فهم ممن لا يهتدون سبيلاً، منقطعين عن وحي الرسالات أم بلهاء لا يعرفونها، إذاً فهم مُرَجُونَ لأمر الله في مختلف الدرجات تكليفاً وجزاءً: ١ - ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .  
٢ - ﴿وَمَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِثْقَابِ...﴾<sup>(٣)</sup> . ٣ - ﴿وَأَخْرَجُوا عَتَرُوا بِذُنُوبِهِمْ...﴾<sup>(٤)</sup> ، ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ...﴾<sup>(٥)</sup> فلهؤلاء الثلاث من قمة الإيمان ودرك الكفر والمتوسط بينهما، له ما أصلح وعليه ما أطلع، ومن ثم رابع ﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقد يكون القوم في أقصى المشرق حينذاك من أبدى البدائيين من ﴿وَأَخْرَجُوا﴾ فليس لذي القرنين كثير شغل معهم مهما أرشدهم كما

(١) سورة النجم، الآية: ٢٢ .

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٠، والكهف: ١٠٠ .

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠١ .

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٢ .

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٥ .

(٦) سورة التوبة، الآية: ١٠٦ .

يسطعون، كما قد يلمح له ﴿وَقَدْ أَحْطَنَّا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ وكما يلمح لغاية أخرى من هذه السفارة أن يحيط خبراً بأدنى المكلفين في المعمورة.

﴿أَحْطَنَّا﴾ هنا تضرب إلى أعماق الماضي لحد الحال والاستقبال في ذي القرنين على أية حال، ولكن الخبر المحاط لرنا قد يخبرنا به وقد يسكت عنه دون ضِنَّةٍ، وإنما بحكمة كما هنا، وعلنا نستعمل نحن ما لدينا من طاقات واستنباطات كالذي قلنا.

﴿ثُمَّ أَنْبَعِ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَنْذَا الْقَرْيَيْنِ... ﴿٩٤﴾﴾:

خطوة الثالثة هي الأخيرة من هذه الرحلة العالمية، يُتبع فيها سبباً ثالثاً نقول فيه مثل الذي قلناه في الثانية، فهي غير الأولى والثانية، وعلّه من نوعه لمكان التنكير ﴿سَبَبًا﴾:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ قَوْلًا﴾ سفرة بسببه من أقصى المشرق إلى ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ فأين هو؟ لحد الآن لا ندره! وأما من هم ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؟ وإذا لا يفقهون فكيف ﴿قَالُوا يَنْذَا الْقَرْيَيْنِ...﴾!؟

نحن لا نعرفهم ولا مكانهم إلا ما عرفه القرآن أنه ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهو طبعاً بين أقصى الشرق والغرب شمالاً أو جنوباً أماذا؟ فإنه قطعاً - ليس مشرق الشمس أو مغربها حيث بلغهما قبل هذه.

ثم ﴿السَّدَّيْنِ﴾ هما ما يسدان ويحجزان، أهما صناعيان؟ وإنما الصناعي لغرض صد الماء دفعاً لضره أو انتفاعاً من جمعه! والفتحة ناقضة لهذا القصد، أو صد الهجمات عمّن وراء السدين؟ وهذان السدان لم يكونا صدين لأيّ هاجم، حيث الفتحة بينهما ممرٌ لكل مارٍ، وقد طلبوا إليه أن يجعل بينهم وبين المفسدين سداً! ثم وهم على سذاجتهم لحد لا يكادون يفقهون قولاً لم يكونوا ليفقهوا صناعة سدّ وقد فقها المهندسون في دور التقدم والرقي، ثم ولم يكملوا الصد في السدين طمّاً للفتحة بينهما؟!!

إذا فهما حازان طبيعياً لا يُظهر عليهما ولا يُنقبان «فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً» وإن كان يختص هنا بالردم، ولكن السدين إن لم يكونا في هذا الاختصاص كالردم، كان جعل الردم دون فائدة!

إذا فهما جبلان<sup>(١)</sup> صلبان شاهقان، لا ينقصهما حجراً عن الهاجمين إلا ردمٌ بينهما وقد طلبوه إليه! وقد يلح لذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصُّدُفَيْنِ﴾<sup>(٢)</sup> :  
الجانبين الصليين .

و﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لا يعني إلا النفي المعمق لفقه القول، لا نفي القول، فرب قائل لا يفقه ما يقال له ولكنه يفقه ما يقول! أو يكاد يفقه قولاً .

ثم ﴿قَوْلًا﴾ قد يعني معنى صالحاً من قوله، لا لغة، فإنهم - لأقل تقدير - يفقهون لغتهم وقد تكلموا بها ﴿قَالُوا يَنْذَا الْقُرَيْنِ . .﴾ ولا يرجى من أهل كل لغة إلا تفهم لغته دون اللغات الأخرى .

فعلّهم كانوا في بساطتهم وسذاجتهم لحدّ لا يفقهون قول أي قائلٍ سواهم اللّهم إلا من هو في مستواهم، وذو القرنين كان يتحدث مع أهل كل لغة بلغتهم بسبب إلهي آناه الله من كل شيء ومنه شيء اللغة، ولكنهم ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فقد لا يفقه الإنسان قولاً ولكنه يُفَقِّهه لاستعداده أن يفقه بمحاولة، وقد لا يستعد التفقه ولكنه يكاد أن يستعد يفقه، ولكن هؤلاء كانوا في البساطة وخفة الفهم لحدّ ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أيّاً كان هذا القول إلا ممن هو في مستواهم، ويردد عليهم مفاهيمهم دون أن يخطوها إلى سواها، وذو القرنين يريد ليحدثهم بلغتهم وبكل بساطة، إلا أنهم ﴿لَا يَكَادُونَ﴾ حيث الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، وهم غيبٌ عن تفهم أي غائب ف ﴿قَوْلًا﴾ يعني قولاً يحتاج إلى تأمل وتفقه .

(١) في حديث الأصمغ عن أمير المؤمنين عليه السلام : ﴿قَالُوا يَنْذَا الْقُرَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ [الكهف: ٩٤]

(٢) سورة الكهف، الآية: ٩٦ .

هنا ييأس هذا المصلح العالمي أن يفيدهم فقهاً ويزيدهم علماً، فهل يذرهم بعد وعشاء السفر دونما إفادة؟ كلا - إنه أصغى إليهم ما هي متطلباتهم ف ﴿قَالُوا يَنْذَا الْقُرَيْنِ...﴾! فهم مهما لا يفقهون قولاً فقد يفقهون الخطر الحادق عليهم ليل نهار من ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ فلما رأوه صالحاً قوياً مصلحاً تطلبوا إليه صد المفسدين أن يجعل سداً.

﴿قَالُوا يَنْذَا الْقُرَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (٩٤):

إنهم على بساطتهم يرون فيه فاتحاً عدلاً قوياً صارماً يتوسمون فيه الصلاح والإصلاح وهم مستضعفون تحت وطأة الإفساد الدائب من وراء السدين من ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ حيث كانوا يهاجمونهم من وراء السدين فيعيثون في أرضهم فساداً وهم ضعاف عن مقابلتهم، إفساداً في النسل والزرع<sup>(١)</sup> أماذا؟

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾؟ ذات دلالتين على التماسهم منه ١ - ﴿أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾. ٢ - هل تجعل سداً - وإذا فهل نجعل لك خرجاً: أجراءً نُخرجه عما تُخرجه من مال أو قوة؟ دون زيادة عنهما، والأجر أعم من الخرج، فقد يتأجر أكثر مما يُخرج اعتباراً بلباقة الرأي ولباقة صاحب الرأي، وهو عدل ما لم يُجحف، أو يسوي بين خرجه وأجره وهو فضل إذ لم يأخذ على تخصصه شيئاً، أم لا يأخذ خرجاً وإنما يساعد طالب العمل العاجز بنفسه فيه، يساعده في طلبه، وهو فضل حيث اشتغل دون عوض، وتفضل على صاحب العمل حيث استعمله كما يسطع دون بطالة، وهكذا يفعل ذو القرنين، كأفضل ما يمكن أن يقدمه مصلح قوي حكيم لمستضعفين

(١) في حديث الأصبع عن أمير المؤمنين عليه السلام... «إذا كان إبان زروعنا وثمارنا خرجوا علينا من هذين السدين فرعوا من ثمارنا وزروعنا حتى لا يبقون منها شيئاً...».

مظلومين، يتعاون معهم في صالحهم، دون أن يأخذ أجراً أو خرجاً إلا أن يستعملهم لما يطلبون إعانة بقوة ومال هما خرج للردم ودون أن يكون له شيء إلا أجر من ربه .

فدو القرنين يبلغ بين السدين، ويُطلب منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، أن يصد بين السدين تخلصاً لهم عن إفسادهم في أرضهم، مما يبين كونهم مستضعفين وغير ظالمين، وإلا تطلبوا إليه صد الإفساد فيما بينهم كما بينهم وبين المفسدين وراء السدين، وبطبيعة الحال هؤلاء البله الذين لا يكادون يفقهون قولاً لا يستطيعون الإفساد، أم إذا استطاعوه لم يكونوا ليفسدوا فيما بينهم، يدل على كل ذلك تطلبهم إلى هذا المصلح العظيم أن يجعل سداً هو صد عن الإفساد في أرضهم!

من هذه الدعوة على بساطتها ومن تلکم الإجابة الخارقة في ذلك التعاون الصارم ندرس مدى وجوب صد الإفساد من أي كان وأياً كان وأيان! تكريساً لكافة الطاقات البشرية مع التوصل بإمدادات إلهية، خروجاً عن الإستهفاف وغيث الفساد، دون أي مبرر لأية جماعة مستضعفة في تصابريهم على الفساد وتخاذلهم أمام المفسدين، فصدّاً صدّاً أو سداً سداً! بعدما كلت كل المحاولات للقضاء على المفسدين أو على فسادهم أم الهجرة عنهم أمآذا؟ فلا يتبرر المستضعف تحت نير الإفساد من المستكبرين قوله: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup> حيث يقال لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ...﴾<sup>(٢)</sup>... اللهم ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾<sup>(٣)</sup> فما دام هنا سبيل إلى التخلص أي سبيل، كائناً أو متمكناً، فلا يُعذر المستضعف، وحتى إذا لم

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧ .

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧ .

(٣) سورة النساء، الآية: ٩٨ .

يستطع حيلة ولا يهتدي سبيلاً ﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ... ﴾ (١) ترجياً  
دون تحتم!

إذ فيهم من كانت له الهجرة أو أية مقاطعة فتصابر على تركها بنير الذل  
حتى زالت استطاعته وحيلته...! إلا من انتشأ وظل بين المستكبرين قصوراً  
دون تقصير وقليل ما هم؟

فيا له تكليفاً لزاماً ما أشمله: مجانية عوامل الفساد قدر المستطاع، دون  
سماح لأي همول أو خمول، سلباً لكل فساد، ومن ثم محاولة دوافع الإصلاح  
والإصلاح فرضاً لزاماً قدر المستطاع دون سماح لأي همول أو خمول!

ولنكن ثالث ثلاثة من المستضعفين في حياة الجهاد الدموي الدائب...  
وإلى رابع أضلاع الحياة: «ورثة الأرض» لا مستكبرين ولا مستضعفين،  
وإنما مؤمنين أقوياء في دولة مباركة عالمية زمن المهدي من آل محمد  
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين!

ونقول لأقوام يظهر الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل  
الذي هم عليه من التقشف: أخبروني أين أنتم من سليمان بن داود ثم ذو  
القرنين عليهما السلام، عبد أحب الله فأحبه الله، طوى له الأسباب، وملّكه مشارق  
الأرض ومغاربها، وكان يقول الحق ويعمل به ثم لم نجد أحداً عاب  
عليه (٢)!

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (٩٥) ءَأَتُونِي زُبَرَ  
الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ  
قَطْرًا ﴿٩٦﴾ :

(١) سورة النساء، الآية: ٩٩.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٠٨ ج ٢٣٤ في الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن هارون بن مسلم عن  
مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام حديث يقول فيه عليه السلام: لأقوام...

﴿ مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي ﴾ أن مكنتني في الأرض وآتاني من كل شيء سبباً - إنه ﴿ خَيْرٌ ﴾ من خرجكم . . . فأنا أستعين بسبب من ربي علماً وقوة، ثم ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّتِهِ ﴾ بشرية، فليست القوة الخارقة الإلهية لتبطل أو تعطل قوة بشرية، فمهما كان بالإمكان جعل الردم بسبب آلهي صارم دون تسبب إلى قوة بشرية، ولكنه عطالة عارمة لهذه القوة، فإنما الخارقة للعادة فيما تقصر عنه العادة قدره، أم تثبِتاً لنبوة إلهية ليست لذي القرنين، أم لحجة إلهية آية باهرة على رحمته .

وهذه سنة الله الدائبة، عدم التغاضي عن الحول والقوة الخلقية، فإنه بطالة، وأحياناً فعل خارقة إلهية يساند الفعل الخلقية، وكما في جعل ذلك الردم .

﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّتِهِ ﴾ قدر المستطاع من مال أو حال، ألا جعل لكم سداً كيفما كان؟ لا! بل ﴿ رَدْمًا ﴾ يسد الثلثة، فأيسر طريقة وأقواها هي ردم الممر بين السدين، ليردم الماردين المفسدين، فلا يستطيعون أن يظهره لارتفاعه، ولا أن ينقبوه لحدته، فكم من سد يُظهر عليه وهو حديد، وكم من سد رفيع يُنقب لأنه وهيد غير حديد، ولكنه ردم يسد الثلثة نقباً وارتفاعاً! .

لم يكن هنالك طريقة أخرى لصدّهم عن الإفساد إلا بسدهم ردماً، فهل يقتل أو يعذب المفسدين ثم يتركهم؟ فمن ذا يضمن عدم عودة الباقيين إلى إفسادهم؟ وماذا يضمن من لا يستطيع منهم الإفساد أو هو تاركه الآن ألا يفسد بعد الآن؟ أو يبدهم كلهم؟ فقصاصاً قبل الجناية لبعضهم! وعل في أنسال مفسديهم صالحين أو مصلحين: فلا طريقة إذاً - أمثل من صدّهم بسدهم! ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (١) .

﴿ أَتُونِي زُبَيْرَ الْحَدِيدِ ﴾ والزُبيرة واحدها وهي القطعة العظيمة، فقد طلب

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٨ .



إليهم أن يأتوه قِطْعاً من الحديد دون تحديد ﴿حَقَّ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ حيث ملأ بينهما من زبر الحديد لحد ساوى بين الصَّدَفَيْنِ: الجانبين الصلبين من السدين، وهي رُكامة حديدية بين الحاجزين فأصبحا كأنهما صَدَفَتَانِ تغلقان ذلك الكوم الممر حيث الركام سامتَ القمتين، ومن لطيف الصُّدْفِ تساوي الصَّدَفَيْنِ كما تدل عليه ﴿سَاوَى﴾.

وكيف يلحم بين زبر الحديد حتى تصبح كأنها زبرة واحدة كجبل حديدي بين الجبلين؟ هنالك نفخ وقطرٌ يلحمان زبر الحديد كأقوى تلحيم! ﴿قَالَ أَنْفَخُوا﴾ بمنافخ فنفخوا ﴿حَقَّ إِذَا جَعَلَهُ﴾ المنفوخ ﴿نَارًا﴾ فضمير المفرد رغم جمعية زبر الحديد يلحم إلى حدة الالتحام بينهما لحد الوحدة أو كأنها زبرة واحدة، ومن ثم ﴿نَارًا﴾ لا نيران، لمحة مليحة إلى وحدة نارية بعد وحدة الالتحام وحِدَّتِهِ، نارٌ واحدة في شدة الحرارة والالتحام.

وهل يكتفي بذلك، وعلّ بين هذه الوحدة النارية فُرْجاً؟ كلاً، إنه القطر: النحاس المذاب، يفرغ على هذه النار الزبرة الحديدية فيكتمل أمر السد الردم! .

﴿قَالَ أَمْثَلُ أَفْرَغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ نحاساً مذاباً يتخلل الحديد النار، ويقويه أقوى من خالص الحديد، قطرٌ على حديد ونارٌ على نار.

وهذا الخلط كان من الأسباب القوية لتحكيم الردم، وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية كلٍّ من النحاس والحديد فكلٌّ بمفرده أضعف من هكذا خلط يجعلهما كالفولاذ!

كما وأن ذلك النفخ وزبر الحديد ومذاب النحاس بعيد عن قوم ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾<sup>(١)</sup> حيث البداية والسداجة في أبسط مراحلها جعلت منهم بلهياً لا يعرفون شيئاً، فكيف لهم بإتيان زبر الحديد، والنفخ فيه لحدّ جعله

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٣.

ناراً والنحاس المذاب، فلم يكن لهم شغل في هذه الثلاث إلا إتيان زبر الحديد ﴿ءَأْتُونِي...﴾ دون استخراجها من معدنها، أو نفخ فيها دون المنفخ ﴿قَالَ أَنْفُخُوا﴾ ثم إيتاء ﴿ءَأْتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ حيث إفراغ القطر من فعله دونهم، وإنما هم عمال في هذه الثلاث: إيتاء ونفخ وإيتاء، وأما تحصيل زبر الحديد والمنفخ والنحاس وإذابته فكل ذلك مما آتاه الله من كل شيء سبباً!

فهناك معدن للحديد دلهم ذو القرنين على استخراجها، ومنفخ دل على اصطناعه أماذا، ومعدن للقطر ثم مديب، كل ذلك بأسباب خارقة إلهية وهم عمال يؤمرون لا مصطنعون ومخترعون!

﴿فَمَا اسْطَبَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا﴾ (٩٧):

فقد صدهم هذا السد، إذ حاولوا أن يظهره فما استطاعوا، وحاولوا له نقباً لينفذوه فما استطاعوا، فاستراح هؤلاء المستضعفون عن إفسادهم وكأنهم سألوهم من أين هذه الكرامات الخارقة؟ ف:

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨):

ذلك الملك العدل الرؤوف يجتاح الأرض مشارقها ومغاربها ممكناً متمكناً ميسراً له من كل الأسباب، ولا تأخذه العزة بالإثم والكبرياء بالخيلاء، ولا يطغى تبطراً، ولا يبغى من القدرة مغنماً، ولا يستغل السلطة استعباداً، وإنما ينشر عدلاً ورحمة، ويأتي بخارقة تلو الأخرى، وعند انتهاء هذه الحلقة ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ يسند كل ما أتى به إلى رحمة ربه دون سناد إلى نفسه إلا كواسطة في هذه وتلك الخارقة.

ولكيلا يخلد إلى خلدٍ خلو رذمه الفولاذي يدكّه بوعده ربه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ تدميراً بعد تعميره ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ لينة سهلة، بعد ما كانت فولاذية مرتفعة صلبة ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ في دكها.

ترى وما هو ذلك الوعد؟ هل هو الوعد العام بدكداك الأرض وما عليها وبضمنها ذلك الردم: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (١)، ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ (٢)؟

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا﴾ (٩٩) ﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ (١٠٠):

تدلنا على تماوج الأحياء بعد دكداك الردم، ثم بعدهما نفخ الصور وجمع الجمع! ثم وآية الأنبياء قد تناصرها أن وعد الدكداك هذا قبل القيامة الكبرى: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرِينِهِ أَهْلَكْنَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) ﴿حَقَّ إِذَا فَتَحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦) ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُوبِلُونَ قَدَّ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٧) (٣).

ففتح يأجوج ومأجوج بدك الردم، والدك الفتح هما في الآيتين قبل جمع الجمع، فهناك ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا﴾ وهنا أدل منها وأقرب ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ فجمع الجمع والوعد الحق هما بعد وعد الرب ودك الردم.

وعد أول خاص يشمل دك الردم، ففتح يأجوج ومأجوج كشرط من أشرط الساعة الوعد العام.

ثم الوعد الحق في قيامتي التدمير والتعمير هو مقترب - لا واقع - عند وعد الرب بهدم الردم وفتحهم وتركهم يومئذ يموج بعضهم في بعض وهم من كل حدب ينسلون، فـ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا﴾ الرامي إلى نفخة

(١) سورة الفجر، الآية: ٢١.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآيات: ٩٥ - ٩٧.

الإحياء ليس إلا بعد نفخة الإمامة، وهي بعد اقتراب الساعة بأشراطها التي منها: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً...﴾!

وترى من «هم» في ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ...﴾؟ أهم يأجوج ومأجوج؟ وهم كان بعضهم مائجاً في بعض قبل دكّاء الردم!

أم هم المجموعة منهم والقوم الذين كانوا لا يكادون يفقهون قولاً، مستضعفين ومستكبرين، إذ انفتح الردم ففتحوا كما كانوا قبل سد الردم، فأصبحوا كأموج البحر الملتطم يتلاطمون في تماوج عارم وتهارج صارم، وهو الصحيح!

أو هم مجموعة المكلفين من الجنة والناس أجمعين، يتركهم يومئذ يموج بعضهم في بعض، في هرج ومرج وفساد دائم وظلم عارم، وعله الأصح!

إن يأجوج ومأجوج - أيأ كانوا - إنهم بعد ذلك النفخ من كلّ حذب ينسلون، ولأن «حَدَبَ» هو المرتفع، فكلُّ حذب يعم كلَّ مرتفع يمكن أن يرتفع: من مرتفعات بحرية وبرية أو جوية، محلّقين على كل محلق، دون اختصاص بحذب الردم ولا حَدَب له بعد دكّه! .

وأن ﴿يَنْسِلُونَ﴾ هو: ينفصلون مسرعين، ويلدون، ف ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ قد يعني الهرج والمرج العالمي من قبيل يأجوج ومأجوج، مسيطرين على كل مرتفع، مسرعين في الانفصال عنه إلى الناس المستضعفين، ناسلين ولدأ به يكثرون، وعند ذلك الطامة الوسطى: أن تملأ الأرض ظلماً وجوراً نظرة أن يملأها الله بعده قسطاً وعدلاً بالقائم المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه .

ولأن «المَوْجَان» من صفات الماء الكثير، ف «يموج بعضهم في بعض» توحى بشدة اختلافهم، ودخول بعضهم في بعض لكثرة أضدادهم، تشبيهاً

بموج البحر المتلاطم، والتفاف الدبا المتعاضل، تماوج مختلف المياه عذباً ومالحاً ومراً أجاجاً.

وهكذا تكون الفتنة العالمية حيث تُملأ الأرض ظلماً وجوراً، فلا يبقى موضع قدم إلا وفيه هرج ومرج!

### أين ردم ذي القرنين؟

لأن ذلك الردم بدّته وفتح يأجوج ومأجوج هما شرط من شروط الساعة: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ...﴾<sup>(١)</sup> فلنحاول في الحصول على معرفة عنها قدر المستطاع على ضوء القرآن، وما يلائمه أو يثبت من السنة والتأريخ الجغرافي وسواه.

فهل إن ذلك الردم هو جدار الصين؟ وليس سدّاً ولا ردماً! وليس حديدياً وذلك الردم حديد بقطر! وليس بين جبلين، بل بين سهول وجبال عدة والردم بين جبلين! وقد بناه ذو القرنين وجدار الصين بناه «شين هوانك تي» في طول ألف كيلو متراً وعرض تسعة أمتار وارتفاع خمسة عشر متراً بالأحجار، وهو قاطن الصين دون سفر إليه لبناء جداره وذلك بنى ردمه في سفرة بعيدة.

ثم وبناء سد في حجم ١٣٥٠٠٠,٠٠٠ متراً بحاجة إلى ملايين الأطنان من خليط القطر والحديد، فأين سد من جدار وبانٍ من بان؟

فهل هو بعد سد باب الحديد في عمالة بلخ وراء جيحون بمقربة من مدينة ترمذ كما جاء في بعض المؤلفات<sup>(٢)</sup>؟ ولم يتضح لنا بعد وجود هجمات تصدّد بذلك السد وهو خلاف اسمه ليس فيه حديد وقد بناه كسرى أنوشروان.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٧.

(٢) في مجلة المقتطف المصري ١٨٨٨ كما نقله في الجواهر أنه اتضح لنا من المصنفات العربية وجود سد وراء جيحون في عمالة بلخ واسمه سد باب الحديد بمقربة من مدينة ترمذ وقد اجتازه تيمورلنك بجيشه ودعا مؤرخه شرف الدين اسم المحل «خلوجة» ومر به أيضاً شاه =

أم سدُّ ثانٍ في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر إلى البحر الأسود، المسمى بمضيق داريال<sup>(١)</sup> بين بلدة تفليس وولادي كيوكز.

وهذا السد المسمى باللغة المحلية «دمير قاثو» أي: باب الحديد: يقع في ذلك المضيق بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبه، وهو الفتحة الوحيدة الرابطة بين جانبي الجنوبي والشمالي مع ما ينضم إليها من بحر الخزر والبحر الأسود، حاجز طبيعي بطول ألوف من الكيلومترات يحجز جنوب آسيا من شمالها.

وكان يهجم في تلك الأعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز إلى مايو إليها من الجنوب، فيغيرون على ما دونها من أرمينستان ثم إيران حتى كلدة والآشور، كما هجموا حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلاً وسبياً ونهباً حتى بلغوا نينوى عاصمة الآشور وذلك في عهد كورش.

ويذكر المؤرخون في كهردوت اليوناني سيركورش إلى شمالي إيران لإخماد نائرة الفتن المشتعلة هناك، وكأنه هو باني ذلك الردم في هذا المضيق، وهو الردم الوحيد الذي بُني بالحديد بين جبلين، ويذكره يوسف اليهودي المؤرخ عند ذكر رحلته إلى شمالي قفقاز<sup>(٢)</sup> وبينه وبين كسرى باني سد باب الحديد قرون!

= روح وكان في خدمته ومن بطانته الألماني: سيلد برجر - وذكر السد في كتابه وذلك في أوائل القرن الخامس عشر وذكره الإسباني: كلما فيجو في رحلته سنة ١٤٠٣ وكان رسولاً من ملك كستيل (قشتاله) بالاندلس إلى: تيمورلنك - قال: إن سد مدينة باب الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند والهند.

(١) لعله من أصل داريول بمعنى المضيق بالتركية ويسمى باللغة المحلية «دمير قاپو» أي: باب الحديد.

(٢) الدر المثور ٤: ٢٥٠ - أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه سئل عن الترك =

ثم هناك نهر بالقرب منه يسمى «سايروس» وهو اسم كورش عند الغربيين<sup>(١)</sup>.

ولأنه الردم الوحيد الذي نعرفه حتى الآن فعلّه هو الذي بناه ذو القرنين، أو سوف يكتشف ردمه، لا نتأكد الآن شيئاً، والظاهر لحد الآن أنه «باب الحديد» هذا، حيث يوافق الردم اسماً ومسمى وموقعاً جغرافياً، وهو الوحيد فيما نعرفه! ثم ولا غرض عقلائياً ولا قوة عادياً ولا موقع جغرافياً في بناء ردم فولاذي إلا كما يقصه القرآن، وإذ لا نجد غير «دمير قاثو» في نفس الموقع والهدف والقوة فليكن هو الردم المذكور في القرآن والله أعلم<sup>(٢)</sup>.

### ومن هم يأجوج ومأجوج؟

لقد كثر القيل والقال حولهما، وما يحمل تناقضات من أسطورات تدهش العقول وتوحش الحقول، ولأن فتح يأجوج ومأجوج من شروط الساعة كما في الكتاب والسنة<sup>(٣)</sup> فعلينا النقب والتنقيب الكثير حول «من هما

= فقال: هم سيارة ليس لهم أصل هم من يأجوج ومأجوج لكنهم خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم وبين قومهم فذهبوا سيارة في الأرض.

(١) هذا التاريخ نقله عن الميزان ج ١٦ ص ٣٩٤ والتحليل والمقابلة منا.

(٢) الدر المثور ٤: ٢٥٠ - أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي بكرة النسفي أن رجلاً قال: يا رسول الله ﷺ! قد رأيت سد يأجوج: قال ﷺ: انعت لي - قال: كالبرد المجر طريقة سوداء وطريقة حمراء - قال ﷺ: قد رأيت.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٠٩ ج ٢٣٩ في كتاب الخصال عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: كنا جلوساً في المدينة في ظل حائط قال: وكان رسول الله ﷺ في غرفة فاطلع إلينا فقال: فيم أنتم؟ قلنا: نتحدث - قال: عماذا؟ قلنا عن الساعة - فقال: إنكم لا ترون الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض وثلاثة خسوف يكون في الأرض: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج ويكون في آخر الزمان نار تخرج من اليمن من قعر الأرض لا تدع خلفها أحداً إلا تسوق الناس إلى المحشر، كلما قاموا قامت ثم تسوقهم إلى المحشر.

وأين هما وهل فتحوا حتى الآن أمّاذاً؟ فلنجعل الكتاب الإمام أمامنا ، فندرس آيتي يأجوج ومأجوج نبراساً ينير لنا الدرب إلى معرفتهما ، ومتراساً يبير كل يأجوج ومأجوج اختلقتها أيدي الدس والتجديف ، وتقولتها ألسنة التحريف .

﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا

= وفي ح ٢٤٠ حديث حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : عشر آيات بين يدي الساعة : خمس بالمشرق وخمس بالمغرب فذكر الدابة والدجال وطلوع الشمس من مغربها وعيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وأنه يغلبهم ويغرقهم في البحر ولم يذكر تمام الآيات .  
وفي الدر المنثور ٣ : ٢٥٢ - أخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : أنا أعلم بما مع الدجال معه نهران أحدهما نار تأجج في عين من رآه والآخر ماء أبيض فإن أدركه أحد منكم فليغمض ويشرب من الذي يراه ناراً فإنه ماء بارد وإياكم والآخر فإنه الفتنة واعلموا أنه مكتوب بين عينيه كافر يقرأه من يكتب ومن لا يكتب وإن إحدى عينيه ممسوحة عليها ظفرة أنه يطلع من آخر أمره على بطن الأردن على ثنية أفيق وكل أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ببطن الأردن وأنه يقتل من المسلمين ثلثاً ويهزم ثلثاً ويبقى ثلث ويجن عليهم الليل فيقول بعض المؤمنين لبعض ما تنتظرون أن تلحقوا إخوانكم في مرضات ربكم من كان عنده فضل طعام فليفد به على أخيه وصلوا حتى ينفجر الفجر وعجلوا الصلاة ثم أقبلوا على عدوكم فلما قاموا يصلون نزل عيسى ابن مريم أمامهم فضلى بهم فلما انصرف قال هكذا فرجوا بيني وبين عدو الله فيذوب وسلط الله عليهم من المسلمين فيقتلونهم حتى أن الشجر والحجر لينادي يا عبد الله يا عبد الرحمن يا مسلم هذا يهودي فاقتله فيقتلهم الله وينصر المسلمون فيكسرون الصليب ويقتلون الخزير وضعون الجزية فيبينما هم كذلك أخرج الله يأجوج ومأجوج فتشرب أولهم البحيرة ويجيء آخرهم وقد انتشفوا ولا يدعوا فيه قطرة فيقولون ظهرنا على أعدائنا قد كان ها هنا أثر ماء فيجيء نبي الله وأصحابه وراءه حتى يدخلوا مدينة من مدائن فلسطين تقال لها : لُد فيقولون ظهرنا على من في الأرض فتعالوا نقاتل من في السماء فيدعو الله نبيه عند ذلك فيبعث عليهم قرحة في حلوقهم فلا يبقى منهم بشر فيؤذي ريحهم المسلمين فيدعو عيسى فيرسل الله عليهم ريحاً فتقدفهم في البحر أجمعين .  
وفيه أخرج نعيم بن حماد في الفتن وابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : بعثني الله ليلة أسري بي إلى يأجوج ومأجوج فدعوتهم إلى دين الله وعبادته فأبوا أن يجيبوني فهم في النار مع من عصى من ولد آدم وولد إبليس .



جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءٌ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

﴿وَحَرَمٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُجِئَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُلَاقُونَ قَدَّ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (١).

قد تعني مقابلة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءٌ﴾ لـ ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا﴾ إضافة إلى دكداك الردم نفسه، أنهم سوف يستطيعون أن يظهره أو يستطيعون له نقباً فينقبونه، ظهور الغلبة عليه هدماً أم التحليق عليه دون هدم! لذلك ترى آية الأنبياء تنسب الفتح إلى يأجوج ومأجوج، دون تصريحته أو تلويحة لدكداك الردم هدماً، بل ﴿وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ قد تلمح أنهم يظهرون على حَدَبِ الردم ضمن كل حَدَبٍ دون دكَّ لأيِّ حَدَبٍ حتى الردم.

فإن ثبت لدينا فتح ليأجوج ومأجوج والردم باقٍ، لم يثبت تهافت بين آيتي الكهف والأنبياء!

كما ومقابلة ﴿وَعْدُ رَبِّي﴾ بـ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّي﴾ تعني رجعة الإفساد من يأجوج ومأجوج كوعد للعذاب بعد الرحمة، سواء أبقى الردم أم دكَّ بدكاء الوعد العذاب.

وذلك الوعد هو قبل القيامة الكبرى وهو من أشراطها، حيث ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا﴾ بعده، وفتح يأجوج ومأجوج عند اقتراب الوعد الحق! وترى أن ﴿وَعْدُ رَبِّي﴾ شرطاً من أشراط الوعد الحق، هل يختص بردح خاص من الزمن أو قد يتكرر؟

آيات الإفساد العالمي الإسرائيلي مرتين كما شرحناها في «الأسرى»  
تدلنا على كرور الوعد، فعلّ العالمي منه اثنان ثم هناك وعدّ أم وعود جانبية  
ومنها الهجمة الجنكيزخانية التي سودت وجه التاريخ الإنساني!

ومهما كان يأجوج ومأجوج في البداية أمتين من بني الإنسان في سالف  
الزمن، فقد تعني، ﴿حَقَّتْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ كل أمة مفسدة تؤجج  
نيران الفساد في هذه المعمورة ومن أفسدها «إسرائيل»: ﴿لُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ  
مَرَّتَيْنِ﴾...! مهما كان الأوّلون من المغول والتتار آمن ذا؟

آية الأنبياء الأولى: ﴿وَحَكْرًا عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾  
تحرم الرجعة إلى الدنيا بعد الموتة فهي من آيات الرجعة<sup>(١)</sup> والثانية: ﴿حَقَّتْ  
إِذَا فُتِحَتْ﴾ تقرر أمد هذه الرجعة أنها بعدما فتحت يأجوج ومأجوج، وعله  
الإفساد العالمي الثاني الإسرائيلي قبيل الرجعة، أو الأوّل قبلها، أم الهجمة  
الجنكيزية قبلهما، أم تعني الثلاثة تعميماً ليأجوج ومأجوج إلى مؤججي نيران  
الفساد أياً كانوا وأهمه الإفسادان العالميان ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي  
الْكِتَابِ لُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾<sup>(٢)</sup> أو أن بني إسرائيل هم رؤوس الفساد في  
هذين، ويأجوج ومأجوج يؤججانه أمّاذا؟

يأجوج ومأجوج هما كلمتان أعجميتان معربتان حيث هما ممنوعا  
الصرف، ولا شك أنهما أمتان من أمم البشرية هما أمثلة الإفساد طول  
التاريخ بمن يساندهما.

(١) تفصيل البحث حول آية الأنبياء تجده عند تفسيرها، ومن الوجوه الراجحة أن أهل قرية  
أهلكناها حرام عليهم الرجوع لتكملة الحياة حتى إذا فتحت... فإذا فتحت يرجعون لا  
لتحصيل السعادة وإنما لتكميل الشقاوة فإنهم ممن محض الكفر محضاً، فالآية إذاً من آيات  
الرجعة وتدل على أن فتح يأجوج ومأجوج قبيل الرجعة فيناسب قبلها القريب كالإفساد  
العالمي الثاني الإسرائيلي، والبعيد كفتنة المغول، أو أنهما معنيان.  
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤.

وقد يلّمح ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسَلُونَ﴾ إلى انتشارهم في أرجاء المعمورة بعدما صدّهم ذو القرنين بسدّهم، وقد سئل الإمام علي عليه السلام عن الترك فقال: هم سيارة ليس لهم أصل، هم من يأجوج ومأجوج ولكنهم خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم وبين قومهم فذهبوا سيارة في الأرض<sup>(١)</sup>.

وكذلك نرى الأمة الإسرائيلية كانوا طول قرونهم وإلى احتلال فلسطين، كانوا سيارة في الأرض مفسدين أياً كانوا.

لست أقول إنهم من أصل الترك ويأجوج ومأجوج، وإنما كونهم سيارة الأرض المفسدين يجعلهم مع يأجوج ومأجوج أمة الإفساد في التاريخ، بل هم لعلهم أشد منهم وأنكى أو هم الأصل في الإفساد منذ كانوا وعلى هوامشهم سائر الأمم المفسدة.

ولأن اللغات متطورة كما المجتمعات، فقد يقرب القول إنهما المغول والتتار وهما من الترك، والمغول في الصيني «منكوك» أو «منجوك» وكأن الكلمتين نقل عبراني وهما في التراجم اليونانية وغيرها للعهد العتيق «كوك» و«ماكوك» والمشابهة الكاملة بين «ماكوك» و«منكوك» يقضي أنها متطورة من «منكوك» كما اشتق منه «منغول» و«مغول».

فلعل يأجوج هو «كوك» ومأجوج هو «ماكوك» فهذا المغول وذلك التتار، وقد ذكر بعض المدققين أن المغول والتتار من رجل واحد يقال له «ترك» وهو الذي سماه أبو الفداء باسم يأجوج، وقد كانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا، تمتد بلادهم من «التبت والصين» إلى المحيط المتجمد الشمالي وتنتهي غرباً بما يلي بلاد «تركستان»<sup>(٢)</sup>.

(١) الدر المنثور ٤: ٢٥١ - أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب . . .

(٢) كما في (فاكهة الخلفاء) وابن مسكويه في (تهذيب الأخلاق) وفي (رسائل إخوان الصفا) فقد ذكروا أن هؤلاء هم يأجوج ومأجوج.

ويذكر المؤرخون المسلمون والإفرنج أن هذه الأمة النكدة كانت تغير قديماً وفي مختلف الزمن على الأمم المجاورة لها، ومنهم المتوحشة كالسيول الجارفة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوروبا قديماً، فمنهم أمة السيت والسمرياق والمسجيت والهون، وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء، فكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء... (١).

طلب من ذي القرنين أن يجعل بينهم وبين قاطني الشرق الأقصى سداً فعمل ردماً فظلوا محجوزين ردماً من الزمن ﴿حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ في مثلث الإفساد العالمي، يتكفل أولاه في داهية دهياء وغارة عشواء «تموجين» الملقب نفسه «جنكيزخان».

إنه - وكما في القرآن: ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ خرج بجيشه. الجرار من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع من الهجرة -.

جنكيزخان بعدما يجمع أمة التتار تحت حكمه العارم يخضع الصين الشمالية ثم يذهب إلى البلاد الإسلامية ويخضع سلطان محمد السلجوقي ملك خوارزم، وكان يمتد ملكه على بلاد تركستان والفرس، فسقطت هذه الدولة بعد عشر سنين من الحرب المتواصلة.

جنكيزخان المغول الفاتح بعد هذه المدة يرتكب من المنكرات هناك ما لم يسمع مثله في التاريخ، فقد قتلوهم رجالاً ونساءً وأطفالاً، وارتكبوا من الفواحش ما سوّد وجه التاريخ.

(١) لقد فصل في رسائل قديمة ألفت في القرنين الثالث والرابع أن أمة يأجوج ومأجوج هم سكان تلك الجبهة المتقدمة شمال الصين وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع وعشرين درجة من العرض الشمالي إلى نحو خمسين درجة منه وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها بكين عاصمتها الآن ولقد كانوا أغاروا على الأمم جميعاً وكانوا كفاتحين للعالم كله.

في مدينة خوارزم وحدها، يفتك بها هدماً وإحراقاً وإهراقاً لدماء الأبرياء فأصبحت أنهاراً من الدماء، كما فعلوا مثلها بسمرقند وبخارى وغيرهما، وفتكوا بأهالي نيسابور وأفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوان وأحرقوا البلد، وأصبحت القتلى في واقعة مرو مليوناً وثلاثمائة وثلاثين ألفاً!

وهذه نبذة يسيرة من بحر فضايحهم هناك<sup>(١)</sup> ومن ثم كافة البلاد إلا شذراً: فقد أخضعوا بلاد الهند فمات «جنكيزخان».

ولما ملك ابنه (اقتاي) أغار ابن أخيه (باتو) على الروس (٧٢٢) ودمروا (بولونيا) و(بلاد المجر) وأحرقوا وخرّبوا.

وبعد موت (اقتاي) قام مقامه (جالوك) فحارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية.

ثم مات (جالوك) وقام مقامه ابن أخيه (منجوا) فكلف أخويه (كيلاي) وهولاكو) أن يستمروا في طريق الفتح، فيتجه الأول إلى بلاد الصين والثاني إلى الممالك الإسلامية. ففعلوا ما فعلوا من القتل والتدمير.

أسلمت بغداد سبعة أيام للقتل والسلب والنهب فسالت فيها أنهر الدماء وطرحوا الكتب العلمية في دجلة وجعلوها جسراً يمرّون عليه بخيولهم وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله وعلقت جثته في ذنب حصان وساروا بها بين أسوار بغداد. . . وقد استمرت فتوحات المغول إلى سوريا. . .

الفتنة المغولية تفتك بالبلاد كلها من مشارق الأرض ومغاربها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس، وعلّه إليها الإشارة في حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم في الشام وساقتهم بخراسان، وكما في تصريحه أخرى أنهم لا يدخلون المدن الثلاث.

(١) راجع دائرة المعارف وابن خلدون وفاكهة الخلفاء.

وقد يعنيه الحديث «ويخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطات يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها .

ومن «السبب الظاهر في هذه الفتنة أن سلطان خوارزم يقتل رسل «جنكيزخان» والتجار المرسلين من بلاده ويسلب أموالهم ويغير على أطراف بلاده فيغتاظ «جنكيزخان» ويكتب إليه كتابه يهدده فيه بما فعل<sup>(١)</sup> .

ذلك إفساد في الأرض مرة شاملة من ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ وقد تلمح ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِحَتْ﴾ أنها الأولى منهم والأخيرة كشرط من أشرط الساعة، ومن ثم إفسادان عالميان من بني إسرائيل كما في آية «الأسرى»، فإنها تخص إفسادهم في مرتين لا كل إفساد من أي كان، كما وآية الفتح ليأجوج ومأجوج تخص فتحهم في إفسادهم الظاهر في مرة .

أو أن فتحهم يعني جنسه الشامل للمرات الثلاث، مرة تخصهم كما مرت، ثم هم يشتركون في المرتين الإسرائيليتين العالميتين، طالما هم فيها

(١) نص الكتاب هكذا: «كيف تجرأتم على أصحابي ورجالي وأخذتم تجارتي ومالي؟ وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم ويقينكم أن يريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا أموال الأتقياء أو تعادوا من لم يعادكم وتكذبوا صفو عيش من صافاكم، وتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة أو ما جاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن الظلم الضعيف قويكم أو ما خبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبأ محدثوكم «اتركوا الترك ما تركوكم» وكيف تؤذون الجار وتسبئون الجوار ونبيكم قد أوصى به مع أنكم ما ذقتم طعم شهده أو صابه ولا بلوتم شدائد أوصافه أو صابه ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها وتلافوا هذا التلف قبل أن ينهض داعي الانتقام وتقوم سوق الفتن ويظهر من الشر ما بطن ويروج بحر البلاء ويموج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ولا بد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته وآثار عدله في برئته فإن به الحول والقوة ومنه النصره مرجوة فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حذب (جنليزخان) (تفسير الجواهر ٩: ٢٠٤).

أصلاء، ويأجوج ومأجوج هوامش عملاء، كسائر المفسدين الهوامش اللُّعناء.

فكل من يشارك إسرائيل في مرتي الإفساد العالمي من عمال الفساد هو في سجيته وعلايته وسريرته، إنه إسرائيلي مهما كان من يأجوج ومأجوج أمّن ذا؟

كما الفتنة الأوجوية تشمل كل عميل من غيرهما أياً كان وأيان!

وطبيعة الحال قاضية أن الإفساد العالمي الإسرائيلي في مرتيه، لا يخص بني إسرائيل إلا كأصول، فكل مفسد في الأرض يشاركون أصيلاً وبديلاً وعميلاً أمّن ذا؟:

نحن نعيش الآن الإفساد الإسرائيلي العالمي الأول، فالمفسدون الأصلاء هم إسرائيليون، والمفسدون العملاء أو البدلاء من كفار الشرق والغرب، ومن يساندهم من زعماء المسلمين أمّن ذا - هؤلاء كلهم إسرائيليون فروع! فالكفر ملة واحدة!

أو قد يعني ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ الإفساد العالمي الثاني بعلوّه الكبير من إسرائيل، ويأجوج ومأجوج وهما أمثلة الإفساد شرقاً وغرباً يعملون عمالاتهم الإسرائيلية في مشارق الأرض ومغاربها؟ كلٌّ محتمل! مع الحفاظ على أن هناك مراحل ثلاث من الإفساد العالمي طول التاريخ الرسالي يتكفل أولها ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ كأصلين أصيلين في ذلك الإفساد، والأصلاء في الآخرين هم الإسرائيليون وغيرهم عملاء من يأجوج ومأجوج وسواهم!

وأياً كان إفساد يأجوج ومأجوج فاللائح من آيتي الكهف والأنبياء وحدته فيما هم فيه أصلاء: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ فهو يوم وزمن واحد ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فهو فتح واحد بنسل واحد! مهما كانوا في المرتين الإسرائيليتين فروعاً عملاء، كما قد يكون هؤلاء عملاء في المرة التي يأجوج ومأجوج فيها أصلاء.

وقصارى الاقتصار على المرتين الإسرائيليتين أن يأجوج ومأجوج في الثانية أصلاء كما الإسرائيليون لا عملاء، ولكنهم الأصل الأول وهما الأصل الثاني.

وقصارى المستفاد من الآيتين في الزمن التقريبي لفتحهما أنه قبيل الرجعة وقيام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) حيث عقب قيام الساعة: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَهُمْ جَمْعًا﴾ بـ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ في آية واحدة، ولولا آية الأنبياء ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّعَتْ . . . وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ . . .﴾ بعد ﴿وَحَكْرَمُ عَلَىٰ قَرْيَةٍ . . .﴾ لاحتملنا قريباً أو قلنا إن فتحهم بين الرجعة والقيامة!

فهناك قرب قريب إلى الوعد الحق هو الرجعة وقيام المهدي عليه السلام وقبلهما قرب أبعد منه هو فتح يأجوج ومأجوج، مما يقرب احتمال أنه من الإفساد الإسرائيلي العالمي!

ثم ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني ترك المستضعفين والمستكبرين المفسدين يموج بعضهم في بعض، وبه تملأ الأرض ظلماً وجوراً ومن ثم ملؤها قسطاً وعدلاً بالقائم المهدي من آل محمد عليهم السلام.

ومما يؤيده أو يؤكد أنه هناك وعدين لا ثالث لهما، الوعد الأول يخص فتح يأجوج ومأجوج: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً . . .﴾ والوعد الثاني هو القيامة الكبرى ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ إذا فقبل الوعد الحق كأنه وعد واحد، رغم أن الإفسادين العالميين الإسرائيليين هما وعدان قبل الوعد الحق ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا . . .﴾ (١) ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ . . .﴾ (٢) فليكن الوعد اليأجوجي مع الوعد الثاني الإسرائيلي!

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧.



اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ الْوَعْدِينَ هٰذَيْنِ مَتَّجِهَانِ إِلَى الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَذَلِكَ الْوَعْدِ الْيَأْجُوجِيَّ مَتَّجِهٍ إِلَى غَيْرِهِمْ حَيْثُ هُمْ بِفَتْحِهِمْ وَعَدُّ الْعَذَابِ عَلَى الْعَالَمِ أَجْمَعِ؟ وَقَدْ يَكُونُ الْإِفْسَادُ الثَّانِي الْإِسْرَائِيلِيَّ مُحِطَ الْوَعْدِينَ ضِدَّ إِسْرَائِيلَ وَعَمَلَاتِهِ، وَضِدَّ الْعَالَمِ أَجْمَعِ!

ومهما يكن من شيء فلا ريب أن الإفساد الثاني والأخير العالمي يشترك فيه كافة المفسدين، يفتح فيه كل يأجوج ومأجوج والإسرائيليين وكافة العملاء، وفيه العلو الكبير ﴿لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنْعَلْنَ عَلْوًا كَبِيرًا﴾<sup>(١)</sup>.

ولأنه من أقرب أشراف الساعة لحد تلحقه القيامة ﴿وَرَكْنَا... وَفُتِحَ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْأُوا وُجُوهَكُمْ... وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾<sup>(٣)</sup>!

وإن الإفساد العالمي يتطلب نسل المفسدين من كل حذب دون أي صد أو سد ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ وإن كلاً من إسرائيل ويأجوج ومأجوج أصل في هذه الفتنة العالمية، فقد يقرب ما قربناه!

ولكنما الفتنة المغولية التي هي من يأجوج ومأجوج قد تجعل نسلهم من كل حذب لمرات ثالثتها أقواها وهي في الإفساد الإسرائيلي الثاني.

وقد يظهر من حديث النبي ﷺ «لِيَحْجَنَ الْبَيْتَ وَلِيَعْتَمِرْنَ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»<sup>(٣)</sup> أن إفسادهم يمنع الحج والعمرة ثم الله يفرج عن المستضعفين ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً، وليس هذا إلا في الإفساد الإسرائيلي الثاني حيث تملأ الأرض ظلماً وجوراً ثم تملأ قسطاً وعدلاً.

وكما يظهر من حديثه الآخر «فَإِذَا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى جِبْرَائِيلَ فَرَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْحَجَرَ مِنْ رُكْنِ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه.

البيت ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه . . .»<sup>(١)</sup> يظهر أن الأرض يومئذ تملأ ظلماً حتى فيما بين المسلمين لحد كأن القرآن رفع عنهم والعلم، ولن يرفع عن كونه بينهم وإنما عن كيانه!

وقد يعني حديث النبي ﷺ عن فتح الردم أن لفتحه مراحل أخيرتها المرة الأخيرة من الإفساد الإسرائيلي الياجوجي: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فُتِحَ اليوم من ردم ياجوج ومأجوج مثل هذه وحلق - قلت يا رسول الله ﷺ! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»<sup>(٢)</sup>.

ف ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ مثال عن كل أمة شريرة، ولفتحهم مراحل عدة أخيرتها التي هي أوسعها تواطؤ الإفساد العالمي الأخير الإسرائيلي، «إذا كثر الخبث» لحد ملئت الأرض ظلماً وجوراً!

فلقد أخذ ذلك الفتح يتسع منذ الرسول كلما كثر الخبث حتى القرن السابع من الهجرة ففتح شبه العالمي بالمغول والتتار، ثم يتسع أكثر وأكثر في هذين الإفسادين العالميين وأقواهما الأخير بعلو كبير، تتساعد فيه كافة السواعد الطاغية من مشارق الأرض ومغاربها مهما كان الإسرائيليون هناك أصلاء أم أقوى الأصلين أم ماذا؟

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكَنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَيُفِيحُ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾:

إن النفخ في الصور هو النافور مرتان، أولاهما هي نفخة الإماتة

(١) سفينة البحار للمحدث القمي ج ١ ص ١١ ويدلج، النبوي.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٥١ - أخرج البخاري عن زينب بنت جحش قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . . .﴾ [الصفات: ٣٥] وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: فتح اليوم من ردم ياجوج ومأجوج مثل هذه وعقد يده تسعين.

وأخراهما نفخة الإحياء<sup>(١)</sup>: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ﴾<sup>(٢)</sup> وعلل هذه نفخة الإحياء ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أو أن ﴿جَمْعًا﴾ يعني جمعي الإمامة والإحياء كما النفخ يجمع الجمع، نفخة أولى يجمعهم إلى الموت - ونفخة أخرى يجمعهم بعد جمع الموت إلى الحياة، فيوم القيامة ككل - قيامة الإمامة والإحياء - إنه يوم الجمع ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾<sup>(٤)</sup> جمعاً إلى موت ثم جمعاً إلى حياة ومن ثم جمع الحساب فالثواب والعقاب:

﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾<sup>(٥)</sup>:

في جمع الإحياء وبين جموع الأحياء تعرض جهنم للكافرين عرضاً للعقاب بعد العرض على الرب للحساب: ﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾<sup>(٥)</sup> ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾<sup>(٦)</sup> ثم لا عرض للمؤمنين على الرب!

ومن ثم الكافرون يعرضون على جهنم النار: ﴿وَتَرَبَّهْمَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدُّلِّ﴾<sup>(٧)</sup> ثمة عرض الحساب وهنا عرض العقاب ولما.

فلماذا العرض وليس الدخول؟ حيث الدخول الحسبان لزامه الحجة العيان، فليعرض الكافر على ربه ليرى هل تربى بما رباه؟ ثم عرضاً على

(١) راجع ج ٣٠ - الفرقان حول الآية ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٣) سورة التغابن، الآية: ٩.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٧.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٤٨.

(٦) سورة هود، الآية: ١٨.

(٧) سورة الشورى، الآية: ٤٥.

جهنم هل عمل لها وهو من أهلها؟ فلما رأى اللاتريية هناك في نفسه، ورأى مجانسته مع النار هنا فليدخل - إذاً - النار بحجة باهرة: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ (١) . . . أَذْهَبْتُمْ طِبْنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمَعْتُمْ بِهَا﴾ (٢) فبعرضهم على الرب يعرف ويعرفون أنهم ما تربوا بتربيته، وبعرضهم على النار أنهم من أهل النار إذ لم تبق لهم طيبات في الحياة!

﴿وَعَرَضْنَا . . .﴾ ﴿عَرَضْنَا﴾ به يفضحون وينكبون، وبه يدخلون النار ويخلدون، إعراضاً عن الرب هنا، فعرضاً على الرب وعلى ناره هناك!

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٦) :

وترى الأعين المغطية عن ذكر الله فلا يستطيع ذكراً، والسمع المغطية عن استماع كلام الله فلا يستطيعون سمعاً كيف يعرض أصحابها على الجحيم، والاستطاعة شرط التكليف؟

إنها الأعين المغطية بما غطّوها تعامياً عن ذكر الله، أعين الأبصار وأعين البصائر عشوا متعمداً متعامياً: ﴿وَمَنْ يَعْتَسِ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣) ف «لم يعيهم بما صنع هو بهم، ولكن عابهم بما صنعوا ولو لم يتكلفوا لم يكن عليهم شيء» (٤) ثم و«غطاء العين لا يمنع عن الذكر والذكر لا يرى بالعين» (٥) وإنما الغطاء على تبصر العين فهي مفتوحة حيوانياً ومغطية إنسانياً.

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

(٤) نور الثقلين ٣: ٣١٠ ح ٢٤٢ في تفسير العياشي عن محمد بن حكيم قال: كتبت رقعة إلى أبي عبد الله عليه السلام فيها: أتستطيع النفس المعرفة؟ قال فقال: لا - فقلت يقول الله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١] قال: هو كقولك: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠] قلت فعايهم؟ قال: . . .

(٥) المصدر ج ٢٤٣ عيون الأخبار بإسناده إلى أبي الصلت الهروي قال: سأل المأمون أبا =

فهي السمع المغطاة عن السمع بما غطوها و: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾<sup>(١)</sup> فلما عشوا عن ذكر الرحمن وصمّوا عن سمعه، أصبحوا صمّاً عمياً بما صموا وعموا ف ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فقد كانوا ينظرون فلا يعتبرون، أو تعرض لهم العبر فلا ينظرون.

ليس ذلك عشو البصر عمى وصمم الأذن، بل تعامي البصر وعشو البصيرة وصمم القلب: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾<sup>(٣)</sup> لذلك: ﴿وَنَضْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

فتلك هي أعين في غطاء الغفلة والتعامي ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾<sup>(٦)</sup> وهي آذان لا يسمعون بها، فلا يستطيعون بعد ذلك سمعاً ولا إبصاراً بما ختم الله على سمعهم وعلى أبصارهم كما ختموا ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٧)</sup>.

ثم و ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ...﴾ ﴿وَكَانُوا﴾ يضربان إلى أعماق الماضي، أنهم

= الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ...﴾ [الكهف: ١٠١] فقال: إن غطاء العين... ولكن الله شبه الكافرين بولاية علي بن أبي طالب بالعميان لأنهم كانوا يستقلون قول النبي صلى الله عليه وسلم فيه ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا...﴾ [الكهف: ١٠١].

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٢.

(٢) سورة هود، الآية: ٢٠.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٦) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٧.

كانت أعينهم في غطاء منذ كانت لهم أعين، وكانوا لا يستطيعون سماعاً منذ كانت لهم سمع، امتناعاً بالاختيار، ثم ﴿جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيُنْسِكُ الْقَرَارُ﴾<sup>(١)</sup>.  
 ومن ثم ﴿فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي﴾ تجعل أعينهم غارقة في غطاء حيث غطتها من كل جانب، فلا منفذ إذا لمعاينة الحق وذكره وهذه أعمى العمى!  
 ﴿وَكَاؤُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ تجعل على آذانهم قرأً وصمماً محيطاً لحد لا يستطيعون سماعاً لو أرادوا سماعاً وهذه أصم الصمم! حيث الأصم قد يسمع إذا صيح عليه وأصغى، وذلك لا يستطيع سماعاً!  
 وكما لمعاينة الآيات وذكر الله وسمعتها درجات، كذلك لغشاء الأعين وصمم السمع دركات وهذه أسفل الدركات.

و﴿عَنِ ذِكْرِي﴾ تلميحاً كتصريحة أن غطاء الأعين لم تكن على الحقيقة في غطاءٍ يسترها، وحجاز يحجزها، بل كانوا ينظرون فلا يعتبرون، أو تعرض لهم العبر فلا يعبرون، فقد كانت أعينهم تذهب سدى وصفحاً عن مواقع العبر، فلا يفكرون فيها، ولا يعتبرون بها فيذكرون الله سبحانه وتعالى عند إجماله أفكارهم، وتصريف خواطرهم.



(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ (١٠٥) ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَخَّوْا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (١٠٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (١٠٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (١٠٨) ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٠٩) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠)

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بي إلحاداً ونكراناً لي، أم بتوحيدي إشراكاً ﴿أَنْ يَنْخَدُوا عِبَادِي﴾ الذين هم «من دوني» أو ﴿يَنْخَدُوا عِبَادِي﴾ دون إذني ﴿مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم كآلهة أم شركاء لي أو مخولين في ولاية شرعية أمّا ذا؟ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ تحضيراً ﴿جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ نزولاً إليها كما نزلوني عن وحدتي وربوبيتي في زعمهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤) :

﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ هم في الدرك الأسفل من ضلال السعي وخسار الأعمال، لا يوازيهم أحد من الخاسرين حيث الأفعال هنا مطلق فلا يُساوى

أو يُسامى، كما لا يفوقهم أحدٌ في الخسران! وأصل الضلال ذهاب القصد عن سنن طريقه، فكأن سعيه لما كان في غير طريقه المؤدي إلى مرضاة ربه، فهو ضال في سعيه، خابط في غيِّه وحابط في عمله.

فقد يكون الإنسان بطلاً لا يسعى في الحياة الدنيا، لا لها ولا للآخرى، أو يسعى للدنيا، مهتدياً إلى منافعها دون الأخرى، أو يسعى دونها ضالاً في سعيه للدنيا وهو عارف بضلاله أم يسعى لها ضالاً في سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعاً دركات بعضها سفلى بعض والرابعة سفلاها، حيث يحرم الآخرة إذ لم يسع لها، ويحرم الدنيا لضلال سعيه لها، ويحرم الاهتداء إلى ضلاله إذ يحسب أنه يحسن صنعاً ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾<sup>(١)</sup>!

وترى ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ ظرف لضلاله؟ أن سعيه ضل عن الحياة العليا في الحياة الدنيا، فظل يسعى لها دون الأخرى، وقد يكون ناجحاً في هذه الأدنى مهما حُرِمَ الأخرى؟ وليس من الأخسرين أعمالاً، حيث الأخسر منه من زاد ضلالاً على ضلال، ١ - ضل سعيه عن الآخرة - ٢ - ثم ضل في سعيه للدنيا، أن تكون ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ظرفاً لسعيه، فسعيه في الحياة الدنيا ضل، ضلال في ضلال، ومن ثم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ضلال ثالث، فهناك يتم ثلوث الضلالة!

فطالما البطلون خاسرون ولكنهم قد يهتدون، وكما الساعون للدنيا المهتدون إلى منافعها، فقد يفيقون عن غفوتهم، ويستقيمون عن زلتهم، بل والضالون في سعيهم لها، العارفون بضلالهم، مهما كانوا بعيداً عن الهدى، ولكن الذي ضل في سعيه عن الحياة العليا إلى الحياة الدنيا، ثم ضل في سعيه للدنيا، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، غارقاً في ثلوث الضلالة، فإنه

(١) سورة الحج، الآية: ١١.



دائب في سعيه إلى خساره في الأولى والأخرى، ولا ترجى إفاقته عن غفوته وضلاله إذ لم يبق له منفذ إلى صالحه، فهو من الأخسرين أعمالاً!

إنه بسعيه الهادف إلى فوائده في الدنيا يخسرها كما خسر الأخرى، كادحاً إلى خسران، منفقاً حياته في تعب هدرأً دونما عائدة إلا الخسران، كمن يذبح نفسه بذات يده وهو يحسب أنه ذابح خروفاً يشويه لطعامه مكداً مجداً في ذبحه!

قد يصبح الساعي بضلالة فيما يعمل من الأخسرين أعمالاً في الآخرة وهو في الدنيا رابح حياتها: ﴿... أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ... الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضَعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِسُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (١).

هؤلاء وهؤلاء من الأخسرين في الآخرة، ومنهم من لم يخسر دنياه، فليس من الأخسرين أعمالاً في النشأتين إلا في الأخرى، فأما الذي ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعاً فقد خسر الأولى كما الأخرى وقد تكون خسراه في عقباه أقوى حيث هو في أولاه أغوى.

لا أخسر مطلقاً في سائر القرآن إلا هنا وفيمن كادوا بإبراهيم ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٢) ولكنهم الأخسرون في الآخرة كالأولين، وفي دنياهم في الكيد الذي كادوا به إبراهيم وهم في سائر دنياهم رابحين.

آية الأخسرين مصاديق من ضلال أهل الكتاب والمسلمين - الغارقين في ثلوث الضلالة في الدنيا والدين كـ «الرهبان الذين حسبوا أنفسهم في

(١) سورة هود، الآيات: ١٨-٢٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٠.

السواري»<sup>(١)</sup> وكفرة أهل الكتاب المبتدعين<sup>(٢)</sup> «ولا أظن إلا أن الخوارج منهم»<sup>(٣)</sup> وكل من يتقشف فيما يظنه شرعة إلهية وهو خطرٌ على الدين والدينيين .

وكما لها مصاديق من المكذبين بآيات الله الصادقين عن سبيل الله، وقد يكون المتظاهر بالدين، والمتقشف الجاهل أخطر منهم وأضل سبيلاً!  
فالأخسرون أعمالاً دركات بعضها سفلى بعض، مهما كان الغارقون في ثلوث الضلالات كلهم من الأخسرين، ولكننا الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه هم الأسفلون وكما جرت عليهم الآية وتتلوها:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾<sup>(١٥١)</sup> :

﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ عشواً عنها وتعامياً ومدّاً في كفرهم بقرن شيطانهم فضلاً سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون، كفرٌ مطلق لا مخلص عنه ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ يوم الدنيا بما يقربهم إلى الله زلفى ويوم الآخرة بنكرانها فلقاء الرب هو لقاء ربوبيته، في الأولى ربوبيته التكليف التكميل فزلفى المعرفة، وفي الأخرى ربوبية الحساب ومن ثم الثواب والعقاب فالى جنة أو نار، في دار ليس الأمر فيها إلا الله، يصيرون إليها ولا محيص لهم عنها، وإذ لا أحد فيها

- (١) الدر المشور ٤ : ٢٥٣ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي خميسة عبد الله بن قيس قال : سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول في هذه الآية إنهم . . .  
(٢) نور الثقلين ٣ : ٣١٢ ح ٢٥٠ في كتاب الاحتجاج عن الأصمغ بن نباتة قال ابن الكوا لأمر المؤمنين عليه السلام : أخبرني عن قول الله عز وجل : «الآية» قال : كفرة أهل الكتاب اليهود والنصارى وقد كانوا على الحق فابتدعوا في أديانهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .  
(٣) الدر المشور ٤ : ٢٥٣ - أخرج عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عن علي عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال : لا أظن .

يستطيع انصرفاً عن الوجهة التي أمر الله سبحانه بجمع الناس إليها وحشرهم نحوها سمي ذلك لقاء الرب .

﴿ فَحِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ ﴾ ومسايعهم فأصبحت ﴿ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ (١) ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾ إذ لا أعمال لهم صالحة حتى توزن ولا وزن للطالحة فتوزن!  
﴿ أُولَئِكَ... ﴾ تعريف ثالث بالأخسرين أعمالاً بعد ﴿ وَمَنْ يَعِشْ ﴾ (٢) و﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ ﴾ ثلث الضلالة في مثلث التعريف بأهل الدرك الأسفل من النار.

فكفرهم مطلق لا مخلص عنه ولا مناص حيث يشمل آيات ربهم كلها، آفاقياً وأنفسياً، تكوينياً وتشريعياً، رسالياً ورسولياً أماذا، حيث عشوهم عن ذكر الرحمن مطلق، وآيات الرحمن تذكّر الرحمن لغير العاشين عنها .  
ثم الكفر بآيات الرب كفرٌ بلقائه، والكافر بآيات ربه ولقائه لا أعمال له ثابتة إلا زائلة خابطة حابطة، وأصل الحبط انتفاخ بطن الدابة بنوع سامٍ من الكلال فتلقى حتفها، فالجاهل يراها سمينة شبعانة، وهي في سبيل الموت! وهذا أنسب وصف لأعمال الكفار، أنها تنتفخ ويظنها أصحابها رابية رابحة وهي باثرة رائحة .

أترى أعماله الحابطة هي الطالحة؟ وهي ثابتة كما الصالحة! ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٨) ﴿ (٣) !  
أم الحابطة هي الصالحة؟ وليست للأخسرين أعمالاً أعمال صالحة!  
لكفرهم المطلق!

(١) سورة النور، الآية: ٣٩ .

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٦ .

(٣) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨ .

الحبط هنا يعني زوال الوزن، فصالحه أعماله خاوية عن وزنٍ للكفر المطلق، مهما أنفق وسعى في إصلاح الحياة، فتحبط أعمالها عن وزن، وطالحة أعماله خفيفة حابطة بلا إحباط ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾ حيث تبقى أعماله كلها طالحة خفيفة ليس لها وزن، فكيف يقام له وزن؟

وذلك الحبط يشمل الدنيا والآخرة ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾<sup>(١)</sup> في ميزان الله، فلا وزن لهم في الدنيا كما الآخرة، إذ لا تحسب صالحاتهم صالحات، ولا فلاح لهم في طالحات، فهم أخفَاء عند الله وعند أهل الله في الأولى كما الأخرى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٨)</sup> وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾<sup>(٢)</sup>.

فهناك الوزن محصور في الحق<sup>(٣)</sup>، فلا وزن للباطل حتى يقام له وزن، سواء أكان الباطل حابطاً من أصله كسائر الباطل، أم محبطاً كان فيه شائبة الحق فأحبطه الله لخبطه في شاكلته، كصالحات الكفار من خدمات بشرية تصلح الحياة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾<sup>(١٥)</sup> أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾<sup>(٤)</sup>.

ليس الوزن عند الله إلا ما يقرب إلى الله ف «ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكل الشروب فلا يزن عند الله تبارك وتعالى جناح بعوضة»<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) لم يقل «الوزن يومئذ حق» وإنما «الحق» تدليلاً على أن الوزن هو الحق فلا وزن للباطل حتى يوزن أو يقاس بوزن الحق!

(٤) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٥) الدر المنثور ٤: ٢٥٤ - أخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ . . . اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

ومن أخفهم وأخسهم «أئمة الكفر وقادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يعابأ بهم، لأنهم لم يعبؤوا بأمره ونهيه...»<sup>(١)</sup>.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا

بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾:

هذه تحيل مداد كلمات الرب ولو كان ضعف البحر، وأخرى تحيل مداد كلمات الله ولو كان ثمانية أضعاف البحر: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

فما هو البحر؟ ثم مداد مثله، أو من بعده سبعة أبحر؟ وما هي كلمات ربي؟ وكلمات الله؟ ثم ولها حدٌ بعدُ أم لا حد لها؟

علَّ ﴿الْبَحْرُ﴾ فيهما هو مجموعة بحار الأرض، فإنها هي المعروفة لدينا عينيًّا وقرآنيًّا<sup>(٣)</sup> دون سواها من بحار، وما ﴿فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ لا تجاوب إلا ما في الأرض من بحار، حيث البحر المحيط في الكون تناسبه الشجر المحيط في الكون! فلا هو مطلق البحر في الكون، ولا بحر بعينه في الأرض، حيث اختلاف بحار الأرض ينافي تعريف ﴿الْبَحْرُ﴾ إلا جنسه الشامل لكل بحر، فـ ﴿الْبَحْرُ﴾ إذا عوانٌ بين البحرين لمطلق الكون أو خاص من الأرض.

والمداد ما يمدُّ به من مادةٍ للمدِّ أو قلم يمدُّها، فهناك البحر مداد وما في الأرض من شجرة أقلام المداد.

(١) نور الثقلين ٣: ٣١٢ ح ٢٥٣ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يذكر فيه أهل الموقف وأحوالهم وفيه ومنهم أئمة الكفر..

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٣) لا نجد في ٤٠ موضعاً فيها البحر بصيغة موضعاً يدلنا على بحر في غير الأرض، اللهم إلا ما يصلح التعميم وهذا ليس دلالة على بحر في غير الأرض يستدل بها! مهما دلت أحاديث عدة أن في السماء بحار.

ثم «كَلِمَاتُ رَبِّي» هي الدالات لفظياً وعلمياً وعينياً على الربوبية العليا كما «كلمات الله» هي الدالات على الألوهية وهي أشمل من كلمات الربوبية، فالكلمة ما تدل على معنى في آية زاوية من الثلاثة أمأهيه، وإذا كانت نعمة الله لا تحصى وهي محدودة في الواقع لحدوثها ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾<sup>(١)</sup> فأحرى بكلمات الرب وكلمات الله ألا تحصى!

ثم ﴿لَوْ﴾ في آيتي مداد الكلمات تُحيل أن يكون البحر مداداً لكلمات ربي وكلمات الله، و«لو» الثانية في الأولى إحالة ثانية دون وقفة عليها، ﴿يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾<sup>(٢)</sup> في الثانية تعني استمرارية الاستحالة دون وقفة على السبعة الزائدة، الرامزة إلى الكثرة الكثيرة، والقصد فيهما إلى استحالة مدّ الكلمات ككلّ بأي مداد، حيث إن مداد البحار والأشجار هي أيضاً من الكلمات، أيأ كان الكاتب، وبأية سرعة كانت الكتابة وأيان ﴿لَنفَذَ الْبَحْرَ قَبْلَ أَنْ نَفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾.

«كلمات ربي وكلمات الله» وهي كل دالة على الله، ليست هي ذات الله ولا من ذات الله، وإنما هي مخلوقات الله ولا بد وأنها حادثة محدودة، كما توحيه ﴿قَبْلَ أَنْ نَفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾ ولكنها ليست بالتي تعد أو تحصى، فضلاً عن أن تكتب، إحالة في بعدين: ١ - أن لا أحد يمكنه إحصاءها فضلاً عن كتابتها ٢ - ولو أمكنه فالكاتب نفسه، ومداد البحار والأشجار والورق المكتوب فيه، هي كلها من كلمات الله، ولو أنها كتبت فيما يكتب فنفس الكتابة بحذافيرها من كلمات الله فتسلسل مستحيل، أو ﴿لَنفَذَ الْبَحْرَ قَبْلَ أَنْ نَفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾!

إن كتابات الوحي وكافة التشريعات الإلهية، التي تحملها الأصوات

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

والكتابات والمفاهيم، هي من كلمات الرب، وحملتها الرسل والأئمة وسائر العلماء بالله، هم من كلمات الرب، وكافة الرحمات الإلهية رحمانية ورحيمية هي من كلمات الرب، ومجموعة الكائنات هي آيات الله وكلماته، فأين مداد البحار والأشجار من مدّ كلمات الله!

فكلمات الرب هي الدالات على ربوبيته، وكلمات الله هي الدالات على ألوهيته في ذاته ورحماته رحمانية ورحيمية، ومن نِعَم أو نِقَم أمّاذا.

ففيما ﴿وإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ فاستحالة الإحصاء والكتابة التي هي أصعب، في كلمات النعم والنقم أمّاذا هي أخرى!:

وأين أنت أيها الإنسان الهزيل الجاهل العاجز الذليل، والغوص في خضم ذلك البحر الملتطم، وأليم المنسجم من كلمات الرب الله، إلا غرقاً فيها عن سباحتك!

قد يدرك الإنسان الغرور بما يسجّله من مكامن الكون، فتأخذه نشوة الظفر في ظهور علمي وفي القدرة فيحسب أنه على شيء!

ولكنما الآيات الربانية والإلهية تواجههم بأفاقها المترامية، فإذا هم على خطوات من الشاطئ ولما يخوضوا البحر. وحتى لو كان البحر مداداً بيده ﴿لَنفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ﴿يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ﴾<sup>(١)</sup> مداداً! ف«قد أخبرك أن كلام الله ﴿عَزَّ وَجَلَّ﴾ ليس له آخر ولا غاية لا ينقطع أبداً»<sup>(٢)</sup> فيما نحصيه!

كلمات الله بعد كل مداد تنتظر مداداً يمدّها، ولن يمددها أي مداد، فطالما هو أيضاً من كلمات الله إذا ﴿لَنفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَاتِ رَبِّي﴾!

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣١٣ ح ٢٥٦ حدثنا محمد بن أحمد عن عبد الله بن موسى عن الحسن بن علي ابن أبي حمزة عن أبيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قلت: قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، قال: قد أخبرك..

فيا لنا من غباوة وعمى، وحماسة كبرى، نعيش كلمات الله، غارقين في خضمها، ومارقين عن الذي تدل عليه وترشدنا إليه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾<sup>(١)</sup>!

كلمات تذكرنا الرحمن ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾<sup>(٢)</sup>!

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾<sup>(٣)</sup>:

آية يتيمة منقطعة النظير في سائر قرآن التوحيد، تجمع من مجامع التوحيد ما لا توجد في غيرها، لحد يقول الرسول ﷺ عنها: «لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم»<sup>(٢)</sup> كفاية عن سائر التوحيد في القرآن وأصلي النبوة والمعاد! وكأنها تحتصر الوحي في خاتمة الرسالة على ما يتبنى كل الرسالة وتبناه كل الرسالة: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ... أَحَدًا﴾ إظهاراً لها وتظاهراً بها في عقيدة القلب، ولفظة اللسان وعمل الأركان وتوجيه العالمين أياً كانوا وأيان! وقد جمعت الأصول الثلاثة نبوة: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وتوحيداً في كافة الجنبات: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ ومعاداً: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ...﴾ وقد تقدمت النبوة السامية المحمدية لأنها أكمل تعريف بنفسها وبأصلي التوحيد والمعاد!

هنا وفي «فصلت» يؤمر الرسول أن يقول ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ كلمة توحيدية أحكمت هنا وهناك وفي أضرابهما ثم فصلت في سائر القرآن.

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٥٧ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي حكيم قال: قال رسول الله ﷺ: ..



في فصلت يؤمر بعدُ مع العالمين بالاستقامة إلى الله . . . ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ  
وَأَسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(١)</sup> وهنا يكمل كلمة التوحيد ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ  
رَبِّهِ . . .﴾! واحتصار كيان محمد ﷺ في نفسه بأنه بشر، كلمة يقولها  
المرسلون أجمع: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ  
عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ  
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فهو بشر في كل ما للبشر.

ثم ولا يستثنى هو وهؤلاء إلا في وحي الرسالة: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فيستثنى  
عن بشريته كل خطأ وشر، دونما استقلال بجنب الإله، ولا استغلال لشأن  
من الإله، وإنما «بشر رسول»: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾<sup>(٣)</sup>.

إنه بشر كسائر البشر في جسمه وروحه كمحمد، اللهم إلا في روحه  
كرسول حيث يمتاز بها عن سائر البشر! فهو في حاجيات ومتطلبات البشرية  
كسائر البشر يأكل ويمشي في الأسواق ويتزوج وينام ويفيق . . . ولكنه  
معصوم بالوحي عن أخطاء البشر وكل ما ينافي الرسالة الإلهية من مثلث  
العصمة: تلقياً للوحي وإلقاءً وتطبيقاً في نفسه وسواه!

إن الرسول البشر - أم أي كائن سوى الله - ليس يشرك بالله أم يشارك  
الله، أو يخول عنه ما ليس إلا لله: ﴿مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ  
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ . . .﴾<sup>(٤)</sup> كما وأن  
البشر ليس ليمنع عن رسالة الوحي لأنه بشر رغم ما يهرفه الخارفون: ﴿وَمَا  
فَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ

(١) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١١.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

﴿مَثَلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾<sup>(١)</sup> ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾<sup>(٤)</sup>!

إن كيان محمد كرسول يُحتصر فيما يوحي إليه من ربه دون استمداد بمن سواه شوراً وسواه أو اجتهاداً من رأيه، ف ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾<sup>(٦)</sup> ﴿فَلَا يَتَّبِعُهُ فِي نَفْسِهِ أَوْ يَوَاجِهَ الْعَالَمِينَ إِلَّا بِالْوَحْيِ﴾<sup>(٧)</sup> ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾<sup>(٨)</sup> ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾<sup>(٩)</sup>! ثم هذه الآية الوحيدة تحمل توحيداً عدة: ١ - توحيد محمد ﷺ في البشرية كوناً وكياناً ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، ٢ - توحيد نبوته المحصورة في وحي الله ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، ٣ - توحيد الله في كافة شؤون الإلهية: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾، ٤ - توحيد اللقاء فلا يرجو الموحد إلا لقاءه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾، ٥ - توحيد العمل في الصالح لذلك اللقاء: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، ٦ - وتوحيد العبادة لله: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾!

١ - ف «قل إنما أنا في البشرية مثلكم» ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. ولكن خصني بالنبوة دونكم<sup>(٨)</sup> لا أزيد ولا أنقص عن نوع البشر كما يقتضيه «إنما» بحصرها كيانه ﷺ في البشرية المماثلة.

٢ - ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وأنا في النبوة كسائر من يوحي إليه مهما كانت بيننا

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤. (٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.

(٣) سورة التغابن، الآية: ٦. (٤) سورة المدثر، الآية: ٢٥.

(٥) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤. (٦) سورة الأنبياء، الآية: ٤٥.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

(٨) نور الثقلين في الاحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري قال: قلت لأبي علي بن محمد ﷺ - إلى أن قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] يعني آكل الطعام ﴿مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [الكهف: ١١٠] يعني: قل لهم: أنا في البشرية مثلكم ولكن ربي خصني بالنبوة دونكم...

درجات، ليس نازلتها خارجة الوحي، ولا عاليتها أعلى من الوحي، وليس الوحي إلا اتصالاً علمياً معرفياً وعملياً خارق العادة المستمرة بالله.

٣ - ومادة الوحي ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾: هي ترك الإشراف في كافة دركاته وهي هي الحجب كلها، التي تحول دون لقاء الرب، فاللقاء المعرفي الزلفى للرب، ولقاء رحمت الرب، لزامه خرق الحجب الإشراف في كافة دركات الإشراف! لترقى درجات اللقاء، فاخترق كل دركة ارتقاء إلى درجة، كما اختلاق كل دركة تنزل عن درجة فهنالك كفر وبعد مطلق للمشارك والملحد المطلق، وهنا لقاء مطلق للموحد المطلق، وبينهما درجات بعضها فوق بعض ودركات بعضها تحت بعض.

أترى أن وحيه محتصر في ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ ومن ورائه أصول أخرى وفروع؟ علّه لأنه الأصل الذي تتبناه كافة الرسالات الإلهية، وسائر الأصول وكل الفروع تتبنى ذلك الأصل! ولأن أصل الرسالة هنا أصل موضوع ﴿يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ ثم ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ ومن ثم ثالث الأصول المعاد ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ثم الأعمال التي تنتجها الأصول ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾!

٤ - ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾:

وطالما الرب واحد ولكنما لقاء الرب درجات حسب مختلف المقامات والقابليات والفاعليات، ف ﴿رَبِّهِ﴾ تلمح إلى مقام الملاقي الخاص به في لقاءه، و ﴿كَانَ يَرْجُوا﴾ تضرب إلى عمق الماضي المستمر، ثم ﴿فَلْيَعْمَلْ... وَلَا يُشْرِكْ﴾ هما دعامتان للحصول على ما يرجو من لقاء ربه، والوصول إليه.

في سائر القرآن اللقاء المرجو للصالحين لقائان: لقاء الله ولقاء الرب، سواء أكان في الدنيا والآخرة أم فيهما، كما أن هناك لقاء في الآخرة لغير الصالحين لا يرجونه وهو الحشر إلى يوم الله وعالم الله، ورجاء اللقاء

يخص الصالحين بما قدموا من صالحات: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(١)</sup> ولا مقابل ومضاد لرجاء اللقاء إلا الكفر به والمرية فيه وعدم رجائه .

وآيتا رجاء اللقاء تعنيان فيما تعنيان لقاء الزلفى المعرفي في الحياتين مهما كان في الأخرى أهدي سبيلاً، كذلك ولقاء ثوابه، دون اختصاص بالأولى وإن كانت الأخرى أنبل وأجلى، وقد تشملهما ﴿الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فلا تخص الرجاء الحياة الحساب فإنها متيقنة فوق الرجاء ولا تكفيها الرجاء وإنما ﴿يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ في مثل اللقاء بما فيه اللقاء القرب الزلفى ولقاء الثواب، إذ لا يحتمن على الرب قضية الحالة الإيمانية العوان بين الخوف والرجاء .

فإذا قال «فمن كان يوقن لقاء ربه» اختص بأصل المعاد، وحين يقول «فمن كان يرجو لقاء الله» يعمه والآخرين المرجوين للمؤمنين!

فيما تتوفر كافة الربوبيات الرحيمية لرب العالمين هنالك يتحقق اللقاء التام والمطلق دونما حجاب، اللهم إلا حجات ذات الألوهية فإنها لزام الذات، كما حصل للرسول محمد ﷺ في مقام «أو أدنى» حيث «تدلّى» فلم يبق بينه وبين الله أحد ولا من حجب النور حتى نور ذاته ﷺ فأصبح عيناً كلّه، متغافلاً عما سوى الله .

ثم وفيما دونه من لقاء، تستمر الموازاة بين العمل الصالح للقاء وبين اللقاء .

٥ - ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ لما يرجوه من لقاء ربه معرفة وثواباً أمّاذا؟ .

عملاً صالحاً في مادته، في علانيته وسريته، زوايا ثلاث في صلاح

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٦ .

العمل تتبنى إصلاحه، فإنه «لا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بالنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنّة» فأصابة السنّة هي مادة العمل وعلايته، والنية هي سريره.

فلا تنفع النية الصالحة ﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ما لم يعمل، ولا ينفع العمل الصالح ﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ما لم ينو، ولا ينفع العمل بالنية الصالحة ﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ما لم يصب السنّة.

ومن صلاح العمل هو خلوصه لله دون أي إشراك فيه لمن سوى الله.

٦ - ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾: فالمشرك بالله لا يعبد الله، وطالما المؤمن يعبد الله دون إشراك في الألوهية، ولكنه قد يشرك في العبودية رثاء أو سمعة أمّاذا: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

عبادة الرب لها جنبات قوامها النيات، ثم ظواهرها ومظاهرها، فلا إشراك في نفس العمل في نفسه أو مقدماته ولا في نيته باعثاً ولا غاية في أية زاوية من مثلت الزمان ولا إشراك فيها لأحد حتى نفسه أن يعبد ربه حظوة روحية أو ثواباً أو فراراً عن عقاب أم حالة خارقة للعادة تحصل لبعض العابدين، فالعبادة الصالحة للقاء ربه مطلقاً متحللاً عن أية واسطة، هي المتحللة عن أي إشراك كما يقول أهلها «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»!

فالعمل العبادي بادئ من أسفل الدرجات إلى أعلى الدرجات وبينهما متوسطات، من عبادة باطلة، ثم صحيحة غير مقبولة غير قابلة للقاء ربك، ثم مقبولة قابلة ولكنها درجات إلى مقام التدلي. «أو أدنى» وهو أعلى الدرجات. ومن أسفل الدرجات العبادة الباطلة علانية وسراً، حيث تفقد شروط الصحة في ظاهرها، والنية الخالصة الصادقة في باطنها، ثم الفاقدة لإحداهما.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

والفاقدة لصالح النية هي التي يؤتى بها رثاءً حين يؤتى، أم بعد حين حيث يحب أن يظهر بعد خفاء ويحمد عليه فتشملها الرثاء، ف «الإبقاء على العمل أشد من العمل إن الرجل ليعمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفاً فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويعلنه فيكتب علانية ويمحى تضعيف أجره كله ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس. الثانية ويحب أن يذكر ويحمد عليه فيمحى من العلانية ويكتب رثاءً، فأتقى الله امرئ صان دينه فإن الرياء شرك»<sup>(١)</sup> بل و«إن يسيراً من الرياء شرك»<sup>(٢)</sup> سواء أكان قبل العمل أن تخبر غيرك أنك سوف تعبد ربك، أو معه أن ترائي غيرك في العمل، أم بعده، أن تخبر بما عملت سراً وجهاً بنية صافية، فالعمل الصالح الخالي عن الرياء هو المتحلل عنه في مثل الزمان. فقد تعبد ربك علانية دون رثاء إذ لا ترائي الناس، وإنما تعبد بينهم تقريباً إلى ربك إذ أمرك كالحج وصلاة الجماعة، أو تقريباً لغيرك وتشويقاً كالإنفاق جهراً، وهي عبادة صالحة خالية عن إشراك.

وقد تعبد سراً إذ لا تجد أحداً ترائيه وأنت تحب أن تُرى<sup>(٣)</sup> ثم تخبر أنك عبدت ربك سراً، أو تعبد سراً مخلصاً ولا تحب الرثاء، ثم الشيطان

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٧ - أخرج البيهقي عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: . . .

(٢) المصدر - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن يسير من الرياء شرك وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة وإن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا قلوبهم مصاييح الدجى يخرجون من كل غبراء مظلمة. وأخرج أحمد والبيهقي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: إن أحسن أوليائي عندي منزلة رجل ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه في السر وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع عجلت منيته وقل ترائه وقلت بواكيه.

(٣) نور الثقلين ٣ : ٣١٥ ح ٢٦٤ في أصول الكافي عن أبي جعفر ﷺ في الآية - قال: الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تركية الناس يشتهي أن تسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه . . .

يحملك على المراءاة فتخبر أم أخبرت غيرك أنك سوف تعبد ربك سراً، ولكنك أخلصت حين العبادة ثم لم تخبر أحداً بعدها، فأنت فيها كلها مرءٍ رغم اختلاف دركات الرئاء .

فإن كانت عبادة واجبة بطلت، وإن كانت مستحبة سقطت، وعلِّ الأخريرة صحيحة لأنك فيها تائب عما نويت .

ف ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ لا تنحصر بحال العمل، بل تشمل كل الأحوال، فمن مات عن عمل ولم يشرك به غير الله، فهو صالح خالص لله، ومن مات عن عمل أشرك به غير الله لم يكن صالحاً، سواء أتى به حينه مراءاة الناس، أم اخبر به قبل أو بعد وقد أتى به سراً، أم ولم يخبر ولكنه كان يحب أن يراه الناس<sup>(١)</sup>، كل ذلك رثاء الناس مهما اختلف الرثاء فيها .

ثم ما وقع رثاءً لا ينقلب عما وقع، وما وقع صالحاً دون رياء ينقلب إلى رياء إذا استقبله الرثاء، ولا ينقلب رثاء إن كانت بنية سالحة مهما تقدمه الرثاء .

فمهما أشرك العابد في عبادة ربه أحداً سوى ربه، فعمله - إذاً - غير صالح، حتى إذا كان هذا الأحد نفسه أنه يرتاح وبيتهج نفسياً من هذا العمل، اللهم إلا إذا كانت رياحة في مرضاة الله دون شهوة النفس، فضلاً عما إذا ارتاح برثاء الناس، أظهر لهم عملاً أم أسرّ عنهم ف «إذا جمع الله الأولين والآخرين ببقيع واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي قال أنا خير شريك كل عمل عمل لي في دار الدنيا كان لي فيه شريك فأنا أدعه اليوم ولا أقبل اليوم إلا خالصاً...»<sup>(٢)</sup> .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٥ - أخرج هنا وفي الزهد عن مجاهد قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : أتصدق بالصدقة وألتمس بها ما عند الله وأحب أن يقال لي خيراً فنزلت : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا...﴾ .

(٢) المصدر أخرج الطبراني عن شداد بن أوس قال : قال النبي ﷺ : ... ثم قرأ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

والإشراك في العبادة قد يكون في نفس العبادة كأن يتوضأ بمساعد<sup>(١)</sup> أو يصلي متكئاً أم بمساعد وهو قادر على الصلاة دون متكأ أو مساعد.

ثم الإشراك في نية العبادة قد يكون في باعثها أو غايتها أم هما معاً، فمن لا يبعثه أمر الله ورضوانه إلا بأمر آخر فقد أشرك فيها، ومن يبتعث بأمره تعالى ولكن أخف مما يكون هناك أمر آخر فقد أشرك فيها، فالإخلاص في باعث العبادة وغايتها شرط لصحتها، وقد لا ينافيه أن يسره ظهورها<sup>(٢)</sup> دون أن يكون باعثاً أو غاية لها.

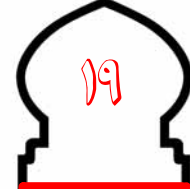
وإشراك أحد في عبادة ربه يشمل رياء الناس فيها، وإرضاء نفسه ضمن ما يرضي ربه، والاشترار فيها وقد أمر أن يأتي بها وحده، وكل ذلك يشمل النفي ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، ولكن في شمول ﴿أَحَدًا﴾ لنفسه خفاء فلا تبطل.

وأما أن يأتي بها دون إشراك أحد، يبتغي بها الفرار عن العقاب أو طلب الثواب، فلا تشملها الآية مهما كانت عبادة العبيد أو التجار، دون الأحرار، فهذه درجات ثلاث للعبادة الصحيحة المقبولة حيث لا شريك فيها ولا في نيتها مع الله.

(١) المصدر ح ٢٦٧ في الكافي علي بن محمد بن عبد الله عن إبراهيم بن إسحاق الأحمر عن الحسن بن علي الوشا قال: دخلت على الرضا عليه السلام وبين يديه إبريق يريد أن يتهيأ للصلاة فدنوت منه لأصب عليه فأبى ذلك وقال: مه يا حسن! فقلت له: لِمَ تنهاني أن أصب عليك تكره أن أوجر؟ قال: توجر أنت وأوزر أنا؟ قلت له: وكيف ذلك؟ قال: أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وها أنا ذا أتوضأ للصلاة وهي العبادة فأكره أن يشركني فيها أحد. وروي أنه عليه السلام دخل يوماً على المأمون فرآه يتوضأ للصلاة والغلام يصب على يده الماء فقال: لا تشرك بعبادة ربك أحدًا، فصرف المأمون الغلام وتولى إتمام الوضوء بنفسه.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢١٥ القمي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسره ذلك؟ قال: لا بأس! ما من أحد إلا وكتب أن يظهر له في الناس الخير إذا لم يصنع ذلك لذلك - أقول يعني لم يكن ظهوره من بواعثه أو غاياته.





سُورَةُ مَكِّيَّةٌ



## سُورَةُ مَرْيَمَ

مكية وآياتها ثمان وتسعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ  
 نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا  
 وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي  
 وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرْتُبْنِي وَيَرِثُ مِنْ  
 آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَنْزَكُرِيًّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ  
 اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي  
 غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ  
 كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ  
 شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ  
 ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ  
 سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَبِيحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ  
 صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ  
 يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ  
 حَيًّا ﴿١٥﴾

سورة تسمت بمريم، ولا تجد في سائر القرآن امرأة أخرى وحتى أفضل منها كفاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ تسمت باسمها سورة أو يؤتى باسمها في آية، ومريم آتية في أربع وثلاثين آية وخامسة هي «سورة مريم»! أتري ذلك لفضلها على نساء العالمين؟ وفاطمة أفضل منها حسب النصوص الإسلامية<sup>(١)</sup> وذكر الاسم في القرآن لا يدل على فضيلة، فزيد يذكر في القرآن ولا يذكر الأكثرية الساحقة من النبيين، ولا أحد من خلفاء الرسول المعصومين ولا من صحبه الكرام الميامين!

ورغم أن القرآن ليس من دأبه ذكر النساء بأسمائهن حفاظاً عليهن حتى في أسمائهن، نراه يدأب في ذكر مريم مرات عدّة ليس إلا ذوداً عنها ما مسته اليهود والنصارى من كرامتها ونسبتها إلى غير اللاتق بحرمتها، فكان من الواجب الرسالي في الوحي الأخير ذكرها في مذكرات شأنها بعصمتها وطهارتها، كما وفي سائر القرآن مذكرات لعصم المرسلين حيث تعرضت في محرفات من كتابات الوحي لما لا يليق بساحة الرسالة ولا الإيمان بل ولا أي إنسان! وآي الذكر الحكيم عاصمة عصم الوحي، كما هي عاصمة الرسالة والوحي.

### ﴿ كَهَيْصَ ﴾

إنها الفريدة في الحروف المقطعة القرآنية في العدد التركيبي، ففي الشورى ﴿ حَمَّ ﴾ ﴿ عَسَق ﴾<sup>(٢)</sup> خمسة في تركيبين اثنين، وهنا خمسة في تركيب واحد، ثم لا خمسة في سائر القرآن، والمتبع من قراءتها هي المتواترة في كتب القرآن «كاف - ها - يا - عين - صاد» دون سائر القراءات<sup>(٣)</sup>.

(١) راجع سورة الكوثر من الفرقان ج ٣٠.

(٢) سورة الشورى، الآيتان: ١، ٢.

(٣) من كسر الهمزة وفتح الياء وهي قراءة أبي عمرو وابن مبادر أو (مناذر) والقطعي عن أيوب ومن عكسها وهي قراءة حمزة والأعمش وطلحة والضحاك عن عاصم، ومن إمالتها كسرا =

ولا بد هنا من رباط بينها ومغزى السورة، كما في سائر الحروف المقطعة مهما كانت هنالك إشارات أخرى لا تحويها السورة، فإنها مفاتيح كنوز القرآن وبرقيات رمزية إلى نبي القرآن!

روايات من الفريقين تدلنا أنها حروف من أسماء الله على اختلافها في «ما هي تلك الأسماء»<sup>(١)</sup> وهذه الأسماء المرموز بها لا تختص بهذه السورة، فقد تأتي بألفاظها أو معانيها في السور كلها!

ويروى عن القائم المهدي (عجل الله فرجه الشريف) أنها إشارات إلى رزية العاشور<sup>(٢)</sup> وليس بذلك البعيد، لمكان المشابهة التامة بين الحسين عليه السلام

= فيهما وهي قراءة الكسائي والمفضل ويحيى عن عاصم والوليد بن أسلم عن ابن عامر والزهري وابن جرير، ومن ضم الهاء وفتح الياء وهي قراءة الحسن ويروى عنه عكسها أيضاً وروى صاحب الكشاف عنه ضمها، وإشمامهما شيئاً من الضمة (تفسير الفخر الرازي ج ٢١ : ٧٨).  
(١) الدر المنثور ٤ : ٣٥٨ - أخرج ابن مردويه عن الكلبي أنه سئل عن ﴿كَهَيْعَصَ﴾ فحدث عن أبي صالح عن أم هاني عن رسول الله ﷺ قال: «كاف هاد عالم صادق» أقول: لم تذكر هنا إشارة الياء وقد ذكرت فيما رواه القمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هذه أسماء الله مقطعة وأما قوله: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ قال: الله هو الكافي الهادي العالم الصادق ذو الأيادي العظام» ف«ذو الأيادي من اليد فهو رمز الياء وفي معاني الأخبار بإسناده إلى محمد بن عمار قال: حضرت عند جعفر بن محمد عليه السلام فدخل عليه رجل فسأله عن ﴿كَهَيْعَصَ﴾ فقال عليه السلام: «كاف» كاف بشيعتنا «ها» هاد لهم «يا» ولي لهم «عين» عالم بأهل طاعتنا «صاد» صادق لهم وعده حتى يبلغ بهم المنزلة التي وعدهم إياها في باطن القرآن» أقول: وهذا يختلف في إشارة الياء «ولي» عن سابقه «ذو الأيادي» وظاهر الإشارة فيها إلى أسماء الله تعالى هو الحرف الأول، فذو الأيادي مفضل على «ولي» إلا أن تؤول الولاية إلى ذي اليد. وفي المجمع روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في دعائه: أسألك يا كهيعص.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣١٩ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجّة القائم حديث طويل وفيه «قلت: فأخبرني يا بن رسول الله ﷺ، عن تأويل ﴿كَهَيْعَصَ﴾؟ قال عليه السلام: هذه الحروف من أبناء الغيب، أطلع الله عبده زكريا عليها ثم قصها على محمد ﷺ وذلك أن زكريا عليه السلام سأل ربه أن يعلمه أسماء الخمسة فأهبط الله عليه جبرائيل عليه السلام فعلمه إياها فكان زكريا إذا ذكر محمد ﷺ وعلياً عليه السلام وفاطمة عليها السلام =

ويحيى، و﴿كَهَيْعَصَ﴾ هي ﴿ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا﴾ وقد تعنيهما هذه الخمس فيما تعنيه من إشارات، ما وصلتنا منها إلا هذه وتلك.

وماذا يمنع أن تكون هذه أسماء الله أو حروفاً من أسماء الله، وبضمنها إشارات أخرى منها رزية الحسين عليه السلام وهو اسم من أسماء الله وقد حقق كفاية الكافي وهدايته وعمله وصدقه ويده وولايته في جهاده وجهوده، وهو صنو عظيم من يحيى بن زكريا في ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾<sup>(١)</sup> وفي استشهاده أمّاذا من أمره المرير.

﴿ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ :

كأن ﴿ذَكَرُ﴾ خبر ك ﴿كَهَيْعَصَ﴾ أم «هذا» أمّاذا؟ والأول أولى لذكر ما يصلح كونه المبتدئ، ويناسبه بعض التأويل، فرحمة الكفاية والهداية واليد الولاية والعلم وصدق الوعد، رحمت خمس إلهية لعبده زكريا، وكلها

= والحسن عليه السلام سرى عنه همه وانجلى كربه وإذا ذكر الحسين عليه السلام خنفته العبرة ووقعت عليه البهرة فقال ذات يوم: إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعا منهم عليهم السلام تسليت بأسمائهم من همومي وإذا ذكرت الحسين عليه السلام تدمع عيني وتثور زفرتي؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصته فقال: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ فالكاف اسم كربلاء والهاء هلاك العترة. والياء يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين عليه السلام والعين عطشه والصاد صبره، فلما سمع بذلك زكريا عليه السلام لم يفارق مسجده ثلاثة أيام ومنع فيها الناس من الدخول عليه وأقبل على البكاء والنحيب وكانت ندبته: إلهي أتفجع خير خلقك بولده؟ أتنزل بلوى هذه الرزية بفنائهم؟ أتلبس علياً وفاطمة ثياب هذه المصيبة إلهي أتحل كربة هذه الفجيرة بساحتهم؟ ثم كان يقول: إلهي ارزقني ولداً تقر به عيني عند الكبر، واجعله وارثاً ووصياً واجعل محله مني محل الحسين عليه السلام فإذا رزقتني فافتني بحبه وأفجعني به كما تفجع محمداً حبيبك صلى الله عليه وسلم بولده، فرزقه الله يحيى عليه السلام وفجعه به وكان حمل يحيى ستة أشهر وحمل الحسين عليه السلام كذلك.

وفي مناقب ابن شهر آشوب عن إسحاق الأحمري عن الحجة القائم عليه السلام مثله سواء. أقول: لا غرو أن ذلك الترتيب اسم واحد أو أسماء من الله تعالى تحمل في حروفها إشارات إلى ضحية الله وتأره.

(١) سورة مريم، الآية: ٧.

رحمات ربانية لعباد الله المخلصين، أماذا من رحمات تذكر في هذه السورة لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ وأضرابها من المكرمين.. وقد يعني **﴿عَبْدُهُ﴾** الرسول محمد ﷺ ف **﴿زَكَرِيَّا﴾** إذا عطف بيان لـ **﴿رَحِمَتِ﴾** ف **﴿كَهَيْعَصَ﴾** و **﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾**، هي ذكر رحمة ربك زكريا لعبده محمد ﷺ أو المعنيان معنيان، ف **﴿عَبْدُهُ﴾** يشملهما على البدل وهو أجمل.

ومن رحمته استجابة دعوة عبده **﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾** - **﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾** (٨٩) فَأَسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَوَهَبْنَا لَهُمْ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُمْ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ (٩٠) **﴿١﴾**.

والنداء هي الدعوة جهراً للمدعو مهما كانت خفية عن الآخرين وكما **﴿نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** (٢) و **﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾** (٣) فلا تنافي **﴿نِدَاءً﴾** كونها **﴿خَفِيًّا﴾** كما الوحي إلى موسى جلي لموسى وخفي عمن سواه، ولا سيما بالواد المقدس إذ لم يكن معه أحد حتى أخيه هارون المشارك له في وحي النبوة أحياناً.

ومن آداب الدعاء كونها خفية: **﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾** (٤) ابتعاداً عن الرئاء، و **﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾** (٥) فلماذا الجهر إذاً وإن لم تكن رثاء؟!.

وليس من لزام النداء العبد حتى توجه نداء زكريا بتخيّل البعد عن ربه تخضعاً، رغم أن الدعاء حالة القرب حتى للبعيد عن ساحة القرب فضلاً عن المقربين!

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٩، ٩٠.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٠.

(٣) سورة النازعات، الآية: ١٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٥) سورة طه، الآية: ٧.

إنه يناجي ربه بعيداً عن أسماع وعيون الناس، إخلاصاً لربه وكشفاً عما يثقل كاهله وتجنباً عن مقالة هازئة: زكريا يطلب ولداً وقد اشتعل رأسه شيباً وكانت امرأته عاقراً، يدعوه في سر مستسر وإن كان ربه يسمع دون دعاء ويرى دون رثاء ولكنما المكروب يستريح إلى الدعاء وقد أمره ربه بالدعاء: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾<sup>(١)</sup> حيث الدعاء التماس والتجاء وهو مخ العبادة:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>:

عرض متين من نبيٍّ أمين لشروط لاستجابة الدعاء ومقتضيات وعدم الموانع فيما لديه: ﴿رَبِّ﴾ دون «يا» لتكون أقرب لفظياً كما هو قريب معنوياً فإن «يا» لنداء البعيد! «إني وهن العظم مني» وإذا وهن العظم وهو المتن المكين فسائر البدن أوهن وسرعة الفناء إليه أهون ﴿وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شعلة النور والبيضاء حتى لا تبقي سواداً، فإنه بتعبير ما ألطفه عن تكاثر الشيب في الرأس كأنه مشتعل يقهر بياضه وينصل سواده، سرعة في تضاعف الشيب وتزايد وتلاحق مدده حتى يصير في الإسراع والانتشار كاشتعال النار، يعجز مطفيه ويُغلب متلافيه.

وترى الشيب من شروط استجابة الدعاء وقد يشيب الإنسان على الشقاء؟ ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ لم تسبق لي منذ التكليف لحد المشيب شقوة في دعائك: دعائك إياي فيما أمرتني ونهيت حيث أطعت دونما شقاء وعناء، ودونما تعنت وكبرياء، وهذا من أصول إجابة الدعاء ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونُ﴾<sup>(٢)</sup> فعهدي هو عهد العبودية الخالصة: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِي

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٠.



ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٧﴾ (١) ومن عهدكم استجابة الدعاء ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٢) ﴿وَلَمْ أَكُنْ﴾ فيما مضى ﴿بِدُعَائِكَ﴾ إياي وهو العهد الأول ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ وعلى ضوئه، ولم أكن بدعائي إياك وهو العهد الثاني ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ فإن دعاء الأشقياء لا يستجاب، وإذ لم أكن شقياً بدعائك إياي لم أكن شقياً بدعائي إياك (٣).

هذه سابقتي المشرقة في بعدين قبل المشيب، أfbعد المشيب وأنا أخرى بالاستجابة وأرحم أنت لا تستجيب؟.

ورغم ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ فلا يهن العزم منك، ومع أنه ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَقِيًّا﴾ فرحمتك مشتعلة للشيب أكثر مما قبل المشيب، فحالي الضعيفة وماضي من حالي إذ ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ تقتضي رعاية حالي واستقبالي، وكما لم أكن في حال بدعائك رب شقياً فلا تكن بدعائي رب إلا حفيماً، فقد عودتني الاستجابة في فتوتي وقوتي فما أحوجني في هرمي وكبرتي! ثم وليست هذه الاستجابة لصالحى شخصياً، بل والحفاظ على مستقبل الرسالة ووراثة الدعوة:

﴿وَأِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِن رَّأْيِ وَي وَكَانَتْ أَمْرًا قَاقِرًا﴾:

ليس لي ولد يرثني رضىاً، وإني خفت من يليني من ورائي أن يصبحوا أخلاقاً متخلفين، فلا يقوموا على تراث النبوة مالاً وحالاً، تضييعاً للمال في غير موضعه، وتحويلاً للحال إلى غير حال.

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) فـ «دعائك» يعني المعنيين على الترتيب في الأدب اللفظي بإضافة المصدر إلى الفاعل كما في «عهدي» ثم إضافته إلى المفعول كما في عهدكم، وكما هو الترتيب المعنوي أن استجابة الدعاء من مخلفات استجابة العبد دعاء ربه وما أطفه جمعاً لهما لفظياً ومعنوياً.

ورغم أن حالي وماضي واستقبالي تقتضي إجابة دعائي لصالح استمرار الدعوة والحفاظ على بيت النبوة، ولكنني ﴿وَهَنَّ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ كمانع أوّل للإيلاد ﴿وَكَانَتْ أُمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ كمانع ثانٍ للولادة، ولكنك لا يمنعك أيّ مانع ولا يقف دون مشيتك أي رادع، «وكانت» تلمح لكونها عاقراً منذ ماضٍ بعيد وهي الآن شيخة فأصبحت ذات عقيرين! فهذه - إذاً - ثلاث!

﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥٠﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴿٥١﴾﴾:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١) ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٢).

يدعو ربه بكل ضراعة آيساً من نفسه، وهناً لعظمه وعقراً لزوجته، راجياً ربه أنه سميع الدعاء وهو خير الوارثين، فهب لي ولياً يرثني خيراً وأنت خير الوارثين، وقد تشير ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ إلى أن مطلوبه يحمل رحمة لدية رحمانية حيث الأسباب العادية قاصرة لمكان العقر والشيخوخة ورحمة لدية رحيمية هي النبوة وهما من خوارق العادة في الرحمتين ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ...﴾! وهنا ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا﴾ تصرف ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ عن وراثة النبوة، أو تعمها لكل وراثة من مال ونبوة (٣) فلو كانت ﴿يَرِثُنِي﴾ مختصة بوراثة النبوة وهي تتطلب في أصلها وفرعها كون الوارث رضيعاً، لكانت ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا﴾ طلباً لتحصيل الحاصل، أو أن الله يورث النبوة لغير المرضي فيدعوه زكريا ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا﴾!

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

(٣) الدر المشور ٤: ٢٥٩ وأخرج الفرياني عن ابن عباس قال: كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال: رب هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب قال: يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة.

فلقد كان دعاؤه ذات بعدين ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرْفُئِي . . . ﴾ ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ وكما في آل عمران: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً . . . ﴾ (١) كتصريحه ثانية، ثم وتلميحة في الأنبياء ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٢).

فلا يطلب ويستوهب ولياً غير رضي، ولا رضيعاً غير ولي، وإنما يطلب ولياً رضيعاً يرثه وهو الولد من صلبه فميراث النبوة - على مجازها - لا يختص بذرية وارثة، كما وهذا الإرث لا يقتضي كون الوارث رضيعاً. فقد يدعو زكريا ربه أن يهبه ولداً هو مجمع الوارثين، ولو اختصت بوراثه النبوة أصبحت مجازاً لا محسّن له ولا دليل، وسقطت «واجعله رضيعاً» عن الفائدة. فليعن بـ ﴿وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرْفُئِي﴾ ميراث المال والأعم بقرينة ﴿وَيَرْثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وبـ ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ النبوة المجعولة في وارث المال، وعلى أية حال فأرث المال أصل قاطع في ﴿يَرْفُئِي﴾ ولكي ينضبط ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾!

فهنا الحديث المختلق على الرسول ﷺ هضمًا لفدك البتولة الزهراء عليها السلام، مصلحية الحفاظ على الخلافة البتراء «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة» يردُّ إلى قائله لمخالفته نصاً من كتاب الله ﴿يَرْفُئِي وَيَرْثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ . . .﴾ وحيث لا تختص بإرث النبوة، بل لا تورث النبوة حتى تشملها (٣)، وإنما هي الاستفادة من ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ جعلاً إلهياً ثانياً باصطفاء بعد جعل الولادة.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

(٣) فالوراثة في وجه عام تختص بالمال حيث ينتقل بحكم الله إلى الورثة، فأما العلم والتقى، والرسالة وأضرابها من الخصائل المعنوية فلا تورث كما المال، اللهم إلا مجازاً، إن الله يجعل النبوة في ولد النبي فيعبر عنه بالوراثة لمشابهتها وراثة المال رغم الفوارق بينهما، ولا مجال في هذه الآية لهذا المجاز، اللهم إلا أن يُعنى من ﴿يَرْفُئِي . . .﴾ [مريم: ٦] كلا الميراثين والقدر الثابت وراثة المال، حيث النبوة المذكورة في ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦].

ولأن عموم الحكم في هذا المختلق معلل بالنبوة «معاشر الأنبياء» فلا تخصيص فيه إلا تعامياً عن العلة فتغاضياً عن أصل الحكم، فلا يقبل تخصيصاً بالكتاب أن وراثه المال في آل يعقوب تستثنى من عموم الحكم رغم عموم النص ونص العموم في ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ﴾<sup>(١)</sup> أفعلى عمد يترك كتاب الله في عمومه وخصومه؟ أو أن الصديقة الزهراء لم تكن من أولاد الرسول ﷺ أم لم تكن مسلمة ترث أباهاً أمأهية؟! .

تقول فيما يروى عنها (سلام الله عليها): «أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ وقال ﷺ فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥٠﴾ يَرْتِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٥١﴾﴾ وقال عز ذكره: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ﴾<sup>(٣)</sup> وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنْفِقِينَ﴾<sup>(٤)</sup> وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا! أفخصكم الله بآية أخرج نبيه منها؟! أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟! أولست وأبي من أهل ملة واحدة؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من النبي ﷺ؟ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾<sup>(٥)</sup>؟ أأغلب على إرثي ظلماً وجوراً ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ...﴾<sup>(٦)</sup> .

(١) سورة النساء، الآية: ١١ .

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦ .

(٣) سورة النساء، الآية: ١١ .

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٠ .

(٥) سورة المائدة، الآية: ٥٠ .

(٦) ج ٦ بحار الأنوار، يقول صاحب البحار: هذه الخطبة من المشهورات بين الفريقين مع بعض الاختلاف في بعض الألفاظ وينقلها هنا عن كتاب «بلاغات النساء» لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر.

هنا ﴿بِرُثْيٰى﴾ يعم الإرثين أو يخص إرث المال. فماذا يعني ﴿وَوِثْرًا مِّنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾؟

قد يعني يعقوب بن ماثان أخا عمران بن ماثان أبي مريم، وكانت امرأة زكريا أخت مريم، فلأنها من آل يعقوب فأرثه عنها إرث من آل يعقوب، ولكنه بعيد في عرف القرآن حيث لا يذكر فيه يعقوب إلا ابن إسحاق، إذاً فال يعقوب هم بنو إسرائيل فالميراث إذاً يعم النبوة والمال.

﴿بَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٧):

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ (٢).

لقد تحققت الاستجابة لتوفر شروطها، مسارعة في سابق الخيرات وسابغها والدعاء رغباً ورهباً والخشوع لله وقد جمعها في إجمال ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

وقد تعني ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ إصلاحها عن عقرها لتلد، وإصلاحها لإيلاء صالح ليصلح رضيعاً، مهما كانت صالحة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ...﴾!

كما ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ لا تلمح لنبوة غير صالحة لمكان الوصف (٣)

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٣) فلا يقاس بـ ﴿وَأَجَعَلَهُ رَبِّي رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] حيث يقابله غير الرضى، فهو قبل ذلك الجعل ليس من الصالحين فضلاً عن كونه من النبيين، ولكن الصالحين منهم نبي ومنهم غير نبي وزكريا طلب فقط صلاحه في ﴿وَأَجَعَلَهُ رَبِّي رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] فزاده الله تعالى نبوة ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]!

ف «نبياً» يعني رفيعاً ف ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ تعني رفيعاً من الصالحين، لا رضيعاً كسائر الصالحين، فهي استجابة فوق المستدعى! حيث النبي يُصطفى بين الصالحين وهم المرسلون ف ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾<sup>(١)</sup> وقد فضل يحيى في هذه الدعاء على جماعة من الصالحين بمن فيهم رسل غير أنبياء.

و ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ تنفي غلاماً قبله اسمه يحيى، وقد تنفي معه من كانت من قبل سميته كـيحيى، ف ﴿سَمِيًّا﴾ تشمل الاسم والسمة، وهكذا كان يحيى ثم من بعده نجد له أسمياء في الاسم، لا في السمة إلا الحسين بن علي عليه السلام.

﴿لَمْ يَجْعَلْ . . .﴾ دليل أن الله هو الذي سماه يحيى وقد سمي من قبل بعض عباده بأسمائهم، و ﴿سَمِيًّا﴾ لا يخص الاسم إذ ليس بخصوصه كثير الأهمية، وإنما هو مع السمة والميزة الخاصة وكما الله ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾<sup>(٢)</sup> حيث الاسم بمجرد ليس ليخص العبادة والاصطبار لها بالمسمى لأن التسمي بأي الأسماء هين، فالسمي هو المثل في الاسم والسمة وهي أولى وطالما المسيح كان سميته في سمات عدة فهو بعده وتنقصه سمة الشهادة الخاصة وهي للإمام الحسين عليه السلام خاصة، وكما لم يجعل له عليه السلام من قبل سمي في الاسم ولا الشهادة، اللهم إلا يحيى في سمة الشهادة! فهو أسمى الأسمياء ليحيى بعده<sup>(٣)</sup> وبعده المسيح عليه السلام.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٢٤ عن مجمع البيان عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية وكذلك الحسين عليه السلام لم يكن له من قبل سمي ولم تبك السماء إلا عليهما أربعين صباحاً، قيل له: وما كان بكأوها؟ قال: كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء وكان قاتل يحيى ولد زنا وقاتل الحسين ولد زنا وفي إرشاد المفيد روى سفيان بن عيينة عن علي بن يزيد عن علي بن الحسين عليه السلام قال: خرجنا مع الحسين بن علي عليه السلام فما نزل نزلًا ولا رحل منه إلا ذكر يحيى بن زكريا وقتله وقال: ومن هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل.

وترى أن الله بشَّره دون وسيط كما تلوح ﴿يَنْزَكِرِيَا... لَمْ يَجْعَلْ لَّهُ...﴾؟ أم بوسيط الملائكة ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾<sup>(١)</sup>؟ وكيف الجمع بينهما!..  
 أن قول ملائكة الوحي المرسلين إلى الرسل هو قول الله، فلا فرق إذاً بين «قال ربك...» و﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أو أنه نداء ان، بواسطة الملائكة أولاً، ثم دون وسيط أم بوسيط ملك الوحي الخاص جبريل ثانياً!

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>:

وترى كيف يختار زكريا فيما يدعو ويختار، فلو كان بعيداً عن رحمة الله أو مستحيلاً في قدرة الله لما كان يختاره بكل ضراعة وإصرار؟ وقد عرض في معرض دعائه مانعاً منه فيه وفي زوجته، عقراً وكبراً عتياً، رجاء من الله أن يزيله فيهب له غلاماً رضيعاً زكياً!

إنه لا يتساءل «كيف يكون» استبعاداً لأصل الولادة أو كيفيتها، وإنما ﴿أَنَّى يَكُونُ﴾ سؤالاً عن زمانها، أقرب أم بعيد، رغم أن ﴿امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ فليكن قريباً لكي تكون لي ولأمه حظوة، ولا فرق عندك بين تعجيله وتأجيله حيث الكبر والعقر قائم ولا سيما في تأجيله.

وإن كان الجواب يلوح باستبعاد لزكريا في الاستجابة ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ...﴾ فإنما هو من قصور فيه وفي زوجته، ولا أنه كان يستبعد القدرة الإلهية، أو أنه كان يستبعد الإجابة لأنها خارقة، فأخذته الحيرة لما بشَّر بيحيى فانفلت من لسانه ﴿أَنَّى﴾! إذ لم يتمالكه في عجاب البشرى واستفسار خصوصياتها، استغراباً من الأسباب، لا من هبة مُسبب الأسباب، كما ولا يذكر إلا عقراً لامرأته وعتياً لنفسه دون شيء من ربه إلا ما سبق في دعائه ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾!

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩. (٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

هنا يذكر من قصوراته في موانعه: لامرأته عقراً وشيخوخة، فلو لم تكن عاقراً لم تلد الآن للشيخوخة وهي عاقر شيخخة! ولنفسه اشتعال الرأس شيخوخة وانخماذ الشهوة عتوة: يبساً وجفافاً لنبعة النطفة، ضعف على ضعف وعقر على عقر فاستعجاب من بشارة الولادة جانبياً، يستوضح ب ﴿أَنَّى﴾ زمنها وكيفيتها، لا أصلها المستجاب فيما تطلبه بكل رغبة و:

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ

شَيْئًا﴾:

﴿قَالَ﴾ الله ﴿كَذَلِكَ﴾ الذي بشرت هو واقع دون منعة مانع ولا دفعة دافع ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كيف لا ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ أفعياً بعد عن خلق غلام من أبوين؟.

وترى ﴿خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ﴾ تعني خلق زكريا من أبويه الصالحين للإيلاد؟ فهو أهون من خلق يحيى من أبوين عاقرين ولا أولوية في هذا القياس! أم يعني خلق الإنسان الأول دون أبوين، المنتهي خلق زكريا إليه؟ والصحيح الفصيح هو الإفصاح عنه ب «وقد خلقت آدم ولم يك شيئاً»!

وقد يلمح ﴿وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ إلى خلق المادة الأولية - وهو منها - لا من شيء، وهو أولوية قاطعة بالنسبة لكل خارقة، حيث الخلق من شيء أهون من الخلق لا من شيء وينتهي خلق كل شيء إلى «لا من شيء».

أو أنه ليس قياساً وإنما تسوية في الخلق الهين بين خلقه من صالحين وبين خلق يحيى منهما بموانعه ف ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كما ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ . . .﴾ وكان هيناً، دونما صعوبة عليّ في خارقة العادة، وهذا هو الواقع في حساب الله إن ليس في خلقه على مختلف المراتب سهولة وأسهل وصعوبة وأصعب، وإنما ذلك في حسابنا وكما يحدثنا بهذا الحساب: ﴿وَهُوَ الَّذِي



يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ<sup>(١)</sup> فالصعب يُعَيِّي ولكن الله لا يعيي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرِ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾<sup>(٢)</sup>! وقد يعنيهما ﴿وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ جمعاً بين برهاني قياس المساوات والأولية!

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ

سُوِّيًّا﴾<sup>(٣)</sup>:

﴿... أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَاذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾<sup>(٣)</sup>.

ترى وكيف يطلب آية وهو مطمئن ببشارة الله وقد طمأنه ثانياً وعد الله؟.. أنه لم يطلب آية لتدله على صدق الوعد! وما هي الصلة بين آية خارقة وبين صدق الوعد؟ ونفس الوحي آية هي أقوى من كل آية! وسائر الآيات ليست إلا لتدل المرسل إليهم إلى آية الوحي المدعى للرسول!.

إنه يطلب آية لتدله على زمن تحقق البشارة حيث تتوق إليه نفسه ولا يعلمه بأصل البشارة. والنص ﴿اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ﴾ آية مرتبطة به لإعلامه الوقت، لا مرتبطة بالله لكي يصدّق في البشارة، أم ليتأكد أن البشارة هي من الله وليس من سواه! فإن ﴿رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ﴾<sup>(٤)</sup> برهان لا مرد له على تأكده أنها بشارة ربانية، فرواية هذه القيلة مطروحة<sup>(٥)</sup> والأنبياء

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٠.

(٥) في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن زكريا لما دعا ربه أن يهب له ذكراً فنادته الملائكة بما نادته أحب أن يعلم أن ذلك الصوت من الله أوحى إليه أن آية ذلك =

معصومون في مثلث زاويته الأولى تلقي الوحي، إذ لا يشتهه عليهم غير الوحي بالوحي!

وفي إنجيل (لوقا ١ : ٢١) «وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته (١٩) وكان الشعب منتظرين زكريا ومعجبين من إبطائه في الهيكل (٢٠) فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل فكان يؤمى إليهم وبقي صامتاً (٢١)».

وقد أقحم في هذه الآيات ما يمس من كرامة الرسالة فتعرض عرض الحائط ويصدق ما يصدقه القرآن وسائر البرهان.

و«ألا تكلم الناس - ثلاث ليال أو ثلاثة أيام سوياً إلا رمزاً» آية تامة إلهية تدله على ما يروم، فقد يكون ترك الكلام لعقدة في اللسان أم لأي مرض كان، وهو يقول ﴿سَوِيًّا﴾: حال أنك سليم ولو كان لمرض يمنع لم يقتسم بين ناس وسواهم وهو يقول: ﴿أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ فقد يكلم الله ويكلم ملائكة الله كما كان، ولكنه يعجز في وقته المحدد أن يكلم الناس ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ ويؤمر أن يذكر ربه ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾<sup>(١)</sup>!

= أن يمكس لسانه عن الكلام ثلاثة أيام قال: لما أمسك لسانه ولم يتكلم علم أنه لا يقدر على ذلك إلا الله.

وفي الدر المنثور ٤ : ٢٦١ أخرج إسحاق بن بشير وابن عساكر عن ابن عباس في الآية - إلى قوله: فقال: ﴿رَبِّ أُنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرًا قِيًّا﴾ [مریم: ٨] خاف أنها لا تلد قال: كذلك قال ربك يا زكريا هو علي هين وقد خلقتك من قبل أن أهب لك يحيى ولم تك شيئاً وكذلك أقدر أن أخلق من الكبير والعافر وذلك أن إبليس أتاه فقال: يا زكريا دعاؤك كان خفياً فأجبت بصوت رفيع وبشرت بصوت عالٍ ذلك الصوت من الشيطان ليس من جبريل ولا من ربك قال: رب اجعل لي آية حتى أعرف أن هذه البشرية منك. قال: آيتك. . أقول ماذا يدل على أن الإجابة كانت بصوت جلي، وهل هنالك آية معجزة أقوى من الوحي نفسه؟! فالحديثان مطروحان دون ريب لمخالفة القرآن.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

وترى كيف الجمع بين ثلاث ليال، تجمع مع نهارين، وثلاثة أنهار، وثلاثة أيام أليست إلا ثلاثة أنهار بلياليهن أم ليلتين؟ ولم يكن الحد الزمني لآيته إلا إحداهما! .

ثلاثة أيام نص في ثلاثة أنهار ظاهر في ثلاث ليال. وثلاث ليال نص - في لياليها الثلاث وظاهر في ثلاثة أنهار، ونتيجة الجمع بين النصين والظاهرين هي ثلاثة أيام بمجموع أنهارها ولياليها، واستعمال ثلاث ليال في المجموع سنة مستمرة، وقد يعني الإتيان بالليالي إبرازاً لأهميتها في هذا المجال لـ ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ .

ثم «إلا رمزاً» سماح له أو أمر لتوجيه الناس إلى تسبيح الله:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١١):

ذلك - وليعيشوا في جو النور الذي أمر أن يعيشه، تحضيراً للبشارة وشكراً على العدة، و﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ تعني في مجموعة ثلاثة أيام صباح مساء، وقد يعني ذكرهما أنهما كانا أصليين لأوقات العبادة في شرعة التوراة، أم هما أفضل الأوقات، لأنهما البداية والنهاية في اليقظة أو الشغل، فليذكروا بتسبيح الله وليعيشوا به .

ثم ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ هو الرمز المسموح له في تكلم الناس أياً كان فهو «وحي الإشارة» كما يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام (١) .

﴿يَبْحَثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَاَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (١٢):

هنا يطوى عن «متى ولد يحيى؟ وكيف ولد؟ وماذا حصل بهذه

(١) في تفسير النعماني بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام حين سأله عن معنى الوحي فقال: منه وحي النبوة ومنه وحي الإلهام ومنه وحي الإشارة فقولته: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] أي أشار إليهم كقوله تعالى: ﴿أَلَا تَكَلَّمُ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران: ٤١] .

الولادة؟» طياً لصفحة زكريا في صمته بتسبيحه، وسدلاً لستار عليه وعلى الولادة، فتحاً لصفحة جديدة ومختصرة غير محتصرة عن يحيى عليه السلام حيث ليس كتاب القصة إلا ما يقص منها للنبهة والتذكرة، إبرازاً لأهم الحلقات وطياً لسائرهما حيث لا تعني ما يعنيه القرآن من قصته.

يؤمر يحيى أن يأخذ الكتاب بقوة، حاكماً به وداعياً إليه ﴿صَبِيًّا﴾ وهو قبل بلوغ الحلم، ويروى عن النبي ﷺ أنه «أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين»<sup>(١)</sup> و«قال الغلمان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال يحيى: ما للعب خلقنا اذهبوا نصلي فهو قول الله: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>.

أترى أن ذلك الحكم - فقط - هو الفهم والعبادة من دون وحي ونبوة؟ وله نظائر من الصبيان علماء وعملاً! وهكذا حكم ليس لزامه أخذ الكتاب بقوة، حيث البالغ المؤمن العادل يأخذ كتاب الشريعة بقوة ودون قوة ويحيى كان نبياً دونما ربية!

أم أنه النبوة وقد عطفت بالكتاب في آيات عدة<sup>(٣)</sup> تجمع بين الكتاب والحكم والنبوة، مما يدل على أن الحكم ليس لزامه النبوة، ١ - فقد يؤتى الكتاب دون حكم ولا وحي ولا نبوة، كالمرسل إليهم بكتاب الشريعة، ٢ - أو يؤتى كتاباً بوحي الرسالة بحكم الولاية الشرعية كسائر المرسلين، ٣ - أم وحكم الملك كداود وسليمان عليهما السلام، ٤ - أو يضاف إلى وحي الرسالة بحكميها أو أحدهما النبوة وهي الرفعة في الرسالة، ٥ - أو يؤتى

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٦٠ - أخرج أبو نعيم وابن مردويه والديلمي عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الآية قال: أعطي...

(٢) المصدر (٣٦١) أخرج الحاكم في تاريخه من طريق سهل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : ...

(٣) ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...﴾ ﴿آل عمران: ٧٩﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ ﴿الأنعام: ٨٩﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ ﴿البقرة: ١٧٦﴾ ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ ﴿النساء: ٥٤﴾.

حكم الولاية الشرعية دون وحي كسائر ولاية الشرع، ٦ - أو ولاية الملك فقط على غرار الشرعة دون وحي ولا ولاية شرعية كما لطالوت الملك!

فالحكم - أيًا كان - كائن في الخمسة الأخيرة فليس لزامه خصوص وحي الرسالة فضلاً عن النبوة!

فهل يعني حكم يحيى الذي أوتيهِ صبيًا حكم المُلْك؟ ولم يكن مَلِكًا وإنما ذبحه كما الحسين عليه السلام ملك ظالم! أم حكم ولاية الرسالة أو النبوة؟ ولا دليل عليه حين كان صبيًا مهما بلغ بعد صباه إلى رسالة أم نبوة! أم حكم الولاية الشرعية ولما يبلغ أشده؟ أو حكم العقل والفهم بصورة خارقة للعادة وهو مادة الولاية الشرعية؟ وهو القدر المتيقن من حكمه، كخارقة إلهية لمن لم يبلغ أشده، مهما أبلغه الله شداً واحداً وهو العقل الرزين والإدراك المتين<sup>(١)</sup> فلا نبي فيمن نعرف أوتي حكماً قبل أن يبلغ أشده وكما موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾<sup>(٢)</sup> وفي يوسف ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾<sup>(٣)</sup>. ولم يك عيسى نبياً في المهد مهما تكلم بوحي النبوة،

(١) نور الثقلين ٣: ٣٢٥ ح ٣٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي وروي عن موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليه السلام قال: إن يهودياً من يهود الشام وأجبارهم قال لأمير المؤمنين عليه السلام: فهذا يحيى بن زكريا يقال: إنه أوتي الحكم صبيًا والحلم والفهم وإنه كان يبكي من غير ذنب وكان يواصل الصوم؟ قال علي عليه السلام: لقد كان كذلك ومحمد عليه السلام أعطي أفضل من هذا، إن يحيى بن زكريا كان في عصر لا أوثان فيه ولا جاهلية ومحمد عليه السلام أوتي الحكم والفهم صبيًا بين عبدة الأوثان وحزب الشيطان فلم يرغب لهم في صنم قط ولم ينشط لأعيادهم ولم يُر منه عليه السلام كذب قط وكان أميناً صدوقاً حليماً وكان يواصل صوم الأسبوع والأقل والأكثر فيقال له في ذلك فيقول: إني لست كأحدكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني وكان يبكي عليه السلام حتى يبتل مصلاه خشية من الله عز وجل من غير جرم. أقول: قياسه صبياً محمد عليه السلام بصبا يحيى دليل على أن الحكم فيهما ليس النبوة وإنما الحالة المتحضرة للنبوة الآتية.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٤.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٢٢.

ذوداً عن أمه المعصومة، وتبشيراً برسالته كهلاً ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾<sup>(١)</sup> فلم يكلم الناس كرسول بين مهده وكهله!

هذا، ومن أئمتنا المعصومين من بلغ الإمامة والولاية الكبرى الاسلامية قبل أشده إلا شداً في عقله كالإمام محمد بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه حيث تقلد إمامة الأمة في الخامسة من عمره الشريف، ثم جواد الأئمة عليهم السلام في الثامنة أو التاسعة من عمره<sup>(٢)</sup>.

ثم وما تعني ﴿ حُذِرَ الْكُتُبَ بِقُوَّةٍ ﴾؟ إنه أخذ التوراة بقوة العلم والعمل والحكم بهما بين الناس بالولاية الشرعية لما يبلغ أشده<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٦.

(٢) المصدر ح ٣٢ - الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن علي بن أسباط قال: رأيت أبا جعفر عليه السلام وقد خرج عليّ فأجدت النظر إليه وجعلت أنظر إلى رأسه ورجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر فبينما أنا كذلك حتى قعد فقال يا علي: إن الله احتج في الإمامة بمثل ما احتج به في النبوة فقال: «وأتيناها الحكم صبياً ولما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة» فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي ويجوز أن يؤتى الحكمة وهو ابن أربعين سنة. أقول: الآية الثانية غير مرتبطة بالنبوة فإن بدايتها ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا... ﴾ [الأحقاف: ١٥] ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ... ﴾ - إلى قوله - إِنِّي نَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥] فإنها ليست فيها إشارة إلى النبوة اللهم إلا الإيمان الإسلام وهو أعم، ثم الآية الأولى ليس فيها إلا الحكم وهو كما قسمناه لا يخص حكم النبوة، إذا فهذه الرواية مؤولة أو مطروحة مردودة إلى من نسبها إلى الامام عليه السلام.

وفيه (٣٥) عن المناقب محمد بن إسحاق بالإسناد جاء أبو سفيان إلى علي عليه السلام فقال: يا أبا الحسن جئتك في حاجة قال: وفيم جئتني؟ قال: تمشي معي إلى ابن عمك محمد فتسأله أن يعقد لنا عقداً ويكتب لنا كتاباً فقال: يا أبا سفيان لقد عقد لك رسول الله صلى الله عليه وآله عقداً لا يرجع عنه أبداً وكانت فاطمة عليها السلام من وراء الستر والحسن يدرج بين يديها وهو طفل من أبناء أربعة عشر شهراً فقال لها: يا بنت محمد قول لي لهذا الطفل يكلم لي جده فيسود بكلامه العرب والعجم فأقبل الحسن إلى أبي سفيان وضرب إحدى يديه على أنفه والأخرى على لحيته ثم أنطقه الله عز وجل بأن قال: يا أبا سفيان قل: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أكون شفيعاً فقال: الحمد لله الذي جعل من ذرية محمد المصطفى نظير يحيى بن زكريا ﴿ وَآيَاتِنَا لَكُمْ صَبِيحًا ﴾ [مریم: ١٢] أقول: ولم يكن الحسن عليه السلام حينذاك إماماً وإنما أوتي حكماً: عقلاً وفهماً.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٢٥ ح ٢١ في أصول الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل =

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبِرًّا بَوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾:

«و» آتيناه حناناً من لدنا وبراً بوالديه... «إيتاءات وعطيات إلهية «وكان» قبلها وبعدها ﴿تَقِيًّا﴾ فلم تكن تلك الموهبات اللدنية دون شيء. فإنما «زكاة» من لدنه ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ في زكاته، حيث الغايات اللدنية تنزل حسب القابليات والفاعليات فقابلية «زكاة» كانت من لدنه، وفاعلية ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ منه ﷺ نسخة طبق الأصل!

هنالك حنان وزكاة وبر، وبينها تقى منذ ولد حتى الممات إذاً فكله ﴿وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾!

والحنان هو الإشفاق المتضمن للصوت الدال على الشفقة. و﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ تجعله خارقاً للعادة المألوفة وفي مربع من الحنّة ١ - حنان من الله وعطف بما يحمله وحيه الحنون ورحمته الحنون

«كان إذا قال يا رب قال الله ﷻ : لبيك يا يحيى<sup>(١)</sup>، ٢ - وحنان له من لدنه جعله يحن إليه ليل نهار بحنين وأئنه وعبادته، ٣ - وحنان منه إلى عباد الله، يدأب في دعوتهم إلى ربهم ٤ - وحنان من الناس إليه وكما في موسى ﴿وَأَلْفَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾<sup>(٢)</sup>! فهو إذاً محبط الحنان ومصدره بين الله

= يقول فيه: مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير أما تسمع لقوله ﷻ : ﴿يَنبِئُكَ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] فلما بلغ عيسى ﷺ سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى الله إليه فكان عيسى الحجة على يحيى وعلى الناس أجمعين.

(١) في الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر ﷺ قال: قلت: فما عنى بقوله في يحيى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً﴾ [مريم: ١٣]؟ قال: تحزن الله - قلت: فما بلغ من تحزن الله عليه؟ قال: كان إذا قال: يا رب... .

(٢) سورة طه، الآية: ٣٩.

وخلقه، ورأس الزاوية من حنانه انجذابه الخاص إلى ربه لحدّ لا يؤلف في سواه اللهم إلا الأخصين من الصالحين محمد ﷺ وعترته الطاهرين ﷺ .  
هنالك حنان يمازجه ضيق بكاء دائم إشفاقاً من ربه واشتياقاً إليه، صوت المشتاق المفتاق إلى ربه مثلما كان لاستوانة الحنّانة حنين بفراق الرسول ﷺ ولذلك سميت حنّانة!

﴿وَزَكَاةٌ﴾ : آتيناها زكاة - طهارة عما يدنس ساحة الإنسانية والإيمان الإسلام «و» الحال أنه ﴿كَانَ تَقِيًّا﴾ ف ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (١) فلما كان تقياً يتقي الموبقات، آتيناها زكاة عما يُتقى من جهل وسوء خلق وفسوق وعصيان فأصبح زكياً دون عيب في نماء وربوة روحية متعالية، متزكياً في نفسه مزكياً لغيره، زاكياً زكياً ذكياً في كل الحقول محلقة على كل العقول.

«و» آتيناها ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ وتري أن برّ الوالدين من ميّزات الرحمات اللدنية الربانية؟ ولم يذكر في عدادها لسائر المرسلين! ولا من دونهم من أولياء الله المكرمين! فإنه من صفات المؤمنين قبل هذه الدرجات العليا! فكيف يذكر في سائر القرآن بين سائر المرسلين - فقط - ليحيى وعيسى ﷺ؟! .

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (٣٣) :

إن السيد المسيح كما يأتي قد افتري عليه بخلاف البرّ لوالدته وأنه كان جباراً عليها عصياً، فدافع عنه القرآن هنا، ولأن يحيى الرسول كان مبشراً بالمسيح، وكانت مهمته الرسالية ذلك التبشير: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢) .

(١) سورة محمد، الآية: ١٧ .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٩ .



لذلك يزود عنه أيضاً تلك الوصمة كإعداد لأصله المبشّر به، فإذا كان يحيى المبشر بالمسيح براً بوالديه فأحرى بالمسيح كونه براً بوالدته! ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا﴾: مستعلياً مستكبراً يحمل غيره على ما أراد ولا يتحمل عن غيره ما يراد «عصياً»: كثير العصيان.

هذه جوامع أحوال يحيى في نفسه وما آتاه ربه، وأمام الخالق والمخلوق، زوايا ثلاث من حياته منذ ميلاده حتى موته: حاكماً حكيماً حنوناً زكياً تقياً وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً، فهو جملة وتفصيلاً سلام في سلام إلى سلام.

﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥):

صحيح أن ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١) جملة وسلام عليهم تفصيلاً، إلا أن يحيى وأحرى منه عيسى قيل فيهما أقاويل تمس من كرامة الرسالة ولادة وموتاً وبعثاً لذلك نجد مثلث السلام لهما في سائر القرآن بين سائر المرسلين، هذا ليحيى ومن ثم المسيح ﷺ: ﴿وَأَلْسَلَّمْ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٢).

ف «إن أوحش ما يكون في هذا الخلق في ثلاثة مواطن، يوم يولد ويخرج من بطن أمه فيرى الدنيا، ويوم يموت فيعابن الآخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا وقد سلم الله ﷻ على يحيى في هذه الثلاثة مواطن وآمن روعته فقال ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ وقد سلم عيسى ابن مريم على نفسه فيها» (٣) فسلام الولادة

(١) سورة الصافات، الآية: ١٨١.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣٣.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٢٧ ح ٣٨ عيون الأخبار بإسناده إلى ياسر الخادم قال: سمعت أبا الحسن الرضا ﷺ يقول: إن أوحش.

والموت سلام طول حياة التكليف، و سلام البعث حياً هو سلام الخلود في عطاء غير مجدوذ ويعني مثلث السلام للمسيح ﷺ أكثر مما يعنيه في يحيى ذوداً عن ساحته فيها لا مزيداً لسلامه فيها<sup>(١)</sup>.

﴿وَسَلِّمْ﴾ في إرساله يعم كل سلام من كل مسلم: من الله في رحمته، ومن الملائكة طلب الرحمة كما في سائر المرسلين والصالحين، ومنه نفسه كلما يقدمه لكل سلام منذ الحكم حتى الموت، ومن سائر الناس أن يعتقدوا فيه كل سلام. إذاً فهو في مربع السلام تكويناً وتشريعاً لا يجوز لأحد أن يقول فيه غير «سلام»! وهل يوجد بين الأتقياء أتقى من يحيى؟ علّه نعم فإنه لم يكن من أولي العزم مهما بلغ من تقاه، ثم القرآن يصرح بأن الرسول محمداً ﷺ أول العابدين! أو علّه لا إلا محمد ﷺ مهما سبق سائر أولي العزم في سائر عزمهم على يحيى، ولكنه أتقى منهم<sup>(٢)</sup> أم هم على سواء إلا

(١) يأتي تفصيله في سلامات المسيح بعد قليل.

(٢) ويتبع محمداً ﷺ وأهل بيته المعصومين ﷺ وقد تظافت الرواية عن الرسول ﷺ في فضل يحيى ففي الدر المشور ٤: ٢٦٢ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن خزيمة والدارقطني في الأفراد وأبو نصر السنجري في الإبانة والطبراني عن ابن عباس قال: كنا حلقة في مسجد النبي ﷺ نتذاكر فضائل الأنبياء، فذكرنا نوحاً وطول عبادته وذكرنا إبراهيم وموسى وعيسى ورسول الله ﷺ فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: ما تذاكرون بينكم؟ فذكرنا له فقال: أما إنه لا ينبغي أن يكون أحد خيراً من يحيى بن زكريا أما سمعتم الله كيف وصفه في القرآن ﴿يَبْحَثُ فِي الْكِتَابِ بِؤُوفٍ﴾ - إلى قوله - وَكَانَ تَقِيًّا ﴿مریم: ١٢، ١٣﴾ - لم يعمل سيئة قط ولم يهمل بها أقول: لعله نعم إلا محمداً ﷺ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] ولآية التطهير وأمثالهما من أدلة تفضيل محمد ﷺ وآله على العالمين أجمعين وفيه أخرج ابن عساكر عن ابن شهاب أن النبي ﷺ خرج على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون - وذكر مثله في معناه - فقال النبي ﷺ: أين الشهيد ابن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب يحيى بن زكريا وفيه أخرج أحمد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا لم يهمل بخطيئة ولم يعملها أقول يستثنى =

خاتمهم ﷺ ، فسلام عليه من عيسى ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ﴾ من الله ليحيى قد يلمح لكونه أتقى من عيسى مهما كان المسيح أفضل منه في ولاية العزم اللهم إلا في تقاها<sup>(١)</sup> .

وترى لماذا ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ وهو ميت حال نزول آية السلام؟ لأنه ينقل «سلام» عن حال حياته ، لا أنه «سلام» بعد استشهاده حال نزول آية السلام!

ولماذا «حيًا» بعد ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ﴾ والبعث ليس إلا بعث الحياة؟ قد يعني أنه لا يموت عن حياة البرزخ إلى حياة الآخرة، وإنما يزداد حياتها إلى حياته، لأنه والمسيح ممن استثنى من الصعقة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فهما ممن شاء الله ألا تأخذهم الصعقة بموت أم غشوة، وإنما انتقلاً من برزخ الحياة إلى أخراها ببعث لبدن والروح حيي يزداد حياة بهذا البعث!

وقد تلمح ﴿حَيًّا﴾ فيما تعني أنه حي في البرزخ بحياة الشهادة، حياة في

= من عمل الخطيئة كافة المرسلين وسائر المعصومين، ومن هم بالخطيئة الرعيل الأعلى منهم وفي إنجيل متى: «عن السيد المسيح» الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان . .» وهو اسم ثانٍ ليحيى حسب الإنجيل .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٦٢ - أخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن عيسى ويحيى التقيا فقال عيسى ليحيى: استغفر لي أنت خير مني فقال له عيسى: بل أنت خير مني سلم الله عليك وسلمت أنا على نفسي وفيه أخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والطبراني والحاكم والضياء عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا، أقول: قد يعني بذلك من مات شاباً فلا يشمل الإمام المهدي ﷺ وأما الإمام الجواد فقد يعني من الشباب غير أهل بيت الرسالة المحمدية فإنهم في الدرجة العليا من العصمة لا يدانيهم أحد كما تدل آية التطهير ورواياته! .

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨ .

حياة لا تسلبان عنه إذ ﴿يُبْعَثُ حَيًّا﴾ وما أَلطفه جمعاً بين الحياتين فيما تعنيه ﴿حَيًّا﴾<sup>(١)</sup> وهو - إذاً - حال عن يحيى المضمرة في ﴿يُبْعَثُ﴾<sup>(٢)</sup>.

فـ ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ﴾ للحياة الآخرة حال كونه ﴿حَيًّا﴾ بالحياة البرزخية وحياة الشهادة، ولا نجد البعث حياً إلا في يحيى والمسيح ﷺ مهما يبعث أضرابهما من أولياء الله الكرام أحياء، بحياة إن ماتوا أم حياتين إن استشهدوا، فغيرهم لا يبعثون أحياء، وإنما عن موت برزخي مهما كان الشهداء أحياء قبل البعث أكثر من سائر الأحياء!

### زكريا ويحيى في القرآن والعهدين:

يذكر زكريا سبعاً ويحيى خمسا في سائر القرآن بكل تبجيل وتجليل، ومن ميزات يحيى أنه ولد خارقة العادة وسماه الله يحيى وآتاه الحكم صبياً، وقد تشير ﴿يَحْيَى﴾ إلى أنه يحيا حياة طيبة، وأنه تستمر حياته البرزخية إلى بعثه: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ دون موت في البرزخ!

(١) الدر المنثور ٤: ٣٦٣ وأخرج ابن عساكر من طريق علي بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين ﷺ عن الحسين بن علي ﷺ قال: كان ملك مات وترك امرأته وابنته فورث ملكه أخوه فأراد أن يتزوج امرأة أخيه فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك وكانت المملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء فقال له: لا تتزوجها فإنها بغية فبلغ المرأة ذلك فقالت: ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه فعمدت إلى ابنتها فصيغتها ثم قالت: اذهبي إلى عمك عند المملأ فإنه إذا رآك سيدعوك ويجلسك في حجره ويقول: سليمان ما شئت فإنك لن تسأليني شيئاً إلا أعطيتك فإذا قال لك قولي: لا أسألك شيئاً إلا رأس يحيى وكانت المملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رؤوس المملأ ثم لم يمض له نزع من ملكه ففعلت ذلك فجعل يأتيه الموت من قتل يحيى وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه فاختر ملكه فقتله، فساخت بأمرها الأرض...».

(٢) أجل حال لا مفعول فإن البعث يتعدى لمفعول واحد وهو هنا نائب الفاعل في «يبعث» وحتى إذا عدي البعث إلى مفعولين فلا يتعدى إلى ثانٍ هو «حياً» لأنه تحصيل حياة حاصلة، اللهم إلا مزيد الحياة المعنى بـ «حياً» وهي حالٌ ليحيى!.

ومما يلمح في رسالة يحيى أنها رسالة التبشير بالمسيح ﷺ و﴿ أَنْ أَلَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾<sup>(١)</sup> فرسالة التبشير هذه هي رأس الزاوية من رسالته المباركة .

ولأن شعب إسرائيل حسب البشارة في العهد العتيق كانوا ينتظرون المسيح، ظنوا يحيى وهو يوحنا المعمدان أنه المسيح ﷺ فنفي لمرات عن نفسه أنه المسيح وكما في «لوقا الإصحاح الثالث»: «وإذا كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح ﷺ ١٥ أجاب يوحنا الجميع قائلاً: أنا أعمدكم بماء ولكن يأتي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحلّ سيور حذائه وهو سيعمدكم بالروح القدس ونار (١٦) الذي رفشه في يده وسينقي بيده ويجمع القمح إلى مخزنه (١٧).

وفي يوحنا ١ : ١٩ - ٢٧ : «وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر: إني لست أنا المسيح، فسألوه إذاً ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا! النبي أنت؟ فأجاب: لا! فقالوا: من أنت لنعطي جواباً للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك قال: أنا صوت صارخ في البرية - قوموا طريق الرب كما قال اشعيا النبي - وكان المرسلون من الفريسيين، فسألوه وقالوا له ما بالك تعمّد؟ إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟ أجابهم يوحنا قائلاً: أنا أعمد بماء ولكن وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحلّ سيور حذائه».

هذه الآيات ترسم الجوّ الإسرائيلي بانتظار ثلاثة أشخاص بعد يحيى : «المسيح - إيليا والنبي»! وقد صدقهم يحيى هكذا كما الفريسيون، وليس

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

«النبى» إلا الرسول محمد ﷺ الذى بشرت به كتابات العهدين العتيق والجديد، وقد كان معروفاً لذيهم لحد الغنى عن ذكر اسمه وكأنه - فقط - نبى لا سواه، و«إيليا» هو على دون «إلياس النبى» لاختلاف الاسم وسبقه على يحيى بزمن، وقد أتى إيليا لعلى فى بشارات أخرى<sup>(١)</sup>.



(١) راجع كتاب «رسول الإسلام فى الكتب السماوية».

﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾  
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾  
قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا  
رَسُولُ رَبِّكَ لِأَهَبَ لِكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ  
يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيِّئٍ  
وَلَنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ  
فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ  
يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا  
تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ الْجِذْعَ فَسَقَطَ  
عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكَلِمِ وَأَشْرِي وَقِرِي عَيْنًا فِيمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ  
أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾  
فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾  
يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ  
إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ  
ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي  
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبِرًا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا  
شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾  
ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ

أَنْ يَنْخِذَ مِنْ وِلْدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾  
 وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ  
 بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ  
 يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ  
 قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّاتُ الْأَرْضِ وَمَنْ  
 عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

عرض عريض لقصة الولادة والنبوة العجبية لعيسى تلو يحيى لما بينهما من مشابهاة فيهما. فقصته مختصرة عابرة للمبشر تتقدم لتقدمه في رسالة البشارة - ثم تلوها قصة المسيح بداية من أمها في حملها وحملها وولادتها، وهي أعجب من قصة يحيى، فإذا ولد من عاقر وشيخ قد اشتعل رأسه شيباً فهنا الولادة دون بعل من طاهرة عذراء كأعجب ما يشهده تاريخ الإنسان إلا ما لم يشهده من خلق آدم مهما عرف بوحى القرآن.

ذلك ولكي تكون الولادة من غير أب دلالة على إمكانيتها دون أبوين، كما أن هذه دلالة على أوليتها دون أب ليهتدي أولاء وهؤلاء فلا يخيل إليهم أصل الأنواع ولا البنوة الإلهية، وهذه الولادة بجانب ذلك خارقة لبیت إسرائيل الخارفة التي لا تحن إلى آية إلهية خارقة، اللهم إلا جديدة محيرة كهذه، رغم أن طائفة منهم اتخذوها فرية وأخرى بنوة إلهية دون أية حجة إلا أهواء مضللة!

يولد المسيح هكذا ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ مثلاً للخلق الأول وخارقة للآخرين، تدليلاً على حرية وطلاقة القدرة الإلهية دون احتباس في النواميس التي قررها ف ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.



حادثة واحدة لن تتكرر حيث انقطعت النبوة بعد محمد ﷺ ولكي تبقى معلماً بارزاً أمام البشرية على حرية المشيئة الإلهية!

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦):

﴿مَرْيَمَ﴾ لغة سريانية تعني الغالبة المرتفعة، وعلّها لأنها غلبت شهوتها وأحصنت فرجها رغم جمالها وكثرة الراغبين إليها، وغلبت على الولد الذي هوته أمها في قداستها وإنتاجها. وارتفعت عما افتروا عليها، وعن أقرانها من نساء العالمين وقبل كل ذلك هي موهوبة الرب وقد تقبلها ﴿رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ﴾ (١) تقبلها مريم كما تسمت بما تعنيه من معانيها!.

وفي حين تذكر مريم خمساً وثلاثين مرة في القرآن بكل تبجيل وتجليل، لا تذكر في الإنجيل إلا خمساً بكل مهانة وتخجيل (٢).

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ هنا يؤمر الرسول أن يذكر في الكتاب مريم وما هو ذلك الكتاب؟ أهو القرآن وذاكر مريم وسواها مما يذكر فيه ليس إلا الله، فإنه كلام الله والرسول وسيط لنقله إلى العالمين!

إنه ذكرها في القرآن بالوحي، فالقرآن هو كلام الله في الأصل، وهو كلام الرسول كرسول ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ (٣) ف ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ ذكر بالوحي في بعدي اللفظ والمعنى كما في

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٢) وهي ١: قصة قانا الجليل (يوحنا ٢: ٣) ٢: إذ أرادت أن تكلم ابنها وهو يعلم تلاميذه و(متى ١٢: ٤٦) ومرقس ٣: ٣١ ولوقا ٨: ١٩ ٣: ١٩ عند صلبه (يوحنا ١٩: ٢٦) ٤: وفي الأيام الأولى بعد صعوده (يوحنا ١٤١: ١٤) ٥: عند ذكر أبنائها: يعقوب، يوشي، يهودا، شمعون وعدة من بناتها (متى ١٣: ٥٥ و٢٧: ٥٦ ومرقس ٦: ٣ و١٥: ٤٠ و٤٧: ٤٧). أقول لم يكن لها ولد إلا المسيح حسب القرآن والحديث ويأتي توضيح موارد الإهانة بها في هذه الآيات.

(٣) سورة التكويد، الآيتان: ١٩، ٢٠.

«إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس»<sup>(١)</sup> وذكرى الخمسة كلها في هذه السورة! ..

أو أنه ذكرها في نفسه ﷺ مما أوحى إليه ليلة القدر وهنا التفصيل، فالكتاب إذاً هو القرآن المحكم، أو أنه يعنيهما جملة وتفصيلاً.

وذكر مريم في سورتها وسواها ذكر لواجب قصتها التي تتبنى طهارتها وطهارة المسيح ﷺ، لا سردها على طولها كما تقص في كتب القصص!

إن مريم هي فتاة عذراء، قديسة حوراء، تستوهبها أمها من ربها فيهبها ﴿فَنَقَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا...﴾<sup>(٢)</sup>.

هذه الفتاة - وهي حليفة المحراب، تأخذها انتبازات وهزات تنبض لها ولابنها المسيح بأية دائبة وحياة! وهي بعدما اهتزت بالبشارة الملائكية من قبلها.

نبذة أولى: ﴿إِذْ أَنْبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا...﴾. ثم هزة ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنْىْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا...﴾.

وهزة ثانية: ﴿لَا هَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾<sup>(١٩)</sup> قَالَتْ أَنىْ يَكُونُ لىْ غُلَامٌ...﴾.

وهزة ثالثة: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ وهنا نبذة ثانية ﴿فَأَنْبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا...﴾.

وهزة رابعة: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِىْ مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ وهنا بشارة تخفف عنها هزاتها ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِىْ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا...﴾.

ثم هزة خامسة: هي الأخيرة ﴿يَتَأَخْتِ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوْءًا﴾

(١) وهم على الترتيب في ١٩ : ١٦ - ٤١ - ٥١ - ٥٤ - ٥٦ .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٧ .

ولكنها تسكن إلى رياحة ورحمة: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ...﴾ ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾!

﴿إِذْ أَنْبَدْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ والنبد هو الطرح المضمّن معنى الرفض امتهاناً أحياناً: ﴿فَنَبَذْنَهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ (١) ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ (٢) وامتحاناً أخرى ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (٣) فمنه مذموم ﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (٤) ومنه غير مذموم وإن تراءى أنه مذموم، كالتكاليف النسائية الواجبة من غسل وأمثاله.

وانتباذ مريم وانطراحها مكاناً شرقياً قبل تمثل الروح لها بشراً سويماً وقبل حملها، علّه لحالة خاصة بالفتاة تستحي فيها من أهلها كالغسل عن حيضها، حيث يقتضي الاحتجاب عنهم مكاناً شرقياً تشرق عليها الشمس تخفيفاً عن برودة الماء.

ولأنها كانت دائبة المقام في محرابها كما نذرت لذلك فلم تكن عند أهلها إلا أيام عذرها. فانتباذها إذاً من أهلها مكاناً شرقياً واتخاذها من دونهم حجاباً، ليس انعزالاً في عبادتها وإنما فيما يُستحي منه وإلا فلماذا الانتباذ والحجاب والمكان الشرقي؟!.

فها هي ذي في شأنها الخاص حيث توارت حتى عن أهلها وهي عارية عن ملابسها تفاجأ مفاجأة عنيفة تهز أركانها وتفزع مذعورة منتفضة لأول مرة في حياتها:

(١) سورة القصص، الآية: ٤٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٤٥.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ٤٩.

﴿فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ :

ها هي محتجبة عن أهلها وحتى عن أمها، مشغولة بشأنها في غسلها.

مطمئنة إلى انفرادها وهي عريانة بكامل جسدها، فإذا بشر سوي أمامها يفتجئها في خلوتها وعراها رغم حجابها! فتدخلها رهبة تفتجئها رغم أهبتها بما بشرت في الأولى، إذ ترى أمامها بشراً سويّاً وليس هنالك سوي ولا غير سوي ليكون هو منهم، فإنها ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴿﴾ فما لها وبشراً أمامها، إلا اختلاسا عليها إذ يحضر عندها وهي عارية في شأنها الخاص دون أهبة ولا استئذان. وكأنه من أقرب المحارم، بل هو زوج لا يكاد يستأذن زوجه!

وترى من هو ﴿رُوحَنَا﴾ المتمثل ﴿لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾؟ ولماذا لم يظهر بصورته الأصلية حفاظاً على اطمئنانها؟ هنا ﴿رُوحَنَا﴾ واهبٌ لمريم غلاماً زكياً بإذن الله نفخاً فيها في فرجها، وفي أخرى المنفوخ في فرجها هو «من روحنا»: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ (١) وهي تفسر ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ (٢) أن النفخ من روحنا فيها لم يكن إلا في فرجها (٣) وإضافة «نا» الإلهية فيهما لا تعني إلا تشريفاً للنافخ والمنفوخ أنهما من الأرواح المشرفة التي خلقها، كما في آدم ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (٤) ثم في بنيه: ﴿... وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴿٥﴾ وهذه الأرواح الأربعة: ﴿رُوحَنَا﴾ - «من روحنا» «من روحي»

(١) سورة التحريم، الآية: ١٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩١.

(٣) راجع ج ٢٨ من الفرقان تجد كيف النفخ والحمل؟.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

(٥) سورة السجدة، الآيات: ٧-٩.

«من روحه» كلها من أمر الله لا من ذاته ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾<sup>(١)</sup> فإنها تفسر الأرواح كلها أنها من أمر الله، وليس أمر الله ذاته أو من ذاته، وإنما هو فعله المختلف عن ذاته بكل بينونة ذاتية وصفاتية، مهما كان مفضلاً على سائر الأرواح أمّاذا؟.

«وروحنا» المرسل لذلك النفخ ليس إلا الروح الأمين النازل بالوحي ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾<sup>(٣)</sup> والنازل بروح النبوة على رجال الوحي: ﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ...﴾<sup>(٤)</sup> فهو النازل بروح المسيح وجسمه ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ﴾<sup>(٥)</sup> مهما كان النافخ في الحق هو الله ﴿فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾<sup>(٥)</sup>.

ومهما كانت هذه الأرواح المضافة إلى الله مفضلة على سائر الأرواح جملة، ففيها التفاضل بينها كما بينها وبين سائرهما، ف﴿رُوحَنَا﴾ يمتاز عن «روحي» كما «روحي» يمتاز عن «روحه» حضوراً لجمعيته الصفات في أولها، وحضوراً دونها في ثانيها، وغياباً مفرداً في ثالثها، كما وأن روح المسيح ﷺ مفضل على روح آدم، وهو مفضل على بنيه كمجموعة، اللهم إلا المفضلين عليه كبعض النبيين وأكابر المعصومين!

وإنما تمثل لها بشراً، حيث التجلي بالصورة الملكية ليس إلا أحياناً لرجال الوحي دون الآخرين: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾<sup>(٦)</sup> . . . ومن ثم ﴿سَوِيًّا﴾ فإن غير السوي لا يناسب تمثل

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٥) سورة التحريم، الآية: ١٢.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٩.

﴿رُوحَنَا﴾ فإنه إزاء به، ولا المتمثل لها فإنه إخافة لها ومهانة في الرسالة إليها، ثم وفي بشر سوي هزة صادقة لها تهيئة لتحمل حمل هو حمل لها في ظاهر حالها! .

هذه هزة أولى تأخذها، عضة على أركان طهارتها وهي الطاهرة الزكية البريئة.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (١٨):

تحاول الهرب مستعيذة بالله إذ تظنه معتدياً أثيماً، أو فاجراً زنيماً، وهي التقية المؤمنة، العفيفة الطاهرة، وتستعيذ بالرحمن خالقها منه إن كان تقياً يتقي بأس الرحمان، فغير التقي لا يستعاذ منه حيث لا يتقي على أية حال إلا بمعجزة ينجيها الله بها منه، وهي تستعيذ بالرحمن منه إن كان تقياً، استيقاظاً لروح التقوى فيه واستجاشته لكي لا يقر بها مخافة الرحمن!

ثم لماذا العوذة بخصوص «الرحمن» العام، دون «الرحيم» الخاص، وعوذة التقى تناسب الرحيم؟

هنالك عوذة خالصة بالله من الشيطان وحزبه لا يخاطب فيها الشيطان وإنما الله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ومن ثم عوذة بالرحمن ممن يؤمن به وهي ذات بعدين، أصيل هي بالرحمن، وفرع هي بمن كان تقياً، ف «لقد علمت مريم أن التقي ذو نهية»<sup>(١)</sup> والتقي ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ويرجع عن دفعة الشهوة ونزعة الشيطان وقد كانت ملامح التقى ظاهرة فالمؤمن ينظر بنور الله! ف «الله» يستعاذ - فقط - به عند الإياس عن كل دافع عن الشيطان، و«الرحيم» يستعاذ به فيما تكون للرحمة الخاصة موقع كأن يكون المستعاذ منه ذو رحمة خاصة تدفعه عما يُخاف، وكما نعوذ

(١) الدر المثور ٤: ٢٦٧ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي وائل في الآية: ...

بالله منه «أعوذ بك منك»! بشفاعة رحمته الخاصة، ثم الرحمن يستعاذ به ممن غلبته الشهوة وهو تقي، والشهوة الغالبة لا تعرف رحمة، وإنما التقوى من الرحمن، تذكر بتلك الرحمة الشاملة التي تنفذ في كل شيء، وأنا الطاهرة مريم شيء، وأنت البشر السوي شيء. وهنا ليس أحد يدفع إلا الرحمن ف ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا...﴾ ولكنه يعيد طمأنينتها ويسكن روعتها إذ:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (١٩):

أنا فوق التقي الذي يتحول عند الشهوة إلى شقي ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ ينحصر كوني وكياني وتمثلي عندك برسالة ربك، رسالة تربوية معصومة من ربك الذي ربك حتى الآن ويريبك ما دمت حياً، أما تستقبلين رسول ربك حيث يحمل لك هبة ربانية منقطعة النظير، هو البشير النذير ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ في هذه الرسالة بإذن ربك ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ بكل طهارة وسلام؟ وكل نضارة ووثام.

فلقد طمأنها في هذا اللقاء بأمرين: ﴿أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ بعيداً عن الشهوة الجنسية فلا حاجة إلى عوذة! ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ من دون وقاع مهما كان حلاً فضلاً عن الحرام، وإنما أحمل هبة ربانية هي خارقة.

ولكن كيف تصدقه وقد تكون حيلة فاتك يستغل طبيعتها، وكيف تهب لي غلاماً زكياً وأنت رسول وأنا ما عرفت رجلاً، وهي الآن في هذه الهزة الثانية تسأل في صراحة تغاضياً عن احتمال الحيلة، كأنها لا هي مصدقة برسالته فتطمئن إلى هبة ربها، ولا مكذبة فتجانبه فوراً، فرغم أنها اطمأنت بالأمان من ناحيته تغشيتها سحابة الحزن من أخرى، وتطوف بها موجة من الأسى، إلا أن هول الموقف ليس ليعقد لسانها، حيث تذكر هذه البشرية قبلئذ على إجمالها من ملاك ربها، ولكن هول البشرى - إذ هي على أشرف تحققها دون بعل، وقد تخلف تهم الجاهلين - إنه يبعثها لسؤالها حائرة ذعرة.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾: ﴿٢١﴾

هبة الغلام لها وسيلة تكوينية من نكاح أم سفاح ولا أعرف ثالثة، ف﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي زمن وأيان؟ ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ بنكاح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ بسفاح؟

وترى ألم تكن هناك في خلدتها وسيلة مستقبلية لهذه الهبة الربانية بهذه البشارة؟ كلا! حيث ﴿لِأَهَبَ﴾ تقاطع كل وسيلة مستقبلية، وتصرف مثلث زمن الهبة إلى الحال، وبواسطة رسول الرب! فلا وسيلة لأصل الهبة حيث تتحقق الآن إلا ماضية من نكاح أو سفاح وهي منتفية، فلا تعرف هي من ﴿لِأَهَبَ﴾. تغاضياً عن مقاربتة - معنى إلا البشارة بغلام زكي انعقد قبل البشارة وهي نافية لكل انعقاد ماضٍ! ولما يخلد بخلدها أنها بشارة بخارقة ربانية دون أي لقاح من نكاح أم سفاح! اللهم إلا ما بشرته الملائكة بإجمال... فيأتي الجواب الحاسم هنا كما أتاها من ذي قبل:

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾: ﴿٢٢﴾

﴿قَالَ﴾ أمرك في هذه الولادة العجيبة ﴿كَذَلِكَ﴾ الذي قلت عن رسالة ربك ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ أن تلدي دون زوج، ولماذا؟ لحكم شتى... ﴿وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾ برهاناً ساطعاً قاطعاً على القدرة الخارقة الإلهية، وعلى صدق الرسالة العيسوية، لهؤلاء الذين لا تكفيهم آيات مضت في الرسالة الموسوية ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ عليك خاصة وعلى الناس عامة، فهو إذاً آية ورحمة، مهما كان عليك حملاً وزحمة، فإنه من الألفاظ الخفية الإلهية على صعوباته ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ لا يتحول بإباء ولا دعاء! فأستعدي لهذه الآية الرحمة مهما بلغت بك الصعوبة!

هنالك ينتهي الحوار بينهما حيث استسلمت لحكم ربها في هذه الهبة



الزكية، ونرى في آل عمران حواراً بينهما وبين الله والملائكة، فما هو التلاحم بينهما؟:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ (١).

تستوحش من هذا البشارة الملائكية، وحق لها إذ لا ترى لنفسها ضجيعاً، ولم تعرض بخلدها حتى الآن قصة الزواج، وهي عارفة أن البشارة محققة لمستقبل قريب لا تلائمه الولادة كالعادة: أن تتزوج وتلد من فوره!

وهل «الملائكة» هم «روحنا» جمعاً في واحد؟ وهي هنا تحاور ربها في استعجابها أن يكون لها ولد وهناك الحوار مع «روحنا»!

إنها عرض لبشارتها بالملائكة قبل أن يتمثل لها «روحنا» بشراً سوياً، تعبيداً لطريقها إلى هذه المفاجآت والهزّات، فأصبحت على خبرة إجمالية عن هذه الكلمة البشرية، سائلة ربها ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ...﴾ فطويت الحوار هنا طياً وهي بانتظار كيف تتحقق البشرية، ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ لا للبشرى إذ تقدمت بالملائكة وإنما لتحقيق البشرية: ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ولكنها ذعرت إذ فوجئت بما لم تحسب له حساباً أن البشارة تتحقق ببشر سوي، فحق لها أن تحتار مترددة هل إنه الذي يحقق البشرية، وما طمأنت له حتى ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ...﴾ بما سبقت لك فيه البشرية، فاطمأنت لحدّ ما، ولكنها بعد متحيرة ولكي تطمئن ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ...﴾ فلما سمعت نفس الصيغة الماضية من الملائكة في بشرائها

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٤٥ - ٤٧.

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ...﴾ انتهى الحوار وأصبحت كأنها في قرار! مستسلمة لتحقيق البشرى:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانَبَذَتْ بِهٖ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٢):

فقد حملت الغلام الزكي الموهوب بنفخ رباني وإلقاء: نفخ «روحنا» وإلقاء «كلمته». هنا ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ وفي أخرى ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (١) وفي الثالثة ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا﴾ (٢) فالحامل للغلام الزكي الموهوب هو «روحنا» والمحمول هنا هو الغلام، ثم المنفوخ هو «من روحنا» والملقى ﴿وَكَلِمَتُهُ... وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ والحاملة هي مريم، وهل هنا فرق بين الغلام الزكي وروح منه ومن روحنا وكلمته الملقاة إلى مريم؟ تعبيرات أربع في سائر القرآن عن تكوين المسيح ﷺ.

ولأن ضمير الغائب في «حملته» راجع إلى ﴿غُلَمًا زَكِيًّا﴾ فليكن هو المحمول بروحه وجسمه، وعلّ جسمه هو الكلمة الملقاة وروحه هو المنفوخ، فتحققت إذاً ازدواجية ذلك الحمل المبارك، وفي قرن «كلمته» بـ «روح منه» تلميح بذلك القرن في حملها، وكلا النفخ والإلقاء من فعل الله وليس «روحنا» إلا وسيطاً في تحميل هذه الهبة الربانية وعلّها دون نفخ منه ولا إلقاء!

فلقد كان حملاً بإلقاء الكلمة في الفرج وهي النطفة الرجولية التي تشكل جسم المسيح، إلقاءً بدفع في قعر الرحم لتتزاوج نطفة الأُنثى لتكوّن الجنين، وبنفخ الروح تبعاً في الجسم الكلمة ومن ثم الولادة! وترى أن مكوث الحمل كأصله كان خارقاً للعادة؟ كأنه هو حيث «فحملته» تطوى زمن حلول الروح في الجسم طياً كأنهما مقارفتان أم

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١٢.

مقارنتان بأن البويضة في هذه الخارقة ما سارت بعد النفخة سيرها كسيرتها العادية، بل اختصرت مراحلها اختصاراً، وأعقبهما تكوُّن الجنين ونموّه واكتماله في فترة وجيزة!<sup>(١)</sup>.

ثم ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ دلالة ثانية على هذا الطي، حيث الفاء لتفريع القريب، فالانتباز كان تلو الحمل، ولا داعي إلى الانتباز فور الحمل إلا طياً لدور الحمل، فقد اقتلعت عن مكان الحمل إلى مكان قصي لوضع الحمل.

ترى أكان الحمل كاملاً من ساعته أم تسع ساعات أم أية سويغات، أو ستة أشهر<sup>(٢)</sup>؟ لا ندري إلا ما تلمح لنا آية الحمل الانتباز المخاض، قدر ما يحتاجه انتبازها إلى مكان قصي!

وكيف انتبذت مكاناً قصياً وأين ذلك المكان؟ لا ندري! وقد يكون انتبازها بنبذة إلهية خارقة ولا سيما أن المنتبذ إليه مكان قصي، أو أنها لشدة هزتها بهذه الوشبكة المواجهة بها أهلها بالفضيحة، لذلك انتبذت مكاناً قصياً بعيداً عنهم خلواً عمن يعرفها! وهذه الانتبازة تناسب بيت اللحم المعروف أنه مولد المسيح ﷺ وتلك الخارقة تناسب الفرات كما وردت بها

(١) مجمع البيان وروي عن الباقر ﷺ . . فكمل الولد في الرحم من ساعته . . فخرجت من المستحم وهي حامل فحج مثقل فنظرت إليها خالتها فأنكرتها ومضت مريم على وجهها مستحيية من خالتها ومن زكريا . . .

(٢) هنا روايات ثلاث في مدة حملها من ساعة كما رواه في المجمع عن الباقر ﷺ أنه تناول جيب مدرعتها فنفخ فيه نفخة فكمل الولد في الرحم من ساعته كما يكمل في أرحام النساء تسعة أشهر، ومن تسع ساعات يرويها عن أبي عبد الله ﷺ ومن ستة أشهر رواها في العلل والكافي عن أبي عبد الله ولفظها «ولم يولد - ولم يعش - لستة أشهر إلا عيسى ابن مريم والحسين بن علي ﷺ ورواية رابعة في الكافي عن أبي الحسن موسى ﷺ في حديثه مع نصراني . . .

وأما اليوم الذي حملت فيه مريم فهو يوم الجمعة للزوال . . . وأما اليوم الذي ولدت فيه مريم فهو يوم الثلاثاء لأربع ساعات ونصف من النهار . . .

روايات<sup>(١)</sup>! ومما يلمح بأقصر الحمل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ طَّ  
خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(٢)</sup> ومطلق المماثلة يقتضي الولادة فور  
الحمل أو بفصل قريب، و﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ تؤيده ألا تدرج في هذا  
الحل كما لم يكن في خلق آدم!

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا  
مَنْسِيًّا﴾<sup>(٣)</sup>:

فاجأها المخاض فأجاءها - أن جاء بها - إلى جذع النخلة لتجعله  
لبأسها سناداً ولظهرها عماداً. فإنها وحيدة تعاني حيرة العذراء في أول  
مخاض، دون أن تعرف منه شيئاً أو يعينها أحد في شيء فلجأت إلى جذع  
النخلة كقابلة تسندها.

معاناة المخاض من ناحية وغربتها من أخرى وهزتها من ولادة دون بعل  
من ثلاثة تسقطها في يديها وتحيرها في أمرها وتشد حزنها وتغلي مرجل  
غيظها فتقول متأوهة حائرة: ﴿يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾!

ترى وكيف قالت قولتها هذه وهي عارفة بأن هذه الولادة هي من الله آية  
للناس ورحمة للعالمين؟ علها لكربتها وغربتها وشدة وطأتها نسيت الآية

(١) نور الثقلين ٣: ٣٢٦ ح ٢٩ عن أصول الكافي عن أبي الحسن موسى عليه السلام في حديثه  
لنصراني . . . والنهر الذي ولدت عليه مريم عيسى هل تعرفه؟ قال: لا قال: هو الفرات وعليه  
شجر النخل والكرم وليس يساوي بالفرات شيء للكروم والنخل . . .  
وفي تهذيب الأحكام عن علي بن الحسين في الآية قال: خرجت من دمشق حتى أتت كربلاء  
فوضعت في موضع قبر الحسين عليه السلام ثم رجعت من ليلتها وح م د في روضة الكافي عن  
سليمان بن داود المنقري عن حفص قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام يتخلل بساتين الكوفة فانتهى  
إلى نخلة فتوضأ عندها ثم ركع وسجد فأحصيت في سجدة خمسمائة تسبيحة ثم استند إلى  
النخلة فدعا بدعوات ثم قال: يا حفص إنها والله النخلة التي قال الله جل ذكره لمريم عليها السلام:  
﴿وَهَرِي إِيَّاكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَلِّطُ عَلَيْكَ رُطْبًا حَيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

الرحمة، و«لأنها لم تر في قومها رشيداً ذا فراسة ينزهها عن السوء»<sup>(١)</sup> مهما دافع عنها أهلها!

﴿مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ قد يعني قبل حملها، أو يعني قبل وضعها أم يعنيهما حتى لا تقع في هذا المأزق المزلق، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا﴾ ما يحق أن ينسى لدنائه كخرقة حيض أو علقته، ثم ﴿مَنْسِيًّا﴾ يعني نسياناً على نسيان! ألا يتذكروني في شيء وأنا منذ الآن عُلقَة الألسن تتداولني في نقاض ونقاش!

أترى لماذا ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ دون ﴿النَّخْلَةِ﴾؟ عله للإشارة إلى يبوستها أن بقي لها جذع خشبة تلتجئ به! حيث الجذع هو القطع فهو إذاً مقطوع النخل منفصلاً عنه أم قطعاً عن حياته وما أنسبه لجوء العذراء التي ليست لتلد دون بعل إلى جذع النخلة اليابسة عن وليد الثمر، وليتشابها حين أثمر!

﴿فَنَادَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>:

لقد ولد المسيح ﷺ هكذا إلى جذع النخلة وفي حديث أنه كان يوم العاشور<sup>(٢)</sup> أم ماذا<sup>(٣)</sup> ما ندرى إلا أنه ولد فيا لله! طفل هو حمل لفترة قصيرة ووليد اللحظة، ينادي أمه من تحتها، يطمئننها في حالها الغريبة المضطربة، ونفس نداءه يطمئننها دون أن تحمل هذه البشارات: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ لكربتك على غربتك، لوحدتك حين وهدتك ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ من الرفعة، وهو المسيح الرفيع، أو من السري: السريان: نهراً سرياً خلق الساعة<sup>(٤)</sup>، ووليداً

(١) نور الثقلين ٣: ٢٢٠ ح ٤٦ مجمع البيان في الآية إنما تمت ﷺ الموت استحياء من الناس

أن يظنوا بها سوءً عن السدي وروي عن الصادق ﷺ: أنها . . .

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٢ في تهذيب الأحكام عن أبي جعفر الباقر ﷺ أنه قال وقد ذكر يوم

عاشوراء - وهذا اليوم الذي ولد فيه عيسى ابن مريم ﷺ . . .

(٣) المصدر في من لا يحضره الفقيه عن الرضا ﷺ قال: ليلة خمس وعشرون من ذي القعدة

ولد فيها إبراهيم ﷺ وولد فيها عيسى ابن مريم ﷺ .

(٤) الدر المنثور ٤: ٢٦٨ وأخرج الطبراني وابن مردويه وابن النجار عن ابن عمر سمعت رسول=

سرياً يسري صيته ويجري صوته في مشارق الأرض ومغاربها، ناداها المسيح فإنه محور الكلام وحاصل المخاض فهو من تحتها، دون جبريل أم ملك سواه إذ ليس تحتها<sup>(١)</sup> وسريها هو نهرها الساري تحتها ووليدها الخارج من تحتها فإنه سرو رفيع وسار منيع، ويا للسريين هذين من رفعة ومناعة فإنهما صنعيا ربهما كما وصنع لها رطباً جنياً، مثلثاً من خارق العادة رأس زاويته سري المسيح.

﴿وَهَؤُوتَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

فلأنها اهتزت لما ولدت دون بعل، فلتهز جذع النخلة اليابسة فتتهز بالحياة دون سبب ظاهر فتحمل وتساقط عليها رطباً جنياً دون لقاح باهر ودون مكوث لفترة الإيقان والإثمار والإيناع ونحسبها عليها اندهشت في حظوة وبهتت على أهبة كيف تمتد يدها إلى جذع النخلة اليابسة لتساقط عليها رطباً جنياً فإذا بالنخلة المورقة المثمرة المونعة تساقط عليها ودقاً من رطب جنني طري!.

ويا لها من طاهرة عذراء تحمل دون بعل، فاجأها المخاض إلى جذع نخلة يابسة بترء<sup>(٢)</sup> فإذا هي تثمر دون وقتها - ولا لقاح - وبعد موتها، كما

= الله ﷻ يقول: إن السري الذي قال الله لمريم: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] نهر أخرج الله لها لتشرب منه وأخرج مثله الطبراني في الصغير وابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ وقد روي في المجمع عن أبي جعفر الباقر ﷺ: ضرب جبرائيل برجله فظهر ماء عذب يجري.

(١) المسيح هو آخر المراجع الصالحة لضمير الغائب في ناداها إضافة إلى ما ذكر في المتن وأنها ما كانت تطمئن إلى هذه المقالة في حالتها المزرية إلا مقالة المشاهد وهو المسيح.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٣١ ح ٥٥ عن كتاب المناقب عبد الله بن كثير قال: نزل أبو جعفر ﷺ بوادٍ فضرب خبائه فيه ثم خرج يمشي حتى انتهى إلى نخلة يابسة فحمد الله عندها ثم تكلم بكلام لم أسمع بمثله ثم قال: أيتها النخلة أطعمينا ما جعل الله فيك فتساقطت رطباً أحمر وأصفر =

أن العذراء تلد فور وهبة ربها دون وقتها ولا لقاح، ويجري في لحظتها ينبوع، طعام وشراب محضران بخارقة الرب كما هي وابنها آية للعالمين:

﴿فَكُلِّي وَأَشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١٦﴾﴾:

كلي من رطب جني واشربي من السري، وما أحسنه وأسلمه أكلًا للنساء رطب جني ف «أكرموا عمتم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم ﷺ وليس من الشجر شجرة تلتح غيرها - أطمعوا نساءكم الرطب فإن لم يكن رطب فتمر فليس من الشجر شجرة أكرم من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران»<sup>(١)</sup> «ولو علم الله طعاماً هو خير لها من التمر لأطعمها إياه»<sup>(٢)</sup>.

= فأكل ومعه أبو أمية الأنصاري فقال: يا أبا أمية هذه الآية فينا كآلية في مريم أن هزت إليها النخلة فتساقطت رطباً جنيًا.

أقول وفي بصائر الدرجات روي مثله عن أبي عبد الله ﷺ قال: أيتها النخلة السامعة الطيبة المطيعة لربها أطمعنا مما جعل الله فيك فتساقط علينا رطباً مختلفاً ألوانه فأكلنا حتى تزلعننا فقال ﷺ: إليكم سنة كسنة مريم ﷺ.

وفيه عن أبي عبد الله ﷺ قال: خرج الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ في بعض عمره ومعه رجل من ولد الزبير كان يقول بإمامته قال: فنزلوا في منزل من تلك المنازل تحت نخل يابس قد يبس من العطش قال: ففرش للحسن تحت نخلة وللزبيرى بحذاء تحت نخلة أخرى قال: فقال الزبيرى ورفع رأسه: لو كان في هذا النخل رطب لأكلنا منه فقال الحسن ﷺ وأنتك لتشتهي الرطب؟ قال: نعم فرفع الحسن ﷺ يده إلى السماء ودعا بكلام لم يفهمه الزبيرى فاحضرت النخلة ثم صارت إلى حالها فأورقت وحملت رطباً قال: فقال الجمال الذي اکتروا منه: سحر والله! فقال الحسن ﷺ: ويلك ليس بسحر ولكن دعوة ابن نبي مجابة! قال: فصعدوا إلى النخلة حتى تصرموا ما كان فيها فأكفاهم.

(١) الدر المنثور ٤: ٢٦٩ - أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معاً في الطب النبوي والعقيلي وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ . . . وفيه أخرج ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول الله ﷺ مماذا خلقت النخلة؟ قال: خلقت النخلة والرمان والعنب من فضل طينة آدم ﷺ.

(٢) أخرج ابن عساكر عن سلمة بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ: أطمعوا نساءكم في نفاسهن =

هنا اطمأنت نفسها وعاد إليها ما عذب من لبها واستجمعت قوتها، ومع الدستور الصارم تخفيفاً لوضعها العارم: ﴿فَأَمَّا تَرِينٌ مِّنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي...﴾ لا تكلمي بشراً يواجهك إلا قوله الإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ للصمت لا عن الأكل والشرب ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ﴾ واليوم فقط ﴿إِنْسِيًّا﴾ مهما أكلم ربي وغير الإنس من ملك آمن ذا، ولأن الإنسي هو الذي يعارضني في ولدي دون بعل، والله بملائكته يؤنسنني غير ملين!

هذا طرف من قصة الولادة المباركة العجيبة للمسيح ابن مريم عليها السلام وهنالك هرطقات إنجيلية تعارضها، مما يجعل الجمعية الرسولية الأمريكية تعترض على جوانب من هذه القصة حسب القرآن قائلة: <sup>(١)</sup> «إن القرآن مشتبته في قصة مريم إذ ينسب إليها قصة هاجر أم إسماعيل، فإنها هي التي كانت في البرية وهزت إليها بجذع النخلة ومريم كانت في بيت لحم اليهودية والمسيح لم يتكلم في المهد وهذه كلها مأخوذة من خرافات المسيحيين دون سناد عن كتابات الوحي» <sup>(٢)</sup>.

= التمر فإنه من كان طعامها في نفاسها التمر خرج ولدًا حليماً فإنه كان طعام مريم حيث ولدت عيسى ولو علم الله..

وفي نور الثقلين ٣: ٣٣٠ ح ٥٠ في كتاب الخصال فيما علم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه من الأربعمائة باب مما يصلح للمسلم في دينه ودينه ما تأكل الحامل من شيء ولا تتداوى به أفضل من الرطب قال الله تعالى لمريم: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا...﴾ [مريم: ٢٥].

أقول: قول المسيح حينذاك وحياً هو من قول الله وفي (٥١) عن الكافي عنه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ ليكن أول ما تأكل النفساء الرطب فإن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ . . . قيل: يا رسول الله فإن لم يكن إبان الرطب؟ قال: سبع تمرات من تمر المدينة فإن لم يكن فسبع تمرات من تمر أمصاركم فإن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ يقول: وعزتي وجلالي وعظمتي وارتفاع مكاني لا تأكل النفساء يوم تلد الرطب فيكون غلاماً إلا كان حليماً وإن كانت جارية كانت حليمة.

(١) راجع كتابنا «عقائدنا» ص ٥٠٠ - ٥٠٣ وما قبلها وبعدها ففيها تفصيل مقارن للقصة بين القرآن والإنجيل.

(٢) ج ٢ ص ٩٢ - ٩٣ من الهداية للجمعية الرسولية الأمريكية نقلاً بالمعنى.



وعجب من هؤلاء كيف يخطئون في قصة هاجر وهي في بركة لا ماء فيها ولا كلاء ولا نخلة أمّاذا؟ ثم أنى لهم أن المكان القصي الذي انتبذته مريم كانت بركة قفراً فلا شجرة فيها ولا نخلة، فهل القصي في قاموسهم هو القصي عن الماء والكلاء؟ وليس إلا البعيد القاصي عن أهلها وعن ملاء الناس لكيلا يرونها تضع حملها فلا يسارعونها في الاتهام، وليست النخلة إلا في المعمورة، فقصبيهم - إذاً - قصي عما يرام!

فهل أن القصي الطري المعمور بالنخلة ورطبها الجني أخرى بهذه الولادة المباركة للعدراء الطاهرة أم الآخور معلف الحيوان كما ينقله الإنجيل؟

فإن زعمت الجمعية الرسولية أن مكانها القصي خلو من النخل فإنجيل يوحنا يصرح: «إن الكثيرين في أورشليم أخذوا سعوف النخل وخرجوا للقاء المسيح» (١٣: ١٢ - ١٣) وبيت اللحم من ضواحي أورشليم<sup>(١)</sup>.

وحين لا تسمح هذه الجمعية لمريم الطاهرة كرامة الرطب الجني تدنس ساحتها وتصدق الخرافة الهاتكة الإنجيلية «إنها جاءت فانفتحت السماء ونزل عليها إناء فيه كل دواب الأرض والزحافات والطيور وقيل لها: إذ بحي وكلي فقالت: يا رب! إني لم أكل قط شيئاً نجساً؟ فقيل لها: ما طهره الله فلا تدنيسه» (يوحنا: ١١٠ - ١٦) فهل إن الله ينزل على مريم شيئاً نجساً ويأمرها بأكله أن طهره أمره، أم كيف تعارض الطاهرة المتعبدة أمر ربها، أتريد إبطال حكم إلهي تعبيداً لطريقة المسيح الذي يفتردي البشرية عن لعنة الناموس إبطالاً لشريعة التوراة؟

(١) سبق أن من المحتمل في المكان القصي بعد بيت لحم هو الكوفة وكلاهما من منابت النخل كما في روضة الكافي بإسناده إلى حفص قال: رأيت أبا عبد الله يتنخل بساتين الكوفة فانتهى إلى نخلة فتوضأ عندها ثم ركع وسجد فأحصيت في سجدة خمسمائة تسبيحة ثم استند إلى النخلة فدعا بدعوات ثم قال: يا حفص! إنها والله النخلة التي قال الله جل ذكره لمريم **عَلَيْهَا السَّلَامُ**: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ فَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

وحين تحيل الجمعية الرسولية اخضرار النخلة واثمرارها من ساعتها بأمر الله، فلتحل مثل ذلك في عصا موسى حيث «وضعها في خيمة الشهادة وفي الغد وجدها قد أفرخت فروخاً، وأزهرت زهراً وأنضجت لوزاً» (عد ١٧ : ٧ - ١١ وعب ٩ : ٤)!

﴿... فَأَمَّا تَرِينٌ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ رؤية حتمية لبشر ﴿تَرِينٌ﴾ إذا حصلت «إمّا» - «أحدًا» جنس البشر واحداً أو أكثر ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ...﴾ وكيف تقول مقالتها وهي حسبها صائمة عن أية قولة لبشر؟ - .

هنا تقول الجمعية الرسولية: (٢ : ٥٢) إله القرآن يأمر مريمه تقول كذباً: إنها نذرت للرحمن صوماً فلن تكلم اليوم إنسياً، وهي لم تكن صائمة بدليل أمره إياها أن تهز إليها بجذع النخلة... ﴿فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا...﴾. ثم أمره إياها أن تقول إنها صائمة لا تتكلم متناقض حيث أمرت أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا...﴾.

وعجب من هؤلاء الأغفال كيف جمعوا بين صوم الصمت والطعام، و﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ...﴾ دليل أنه صوم الصمت! ثم «قولي» لا يختص بقول الكلام، حيث الإشارة المفهومة قول كما الكلام: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾ ولم يقل «قالت» وحتى لو قالت ف ﴿إِنِّي نَذَرْتُ...﴾ لا يحدد بداية الصوم ولعلها بعد هذه القولة إن كانت لفظة ولم تكن! .

ويا لها من كرامة للعدراء تعتذر بعذر شرعي شرعه لها ربها حتى لا تواجه بشراً بشرط كلمة قبل أن يذاد عنها بخارقة إلهية ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾، وعله فقط صوم الصمت<sup>(١)</sup> أم صوم يعم الصمت ولم يكن أكلها وشربها إلا قبل أن تواجه بشراً فلم يشمله صومها إن عمّ الطعام كما الكلام،

(١) المصدر ح ٦٠ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب في مناقب أبي جعفر الباقر عليه السلام وسأل طاوس اليماني أبا جعفر عليه السلام عن صوم لا يحجز عن أكل وشرب؟ فقال: الصوم من قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦].

ولكنه الصمت فقط حيث النفاس من حالات منعة سائر الصيام، وتفريغها على صومها: ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْشِيًّا﴾!

وصوم الصمت شرعة توراثية انقطعت بالشرعة القرآنية، فأيات الصوم تمنع فيما تمنع عن ما سوى الصمت، اللهم إلا صمتاً عن الكذب على الله ورسوله حيث يبطل الصوم، أم مطلق الكذب حيث ينتقصه، وكما ثبت بالسنة الثابتة<sup>(١)</sup> وأما الصمت المطلق فلا صوم فيه إسلامياً!

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا﴾ - إن مكانها القصي لم يكن بذلك البعيد كالكوفة ﴿فَأَتَتْ... تَحْمِلُهُ﴾ دون أن تتركه مخافة العار حيث اطمأنت أنه عطية ربانية فهو ذائد عنها ما يمس كرامتها ﴿قَالُوا يَمْرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾: موضعاً لفرية بالغة المدى أم عظيماً بديعاً ف ﴿لَقَدْ﴾ تأكيد أن و ﴿فَرِيًّا﴾ كمبالغة الفرية تشكل عليها ثلوث الفرية ومن ثم التأنيب كأنها ثابتة لا حَوْلَ عنها: ﴿يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا...﴾!

وهناك مندوحة للعدراء الوالدة - مع الغض عن احتمال معجزة إلهية - :  
علها اجتذبت نطفة الرجولة دون لقاح إن جلست مكاناً فيه النطفة، وحالة المؤمن وفعله محمولة على الصحة، أفلم يلمس قومها إيمانها وهي عائشة المحراب، صالححة الذهاب والإياب، فالحة في حراب الشهوات؟! .

ثم ولماذا ﴿يَتَأَخَتِ هَرُونَ﴾ وهو أخو موسى وبينهما قرون خلت؟ كما

(١) نور الثقلين ٣: ٣٣٢ ح ٥٨ في الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الصيام ليس من الطعام والشراب وحده ثم قال: قالت مريم: إني نذرت للرحمن صوماً - أي صوماً صمتاً - صمتاً - فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم وعضوا أبصاركم ولا تنازعوا ولا تحاسدوا.

اعترضته الجمعية الرسولية الامريكية (٣: ٣١): «خلط هارون أخا موسى بأخي مريم!» وكأنهم يخصصون اسم هارون بأخي موسى ثم لا يحق لمن بعده أن يتسمى بهارون! «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمعون بالأنبياء والصالحين قبلهم»<sup>(١)</sup>؟! .

ولماذا يتقدم هارون أخوها على أبيها ومن ثم أمها؟ علّه لأن هارون كان أقدس أنسابها وأشهر في قدسيته من أبيها لحد يتعالى حتى عن أن ينفي عنه السوء، ثم أبوها ما كان أمراً سوء، ثم أمها ما كانت بغياً!

ومثلت النسبة هذه والرعاية العالية الطاهرة في ظله يجعل من البنت طاهرة بعيدة عن هذه الفعلة العاهرة، فيا للمفارقة بين هذه النسبة المباركة وتلك المقارفة النكدة الدنيئة التي لا تأتيها إلا بنات بغايا والآباء السوء! .

والقول إن هارون هذا لم يكن أخاها وإنما مثلها في التقوى مشهوراً بها، غير فصيح ولا صحيح، حيث الحقيقة لا تُصرف إلى مجاز إلا بقريئة، وأنهم كانوا في تفرعها وتأنبها سابق الجملة: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ ولا حقها: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْراً سَوْءً...﴾ والأخوة المثلثة بهارون، لها مدحة بالغة!<sup>(٢)</sup> .

أشارت إليه إشارة قائلة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾ وأسألوه فإنه المجيب

(١) الدر المنثور ٤: ٢٧٠ - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرأون ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: ألا أخبرتهم... .

(٢) مجمع البيان: يا أخت هارون فيه أقوال: أحدها أن هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح عن ابن عباس وقتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي ﷺ أقول: وهذا المرفوع إليه مرفوع عنه في المعنى لما قلنا ومضى عنه ﷺ . والراوي عنه في هذين المتعارضين واحد وفصاحة القرآن تنافي الثانية .

عما تسألون! أم قالت لهم نذرها قبل بدايته وقبل أن يكلموها، ثم أشارت إليه إجابة عما افتروا عليها، هنا يبهرهم العجاب على الغيظ الذي ساورهم، كيف تبجح فتسخر من متسائليها، صامته مشيرة إلى ﴿مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قالوا جواباً عن إشارتها الهازئة الفالته في حسابهم ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾!؟.

وترى ما هي مكانة ﴿كَانَ﴾ هنا وكل أحدٍ كان في المهد صبياً مهما كان الآن أيضاً صبياً أم شاباً أو شائباً هرماً؟

علّ ﴿كَانَ﴾ هنا تامة وصيباً حال، كيف نكلم طفل المهد حال صباه وليس ي أهل لكلام أو حوار ما كان في المهد، إذاً فـ ﴿كَانَ﴾ تركز صباه أنه بعدُ طفل المهد ولما يخرج منه حتى يؤهل لكلام، و﴿كَانَ﴾ هذا كأضرابها في سائر القرآن تدليلاً على تمكّن مدلولها في حال أم ماذا (١).

والقول إن ﴿كَانَ﴾ هنا زائد زائد من القول إذ لا يليق بفصيح الكلام كسائر القول هنا إلا ما نبهنا عليه والله أعلم بما ﴿كَانَ﴾!.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

تنزيهات سبع تخصه، تغلق عليه السبع أبواب جحيم الافتراءات الموجهة إليه، المفتحة عليه، وثامنة هي تقديسة تامة هامة تكرر حياته الطاهرة وحياة أمه الزاهرة العذراء: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾!

(١) مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] إن البشرية والرسالة تمكنتا في فلا أملك ما يملكه ربي - وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] حيث النصر لزام الولي المقتول. . وكذلك ﴿مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] حيث الصبا بعدُ لزامه ولما يخرج من صباه!.

والحق أقول إنه بيان صارم على اختصاره يجرف عنها كل هرطقة عارمة تهرف أو كلمة تحرف في كتابات مزورة! .

### ١ - ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ...﴾؟

إن كلامه وهو في المهد صبي رضيع، وبهذه البداية المباركة يزود عنه تفريط المفرطين: إنه ولد زنى. وإفراط المفرطين إنه الله أو ابن الله، فكيف ينطق ولد زنى بخارقة إلهية اللهم إلا من اصطفاه الله، وكيف يعترف الله أو ابن الله أم اقنوم الألوهية أنه عبد الله؟! .

ففي حين أنه لم يصرح هنا بالطهارة عن الزنى استلزم كلامه في بعديّة أنه الطاهر المصطفى آية لله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾<sup>(١)</sup> وهنا يتهدم صرح كل مفرط ومفرط بحق المسيح وأمه عليها السلام، حيث الأقاويل فيهما ولا سيما فيه متشابكة متشاكسة لا يكاد تخمد نيرانها إلا بصراح القول من المسيح نفسه وهو في المهد صبي!

نجد قرابة ثمانين موضعاً في الأناجيل أن المسيح يعترف بعبوديته لله وأنه ابن الإنسان<sup>(٢)</sup> ورغم تحرفها لا نجد فيها ولا تصريحاً واحدة من وحي الإنجيل أنه الله إلا «الآب والابن وروح القدس» والآب باللغة اليونانية تعني الخالق، فالابن ليس إلا مخلوقاً للخالق وهو ابن الإنسان، وروح القدس هو الوسيط بين الخالق والابن. ولكنهم رغم الحفاظ على الصيغة اليونانية يفسرونها بالآب كأنها عربية مع الغرض عن مدّها، تحريفاً خارفاً مجازفاً جارفاً لم يتنبه له إلا القليل ممن وفي لرعاية الحق من العارفين.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

(٢) كما في إنجيل يوحنا ١: ٥١ و٤: ٦ و٣: ٢٦ و٢٤: ٤ و٣٤: ١٩ و٤٤: ٥ و١٩: ٢٤ و٢٤: ٣٠ و٤٤: ٦ و١٤: ٢٨ و٢٩: ٤٤ و٧: ١٦ و١٨: ٢٨ و٣٣: ٤٠ و٨: ٢٦ و٢٨: ١١ و٤١: ١٢: ٢٧ هو عبد الله.

وفي متى ٨: ٢٠ و٩: ٦ و١٦: ١٣ و٢٧: ١٧ و٩: ١٢ و٢٢: ١٨ و١١: ١٩ و٢٨: ٢٠ و١٨: ٢٠ - إنه ابن الإنسان.

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ حاله ومقاله وسمة أفعاله طول حياته، مهما اختلق عليه مقالات أخرى<sup>(١)</sup> فهو لا يعرف لنفسه صلاحاً بجنب ربه فكيف يجعل نفسه عدلاً لربه؟: «وإذا واحد تقدّم وقال له: أيها المعلم الصالح.. فقال له: لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله» (متى ١٩ : ١٦ - ١٩) - (مرقس ١٠ : ١٨) (لوقا ١٨ : ١٩) ويندد ببطرس المتطرف، المتطرق له لقب الرب: «حاشاك يا رب! فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان! أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (متى ١٦ : ٢٢ - ٢٣).

ويندد بمن اختاله معادلاً لربه: آبي يعمل وأنا أعمل فمن أجل هذا قالوا: إنه كسر السبت وجعل نفسه معادلاً لله» (يوحنا ف ١٧)<sup>(٢)</sup>.

## ٢ - ﴿ءَاتَلْنِي الْكِتَابَ...﴾:

فرية أخرى على المسيح ﷺ أن ليس له كتاب شرعة، وإنما الحواريون ومن أتباعهم هم الكاتبتون سيرته وسموها الإنجيل، لذلك لا نرى عندهم إنجيلاً ينسب إلى المسيح إلا ما تطرق له التاريخ وأصبح منسياً مع الزمن!

إن القرآن يثبت له إنجيلاً: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾<sup>(٣)</sup>! وجماعة

(١) كالقائلة إنه ابن الله: (متى ٣ : ١٧) وأول مواليدته (عب ١ : ٩) وابن الله المبارك (مرقس ١٤ : ٦١) والقائلة إنه هو الله والكلمة: (يوحنا ١ : ١) الأزلي (عب ٩ : ١٤) والرب وقد كرر في الأناجيل وأنه عمانوئيل: الله معنا (متى ١ : ٢٣) ويعارضها التصريحات الثمانون في الرقم (١) ومثل: يهوه - الله: يرسل أنبياء وحكماء وكتبة (متى ٢٣ : ٣٤) و(لوقا ١١ : ٤٩) ويهوه هو رب الشريعة فبقدرته الشخصية يتم ناموس موسى ويعدله (متى ٥ : ٢١) ويهوه يعقد عهداً مع البشر (متى ٢٦ : ٢٨ و مرقس ١٤ : ٢٤ و لوقا ٢٢ : ٢٠).

(٢) راجع كتابنا: عقائدنا ص ٦٥ - ١٤٥ - تجد فيه تفصيلاً واسعاً عن خرافة الألوهية والنبوة للمسيح وتزييفها.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

من المسيحيين ينكرون هذه الحقيقة الناصعة، ك: القس و. ت. جردنر الإنجليزي<sup>(١)</sup> و: أو ميم ميلر<sup>(٢)</sup> رغم اعتراف جماعة آخرين منهم بإنجيل المسيح وكما في الإنجيل الحالي نفسه: «بعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز - يبشر - بإنجيل ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مرقس ١ : ١٥)<sup>(٣)</sup> «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز بإنجيل الملكوت» (متى ٤ : ٢٣ و ٩ : ٣٥) ويعرف به بولس قائلاً: «أولاً أشكر إلهي يسوع المسيح من جهة

(١) في كتابه: محاورة الوحي باعتبار التوراة والإنجيل والقرآن، صدر من الجمعية الأسقفية ببولاقي مصر - طبع بمطبعة النيل المسيحية بشارع المناخ نمرة ٣٧ - يقول فيه: «في القرون التي مضت بين المسيح ومحمد ﷺ لم يعترف المسيحيون بإنجيل غير الإنجيل الحالي أي: العهد الجديد - وليس هناك أقل بينة تدل على أنه كان لدى المسيحيين كتاب آخر غير الكتاب الحالي أو الإنجيل الحقيقي أو أن الحقيقي فقد بعد زمن الهجرة. . إن الإنجيل الحالي هو إذاً الإنجيل الحقيقي، وإن زعم وجود كتاب آخر أنزل على عيسى هو وهم وخطأ، فيكفي أن نقول فقط: إن كاتب أسفار الإنجيل ألهموا أن يدونوها بطرق مختلفة ووسائل متنوعة ولذلك يعتبر جوهر ما دونوه موخى به».

(٢) هو العالم الشهير الإنجلي في كتابه: التمدن القديم في باب تعاليم المسيح، يقول فيه: «إن ربنا عيسى المسيح لم تكن له شريعة كموسى، إنما قرر شريعة التوراة، إنه كلمة الله الطاهرة وكان عنده خزائن علم الله وحكمته فلم يكن من اللازم أن ينزل عليه كتاب، والمؤمنون الأولون إنما كانوا يستفيضون من كلماته النبوة، فأين لزوم كتاب ينزل عليه؟ فإن أعماله وكلماته كانت مكتوبة على صحائف قلوب الحواريين، فلم يكونوا إذاً بحاجة إلى كتاب شريعة إذ كانت تكفيهم شريعة التوراة، ولا كتاب سنّة عملية أخلاقية لأن المسيح كان ذلك الكتاب بأعماله وأقواله - ولكن المسيحيين لما لم يروا المسيح في الجسم على الأكثر، فهم بحاجة إلى كتابات تذكرهم بمعجزات المسيح وحياته لكي يغنيهم البيان عن العيان، لذلك رأى مؤلفو الأناجيل الذين كانوا يعرفون حياة المسيح بعيان وبصيرة - رأوا من المفروض عليهم تأليف هذه الأناجيل ويشرحوا فيها أحواله وأقواله ومعجزاته وهذه الكتب هي المراجع الدينية الثانوية بعد المسيح وتلاميذه».

(٣) هذه الآية تلمح كأنهم ما كانوا ليصدقوا إنجيله إذ كان عبثاً وجملاً عليهم، حتى يفسح لهم مجال اختلاق أناجيل أخرى.



جميعكم أن إيمانكم ينادي به في كل العالم فإن الله الذي أعبدته بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع اذكرهم» (روم: ١) وفي: برنابا: «ولقد قال لي صدق يا برنابا إني أعرف كل نبي وكل نبوة وكل ما أقوله إنما جاء من ذلك الكتاب»<sup>(١)</sup> «وأنتم شهداء على هذا كيف أنكروا على هؤلاء الأشرار الذين بعد انصرافي عن العالم سييطلون حق إنجيلي بعمل الشيطان، ولكنني سأعود قبل النهاية» (برنابا ٥٢: ١٤ - ١٥) «... مع أنني الآن أبكي شفقة على الجنس البشري لأطيلن في ذلك اليوم عدلاً بدون رحمة لهؤلاء الذين يحتقرون كلامي ولا سيما أولئك الذين ينجسون إنجيلي» (برنابا ٥٨: ٢١ - ٢٢) وكما يشهد بولس بهذه الخيانة الفاضحة إذ يندد بهم: «إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً من الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر. ليس هو آخر. غير أنه يوجد قوم يزعمونكم ويريدون أن يحولوا إنجيل المسيح» (اغلا: ٦ - ٧)!

وهناك في الأناجيل اللاحقة لهذه الأصول الإنجيلية عندهم تصريحات تتجاوب معها، كـ «إنجيل السلام للمسيح» (١ ف ٦: ١٥) و«إنجيل الخلاص» (١ ف ١: ١٣) و«إنجيل الرب» (أول تسلو ٢: ٩).

وكذلك تصريحات أخرى من علماء المسيحية ومؤلفيهم، كـ «نارتن» حيث ينقل عن «اكهارن» وتذكر دائرة المعارف الإنجيلية إنجيل

(١) حينئذ قال التلاميذ: حقاً إن الله تكلم على لسانك لأنه لم يتكلم إنسان قط كما تتكلم؟ أجاب يسوع: صدقوني: إنه لما اختارني الله ليرسلني إلى بيت إسرائيل أعطاني كتاباً يشبه مرآة نقية نزلت إلى قلبي حتى أن كل ما أقول يصدر عن هذا الكتاب ومتى انتهى صدور ذلك الكتاب من فمي أصعد عن العالم، أجاب بطرس: يا معلم! هل ما تتكلم الآن به مكتوب في ذلك الكتاب؟ أجاب يسوع: إن كل ما أقوله لمعرفة الله ولخدمة الله ولمعرفة الإنسان ولخلاص الجنس البشري إنما هو جميعه صادر من ذلك الكتاب الذي هو إنجيلي (برنابا ١٦٨: ١ - ٥).

المسيح ﷺ في عداد خمسة وعشرين إنجيلاً<sup>(١)</sup> ويؤيده كتاب اكسهوموا<sup>(٢)</sup> و«اكهارن» وكثير من متأخري علماء النمسا، ومال إليه المحققون - «ليكلرك - كوب - ميكائلس - ليسنك - نيمير ومارش»<sup>(٣)</sup>.

### ٣ - ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا...﴾:

ترى كيف تأخرت النبوة عن إتيان الكتاب الذي يضم النبوة والرسالة كليهما؟ لأن النبوة للرسول هي الرفعة في رسالته. فهناك نبوة ثم رسالة ثم نبوة، فمن نبي ليس برسول ومن رسول ليس بنبي، وكما تتأخر النبوة الجامعة مع الرسالة عنها في سائر القرآن، تدليلاً على أنها أخص من الرسالة: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾<sup>(٤)</sup> ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾<sup>(٥)</sup> ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾<sup>(٦)</sup> ﴿فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾<sup>(٧)</sup> ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾<sup>(٨)</sup> فهذه النبوة السامية كسائر النبوات متدرجة من العبودية ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ إلى نبوة وحي ثم رسالة: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ ثم نبوة ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فبين النبوة والنبوة متوسط الرسالة، وكل من هذه الرحلات درجات حسب درجات النبوات.

(١) في المطبوعة ١٣ ص ١٧٩ - ١٨٠ تحت عنوان: أبو كريفل لترينجر: خرافات الأديبات.  
(٢) ألفه حكيم بروتستاني يذكره في الباب ٥ من كتابه المطبوع ١٨١٣ م في لندن.  
(٣) راجع كتابنا «المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية» ص ٩ - ٦٠ تجد فيه تفاصيل الأناجيل.

(٤) سورة مريم، الآية: ٥١.

(٥) سورة مريم، الآية: ٥٤.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٧) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٨) سورة الحج، الآية: ٥٢.

ثم ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تحصر كيانه ككل في النبوة رفضاً لما سواها من ألوهية أو بنوة حقيقية أو تشريفية أمّاهيه مما يهرفه الخارفون حول السيد المسيح ﷺ من وراثه الألوهية أو النبوة!

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ بركة شاملة تكرر كيانه ككل، تسلب عن ساحته كل المثالب والمآلّب التي اختلقتة أيدي الدس والتجديف، ف﴿أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ تضرب إلى أعماق الماضي في أصلاب شامخة وأرحام مطهرة حيث تنقل من كل إلى أخرى وإلى أمه الطاهرة العذراء، ما يطهر ساحته في ماضيه وبأحرى حاله ومستقبله كما يشملها مثلث السلام، فلم تكن في هذا البين مقارنة محرمة على أية حال، ولا مقارفة لها في كل حلّ وترحال ومن مستقبله المجيد.

إنه لم يخلد بخلد مريم الطاهرة إلا رجاء الذود عن ساحة هذه الولادة، فإذا هي تجد وليدها: «جعلني نفاعاً للناس أين اتجهت»<sup>(١)</sup> ومعلماً ومؤدباً<sup>(٢)</sup>.

في بركة كاملة كافلة لكافة الأصلاب والأرحام التي تنفلا بينها. وذلك تعريض عريض على كل التقولات الكتابية في عهدي القديم والجديد، مما تدنّس هذه الساحة المباركة بمن قبلها من ساحات النبوات وسواها من أصلاب وأرحام!

(١) الدر المشور ٤: ٢٧٠ - أخرج الإسماعيلي في معجمه وأبو نعيم في الحلية وابن لال في مكارم الأخلاق وابن مردويه وابن النجار في تاريخه عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ قول عيسى ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١] قال: جعلني .. وروي مثله في معاني الأخبار بإسناده إلى عبد الله بن جبلة عن رجل عن أبي عبد الله ﷺ قال: نفاعاً، وهذا تفسير بالمصداق الجلي.

(٢) المصدر أخرج ابن عدي وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في الآية...

### صحة الأناجيل خطر على قدسية المسيح ﷺ:

العهدان يتناصران في تبعيد المسيح ﷺ عن حزب الله ولا يسمحان له الدخول في جمعية الرب إذ يفتريان عليه أنه من جدود أربعة هم من أولاد زنا - وعوداً بالله!

موآب - فارص - بن عمي - سليمان:

هؤلاء الأربعة من أجداد المسيح حسب الإنجيل، تجد كلهم من أولاد الزنا حسب الكتابات المقدسة!:

«موآب»: «عوبيد جد داود النبي أمه روث» (متى ١ : ٥ - ٦) وهي من نسل موآب، والمسيح من نسل داود من سليمان (متى ١ : ١) فموآب أحد أجداد المسيح وداود وسليمان.

«بن عمي»: رحبعام بن سليمان من أجداد المسيح (متى ١ : ٧) أمه من نسل بن عمي (املوك ١٤ : ٢١).

«فارص»: وهو أيضاً في سلسلة أجداد المسيح (متى ١ : ١ - ٤) ونحن نجد هؤلاء الثلاثة وسليمان في التوراة من ولد الزنا! فموآب وبن عمي هما ابنا لوط حيث زنى ببنتيه سكراناً فولد من الكبرى موآب، ومن الصغرى بن عمي، وهما يرأسان سلسلتي موآب وبن عمي (تكوين ١٩ : ٣٠ : ٣٨) - .

وفارص أو برص ولد من زنا من «تامار» حليمة ابن يهودا حيث زنى بها فولدت فارص وزارح توأمين (تكوين ٣٨ : ٦ - ٣٠) وسليمان من ولد «بت شبع» امرأة أو ريباً حيث زنى بها داود النبي (متى ١ : ٦) وحاشاه.

فداود وسليمان والمسيح هم أولاد زنى - وعوداً بالله - من المحارم، نتيجة تجاوز العهدين في عرض نسبهم، ثم التوراة تأتي بتصريحات تخرج المسيح وهؤلاء من حزب الله ولا تأذن لهم الدخول في جمعية الرب! .

... «لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب، حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب. لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر. لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد... لا تلمس سلامهم ولا خيرهم كل أيامك إلى الأبد» (تشية ٢٣: ٢ - ٣ و٦)!

إذاً فلا خير في مسيح الإنجيل ولا يدخل في جماعة الرب فضلاً عن أن يرأسهم - لا يدخل: نهياً أو إخباراً - هو وكل ولد زنى ولا سيما الموآبين وبن عمين وهو منهما! فكيف يعتبر نبياً عظيماً من أولي العزم أو ابناً لله أم إلهاً متجسداً في الناسوت، هذا الإفك والبهت الزور في العهدين تجتثه مقالة مسيح القرآن. ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ - .

#### ٥ - ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾:

تلك هي وصية خاصة رابية على أمته، بالصلاة: أداء لها بنفسه وإقامة في أمته وكما في موسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾<sup>(١)</sup> وإبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾<sup>(٢)</sup> وإسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾<sup>(٣)</sup> وهذا النبي والذين معه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾<sup>(٤)</sup> ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾<sup>(٥)</sup> كما وأوحى إلى المرسلين أجمع: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ...﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة طه، الآية: ١٤ .

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٠ .

(٣) سورة مريم، الآية: ٥٥ .

(٤) سورة طه، الآية: ١٣٢ .

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥ .

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣ .

وقد تدل ﴿وَأَوْصِنِي﴾ في المسيح ﷺ إضافة إلى ما يعم المرسلين أنه ما كان إلا عبد الله، لا إلهاً أو ابنه وإلا فلمن كان يصلي؟!!

### ٦ - ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ...﴾:

جعلني براً بوالدتي ويا للعجاب أن يصبح البر بالوالدة من الميزات الرسالية وهو من النواميس العامة، والرسالة تتخطى براً بوالدتي أماذا من قبيله، وتختص بالميزة القمة التي لا تشارك فيها الأمة أم أدنى من القمة كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، دون البر بالوالدة، ولا نجد في سائر القرآن، يعتبره ميزة رسالية اللهم إلا بر الرحمة الإلهية: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾<sup>(١)</sup> وفي يحيى ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾<sup>(٢)</sup> ثم وآيات الإحسان بالوالدين تعم الأمم!

ولكن ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾ في المسيح تعني إيجابية البر بها التي لا أثر عنها في الكتابات الإنجيلية، وكما أن:

### ٧ - ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾:

تعني الذود عن ساحته ما مست منه هذه الكتابات أنه كان بها جباراً شقياً!.

## المسيح وأمه حسب الإنجيل:

نبدأ هنا بقصة قانا الجليل ما أسوأها لمريم وعيساها إذ تنسب إلى المسيح معجزة صناعة الخمر كأولى معجزاته التي دعت تلاميذه إلى الإيمان به، وذلك باستدعاء مريم وهو يهتكها في استدعائها رغم أنه يطبقها: «ولما

(١) سورة الطور، الآية: ٢٨.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٤.

فرغت الخمر قالت أم يسوع: ليس لهم خمر. قال لها يسوع: ما لي ولك يا امرأة لم تأت ساعتني بعد - ومن فوره يأتي ساعته قائلاً: املاً الاجران ماءً. . فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرًا. . .».

هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فأمن به تلاميذه! (يوحنا: ٢ - ١ : ١١). . فمسيح القصة يهتك أمه في كلمة لاذعة «ما لي ولك يا امرأة» رغم إجابتها من فورها لمأمولها كمعجزة أولى!

هذا - وقتكُ ثانٍ بها في قصة ثانية يتهمها فيها بعدم الإيمان: «إذ كان يكلم تلاميذه فجاء حينئذ إخوته وأمه ووقفوا خارجاً وأرسلوا إليه يدعونه وكان الجمع جالساً حوله فقالوا: هوذا أمك وإخوتك خارجاً يطلبونك.

فأجابهم قائلاً: من أمي وإخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها أمي وإخوتي لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي (مرقس ٣ : ٣١) «أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلام الله ويعملون بها» (لوقا ٨ : ١٩ - ٢١) (متى ١٢ : ٤٦ - ٥٠).

فيا لها من نسبة فاسقة كافرة إلى مريم وإخوته تمنعاً عن مكالمتها فرية عليها أنها تاركة للصالحات، وفي حين أنه يؤكد بالغ التوكيد باحترام الأمهات وأنه من النواميس العشرة التوراتية دون شرط الإيمان وهي الطاهرة المعصومة (متى ١٩ : ١٩) (مرقس ١٠ : ١٩) (لوقا ١٨ : ١٠) أفنقضاً للنواميس وتناقضاً بين القول والعمل بهذه المثابة. وتذليل الأبوين يخلف لعنة إلهية بتأمين شعب الله: «ملعون من يستخف بأبيه أو أمه ويقول جميع الشعب آمين» (تثنية ٢٧ : ١٦).

ثم هو في قصة ثالثة وهي عند صلبه! ينعزل عن بُنوتته لها ويهبها لمن يحبه من تلاميذه: (يوحنا) لتكون له أمًا: وكانت واقفات عند صليب يسوع

أمه وأخت مريم زوجه «كلوبا» و«مريم المجدلية». فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً قال لأمه: يا امرأة! هوذا ابنك. ثم قال للتلميذ: هوذا أمك. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته» (يوحنا ١٩: ٢٥ - ٢٧)!

هذا - ثم المختصر في علم اللاهوت العقائدي يحاول انجبار حالة مسيح الإنجيل الجبار العصبي»<sup>(١)</sup>!

هذه مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ ومسيح الجبار العصبي تجاهها حسب الإنجيل، ثم نجده وأمه حسب القرآن في أرفع مقامات العصمة والطهارة.

### مريم في القرآن:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

(١) تأليف لوديغ أوث ج ٢ ص ١١٢ - ١١٨ - يقول فيه: . . ومريم قد اكتسبت استحقات وافرة لا بكفاحها ضد الرغبات الحسية بل بمحبتها لله وبفضائلها الأخرى: الإيمان - التواضع - الطاعة: (انظر القديس توما ٣: ٢٧/٣: ٣ على الثاني). . . فعند تقديس مريم في أحشاء أمها قيدت الشهوات بحيث انتفت كل حركة حسية منحرفة، أما لدن الحمل بالمسيح فقد أخذت الشهوات إخماداً بحيث إن القوى الحسية صارت خاضعة كل الخضوع لقيادة العقل: (انظر القديس توماس ٣: ٢٧/٣: ٣). . . أعلن المجلس التريدينيني: «ما من بار يستطيع مدة حياته كلها أن يتحاشى كل الخطايا حتى العرضية إلا بامتياز خاص من الله كما تعتقد الكنيسة أنه الحال في الطوباوية العذراء.

(D 338) وقد قال البابا بيوس الثاني عشر في رسالته Mysticorporis عن العذراء أم الله: «بأنها كانت في عصمة من كل خطيئة شخصية أو وراثية» (D. ٢٢٩١) هذه العصمة هي متضمنة في نص لوقا (١: ٢٨) «السلام عليك يا ممثلة نعمة. . .» - كان الآباء اللاتين يجزمون بعصمة مريم من الخطيئة فيعلم القديس أوغسطينوس: إن كل خطيئة شخصية يجب أن تنتفي من العذراء مريم - والقديس أفرام يضع مريم البريئة من الدنس في مقام المسيح (انظر: ٣).



فَنَقَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنِ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِيءُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ (١).

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَمْرِيءُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيءُ أَفْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكِعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (٢) ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانٌ وَالْحَنِينُ ﴿٣١﴾﴾ (٣) وهكذا إلى: ٣٥ مرة تذكر في سائر القرآن!

### المسيح في القرآن:

إنه عبد الله ونبيه - جعله مباركاً أينما كان عبر الأصباب والأرحام وعبر حياته النيرة (١٩ : ٣٠ - ٣٢) ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ (٤) وإنما مقالته وحالته طول حياته ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٥) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٦) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٧) ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (٨).

وهو واحد من أولي العزم الخمسة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا

- (١) سورة آل عمران، الآيات: ٣٧-٣٥. (٢) سورة آل عمران، الآيات: ٤٢، ٤٣. (٣) سورة التحريم، الآية: ١٢. (٤) سورة النساء، الآية: ١٧٢. (٥) سورة آل عمران، الآية: ٥١. (٦) سورة آل عمران، الآية: ٥٩. (٧) سورة الزخرف، الآية: ٥٩. (٨) سورة المائدة، الآيات: ١١٦، ١١٧.

فِيءٍ... ﴿١﴾ وكتابه الإنجيل: (٣ : ٣ و ٤٨ و ٥ : ٤٦) وقد سماه الله بالمسيح ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ﴿٢﴾ وهو من شهداء الأعمال يوم القيامة» (٤ : ١٥٩) و(٥ : ١٨٧) ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٣﴾ ومن المصطفين المجتبيين الصالحين» (٣ : ٣٣ و ٦ : ٨٦ - ٨٧) وقد علّمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل» (٣ : ٤٨) وكان مبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ﷺ (٣ : ٤٨) ﴿وَمَا قَنَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن سُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَنَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ... ﴿٤﴾ وسيؤمن به أهل الكتاب قاطبة قبل موته: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ... ﴿٥﴾ وإلى (١١) مرة عيسى و(٢٥) مرة المسيح المذكورة في سائر القرآن، وتربوا مرة واحدة على أمه الطاهرة مريم ﷺ! .

#### ٨ - ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمٍ أَمُوتُ وَيَوْمٍ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿٣٣﴾ :

هنا في مثلث الولادة والموت وبعثه حياً بعد الموت دلالة شاملة على كيانه الإنساني فالرب لا يولد ولا يموت حتى يبعث حياً، وفي ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ دلالة على نكران صلبه فإنه قتلٌ وليس موتاً، ودلالة ثانية أنه يموت ولا يبقى حياً كما الله خلاف ما يهرفونه! .

ثم ومثلث الزمان هذا هو أهم دورات الحياة: سلام في الولادة عن رحم يولده من زنى، وعن أصلاب وأرحام الآباء القدامى والأمهات حتى آدم وزوجته، وسلام يوم يموت عن أية وصمة أو لعنة، خلاف ما اختلقه

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣ .

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١ .

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٥ .

(٤) سورة النساء، الآيتان: ١٥٧، ١٥٨ .

(٥) سورة النساء، الآية: ١٥٩ .

عليه جماعات من المسيحيين: أنه صُلب وبصلبه لُعِنَ تحملاً عن لعنة سريعة الناموس، ما يتقولونه عليه أنه أبطل شريعة العمل وحصر الشريعة في عدة عقائد خرافية، وما لعنة الصليب عندهم إلا فداء عما اقترفه المذنبون من أمته هتكاً لشريعة الناموس! . . وسلام ﴿وَيَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا﴾ عن كل وصمة إلا سمة العصمة والطهارة القمة!

﴿أُبْعِثُ حَيًّا﴾ في عيسى ﷺ ك ﴿يُبْعِثُ حَيًّا﴾ في يحيى يدل على أنه ممن شاء الله ألا تأخذه الصعقة الموت حين البعث كما قدمناه في يحيى ﷺ .

ومن قبل كان مثلث السلام على يحيى المبشر بالمسيح ﷺ كما «وبراً بوالدي» كتقدمه للمسيح أن ليس هو المسيح فقط براً بوالدته بل والمبشر به بر بوالديه! .

وترى أن «سلام» في ذلك المثلث من المسيح على نفسه، فيتفضل يحيى عليه إذ الله هو المسلم عليه؟ كلا! حيث المسيح وهو في المهد صبي ليس كلامه الخارق إلا وحياً من ربه ف «سلام علي» يعني سلام الله علي وكما أوحى الله إلي، إن الله سلمني ويسلمني في مثلث الزمان من كل ما لا يناسب ساحة رسالة سامية. ف «سلام» من «السلام» على المسيح «السلام» ﷺ دونما قيد أو شرط إلا: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ (١)!

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ :

﴿ذَلِكَ﴾ البعيد المحتد عما مسوا من كرامته في هذه الثمانية ﴿عِيسَى ابْنُ

(١) سورة مريم، الآيات: ٣٠-٣٢.

مَرِّمٌ ﴿ لا الذي تتحدث عنه هذه الكتابات المحرفة الزور والغرور - ﴿ذَلِكَ﴾ اعني ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ﴾ فيه لا نفسه ﴿الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾ لا ذاك، فرغم أن المسيح واحد كوناً، هو متناقض كياناً حسب القرآن والعهدين وأين مسيح من مسيح! .

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٥)  
 وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ :

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ و﴿مَا كَانَ لِلَّهِ...﴾ جملتان معترضتان تبعد كيان المسيح عما تقولوا عليه ثم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي...﴾ هو البند التاسع من كلام المسيح ﷺ في المهد صبيّاً .

نجده ﴿فَمَا كَانَ لَهُ﴾ في سائر القرآن نفي يضرب إلى أعماق الماضي تكويناً أو تشريعاً كإحالة لمدخولها، ولماذا الله يتخذ من ولد لنفسه حتى ولو أمكن وهو محال؟ ﴿سُبْحَانَهُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ ولادة ذاتية أم تشريفية أمأهيه، ف «من» جنس و«ما كان» ينفي ذلك الجنس أياً كان ولماذا؟ حيث ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ عادياً أم خارفاً العادة ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقوله هنا فعله بإرادته، والمخاطب تكويناً قد يكون شيئاً يتحول إلى شيء آخر عادياً كسائر الولادات، أم خارق العادة كما في آدم والمسيح، أم لا يكون شيئاً فعلياً كالمادة الأولية وأول ما خلق الله فهنا المخاطب غيره هناك، حيث التكوين هنا إيجاد لا من شيء، لا من لا شيء، كما أنه هناك إيجاد من شيء، والأشياء بجنب الإرادة التكوينية ثلاثة :

١ - لا شيء بالفعل، وبالإمكان أن يوجد شيئاً، فبعلاقة الأول يسمى قبل شيئه شيئاً .

٢ - لا شيء ولا يمكن في المصلحة الإلهية أن يوجد شيئاً، فبعلاقة الإمكان يسمى شيئاً .

٣ - شيء يجوز تحويله إلى غير شيء عادياً أم خارق العادة وهو الشيء حقيقة، وأما المستحيل ذاتياً فليس يسمى شيئاً حتى تتعلق به القدرة و﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من تلكم الثلاث «قدير» لا على اللاشيء الذي لا يستحق الشيئية ولا تمكن فيه ذاتياً! (١).

فكلما أن الله تعالى قضى خلق آدم من تراب دون أب وأم، كذلك قضى خلق المسيح دون أب مع أم وهو أهون عليه و﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢).

إن الحاجة إلى الولد تنسياً من الوالد مستحيلة على الله إذ لا أجزاء له، وإلى اتخاذ الولد خروجاً عن الوحدة، وسنداً في الوحشة مستحيلة لعدم الحاجة، فلماذا يتخذ ولداً سبحانه وهو مستحيل على ساحته ذاتياً وفي صفاته وفعاله؟ ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾!

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ...﴾ تشبه الآية الإنجيلية «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم»... : خالقي وخالقكم، ولكنهم تغامضوا عن مد الأب حيث يعني الخالق في لغته اليونانية وفسروه بالأب، وقد جيئت بنصها في آل عمران والزخرف! . إذا فهي معطوفة على ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ...﴾ والايتمان قبلها معترضتان، وأصبحت البنود التسعة من كلامه اعترافاً بعبوديته بداية ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ...﴾ ونهاية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ خير بداية وخير ختام.

### «متى أرسل بالإنجيل وصار نبياً؟»:

أترى بعد ذلك كله أن المسيح ﷺ آتاه الله الإنجيل وجعله نبياً وهو في المهد صبياً؟ ولم تُنقل عنه ولا شطر كلمة رسالية حين صباه إلى كهولته

(١) راجع ج ٢٩ من الفرقان - كلام في القدرة من أول سورة المُلْك .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩ .

إلا هذه المعرفة لكيانه الرسالي والذائدة عن أمه الطاهرة؟ إن تكليمه الرسالي بداية وهو في المهد - ومن ثم منذ الكهولة حتى صعوده ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١) ﴿إِذْ أَيْدُتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا...﴾ (٢).

فقد كان مؤيداً بروح القدس إذ يكلم الناس في المهد وكهلاً، ولم يقل من المهد إلى الكهولة، وإنما ﴿فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا...﴾ مما يختص تكليمه في الحالين دون ما بينهما، فتكليمه في المهد يكرس أبناء رسالته كهلاً ويزود عن أمه وقد سئل الرسول ﷺ «فما شأنك لم تتكلم بالحكمة حين خرجت من بطن أمك كما تكلم عيسى ابن مريم على زعمك وقد كنت نبياً قبل ذلك؟ فقال النبي ﷺ: إنه ليس أمري كأمر عيسى ابن مريم إن عيسى ابن مريم خلقه الله ﷻ من أم ليس له أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم ولو أن عيسى حين خرج من أمه لم ينطق بالحكمة لم يكن لأمه عذر عند الناس وقد أتت به من غير أب وكانوا يأخذونها كما يؤخذ مثلها من المحصنات فجعل الله ﷻ منطقه عذراً لأمه» (٣).

فقد «كان يومئذ نبياً حجة لله غير مرسل» (٤) حيث تنبأ نبأ الوحي ولما

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٣٦ ح ٧٦ في كتاب علل الشرائع عن وهب اليماني قال: إن يهودياً سأل النبي ﷺ فقال: يا محمد! كنت في أم الكتاب نبياً قبل أن يخلق آدم ﷻ؟ قال: نعم - قال: وهؤلاء أصحابك المؤمنون مثبتون معك قبل أن يخلقوا؟ قال: نعم - قال: فما شأنك... أقول يعني به ثبوت النبوة في علم الله وفي الإيمان به من النبيين أجمع قبل أن يُخلق ويبعث، فعلى هذه السابقة الشريفة المنقطعة النظير فما شأنك... وقد بحثنا عن نبوءته قبل رسالته في «الضحى» نبوءة ونبوة غير ظاهرة الرسالة، لم يؤمر بها قبل الأربعين كما لم يوح إليه القرآن قبله.

(٤) المصدر ٣٣٣ ح ٦٦ في أصول الكافي بإسناده إلى أبي جعفر الكناسي قال: سألت أبا جعفر ﷺ أكان عيسى ابن مريم حين يكلم في المهد حجة الله على أهل زمانه؟ فقال: كان =

أرسل بكتاب، وما كلامه عن كتابه ووصيته بالصلاة والزكاة ما دام حياً وبراً  
بوالديه، إلا أنباءً لمستقبل أمره، فكتابه الرسالي هو منذ كهولته، وصلاته  
وزكاته وبره منذ بلوغه أو غلمته وأما عبوديته لله فمنذ ولادته.

ولو كان رسولاً حجة على الخلق أجمعين منذ تكلمه في المهد لكان  
حجة على زكريا ويحيى، وإنما «كان في تلك الحال آية لله ورحمة من الله  
لمريم حين يكلم فعبر عنها وكان نبياً حجة على من سمع كلامه في تلك  
الحال»<sup>(١)</sup> دون الخلق أجمعين فضلاً عن زكريا ويحيى!

وهذه الكرامة الإلهية للمسيح تفسح مجالاً لتصديق كرامات أخرى  
لآخرين من أوليائه الصالحين كما للبعض من أئمتنا المعصومين في مظاهر  
أمرهم<sup>(٢)</sup> وإن كان كلهم أصحاب هذه الكرامات منذ ولادتهم!

= يومئذ نبياً حجة لله غير مرسل أما تسمع لقوله حين قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَلْنِي ٱلْكِتَآبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا  
وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوةِ وَٱلزَّكوةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣١] قلت:  
فكان يومئذ حجة الله على زكريا في تلك الحال وهو في المهد؟ فقال: كان عيسى في تلك  
الحال آية لله ورحمة من الله لمريم حين يكلم فعبر عنها وكان نبياً حجة على من سمع كلامه في  
تلك الحال، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سنتان وكان زكريا الحجة لله ﷺ بعد صمت  
عيسى بستين ثم مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير أما تسمع  
لقوله ﷺ: ﴿يَيَّحِي خُذِ ٱلْكِتَآبَ بِقُوَّةٍ وَّءَاتَيْنَهُ ٱلْحِكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] فلما بلغ سبع سنين  
تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى الله إليه فكان عيسى الحجة على يحيى وعلى الناس أجمعين  
وليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجة لله على الناس منذ يوم خلق الله آدم ﷺ  
وأسكنه الأرض».

(١) المصدر.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٣٤ ح ٦٧ - عن أصول الكافي عن صفوان بن يحيى قال: قلت للرضا ﷺ  
قد كنا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر فكنت تقول: يهب الله لي غلاماً، فقد وهب الله  
لك فقر عيوننا فلا أرانا الله يومك فإن كان كون فإلى متى؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر ﷺ  
وهو قائم بين يديه فقلت: جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين! قال: وما يضره من ذلك شيء قد  
قام عيسى ﷺ بالحجة وهو ابن ثلاث سنين وفي نقل آخر عنه ﷺ: إن الله تبارك وتعالى  
بعث عيسى ابن مريم رسولاً نبياً صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه أبو  
جعفر ﷺ.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢٧):

اختلفوا في كل من هذه البنود الثمانية، في ١ - عبوديته، ٢ - وكتابه، ٣ - ونبوته، ٤ - وبركته، ٥ - وصلاته وزكاته، ٦ - وبره بوالدته، ٧ - وإن لم يكن جباراً شقيماً! ٨ - والسلام عليه.

ففي كونه عبداً وهو أهم كونه اختلفوا من بينهم بين مثلثين (١) ومريميين ثنوية (٢) أو مثلثين (٣) ومؤلهي المسيح كإله واحد (٤)، غصاً عن ألوهية الله وموحدين حقيقيين وقليل ما هم (٥) وكما اختلفوا في ولادته وحياته وموته، وفي كتابه وشريعته أماذا من كيانه وأمه!.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عن القول الحق في المسيح ﷺ ﴿مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أوله يوم الرجعة حيث ينزل المسيح ﷺ وثانيه يوم الموت، وثالثه يوم القيامة وهي أيام الله وإن كان الأخير أعظمها! -:

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨):

= أقول: الرسالة الفعلية للمسيح ﷺ منذ ثلاث من عمره لا يصدقها تاريخ رسالته ولا القرآن، بل و﴿وَكَهَلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] في آيته لعله يعارضها، إضافة إلى الحديث السابق حيث بدأ رسالته من السبع، فلا يصدق من هذه الروايات إلا ما يصدق القرآن أو لا يكذبه والله أعلم. (١) ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

(٢) ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ لِلنَّاسِ لِحُذُونِي وَأُمِّي الْهَيْبَتِي مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ [المائدة: ١١٦].

(٣) في اللاهوت العقائدي ج ٢ ص ١٠٨ لمؤلفه لوديغ أوث «إن مريم هي حقاً أم الله تقول الكنيسة في قانون الرسل بأن ابن الله ولد من مريم العذراء فهي أم الله من حيث هي أم ابن الله.

(٤) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ [المائدة: ١٧] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

(٥) هم الثلثان من أعضاء نيقية الموحدون حيث اضطهدوا بالثلث غير الموحدين وبآتي تفصيله بطيات آياته.



﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ فرادى و﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ جماعات يومي الموت والقيامة الكبرى ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾: ما أسمعهم وأبصرهم بالحق فيهما بعدما عاشوا صمًا وبكمًا في الظلمات يوم الدنيا، فلا ينفعهم ما يسمعون من الحق وما يبصرون إذ قضى الأمر ولات حين مناص، فليقولوا حاسرين ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿لَكِنَّ الظَّالِمُونَ﴾ إذ ظلموا في صممهم وعماهم عامدين ﴿الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في ضلال هناك نتيجة ضلالهم هنا، عن رحمة الله، فقد تناسوا في اليوم الأول غده ثم ليس لليوم الآخر غد يقدمون له! .

ثم الحق الذي يسمعونه ويبصرون هو كل الحق، ما تركوه وكذبوا به، وما خلّفه تكذيبهم، حيث السمع والبصر هنالك حديد: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد يشمل ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أمر الرسول ﷺ كشهيد الشهداء أن يجعل سائر أهل الحشر يسمعون ويبصرون<sup>(٣)</sup> حالة هؤلاء الظالمين النكدة، إذا ف «اسمع» جامعة هنا بين الأمر وأفعل التعجب، ولا يعني العجاب هنا إلا أنه موضعه لمن يعجب دون الله سبحانه فإنه ليس ليعجب! .

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٣٩)</sup> :

﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ هو يوما الموت والقيامة الكبرى حسرة على الظالمين: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً

(١) سورة السجدة، الآية: ١٢ .

(٢) سورة ق، الآية: ٢٢ .

(٣) و﴿بِهِمْ﴾ [الكهف: ٣٨] اعتباراً بأفعل التعجب دون الأمر فإنه متعدٍ بنفسه .

(٤) سورة الزمر، الآية: ٥٦ .

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٧ .

قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا<sup>(١)</sup> لذلك فهو لهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أمر التكليف ومجال التوبة عما أترفوا فيه، فلا حسرة عما مضى إن كان هنالك انجبار يصلح ما يأتي.

وقد يعني يوم الحسرة هنا فقط يوم الموت ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حيث البرزخ ليس يوم الغفلة ولا يوم الإيمان حتى يُنذدوا بعدم الإيمان، اللهم إلا لمن يجمع يوميه ظالماً وهو الذي يموت بالنفخة الأولى ويحيا بالثانية وهم قلة قليلة أمام جمع الظالمين المحشورين، فمهما كان يوم القيامة الكبرى هو يوم الحسرة الكبرى ولكن ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يختصه هنا بالقيامة الصغرى، اللهم إلا أن يعتبر اليومان واحداً هما ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ف ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني بداية يوم الحسرة وهو القيامة الصغرى، وقد يعني ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ - فيما يعني - قضاء أمر الموت<sup>(٢)</sup> لأهل الجنة تماماً، ولأهل النار ما داموا هم في النار.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

(٢) الدر المشور ٤: ٣٧١ - أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة! هل تعرفون هذا؟ فيشرفون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرفون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيؤمر به فيذبح فيقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مریم: ٣٩] وأشار بيده وقال: أهل الدنيا في غفلة» وفي تفسير القمي أبو ولاد الحنطاط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قال: - وذكر مثله إلى قوله: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت أبداً ويا أهل النار خلود فلا موت أبداً وهو قوله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: قضي على أهل الجنة بالخلود فيها وقضي على أهل النار بالخلود فيها.

أقول: يختلف الخلودان والأبدان في الخلودين في الحديثين، فالخالدون في الجنة لا يموتون أبداً فإنها ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُونٍ﴾ [هود: ١٠٨] والخالدون في النار منهم من يخرج إلى الجنة =

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٤٠):

تأكيدات أربع «إن - نا - نحن - نرث» تدليلاً صارماً على وراثة الأرض ومن عليها لله الواحد القهار، ومن ثم ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾. إنه لا وارث لله من ولد يتخذه مسيحاً أم سواه، بل هو الوارث للأرض ومن عليها مسيحاً وسواه. لقد ملكنا ربنا أنفسنا والأرض محنة التكامل بالاختيار ومهنته بما هبانا من وسائل وأسباب، ملكاً عرضياً مؤقتاً لذلك الهدف الأسمى، دون ملك حقيقي فإنه لزام ربوبيته دون انتقال، ثم الله ينشئ النشأة الأخرى حيث تزول هذه الملكية العرضية فهو الوارث لما ملكه من ﴿الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ فإنهم ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فلا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلا ما قدموه يوم الدنيا ﴿لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١) فهم منذ موتهم حتى الأبد معزولون عما ملكوا يوم الدنيا ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢) ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣)!



= فلا يموت كسائر أهل الجنة، ومنهم من يظل في النار ما دامت النار فلا موت إذاً في النار، وأما الفناء بفناء النار فلا ينافي الخلود ولا أبده في النار، فأبد الخلود في النار يقدر بقدر أبد النار كما الجنة بالجنة - راجع ج ٣٠ تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبي: ٢٣] وسورة الإسراء من هذا التفسير ففيه بحث فصل حول الخالدين في النار.

(١) سورة غافر، الآية: ١٦.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ :

نجد «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ ٦٩ مرة في الذكر الحكيم، وأصله العبراني أبراهام - أو - أب رام، يعني: أبا جماعة كثيرة، وكما في التوراة: التكوين ١٧ : ٢٠ :  
«وَلِيَشْمَعِيلَ شَمَعْتِي خَا هَيْتَهُ بَرَخْتِي اوتو وَهَيْفَرْتِي اوتو وَهَيْرَبْتِي اوتو  
بِمُتْدَمُتْد شَنِيم عَاسَار نَسِيئِيم يُولَدُ وَتُتَبُو لُغُوِي غَاذُل» .

«ولإسماعيل سمعته (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيراً وأنميه وأثمره كثيراً وأرفع مقامه كثيراً بمحمد واثنى عشر إماماً يلداهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة»<sup>(١)</sup> .

(١) راجع كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا صِدِّيقًا﴾: كثير الصدق ومبالغه في تطابق حاله وأقواله وأفعاله في حلّه وترحاله ﴿بَيِّنًا﴾: رفيع المنزلة بين الصديقين فإنهم بين ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ . . .﴾ (١) ثم معصوم لا رسول ولا خليفة رسول كمریم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ (٢) ثم خلفاء الرسول المعصومين ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّٰدِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّٰلِحِينَ﴾ (٣) ثم الرسل ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤) ﴿٥١﴾ ﴿٥﴾ و﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّٰدِقُونَ . . .﴾ (٥) إبراهيم نبي: رفيع المنزلة بين الصديقين الرسل فضلاً عن سواهم، وقد يكفي ﴿بَيِّنًا﴾ تدليلاً على رفعة بين الرسل، إلا أن صديقاً يضيف إليه نبوة بين الصديقين الرسل فضلاً عن سواهم، ومن نبوته الصديق حوار الصارم مع أبيه حيث لم يجرفه جو الربوة والتربية الشركية، فلم يزلله عن موقفه الصارم في التوحيد ودعوته.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٦):

أبوه هذا ليس الأب الوالد، بل هو عمّه أم جد لأمه، فكان يربيه كأب منذ طفولته إذ مات والده، وهنا يوبخه باحترام ودونما احترام: ﴿يَتَأْتِ﴾ (٦)! سائلاً عنه السبب لعبادته الأوثان من دون الله، وأقله أن تسمع أو تبصر، ومن ثم تغني وتكفي عنه شيئاً، وأكثره أن يكون الخالق الكامل الكافل لكل ما يحتاجه عبده، ولا تملك الأوثان كثيراً ولا قليلاً مما يسبب عبودتها،

(١) سورة الحديد، الآية: ١٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٤) سورة مريم، الآية: ٥٦.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٤٦.

(٦) الدر المثور ٤: ٢٧٢ - أخرج أبو نعيم والدلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: حق الوالد على ولده ألا يسميه إلا بما سمى إبراهيم أباه: يا أبت - ولا يسميه باسمه - أقول هذا لا يدل على أن أباه كان والده حيث الاحترام للوالد ومن هو بمنزلة كالعَم والجَد.

والرب يكون مع عبده يراعيه: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (١) ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٢).

﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (٣):

إنه لا بد للجاهل متابعة العالم ولا سيما الذي جاءه من العلم ما جاء إبراهيم من علم الملكوت وحيًا إضافة إلى علمه الفطري الناضج وآزر يحرم العلمين قصوراً عامداً وتقصيراً!.

وليست الهداية إلى صراط سوي دونما عرج ولا حرج ولا عوج إلا على ضوء علم يأتي الإنسان من الله ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ حيث العلم الداخل من فطرة وعقل، أو مكتسب كما الداخل من غير الله، هذا العلم ليس معصوماً عن خطأ مهما أصاب، فلا يصيب الصراط السوي الا على ضوء العلم الخارج وحيًا!.

﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (٤) ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (٥):

أترى بعد ما يندد به لأنه يعبد ما لا يسمع ولا يبصر، كيف ينهاه هنا عن عبادة الشيطان واسمع به وابصر؟! وإن كان لا يغني عنه شيئاً؟ علّه لا يعني من عبادة الشيطان اتخاذه معبوداً كما الله، وإنما طاعته المطلقة كأنه معبود ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٦).

فما لم تكن هنا طاعة مطلقة للشيطان فكيف يتبع فيما ليس له من سلطان أن تعبد من دون الله أو ثان لا تسمع ولا تبصر ولا تعني شيئاً؟ فلو أن

(١) سورة طه، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٦٢.

(٣) سورة يس، الآية: ٦٠.

الشیطان كان مطيعاً للرحمن لم تحقق له العبادة ومطلق الطاعة، كيف وقد ﴿كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فالرحمن الذي منه الرحمة العامة لكل كائن كيف يترك إلى الشيطان وهو عصيُّ الرحمن، يبدل رحمته نقمة وهده ضللاً.

وترى إذ كان أبوه يعبد الشيطان فكيف يخاف عليه أن يمسه عذاب من الرحمن فيكون ولياً للشيطان، ومس العذاب وولاية الشيطان لزامان لمن يعبد الشيطان؟ والخوف يلمح بتردد راجح!.

في ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ لمحة أن إبراهيم عليه السلام لما يعرف حتى الآن أن أباه عدو للرحمن، فكأنه مستضعف جاهل أو يحتمله، كما وأن ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ لمحة أخرى تؤيدها أنه لم يكن يعلم آنذاك ولايته المعقدة المعاندة الحق للشيطان، ومن ثم ﴿وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أيدت تلك اللمحة فأعذرت إبراهيم في وعد الاستغفار وتحقيقه!.

ثم الإنسان ولي لمن والاه في الآخرة كما الأولى والله الآخرة والأولى. وهذه الدعوة اللطيفة الخفيفة بقاطع البرهان وأرق الألفاظ وأدقها لم تكن لتصل إلى قلب خاويهاو فإذا بأزر في عريضة نكراء وطنطنة غوغاء.

﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (٤٦):

فلم يكن لولي الشيطان جواب إلا سؤال التنديد الشديد: ﴿أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمْ﴾؟ رغبة عما أعبده وأنا أبوك وهي آلهتي ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَه﴾ عن هذه الرغبة المعارضة ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ إذ كان الرجم شر عذاب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمَنَّكَ﴾ (١) ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَرَجَمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢) ﴿وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ فاعزب عن محاورتي واغرب عن مواجهتي طويلاً! فالتلمي بشيء هو التمتع به بملاوة من دهر، وهناك شع له الرجاء بعد الخوف والعناء

(١) سورة هود، الآية: ٩١.

(٢) سورة يس، الآية: ١٨.

كأن أباه يتمهل بالهجر الملي أن يفكر ملياً علّه يخرج عن غيّه، وذلك تمهلاً وشك مقدس أم إلى قداسة ولذلك يسلم عليه إبراهيم ويعده الاستغفار إذ:

﴿قَالَ سَلِمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿١٧﴾﴾:

هناك يسلم عليه ويعده الاستغفار ولما، ولماذا السلام على المشرك ووعده الاستغفار؟ و﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾﴾!

الجواب - ﴿وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴿٢﴾﴾ . . . ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ هنا تبين أنه استغفر له قبل التبيين ف ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ لا تعني إلا موعدة آزر لإبراهيم حيث ترجى فيها هداه، فلم يتبين له أنه عدو لله رغم ما تقدم من عداه، ولا مجال لتفهم هذه الموعدة في القرآن إلا ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ فلو أنه كان مصرّاً في عداه لكان يرحمه أو يلزمه. كي لا ينشر دعوته ضد الآلهة، إذاً ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ تمتعاً بملاوة من الدهر، يرجيه بموعدة التفكير ملياً علّه يهتدي، أم يقول كلمته الأخيرة بعد مليّ التفكير، لذلك يسلم عليه إخباراً أنه سوف لا يرى منه سوء، ودعاءً أن الله يوفقه في هجرة الملي لهده، ثم يعده الاستغفار موعدة عن موعدة فاستغفر له بعد ملي لم ير منه ما كان يسمعه ويراه من عداه: ﴿وَأَغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٣﴾﴾ ف ﴿كَانَ﴾ هنا تضرب إلى ماضي حاله، وأما حاله ومنذ موعده ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ فلم تبين له أنها استمرارية ضلاله، ولذلك يستغفر له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فلم يعد يستغفر لأبيه وإن استغفر لوالديه في نهاية أمره وخاتمة عمره عند بناء

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٨٦.



البيت، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾<sup>(١)</sup> فلو أن والده أبوه لأصبح كلام الله ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ كذباً، وأصبح إبراهيم رسول الله عاصياً إذ «لم يتبرأ منه»!

إذاً فأبوه - هنا - لم يكن والده، ولم يستغفر لأبيه إلا عن موعده لم يتبين فيها أنه عدو لله فساحته إذاً براء عن الاستغفار للمشارك على تبين عداه، فإنما لا يجوز الاستغفار لمن تبين أنه عدو لله فهو من أصحاب الجحيم، دون المشكوك هداه وعدها.

إذاً فالاستغفار جائز لمن يجوز له أن يُغفر وإن كانت حالته الحاضرة كافرًا لا تُغفر إذ يجوز تحوله في مستقبل قبل أن يأخذه الأجل فيجوز له أن يغفر. وأما الذي تبين أنه من أصحاب الجحيم، إذ مات مشركاً فلا يستغفر له، لأنه تحميل على الله ما ليس ليقبله أو هزء به!

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ إذ وعدتني في هجري الملي خيراً ولـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَفِيًّا﴾: براً لطيفاً، فالحفاوة الربانية تقتضي غفرك بما أستغفر لك، وهي لا تقتضي غفراً لأصحاب الجحيم..

فقد كان إبراهيم معذوراً في استغفاره لأبيه خطأ في موضوعه لا في حكمه وموضوعه، فلم تكن الأسوة الحسنة فيه تشمل خطأه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾<sup>(٢)</sup> ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ...﴾<sup>(٣)</sup>.

وترى السلام على المشرك هل يجوز حال شركه مهما جاز الاستغفار له قبل أن يتبين كونه من أصحاب الجحيم؟.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ قد يعني الإخبار أن لا يصلحك مني إلا سلام عدل أم فضل دونما ظلم ولا نقير، وهكذا سلام واجب كل مؤمن وجاه الآخرين أياً كانوا، مقالاً وحالاً وأفعالاً.

وقد يعني الدعاء أن يسلمك الله وينزل عليك رحمته السلام، وهذا لا يحق إلا لمن يستحق سلاماً من الله من مسلم لله آمن هو في سبيل الإسلام أو مشكوك حاله ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَّبَعَ الْهُدَى﴾<sup>(١)</sup> وأما المقطوع انقطاعه عن الله، الشريد عن الله، والطريد عن رحمه الله، فلا يستحق سلاماً كما الاستغفار.

وكما جاز وعد الاستغفار لأبيه إذ لم يتبين له أنه عدو لله، كذلك السلام ولا سيما في مواجهة الدعوة إلى الله، حيث تجلب المدعو بحنانه إلى الله، وحتى إذا تبين أنه عدو لله، فسلام عليك بمعنى الإخبار لا محذور فيه! ﴿وَقِيلَ يَا يَرْبِ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ<sup>(٣)</sup> ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلِّمًا﴾<sup>(٥)</sup>.

إذاً فسلام الإخبار عام لا محذور فيه، وسلام الدعاء يخص غير من تبين أنه من أصحاب الجحيم، كدعاء الهداية والاستغفار، مهما كان في حاضره من الكفار.

والقول إن جواز السلام على الكفار لعله شرعة إبراهيمية ليست في الإسلام كما وعديد من الأحاديث تمنعه، جوابه أنه لم ينسخه القرآن. بل وأيده: «وقل سلام - سلام عليكم - قالوا سلاماً» وهذه الأحاديث مطروحة

(١) سورة طه، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الزخرف، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٥.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

بمخالفة القرآن، أو مؤولة إلى سلام الدعاء، المحذور على من تبين أنه من أصحاب الجحيم، دون سلام الإخبار، والسلام! .

﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي

شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ :

وترى كيف يعتزل صاحب الدعوة الرسالية مرسلًا إليهم ويدعو ربه بعيداً عنهم؟ إنه اعتزال عنهم وما يدعون من دون الله! فإذا يهدده المرسل إليه «لأرجمنك» وفي إمكانيته رحمه، ثم يطلب إليه هجره ملياً في لمحة إمهاله عليه يفكر ويرجع عن غيئه، وإلا فليعيش في جوّ الإشراك بالله دونما فائدة إلا ظلامه القرب من الأوثان، فالاعتزال إذا واجب أو راجح ذو أبعاد ثلاثة، وفيه ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ وعله يخفف عن وطأة الشرك في أبيه أو يهديه ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ هجر ملي ودعاء غير شقي ورب حفي وهنالك تتم وهبة الرحمة الربانية بلسان صدق علي ف «رحم الله عبداً طلب من الله ﷻ حاجة فآلح في الدعاء استُجيب له أو لم يستجب...» (١).

﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا

﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ :

أترى أن إسحاق هو بكر مواليد إبراهيم فيفرد بذكره هنا؟ أم هو إسماعيل كما يتقدم عليه فيما يذكران (٢)؟ بكره هو إسماعيل لتقدمه حيث

(١) نور الثقلين ٣: ٣٣٩ ح ٨٦ في أصول الكافي عن ابن قداح عن أبي عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: . . . وتلا هذه الآية.

(٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١٤٠] و٣: ٨٤ و٤: ١٦٣ و٢: ١٣٣ و١٣٦.

يذكران، وقد يفرد بذكر إسحاق حيث المقام مقامه والأنبياء الإسرائيليين<sup>(١)</sup> وهنا كأمثاله يقتصر على ذكره حيث الهدف ذكر توالي النبوة في الشجرة الإسرائيلية ولذلك يعقبه بـيعقوب ابنه دون إسماعيل أخيه، كما قد يذكر إسماعيل وحده دون إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(٢)</sup> حيث المقام يخصه دونه، وحين يجتمعان يتقدمه إسماعيل دونما استثناء! وفي التوراة تصديق أن إسماعيل بكر ولده<sup>(٣)</sup>.

﴿وَكَلَّمَ﴾ من إسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ رسولاً رفيع المنزلة بين الرسل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ من طيبة الولادة والعلم والعمل الصالح، رحمت متصلة بهم ومنفصلة عنهم، ومن الثانية ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ وهو إجابة لدعوته: ﴿وَأَجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾<sup>(٤)</sup> وما الآخرون في البيئة الرسالية الصادقة إلا محمد وعترته المعصومون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهم إذاً لسان صدقه العلي!

هنا وإن لم يذكر إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ لم يكن المقام محله، فقد ذكر عالياً في لمحة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ حيث الآخرون هم من نسل إسماعيل وهم لسان صدق لهم علي ينطق بالرسالة الصادقة والولاية الفائقة ما لم يسبق له مثيل.

- (١) ﴿كَمَا أَنَّمَا عَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يُوسُفُ: ٦] ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يُوسُفُ: ٣٨] ولا مجال هنا لذكر إسماعيل إذ ليس أبا يوسف وإنما عمه.
- (٢) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] ﴿وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨] ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].
- (٣) تكوين المخلوقات الأصحاح ١٦ - الآيات ١ - ٦ ومنها قول سارة زوجته «ادخل علي جاريتي لعلني أرزق منها بنين»<sup>(٢)</sup>.
- (٤) سورة الشعراء، الآية: ٨٤.

ولسان صدق من إضافة اللسان إلى أفضل حالاته وأشرف متصرفاته، وعلّ اللسان هنا لسانان: لسانهم الرسالي لأممهم، المبشر بلسان صدق في الآخرين كما بشروا في كتاباتهم بالرسول محمد ﷺ - ولسان آخر منفصل عنهم يصدقهم فيما أرسلوا وبشروا وهو محمد خاتم النبيين، لولا لسانه الصدق عنهم، المصدق لهم لما صدقنا رسالاتهم ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾<sup>(١)</sup> والخاتم هو المصدق آخر الكتاب، ومحمد يختم كتاب الرسالات ختاماً وتصديقاً ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ...﴾<sup>(٢)</sup>.

فهم - إبراهيم - إسحاق - يعقوب - لسان صدق علي، ولهم في الآخرين لسان صدق علي محمد ﷺ وعلي وعترتهما المعصومون وهم أعلى! فأين نبي من نبي وولي من ولي وعلي من علي؟ .  
وقد يعني ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمِنَا﴾ - في أهم ما يعنيه - أهل بيت الرسالة المحمدية، كما وأنهم لسان صدق علي<sup>(٣)</sup> «ولسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خير من المال يأكله ويورثه»<sup>(٤)</sup> أو «يورثه من لا يحمده»<sup>(٥)</sup>!

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٣٩ في تفسير القمي ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمِنَا﴾ [مريم: ٥٠] يعني لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿مِّن رَّحْمِنَا﴾: رسول الله ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يعني أمير المؤمنين حدثني بذلك أبي عن الحسن بن علي العسكري ﷺ .  
أقول: يعني أمير المؤمنين تفسير بمصداق مختلف فيه ليلحق بالمصداق المتفق عليه وهو الرسول ﷺ .

(٤) المصدر ح ٨٨ في أصول الكافي عن أبي عبد الله ﷺ قال: قال أمير المؤمنين ﷺ .

(٥) في نهج البلاغة قال ﷺ: إن اللسان الصالح يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه من لا يحمده.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْتُهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ :

المخلص - فتحاً - هو الذي أخلصه الله بعدما أخلص هو نفسه فأصبح مخلصاً لله، عصمة إلهية تجعل العصمة البشرية بالغة المدى لحد ينتج لرسالة، ونبوة إلهية، و﴿رَسُولًا نَبِيًّا﴾ مر بيانه وسطع برهانه.

﴿وَنَادَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْتُهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ :

﴿الْأَيْمَنِ﴾ هنا كما في ﴿وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾<sup>(١)</sup> صفة تفضيل لجانب، يعني الجانب الأيمن من الطور لا اليسار ولا اليمين، وليس صفة للطور حيث الأيمن في طه منصوب لا يناسب صفة للطور، وإنه لم يوصف في ثمان أخرى<sup>(٢)</sup> بالأيمن! ولأن الوحي يمن ويمين فمناذاته جانب الأيمن مكاناً كما هو الأيمن مكانة! أفضل اليمن واليمين.

ثم و«من» تقرر منفذ الوحي إليه في كلام يسمع فليكن في مكان كما

(١) سورة طه، الآية: ٨٠.

(٢) هي ٢: ٦٢ و ٩٣ و ٤: ١٥٤ و ٢٨: ٢٩ و ٤٦ و ٥٢: ١، وقد وصف مرة بسيناء ٢٣: ٢٠

وأخرى بسنين ٩٥: ٢.

الموحى إليه في مكان، مهما لم يكن للموحي المنادي مكان ولا زمان، حيث يخلق الكلام كما يخلق سائر الخلق، ولكنه كلام خارق سنّة الكلام في لفظه ومعناه حيث هما من الله دون مكلم بشري أو ملائكي أمن ذا؟ فكما الله خلق المسيح دون أب، وخلق آدم دون أبوين، كذلك الكلام الذي كَلَّم به كلمه خلقه دون لسان وشفه ومخرج صوت.

﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا...﴾:

﴿نَجِيًّا﴾ حال من المقرَّب وحال من المتقرب وعلى أية حال يعني النجوى كما يعني النجاة: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَاَصُوا نَجِيًّا﴾<sup>(١)</sup> اللهم إلا نجاة الله إذ لا يخاف حتى ينجو، فقد قربه ﴿نَجِيًّا﴾ هو عمن يبعدُه أو يشغله من أهله، وعمن يتربص به دائرة السوء كآل فرعون، ومن ثم ﴿نَجِيًّا﴾ في نجواه إليه وحياً، ونجوى موسى إلى ربه وقد يجمعهما ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾<sup>(٢)</sup> قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى<sup>(٢)</sup>.

ف ﴿نَجِيًّا﴾ هذا يجمع بين شرطي ذلك القرب، سلباً في نجى النجاة عمن سوى الله، وإيجاباً في نجى النجوى مع الله، وقد يشير إلى نجاته ﴿فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾<sup>(٣)</sup> - وإلى نجواه: ﴿وَأَنَا أَخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾<sup>(٤)</sup>!

وهل هناك نجى النجوى دون من إليه يوحى؟ أجل وقد يكون أجلّ وأجلى من بعض الرسل كأئمة الهدى<sup>(٥)</sup> حيث النجوى تعم الوحي والإلهام

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

(٢) سورة طه، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢.

(٤) سورة طه، الآية: ١٣.

(٥) نور الثقلين ٣: ٣٤٠ ج ٩٢ في بصائر الدرجات عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد =

بمراتبهما، فوحي النبوة يخص الأنبياء، وإذا ختم الوحي بختم النبوة فإلهام قد يكون أرقى من بعض الوحي كما كان يلهم إلى أئمة الهدى!

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ :

هارون! يا له من وهبة رحيمية ربانية لبلاغ الرسالة الموسوية ﴿نَبِيًّا﴾ :  
رسولاً رفيع المنزلة هبة باستدعائه واستعداده ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٥٤﴾ هَارُونَ أَخِي... قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾﴾ (١)!

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ :

لم يذكر إسماعيل في (١٢) موضعاً يذكر في القرآن، بمشروح أحواله إلا هنا، إلا شذراً أنه ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢) ﴿الْأَخْيَارِ﴾ (٣) ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤).

= الله ﷻ إن سلمة بن كهيل يروي في علي أشياء قال: ما هي؟ قلت: حدثني أن رسول الله ﷺ كان محاضر أهل الطائف وأنه خلا بعلي يوماً فقال رجل من أصحابه: عجباً لما نحن فيه من الشدة وإنه يناجي هذا الغلام مثل اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: ما أنا بمناج له إنما يناجي ربه فقال أبو عبد الله ﷺ: هذه أشياء يعرف بعضها من بعض أقول: يعني ﷺ أن هذه النجوى تعم أئمة الهدى ﷺ وفيه ح ٩٤ بإسناده إلى أبي رافع قال: لما دعا رسول الله ﷺ علياً يوم خيبر فتفل في عينيه ثم قال له: إذا أنت فتحتها فقف بين الناس فإن الله أمرني بذلك قال أبو رافع فمضى علي ﷺ وأنا معه فلما أصبح بخيبر وقف بين الناس وأطال الوقوف فقال الناس: إن علياً يناجي ربه، فلما مكث أمر بانتهاج المدينة التي افتتحها قال أبو رافع فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن علياً وقف بين الناس كما أمرته فقال قوم: الله ناجاه؟ فقال: نعم يا أبا رافع، إن الله ناجاه يوم الطائف ويوم عقبة تبوك ويوم خيبر. وفي رواية علي بن أعين عنه ﷺ في قصة الطائف.. فسمعنا صرير الرحا فقيل ما هذا يا رسول الله ﷺ؟! قال: إن الله يناجي علياً أقول وإذا يناجيه في حياة الرسول فبأحرى أن يناجيه بعد وفاته وهو وحده الرابط بينه وبين خلقه بالهامات متواصلة.

(١) سورة طه، الآيات: ٢٩ - ٣٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٥.

(٣) سورة ص، الآية: ٤٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٦.



فمن صبره وخيره ﴿قَالَ يَا بَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ﴾<sup>(١)</sup> كما وهو من صدق وعده ربه ومن ثم مع الخلق<sup>(٢)</sup> وحقيق له صدقه في صبره، وصبره في صدقه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾<sup>(٣)</sup>.

فإسماعيل هذا هو ابن إبراهيم عليه السلام جد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لا سواه وكما في سائر الاثني عشر موضعاً، فلو كان غيره لم يتفضل عليه بهذه الفضيلة ولقرنت به قرينة تميزه عن إسماعيل في سائر القرآن<sup>(٤)</sup>!

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾<sup>(٥)</sup>:

في مواصفات إسماعيل رسالة النبوة هي في القمة، وصدق الوعد والأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هي من أهم فروعها الرسالية، ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ تكريس لحالاته كلها، في نفسه وأهله ومن أرسل إليهم والناس أجمعين، كان في هذه كلها عند ربه مرضياً، وهي قمة المقامات عند الله مهما كانت لها درجات.

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٤٢ ح ٩٩ - أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنما سمي إسماعيل صادق الوعد لأنه وعد رجلاً في مكان فانتظره سنة فسماه الله عز وجل صادق الوعد ثم إن الرجل أتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل: ما زلت منتظراً لك! ورواه مثله في العيون عن أبي الحسن الرضا عليه السلام.

أقول: هذا الحديث في أن إسماعيل هو ابن إبراهيم ظاهره كظاهر القرآن، وأما انتظاره سنة فبعيد عن كافة الموازين حيث الوعد لا يتجاوز ساعات أو يوماً بكامله، وزائد الانتظار زائد في كل الموازين، ولا سيما لرسول نبي يترك دعوة الرسالة فيثبت في مكان الوعد سنة دونما جدوى حتى لمن لا شغل له.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٧٣ - أخرج مسلم عن وائلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة - أقول: كنانة من أجداد النبي صلى الله عليه وسلم.

(٤) نور الثقلين ٣: ٣٤٢ ح ١٠١ في كتاب علل الشرائع في باب العلة التي من أجلها سمي إسماعيل بن حزقيل صادق الوعد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن إسماعيل الذي قال الله عز وجل في كتابه: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ...﴾ [مريم: ٥٤] لم يكن إسماعيل بن إبراهيم بل كان نبياً من الأنبياء بعثه الله عز وجل إلى قومه فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه. . . أقول وهو لا يناسب ظاهر القرآن..

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ :

لم يذكر إدريس في سائر القرآن الا هنا وفي الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾. فله مواصفات أربع: صديق نبي من الصابرين ومرفوع إلى مكان علي.

تعرفنا من ذي قبل إلى «صديق نبي» لإبراهيم، وإن كان بينه وبين إدريس بون حيث الصديق النبي درجات، ولكنه قبل نوح يحتل المكانة العليا بين المرسلين<sup>(١)</sup> فلم يذكر بالنبوة أحد بين آدم ونوح وحتى آدم نفسه، إذاً فإدريس أفضل من آدم ومن بعده إلى نوح.

ثم ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ دليل معراجهِ ﷺ لمكان ﴿مَكَانًا﴾ دون مكانة، وقد عُرِفَتْ مكانته بـ ﴿صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ وقد يروى عن الرسول ﷺ أنه السماء الرابعة<sup>(٢)</sup> رفع إليها كما رفع عيسى ﷺ ويروى أنه كان خياطاً<sup>(٣)</sup>.

وإذ يرفع إدريس مكاناً علياً فقد رفع محمد ﷺ مكاناً أعلى إلى سدرة

(١) الدر المثور ٤ : ٢٧٤ - أخرج ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يرفع الحديث إلى النبي ﷺ قال: إن إدريس كان نبياً تقياً زكياً وكان يقسم دهره على نصفين: ثلاثة أيام يعلم الناس الخير وأربعة أيام يسيح في الأرض ويعبد الله مجتهداً وكان يصعد من عمله وحده إلى السماء من الخير مثل ما يصعد من جميع أعمال بني آدم. . . « وتتمة الحديث طويلة وكما هنا أحاديث أخرى فيها ما لا يناسب ساحة النبوة الصديقة.

(٢) المصدر أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ ورفعناه مكاناً علياً قال: في السماء الرابعة وعن أنس بن مالك عنه ﷺ مثله وفي نور الثقلين ٣ : ٣٤٩ ح ١٠٨ عن علل الشرائع بإسناده إلى عبد الله بن يزيد بن سلام أنه قال لرسول الله ﷺ وقد سأله عن الأيام: فالخميس؟ قال: هو يوم خامس من الدنيا وهو يوم أنيس لعن فيه إبليس ورفع فيه إدريس، وفيه عن تفسير القمي عن النبي ﷺ في معراجهِ: ثم صعدنا إلى السماء الرابعة وإذا فيها رجل فقلت: من هذا يا جبرائيل؟ فقال: إدريس رفعه الله مكاناً علياً فسلمت عليه وسلم عليّ واستغفرت له واستغفر لي.

(٣) نور الثقلين ح ١١٠ عن الكافي عن عبد الله بن أبان عن أبي عبد الله ﷺ قال في حديث طويل يذكر فيه مسجد السهلة: أما علمت أنه موضع بيت إدريس النبي ﷺ الذي كان يخيط فيه؟.

المنتهى، ومكانة أعلى ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَدَّنَا ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾﴾ (١) وكما رفع ذكره في الملاء الأعلى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (٢) وكما يذكر إدريس الصديق في كتابه بلغته السريانية هذه المكانة العليا لأهل بيت الرسالة المحمدية ﷺ:

يقول بعد عرض عريض في حوار بين آدم وبنيه حول «من هو أفضل الخليقة؟» فإذا أنا «آدم» بأشباح خمسة باهرة في العرش في غاية العظمة والجلال والحسن والضياء والبهاء والجمال والكمال حيث حيرتني أنوارهم فقلت رب! من هؤلاء؟ فأوحى إلي أنهم أشرف خلقي والوسطاء بيني وبينهم:

«إِنِّي لَهُوَ يَوْهَ أَنَا لِبُرَيْنِ وَارْحُ لَا الشَّمَايَ وَلَا أَلْ أَرَعَا وَلَا الرِّدْسَ وَلَا الكَيْهَنَ وَلَا الشَّمْسَ وَلَا السَّعْرَ»:

«لولاهم لما خلقتك» يا آدم «ولا السماء ولا الأرض ولا الجنة ولا النار ولا الشمس ولا القمر».

قلت «آدم»: ما هي أسماء هؤلاء الأكارم؟ قال: انظر إلى العرش ترى:  
- «بارقليطا»: محمد ﷺ «إيليا»: علي ؑ «طيطة»: فاطمة ؑ  
«شبير»: حسن «شبير»: حسين.

«هَلِّلُوهُ لِتَ آلِهِ شُوقٌ مِنِّي مُحَمَّدٌ أَنُوي دَالَهُ» - «هَلِّلُونِي فَإِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَمُحَمَّدٌ رَسُولِي» (٣).

(١) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.

(٢) سورة الشرح، الآية: ٤.

(٣) طبع كتاب إدريس ؑ باللغة السريانية في لندن ١٨٩٥ وهذه البشارة في ص ٥١٤ - ٥١٥ منه ينقله المغفور له ملا محمد صادق جديد الإسلام في كتابه أنيس الأعلام - وقد فصلناه في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ص ١٣١ (عربية) وفي كتابنا «بشارات عهدين» باللغة الفارسية ص ٢٢٩.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يُبَيِّنُونَ وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ :

كما النعمة الربانية درجات كذلك المنعم بها عليهم درجات أفضلهم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾<sup>(١)</sup>.

وقد تلمح ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ دون «آدم ومن ذريته» إلى أنه ما كان من النبيين مهما كان من المرسلين أمن ذا؟.. والذين أنعم الله عليهم - على درجاتهم - هم الذين نستهدي في صلواتنا صراطهم ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾<sup>(٢)</sup> صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾<sup>(٣)</sup> ونحن أيضاً درجات كما هم درجات، فلا تستهدي كل درجة إلا صراط من فوقها دون من يساويها أو أدنى، وكما الرسول محمد ﷺ وهو على قمة الصراط لا يستهدي في صلاته إلا أفضل من المنعم عليهم أجمع فإنه إمامهم أجمع!

والنبيون المذكورون هنا هم: زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم، وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس، عشرة من المذكورين في سائر القرآن وسواهم، ومريم المذكورة معهم من الصديقين و﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾<sup>(٣)</sup> وقد تشملها ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾<sup>(٤)</sup>.

وترى من ﴿النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ أما كانت تشمل كافة صفحات النبوة في تاريخ البشرية؟ فما هي الحاجة إلى «وممن - وممن - وممن...»؟.

قد تعني هذه الثلاث الثلاثة الباقية من المنعم عليهم وسائر النبيين

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الفاتحة، الآيات: ٦، ٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٤) نور الثقلين ٣: ٣٥١ ح ١١٤ في كتاب المناقب في مناقب زين العابدين عليه السلام قال عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨] نحن عيننا بها.

ف ﴿وَمَنْ هَدَيْنَا وَجَبَيْنَا﴾ تعم الصديقين والنبیین غير المذكورين هنا، وأئمتنا المعصومين عليهم السلام كما فاطمة صديقة ومريم صديقة. ف ﴿مَنْ أَلْتَمَسْنَا مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ و ﴿وَمَنْ هَدَيْنَا وَجَبَيْنَا﴾ تعمان كل نبي وكل صديق في تاريخ الرسالات الإلهية ثم ﴿وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ تشمل كل شهيد وصالح.

إذ ليس ﴿وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نبي أم ولا صديق إلا في ذريته وذريتهم، والنص ﴿وَمَنْ حَمَلْنَا﴾ لا «من ذرية من حملنا» حتى تعني النبیین من هذه الذرية، ثم ولا تختص النبوة بذرية إبراهيم وإسرائيل حتى تعني النبیین من هذه الذرية.

إذاً ف «من» الأولى بيانية وسائر الأربع تبعيضية، تحمل الخمس المنعم عليهم الأربعة ﴿مَنْ أَلْتَمَسْنَا وَالصَّالِحِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي تقسيم أبعاض الآية إلى المذكورين تكلف ظاهر: أن ﴿مِنْ أَلْتَمَسْنَا مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ هو إدريس وحقه إذا «من نبي من ذرية آدم»! ثم ﴿وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إنه إبراهيم إذ هو من ذرية من حمل مع نوح، وحقه إذا «ومن ذرية نوح أو من ذرية من حملنا مع نوح»! ثم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ إن «من إبراهيم»: «إسماعيل وإسحاق» ومن إسرائيل «زكريا ويحيى وعيسى وموسى وهارون»! وحقه إذا ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ حيث تعم كافة النبیین من فرعيه: إسماعيل وإسرائيل دون اختصاص بالمذكورين.

وقد يكون في من ﴿حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ صديق كما فيهم صالح وشهيد، ولكنما ﴿وَمَنْ هَدَيْنَا وَجَبَيْنَا﴾ يعم مع النبیین غير المذكورين هنا كل صديق وصالح وشهيد، كما ﴿مِنْ أَلْتَمَسْنَا مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ تعم كافة النبیین في صفحات النبوات!.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

ومواصفة لهم ثانية شاملة للأربع: ﴿إِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ فإنهم المنعم عليه بنعمة الهداية والعبادة القمة، لا تخالجهم غواية في أية حلة وترحالة، سجداً للرحمن وبكياً في كل حالة ومقالة وفعالة، ففعل الخُور سجداً وبكياً هو كمال الخضوع والخشوع أمام آيات الرحمن حين تتلى عليهم، من وحي آيات الوحي المتلوة عليهم بشؤون الربوبية والعبودية والرسالة والنبوة، سواءً أكان التالي هو الرحمن أم وسيط في الوحي وحيماً أمّاذا من تلاوة حسب درجات المنعم عليهم، من النبيين إلى الصالحين، حيث الآيات تأخذ بأزمة قلوبهم فيخرون بكياً ومن ثم بقوالهم فيخرون سجداً.

وإذا كانت السجدة والبكاء للرحمن فلماذا هي ﴿إِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ ولا يختص مقام الرحمن بما تتلى؟ إنه مزيد الإيمان والانجذاب إلى الرحمن حين يكلم المنعم عليهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>(١)</sup> و﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ثم للسجود والبكاء حين تتلى آيات الرحمان درجات أدناها الاستماع إليها والإنصات لها ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> فإنهما من السجود الخضوع دون تمامه، وهما لزام لأصل الإيمان وأدناه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٤)</sup> وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾<sup>(٤)</sup> مهما كان كمال السجود والبكاء لزام كمال الإيمان وأعلاه ﴿إِذَا نُتِلَىٰ . . . خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٤) سورة الانشقاق، الآيتان: ٢٠، ٢١.

فكما يجب أن يكون المؤمن بالله ساجداً لله خاضعاً له في أحواله كلها، كذلك السجود لآيات الله ولا سيما حين تتلى، فترك الاستماع إليها والإصغاء لها نابع من عدم الإيمان!

ولماذا ﴿ءَابَتْ الرَّحْمَنُ﴾ دون «الله» أو «الرحيم» لأن العناية المناسبة لمطلق السجود والبكاء تقتضي الرحمة العامة بما فيها بشارة الثواب ونذارة العقاب، فالسجود نتيجة البشارة والبكاء نتيجة النذارة مهما عمهما السجود والبكاء في توسع يليق بالمنعم عليهم.

وكما السجود في وجه عام يشمل أدناه إلى أعلاه كذلك البكاء تشمل التباكي وحالة البكاء كما تشمل أعلى البكاء، درجات حسب الدرجات.

﴿خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾﴾:

﴿فَخَلَّفَ﴾ هؤلاء المنعم عليهم «خلف»<sup>(١)</sup> خالفوهم فيما هم وتخلّفوا عما هم حيث ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ كما خلف من بعدهم خلّف أقاموا الصلاة وتركوا الشهوات فسوف يلقون ريباً.

لكل صاحب دعوة إلهية خلّف وخلف، وطبيعة الدعوة وصنيتها تقتضي الخلف دون الخلف، وخلف الدعوة الصارمة والتخلف عنها لزامه مضاعفة الغي والعذاب، كما أن خلفها والاستمرار فيها لزامه مضاعفة الري والثواب!

فلأن آيات الرحمن منها مبشرة لمن يعبد الرحمن وقمتها الصلاة، وأخرى منذرة لمن يتركها اتباعاً للشهوات، فهؤلاء الخلف طول الرسالات والدعوات الإلهية أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، نقطة مضادة لأسلافهم المنعم عليهم ﴿إِذَا نُئِلَى عَلَيْهِمُ ءَابَتْ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَكِيًّا﴾!

(١) الخلف بالسكون البدل السيء وبالفتح ضده وقد يعكس على ندرة والأصل هو الأول.



وإضاعة الصلاة لا تعني فقط فيما تعني ترك الصلاة<sup>(١)</sup> فإن إضاعة شيء ليست إلا بعد تكوّن هذا الشيء، فالذي يعزل فلا يولد له ليس مضيعاً للولد، إنما هو الذي انعقدت نطفته فأضاعها منذ انعقادها إلى الولادة إلى الموت عن المصالح المتوجهة إليه لولده.

فإضاعة الصلاة هي إتيانها دون إقامة لها على وجهها الواجب واللائق، في أوقاتها وشروطها وأجزائها ونياتها، وعلى الجملة في قلبها وقلبها فهم ليسوا بمقيمي الصلاة، وإنما يأتونها: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى﴾<sup>(٢)</sup>، أو يقومون إليها: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٣)</sup>. أم هم سكارى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾<sup>(٤)</sup> أم ساهون عنها متساهلين فيها فهم بين تاركها وفاعلها: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾<sup>(٥)</sup> غير معتنين بشأنها، فلا يقيمونها كما يجب مهما أتوها وقاموا إليها!.

وقد تربو إضاعة الصلاة - غياً - عن تركها، كما يربو الشرك بالله - أحياناً - على الإلحاد في الله، فتارك الصلاة قد يتركها جهلاً بالله أم جهالة في الله، ولكن الذي يصلي إضاعة لها، هو هازيء مهتاك بالله رغم

(١) نور الثقلين ٣: ٣٥١ ح ١١٦ عن المجمع عن أبي عبد الله عليه السلام أضاعوها بتأخيرها عن مواقيتها من غير أن تركوها أصلاً.

أقول: يعني لم يتركوا أصلها وفيه ١١٥ عن الكافي عن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] قال: كتاباً ثابتاً وليس أن عجلت قليلاً أو أخرت قليلاً بالذي يضرك ما لم تضيع تلك الإضاعة فإن الله عز وجل يقول لقوم: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُوتَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٥) سورة الماعون، الآيتان: ٤، ٥.

تصديقه، لذلك ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ...﴾ لا «التاركين لها»! وإن كان تركها قد يربو إضاعتهما كفرةً وعصياناً! .

وكما أن لإقامة الصلاة درجات أعلاها صلاة المقربين، كذلك لتضييعها درجات أسفلها صلاة المبعدين الأسفلين وبينهما متوسطات، فهناك صلاة هي في أحسن تقويم، وأخرى في أسفل سافلين، ثم متوسطات لحد الواجب أم دونه أم فوقه، فما دون الواجب فيها تضييع لها وما فوقه إقامة للراجح فيها .

### ﴿وَاتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ﴾:

الشهوات قد تتبع إنسانَ العقل الوحي فتصبح رحمات وكما يروى عن الرسول ﷺ «شيطاني أسلم بيدي» وقد يتبعها الإنسان خلاف العقل والوحي فتصبح حيونات ونقمتات، ويقول الله: «إن القلوب المعلقة بالشهوات عين محجوبة»<sup>(١)</sup> وقد يشير الرسول ﷺ إلى أخلاف من بعده وتلا هذه الآية ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ من بعد ستين سنة ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر<sup>(٢)</sup> .

(١) الدر المنثور ٤: ٢٧٢ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن الأشعث قال: أوحى الله إلى داود ﷺ: أن القلوب... .

(٢) المصدر أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية... . أقول ولعله يعني ستين سنة من الهجرة حيث أعلن الفسق زمن يزيد بن معاوية وقتل الحسين ﷺ .

وفيه أخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبه بن عامر سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل الدين قلت: يا رسول الله ما أهل الكتاب؟ قال: قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا فقلت: ما أهل الدين؟ قال: قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات .

وممن اتبع الشهوات «من بنى الشديد وركب المنظور ولبس المشهور»<sup>(١)</sup>  
ويجمعه «الدخول في الدنيا واتباع الهوى وشهوة البطن وشهوة الفرج»<sup>(٢)</sup>  
وفوق الكل شهوة الرئاسة والعلو: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا  
فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾<sup>(٣)</sup>.

فالشهووات هنا تعمها كلها وأهمها شهوة الرئاسة التي تضم سائر  
الشهووات وتجعل الديار بلاقع.

وذلك النفي والإثبات في إضاعة الصلاة واتباع الشهوات يلقي غياً  
وعياً: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾: في الحياة الدنيا عما خلقت له وهيئت، وفي  
البرزخ والقيامة عما قدره الله وقرره لعباده الصالحين، غياً في الحياة الدنيا  
يتمثل في نشأت ثلاث ولا سيما منذ الموت، حيث العمل السيئ هو الجزاء  
بملكوته يوم يكشف عن ساق وتبلى السرائر: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا  
فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾<sup>(٤)</sup> و﴿هَلْ تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٥)</sup>  
لقد عملتم غياً فسوف تلقون غياً، جزاءً في نفسه عذاباً وفاقاً! ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ  
ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾<sup>(٦)</sup>:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾<sup>(٦)</sup>:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن إضاعة الصلاة واتباع الشهوات - إلى الله ﴿وَأَمَنَ﴾

(١) نور الثقلين ٣: ٣٥١ ح ١١٧ في جوامع الجامع ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩] روى عن  
علي عليه السلام من بنى.

(٢) المصدر في كتاب الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: من سلم من  
أمتي من أربع خصال فله الجنة: الدخول...

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٤) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٥) سورة النمل، الآية: ٩٠.

(٦) سورة الفرقان، الآية: ٦٨.

بالله بعدما كفر عملياً كالمؤمن المضيع، أم وعقيدياً كالمضيع الناصر ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يجبر ما ضيع، فلا تكفي التوبة دون إيمان ولا إيمان إلا بصالح العمل فيصبح مؤمناً صالحاً ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ إذ تُوقَى هناك أجورهم، دون أن يُنقص منها شيء لماضي تضييعهم، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ (٦٦) :

﴿عَدْنٍ﴾ هو الاستقرار فـ ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ هي جنات الآخرة حيث لا خروج عنها وإنما خلود استقرار، وتقابلها الجنات البرزخية غير المستقرة حيث تفنى بفناء الدنيا فيخرج الداخل فيها إلى المحشر ثم إلى جنات عدن، فهذه تبتدىء بفناء السماوات والأرض، وتلك تنتهي بفنائهما ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾ (١) والفترة بين الجنتين لا تعتبر جذاً لعطاء فإنها قلة لا يحسب لها حساب، فانتقله إلى عطاء أوفى!

﴿وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وعدهم وهو بالغيب كما وهي بالغيب، والوعد كذلك بغيب الوحي، مثلث الغيب في وعد الرحمن ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ في الغيب، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر! . . . وترى ما هو مكانة ﴿كَانَ﴾ وإتيان وعده سوف يكون؟

﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ في موضع تعليل، فـ «إنه كان» منذ كان كائن ووعد من الله لأيّ كان ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ دون تخلف في أعماق الماضي فليكن مأتياً في المستقبل وهو أهون عليه.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾ (٦٦) :

ليس فيها لغو حتى يسمعونه، إلا سلاماً، استثناء منقطع يجتث أي لغو

(١) سورة هود، الآية: ١٠٨.

فيها ويقطعه ويخص مسموعها بـ ﴿سَلَامًا﴾ ﴿وَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾<sup>(١)</sup> ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾<sup>(٢)</sup> ولأن ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾<sup>(٣)</sup> فـ «تحية» هنا سلام وليكن سلاماً غير التحية من قول سلام، إن المسموع فيها كله سلامٌ إخباراً ودعاءً أماذا، لا ألاً كلامٍ فيها إلا سلام، فهم إذاً خرس عن أي كلامٍ إلا السلام! وإنما كلامهم لا يعد وكلاماً سلاماً من تحية أم أي سلام!

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ وهل في جنات عدن بكرٌ وعشي؟  
لزامهما شمس طالعة وغاربة! والشمس مكورة عند قيام الساعة!

هذه الشمس تكور ثم تخلق شمس أخرى يستظل أهل الجنة بظلالها عنها: ﴿أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾<sup>(٤)</sup> ولا ظل إلا عن ضوء و﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾<sup>(٥)</sup> فلتكن في الآخرة شمس وزمهير لا يرونهما، كميّزة لأهل الجنة عن أهل النار، فلو لم تكن هناك شمس ولا زمهير فأهل الجنة والنار على سواء في «لا يرون»!

وإذا كانت هناك شمس فلتكن طالعة وغاربة وأهل الجنة لا يرونها فإن «ظلها دائم» ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ كأصول الأوقات الصالحة للأكل وإن كان فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين و﴿أَكُلُّهَا دَائِمٌ﴾<sup>(٦)</sup> يأكلون متى شاؤوا ولا سيما بكرٌ وعشيّاً، أو قد يعني: دوام الأكل كما يقال: أُكُل الجنة صباح مساء، يعني أنها مستمرة في الأوقات كلها.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٤.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

(٥) سورة الإنسان، الآية: ١٣.

(٦) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

ودلالة آية الغدو والعشي وآية المقييل بقريئة قاطعة فيها على البرزخ<sup>(١)</sup> لا تقتضي دلالة آية البكرة والعشي على ما دلتا، وهي محفوفة بقريئة من قبل «عدن» ومن بعد «نورث» تدل على القيامة.

جنة البرزخ مؤقتة ما دامت الدنيا فليست عدناً ولا سيما للداخلين فيها قبيل الساعة، ووراثه جنة عدن تعني البقاء فيها من بُعدين، إذاً فهي جنة الآخرة، و﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾<sup>(٢)</sup> دليل وجود الشمس فيها مستورة، ﴿بَكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ دليل كونها طالعة غاربة، اللهم إلا أن يدل ﴿أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا﴾<sup>(٣)</sup> على دوام النهار فليس فيها - إذاً - بكرة وعشي، ولكنهما نص على شمس طالعة وغاربة، فليقيد دوام ظلها بأوقات النهار<sup>(٤)</sup> فالرواية المنسوبة إلى الرسول ﷺ<sup>(٥)</sup> تووّل! أو يقال يكفي في كونها عدناً مواصلة

(١) كقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٤٦) ﴿غافر: ٤٥، ٤٦﴾ وقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَمِ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلًا﴾ (٢٥) ﴿الفرقان: ٢٤، ٢٥﴾.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١٣.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

(٤) فكما أن دوام الأكل لا يعني دوام الأكل وإنما تهيج الأكل، للأكل، كذلك دوام الظل لا يعني إلا الأشجار الملتفة التي تمنع من إصابة الشمس، فقد يكون ظل غير دائم كالأظلال المؤقتة المتحركة كالشمسيات أو السحاب أو السقف الثابتة ولكنها ظل ما دمت تحتها، ولكننا الأشجار الملتفة هي دائمة الظل.

(٥) الدر المنثور ٤: ٢٧٨ - أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا: قال رجل يا رسول الله ﷺ! هل في الجنة من ليل؟ قال ﷺ: وما هيحك على هذا؟ قال: سمعت الله يذكر في الكتاب ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مریم: ٦٢] فقلت: الليل من البكرة والعشي! فقال رسول الله ﷺ: ليس هناك ليل وإنما هو ضوء ونور يرد الغدو على الرواح والرماح على الغد وتأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلوات التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ما من غداة من غدوات الجنة وكل الجنة غدوات إلا أنه يزف إلى ولي الله تعالى فيها زوجه من الحور العين أدناهن التي خلقت من زعفران.

الجننتين لحد يعبر عنها بعطاءٍ غير مجدوذ في الجنة البرزخ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ (١) ثم الغدو والعشي عليهما يختصان بالجنة البرزخية، ثم لا غدو وعشياً في جنة الآخرة، وإنما شمس طالعة دون غروب «ظلها دائم» في دوام الطلوع! ثم ورزق البكرة والعشي خير الرزق ف «تعد وتعيش ولا تأكل بينهما شيئاً فإن فيه فساد البدن» (٢).

﴿وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ (٣):

هل هي ميراث من الله لأهل الله؟ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾! ولا يموت أو ينزل عن ملكه حتى يورث! أم هي ميراث ممن أدخل النار إضافة إلى ما يملكه أهل الجنة؟ ولم يكن لأهل النار نصيب من الجنة!

إنه «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة» (٣) ﴿وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْرِثُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤).

فقد كان منها منازل للذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ثم لم يتوبوا فأورثها الله من كان تقياً، فليست الجنة - إذاً - وراثه النسب إذ تنقطع هنالك الأنساب وتنقطع الأسباب، اللهم إلا سبب التقوى حيث يورث أهلها منازل أهل الطغوى الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات!

(١) سورة هود، الآية: ١٠٨.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٥١ ح ١٢٠ في محاسن البرقي عن ابن أخي شهاب بن عبد ربه قال: شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام ما ألقى من الأوجاع والتخم فقال: تغد... أما سمعت قول الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] ورواه في كتاب طب الأئمة عن محمد بن عبد الله العسقلاني عنه عليه السلام.

(٣) الدر المنثور ٦: ٢٣ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: .. ثم قال -: وذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ﴾ [الزخرف: ٧٢].

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٧٢.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لِمَ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَأَطِعْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سَمِيًّا (٦٥) :

هاتان الآيتان تلمحان أنهما معترضتان بين آي السورة، ترى أنهما من كلام الله؟ وهو لا يتنزل! وليس له رب! ولا له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك! أم من كلام أهل الجنة وليس دخلوها تنزلاً إليها فإنه تصاعد وتعال، ولا يخرجون تنزلاً عنها، ثم ولا يناسبهم بقية القول إذا فهما من كلام ملائكة الوحي أم أولاهما، كأن هناك سؤالاً، لماذا ذلك التباطؤ في التنزل بالوحي أم قلته<sup>(١)</sup> والجواب ﴿وَمَا نَنْزِلُ . . .﴾ والواو فيها لمحة إلى معطوف عليه محذوف كـ «ما تباطئنا من أنفسنا أم تقللنا ولا قليناك أو نسيناك . . . بل . . . وما نتنزل إلا بأمر ربك . . .» ليس تنزلنا بالوحي إلا لتربيتك، فأنت الأصل الرسولي ونحن الفروع الرسالي، وهو يعلم كيف ومتى وبماذا

(١) وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس قال: سئل النبي ﷺ أي البقاع أحب إلى الله وأيها أبغض إلى الله؟ قال: ما أدري حتى أسأل جبرائيل وكان قد أبطأ عليه فقال: لقد أبطأت علي حتى ظننت أن بري علي موجدة فقال: وما نتنزل . . .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: أبطأ جبرائيل على النبي ﷺ أربعين يوماً ثم نزل فقال النبي ﷺ: ما نزلت حتى اشتقت إليك فقال له جبرائيل: أنا كنت إليك أشوق ولكني مأمور فأوحى الله إلى جبرائيل أن قل له: وما نتنزل إلا بأمر بك . . .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: احتبس جبرائيل عن النبي ﷺ بمكة حتى اشتد حزنه عليه فشكى ذلك إلى خديجة فقالت خديجة: لعل ربك ودعك وقلالك فنزل جبرائيل بهذه الآية ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣] قال: يا جبرائيل احتبست عني حتى ساء ظني فقال جبرائيل: وما نتنزل إلا بأمر ربك . . .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: لبث جبرائيل عن النبي ﷺ اثنتي عشرة ليلة فلما جاءه قال: لقد رثت حتى ظن المشركون كل ظن فنزلت الآية . . .

وفيه أخرج أحمد والبخاري ومسلم وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل ﷺ: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت الآية . . .



ينزلنا، ف ﴿رَبِّكَ﴾ لا «ربنا» ولا «رَبُّ الْعَالَمِينَ» يوصل ذلك الوحي إليه من الله حيث يريبه التربية القمة بذلك الوحي المجيد.

﴿وَمَا نَنْزَلُ﴾ بالوحي أماذا ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ ليس لنا من الأمر شيء كما ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾<sup>(١)</sup> وكياننا نحن وأنت وجه ربك: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وهو يشمل الكون أجمع أيًا كان وأيان! -: ف ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما نستقبله من زمان ومكان أو كائن فيهما أيًا كان ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما نستدبره كذلك - ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ من أنفسنا وإياك وما نحمله من وحي من أو إلى - كل ذلك له لا لنا ولا لك ولا لسوانا، ومما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ما نتنزل به من وحي، فليس استنزاله لك ولا التنزل به لنا ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ كما وأن القول ﴿وَمَا نَنْزَلُ...﴾ أيضاً ليس ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ فلسنا نحن إذاً مقصرين في تباطؤ الوحي عليك واحتباسه عنك.

وأما ربك فلا ينزلنا بالوحي لا بحكمة الربوبية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يودّعك نسيًّا أو يقلاك تناسياً: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ﴿١﴾ وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾! ﴿٢﴾

ف ﴿وَمَا نَنْزَلُ﴾ نفى عنهم التقصير ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ نفاه عن الرب وعن الرسول ﷺ فلا بد من حكمة خفية في البين، فلا هو نسيِّي ينسى مقصراً، ولا أنه نسيِّي يتناساك غضباً، ويتمثل ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ في ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ حيث التوديع نسيان، والقلى تناس غضباً، ولقد كان حقاً للرسول ﷺ أن يستوحش من إبطاء الوحي لاشتياق نفسه للاتصال الحبيب بوحي الحبيب.

ثم و ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عبارة أخرى عن ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الضحى، الآيات: ١-٣.

وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَكَ ذَٰلِكَ ﴿١﴾ وَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ تفريع لتوحيد العبودية على توحيد الربوبية ﴿وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أمر باستقامة العبادة ومنها تنزل الوحي عليه رسولياً ورسالياً، فعليه الاصطبار مهما احتبس عنه لفترة قصيرة أم طويلة ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ من الاسم لـ «الرب» أو «الله»<sup>(١)</sup> فهل تعلم له رباً سواه يشاركه في ربوبيته، ومن السموّ، هل تعلم له مشاركاً في سموّه رباً لكل شيء، ليس له شريك في اسم الرب فضلاً عن حقيقته وسمته، والربوبية المطلقة الوحيدة لساحته المقدسة تقتضي عبادته وحده، والاصطبار لعبادته وحده!

هنالك للمثول الدائب بين يدي المعبود بوحيه الحبيب وتلقي رسالته، عبادة دائبة واصطبار لها، فاعبده واحشد نفسك في سبيلها لتحتمل أعباء وعناء، تجرداً عن كل شاغل، وتمرداً عن كل حائل، وتحفزاً بكل جارحة وخالجة.. وليكن كلك عبادة لربك، بحالك ومقالك وأفعالك، بحلك وترحالك، والعبادة في حواجز الشيطانات وعوائق بوائق تحول دونك وعبادة ربك، إنها بحاجة إلى اصطبار باستمرار، ولتصل إلى ساحة القرب فلا تحس بغربة وكربة حين انقطاع الوحي! فـ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ تسميه أو يتسمى باسمه أو تسمو إليه؟! .

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ :

﴿الْإِنْسَانُ﴾ هنا نوعه بطبعه وعقله المكسوف بطوع الهوى، كما الإنسان

(١) نور الثقلين ٣: ٣٥٢ ح ١٢٥ في كتاب التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه لرجل سأله عما اشتبه عليه من آيات الكتاب وأما قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا﴾ [مریم: ٦٤] - فإن ربنا تبارك وتعالى علواً كبيراً ليس بالذي ينسى ولا يغفل بل هو الحفيظ العليم... وأما قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مریم: ٦٥] فإن تأويله: هل يعلم أحد اسمه الله غير الله تبارك وتعالى...» .

في ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي حُسْرٍ﴾<sup>(١)</sup> وقد يصح تسميته إنساناً لأن الله تعالى عهد إليه فنسي<sup>(٢)</sup> أن أصله انسيان: افعلاً من النسيان<sup>(٣)</sup>، وقد يؤيده هنا ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ وكما في سائر القرآن<sup>(٤)</sup> فالإنسان بنسيانه فطرته وفكرته، أنه خلق من قبل ولم يك شيئاً، يتلى بهذا السؤال الاستبعاد الاستنكار.

«ويقول» دون «وقال» لمحة إلى استمرارية هذه المقالة للإنسان أياً كان

وأيان إلا من تذكر . .

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ النسيان مهما نسي سائر الأدلة الآفاقية والأنفسية على أنه سوف يخرج حياً ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾؟ والواو هنا عطف على ما لم يذكر مما يجب أن يُتذكر من دليل، وقد ذكر الأعم ذكراً والأقرب تذكراً، الذي يصدقه كل عاقل ومجنون: أنه خلق من قبل ولم يك شيئاً، فهل أن بدء الخلق أهون أم إعادته ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾<sup>(٥)</sup> أهون عليه في حسابنا، وأما في حساب الله فكله هين لا صعوبة فيه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة العصر، الآية: ٢.

(٢) لسان العرب ج ١ ص ١١٢ - رواه عن ابن عباس.

(٣) المصدر قاله أبو منصور وهو مثل كيل اضحيان من ضحي يضحى وقد حذفت الياء فقبل إنسان.

(٤) كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢] فحين يمسه الضر يذكر ما تخبأ في فطرته فلما كشفت عنه ضره ينسى ﴿فَلَمَّا نَجَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ [الزمر: ٤٩] ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات: ٣٥] ﴿يَوْمَ يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣] وهكذا نرى في الكثير من (٦٥) مرة يذكر الإنسان في سائر القرآن يقرن بنسيان الفطرة وسواها مما يجب عليه أن يتذكرها.

(٥) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٦) سورة ق، الآية: ٣٨.

أترى ماذا يعني ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾؟ هل إنه خلق الإنسان كسائر الخلق لا من شيء كان فخلقه للمادة الأولية في أصلا بهم، حمل لنا ﴿إِنَّا لَمَّا طَعَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (١) ﴿وَأَيُّهُ لَهْمُ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (٢) فالذي خلق الأشياء - كمادة أولية - لا من شيء ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾: «في كتاب ولا علم» (٣) هو قادر على أن يخلق الإنسان مرة ثانية وهو شيء بروحه الحي وجسمه التراب أمّاذا؟.

أم إنه خلق الإنسان الاوّل من تراب ولم يك شيئاً إنسانياً «لا مقدرأ ولا مكوناً» (٤) وإنما هو تراب، فخلقه وهو روح وتراب أهون عليه.

أم إنه خلق كل إنسان - بعد الاوّل من نطفة ثم . . . ولم يك شيئاً مذكوراً ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (٥) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٦) ﴿(٥)﴾؟

كل ذلك خلق للإنسان من قبل، ففي الأول - حيث المادة الأولية - لم يك شيئاً في كتاب التكوين حيث الشيئية كانت للمادة الأولية، ولا في العلم في علم غير الله، إذ كان الله ولم يكن معه شيء وقد كان في اللوح المحفوظ حيث لا يعزب عنه شيء!

وفي الثاني كان في كتاب التكوين والعلم المفصول ولم يك مقدرأ إنسانياً كسيرة الخلقة، ولا مكوناً إنسانياً وإن كان كنطفة.

(١) سورة الحاقة، الآية: ١١.

(٢) سورة يس، الآية: ٤١.

(٣) محاسن البرقي عن حمران قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية فقال عليه السلام: لم يكن شيئاً في علم ولا كتاب.

(٤) في أصول الكافي عن مالك الجهني قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية فقال: «مقدرأ ولا مكوناً».

(٥) سورة الإنسان، الآيتان: ١، ٢.

وفي الثالث «النطفة» لم يك شيئاً مذكوراً يحق ذكره كإنسان، أو يليق بالذكر لمكان قذارة النطفة، مهما كان مقدراً في طريقه إلى التكامل، ومكوناً كخطوة أولى من كينونته فقد «كان شيئاً ولم يكن مذكوراً»<sup>(١)</sup> «كان مذكوراً في العلم ولم يكن مذكوراً في الخلق»<sup>(٢)</sup> (٣) أو «كان شيئاً مقدراً لَمَّا قَدَّر من نطفة أمشاج ولَمَّا يكون إنساناً!

وقد تعني الآية كل هذه الثلاث، على اختلاف دلالاتها، على أن الخلق المعاد أهون عليه، ﴿أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إذ خلقنا أول خلق - وإذ خلقنا الإنسان الأول - وإذ خلقنا النطفة ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ - أم شيئاً مقدراً لخلق الإنسان كسيرة مستمرة مثل النطفة - أم شيئاً مذكوراً مهما كان نطفة!، وإن كان ﴿شَيْئًا﴾ في سياق النفي تستأصل كل شيئية كما في الخلق الأول، ولكنها تتحمل نفي الشيء الإنساني كالأخيرين، ضمن أصل الشيء كالأول، وقد تؤيده ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾<sup>(٤)</sup> وبرهان المماثلة الأولوية يثبت إمكانية المعاد، وبرهان العقل العدل والنقل يثبتان معه ضرورته!

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ (٦٨) ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ (٦٩) ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًا﴾ (٧٠):

- (١) تفسير العياشي عن زرارة سأل الباقر عليه السلام عن الآية فقال: . . وفيه عن عبد الأعلى مولى آل سام عن الصادق عليه السلام مثله.
- (٢) عن سعيد الحذاء عن الباقر عليه السلام: . . .
- (٣) الكافي بإسناده عن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام سئل عن قوله تعالى: ﴿أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ فقال: لا مقدراً ولا مكوناً وسئل عن قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ . . .﴾ [الإنسان: ١] قال: كان مقدراً غير مذكور.
- (٤) سورة مريم، الآية: ٩.

﴿فَوَرِّكَ﴾ تحمل برهاني العدل والنقل، فربوبيته تعالى ولا سيما الرسالية المحمدية تقتضي الحشر والجزاء، فلولا الحشر لبطلت الربوبية الحكيمة العادلة وبطلت الرسالة المحمدية وما دونها، فليس القَسَم هنا إلاّ بأدلّ دليل على ضرورة المعاد، وقد تمت البراهين الأربعة: إمكانية بالأولوية، وضرورة بأصل الربوبية العادلة - ضرورة أخرى بالربوبية الرسالية المحمدية فلولا الحشر لبطلت - والرابع هو النقل الحامل لهذه الثلاث!

ترى ومن هم الشياطين المحشورون معهم؟ إنهم ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾<sup>(١)</sup> وهم ﴿أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾<sup>(٣)</sup> :

هم دركات كما الشياطين دركات وقد تربو شيطاناتهم على شياطينهم أو هم على سواء أم دون ذلك طرائق قدداً، والله يحشرهم وإياهم من أجداثهم :  
﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ : بروكاً على رُكْبِهِمْ ذلاً وانكساراً، وإجماعاً حولها كالتراب والحجارة ترذلاً وانحساراً<sup>(٤)</sup> والثاني يعني الأول تضمناً، فهم إذاً حول جهنم ناظرين حكم أحكم الحاكمين، فإذا اذاركوا حولها جميعاً ركاماً بعضهم على بعض ننزع منهم صلاء الجحيم ووقودها، التي يتقد بها ويحرق سائر أهل الجحيم :

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا﴾ : : هنالك أئمة

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

(٤) الأول أصله فعول جمع جائي وهو البارك على ركبتيه - والثاني عن ابن عباس أنه جمع جثوة وهو المجتمع من التراب والحجارة. وقد يناسبه ما أخرجه عبد الدين أحمد في زوائد الزهد والبيهقي في البعث عن عبد الله بن باباه قال: قال رسول الله ﷺ : كأي أراكم بالكوم دون جهنم جاثين.

الضلالة وأشياعهم، ولا يختص وقود النار بالأصلاء بل ومن الفروع ﴿من كل شيعَةٍ﴾ لننزعن للوقود ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِنِيًّا﴾ تمرداً وعصياناً، لنجعل وقوداً على وقود فنركمه جميعاً، ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ والصلي مصدر صلي: الوَقود، فمن الوقود ما هو في أصول الجحيم، وهو أولى بها صلياً، ومنه ما هو في سائر الجحيم وهو دون ذلك صلياً: ﴿وَأَوْلِيَّتِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾<sup>(١)</sup> ثم لا وقود إلا من يتقد من فروع الضلالة:

صحيح أنها ﴿لَا يَصْلَهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ﴾<sup>(١٥)</sup> الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾<sup>(٢)</sup> ولكنما الوقود أن هما الأشقى بالنسبة لسائر الأشقياء مهما كان الأولون هم أولى بها صلياً، فنزع الأشد على الرحمن عتياً ليس لأصل الدخول في الجحيم حيث هي مكان العاتين أجمعين، فليس النزاع إلا لصلاء الجحيم، ولكن ليسوا في صلاتهم سواء ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾! فهناك وليٌّ للصلي وهنالك أولى لها!

وآيات الصلي كلها شاهدة على أنها لا تعني مجرد الدخول في النار ولا سيما آية الأشقى فإنها تحصر صليها بالأشقى، فلو أنه الدخول فغير الأشقى إذاً - لا يدخلها!

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾<sup>(٧١)</sup> ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾<sup>(٧٢)</sup>:

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ خطاب صارم لكافة المكلفين من الجنة والناس أجمعين، فلا يختص بأصحاب الجحيم إذ ليس منهم المتقون الناجون من الواردين<sup>(٣)</sup>

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

(٢) سورة الليل، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٨٢ أخرج ابن سعد وأحمد وهناد وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري والطبراني وابن مردويه عن أم مبشر قالت: قال رسول الله ﷺ: لا يدخل =

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ دخولاً فإنه نصّ فيه، لا مروراً أم قرباً مهماً عنياً من الورد بقرينة وكما يروى عن الرسول ﷺ «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت لإبراهيم عليه السلام حتى أن النار ضجيجاً من بردهم ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾<sup>(١)</sup> :

إنهم يرونها على سواء «ثم يصدرون عنها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب ثم في رحله كشد الرجل ثم كمشيه»<sup>(٢)</sup> وأحاديث المرور تطرح أم تأوّل لمخالفتها القرآن والسنة<sup>(٣)</sup> :

ف «واردها» و ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ و ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ شهود صدق على الدخول مهما كان عذاباً أو رحمة، فلا عذاب في مرورها، ولا يذر الظالمين مارين عليها، وإنما هو الورد للجنة والناس أجمعين :

= النار أحد شهد بدرًا والحديبية قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ إِلَّا وَارِدُهَا ﴿مَرِيَمَ: [٧١]؟ قال ﷺ: ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: ٧٢]؟ وفيه عنه ﷺ قال: من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم فإن الله يقول: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ إِلَّا وَارِدُهَا ﴿[مريم: ٧١].

(١) الدر المنثور ٤: ٢٨٠ أخرج أحمد وعبد بن حميد والحكيم والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورد فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له فقال: وأهوى بإصبعه إلى أذنيه - صمتاً إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يبقى . . .

(٢) المصدر أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن الأنباري والترمذي والحاكم وصححه والبيهقي في البعث وابن مردويه عن ابن مسعود في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون . . .

(٣) مثل ما في الدر المنثور - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ إِلَّا وَارِدُهَا ﴿ يقول: مجتاز فيها.

أقول لم يقل مجتاز بها - بل - فيها، مما يدل على الورد، فبعض يردّها ورود الاجتياز كالمقربين وآخرون يصدرون عنها بأعمالهم ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ [مريم: ٧٢].



﴿... وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(١)</sup> و(٣٢: ١٣) ملءٌ دون استثناء، وإنما يستثنى، المتقون عن عذابها دون ورودها وملئها!:

. . وقد تلمح ﴿وَأَرِدُهَا﴾ دون «يردها» إضافة إلى حتمية الورد باسم الفاعل، إلى انسلاخ ذلك الورد عن الزمان فقد يشمل مثلث الزمان يوم الدنيا والبرزخ والقيامة، ف ﴿وَأَرِدُهَا﴾ مثلث الجحيم فالدنيا بشهواتها ولهواتها جحيم كما البرزخ والقيامة نتيجة لها، ولكننا الذين اتقوا منجّون عنها، عن بواعثها يوم الدنيا حيث يتقون موجبات النار، وعن كوارثها في برزخها يوم البرزخ وعن نار الخلود يوم الخلود، إذاً فهنالكَ مثلث للورد، مهما كان فيما سوى الأخير ورود الاجتياز لفترة قصرت كما الدنيا أم طالت كما البرزخ، ومن ثم ورود في مختلف درجاته أو دركاته بمختلف الاستحقاقات والتخلفات!

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ف «ربك» وهو في أعلى درجات الربوبية يورد كلاً في الجحيم الأخرى كما أوردهم في الأولى، ثم ينجي كلاً هناك كما نجى «بالتقوى» هنا، ولكي يرى المتقون سجن المتمردين فتكون لهم حظوة، ويرى المتمردون المتقين فتكون عليهم حسرة، وهذه قضية الربوبية القمة ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ المحتومة بما حلف: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(٢)</sup>! فقد كتب على نفسه عموم الورد في الجحيم بربوبيته كما ﴿كُنَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾<sup>(٣)</sup> ومن الجمع الرحمة قضية الربوبية الجمع في الجحيم!

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ والفترة الاستفادة من «ثم» درجات حسب درجات

(١) سورة هود، الآية: ١١٩ .

(٢) سورة هود، الآية: ١١٩ .

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢ .

التقوى كما سبق عن الرسول ﷺ «فأولهم» كلمح البرق - وهو منهم - وآخرهم كمشية، وهم آخر من ينجى مهما بقي ردحاً فيها، وإن كثيراً كالخالدين غير الأبديين فيها، ف «ثم» تعم اللّمحة إلى الخلود غير الدائب! ولكن:

﴿وَنَذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ قد تخرج المعذبين في النار عن المتقين وهذا هو الحق، وبقاء الظالمين يشمل بعد المشية إلى الخلود وإلى الأبد، فلا تعني «ثم» إلا اللّمحة إلى المشية، ثم الباقون هم الظالمون على دركاتهم! ويا ويلنا ونحن كلنا واردوها وهذا يقين، ومن هذا الذي يخرج منها وليس إلا شكاً بعد يقين، اللهم إلا ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ولا تنقض اليقين بالشك بل انقضه بيقين مثله، وكما يروى عن الرسول ﷺ: «فقد علمت أنني وارد النار ولا أدري كيف الصدور بعد الورود»<sup>(١)</sup>.

ولقد أثرت هذه الآية في أصحاب الرسول ﷺ أثراً بالغاً يدهشهم ف «إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه هل أتاك إنك وارد؟ فيقول: نعم! فيقول: هل أتاك إنك خارج؟ فيقول: لا فيقول: ففيم الضحك؟»<sup>(٢)</sup> أجل وإن يقين ورود النار لا يقطعه إلا يقين التقوى المنجية عن النار، وقد بينها الله في كتابه المبين، ونحن

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٨٢ - أخرج أبو نعيم في الحلية عن عروة بن الزبير قال: لما أراد ابن رواحة الخروج إلى أرض مؤتة من الشام أتاه المسلمون يودعونه فبكى فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباية لكم ولكني سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية . . . فقد علمت . . . وفيه أخرج ابن المبارك وأحمد في الزاهد وابن عساكر عن بكر بن عبد الله المزني قال: لما نزلت هذه الآية ذهب عبد الله بن رواحة إلى بيته فبكى فجاءت المرأة فبكت وجاءت الخادمة فبكت وجاء أهل البيت فجعلوا يبكون فلما انقطعت عبرتهم قال: يا أهلاه! ما الذي أبكاكم؟ قالوا: لا ندري ولكن رأيناك بكيت فبكينا قال: إنه أنزلت على رسول الله ﷺ آية ينبئني فيها ربي تبارك وتعالى إنني وارد النار ولم ينبئني إنني صادر عنها فذاك الذي أبكاني.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٨٢ - أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقوا . . .

كلنا - إلا المعصومين - سوف نردها، وهل ننجو منها؟ الله أعلم! إذ لا ندري هل تختتم عاقبة أمرنا بالتقوى فنموت أتقياء، أم دون ذلك، فعلينا إذاً الجهاد الدائب في التقوى مستعيزين بالله من كلّ شيطان رجيم!

ولا تُناحر آيةُ ورود آيةِ الإبعاد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾<sup>(١)</sup> بل وتناظرها، حيث الإبعاد ليس إلا بعد الورد أو القرب، وآية الورد تبعدهم عنها بعد الورد، ف﴿ثُمَّ نُجِى﴾ تعني ما تعنيه ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ - ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾<sup>(٢)</sup> لا يحزنهم الفزع الأكبر وننقلهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم تُوعَدون ﴿١٠٣﴾<sup>(٢)</sup>:

تتلقاهم الملائكة إلى الجنة حين ينجون ويبعدون عن النار، دون أن يسمعوا حسيستها، ودون أن يحزنهم الجحيم، بل وقد يفرحون بما رأوا سجن المتمردين رحمة على رحمة، وكما هي على أهل النار عذاب فوق العذاب! فالنار إذاً للمتقين خامدة<sup>(٣)</sup> مهما كانت لأهلها محرقة اللهم إلا حيناً كلمحة، وهنالك جثو حول جهنم للظالمين وجثو آخر فيها لهم وأين جثو من جثو:

إن الذين هم أول المقذوفين في الجحيم يردون تصلية للجحيم، من أئمة الضلالة ومن كل شيعة هم أشد على الرحمن عتياً، وطليلة الصادرين من كل الواردين هم الرسول ﷺ وأئمة الهدى وسائر النبيين من المقربين وطائفة من أصحاب اليمين، وبينهما متوسطون من الصادرين والباقيين:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٠٢، ١٠٣.

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ٢ ص ٢٤٤ عن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: إذا دخل أهل الجنة الجنة فقال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا بأن نرد النار فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة.

وترى لماذا غير الظالمين يردونها حتى يُنَجَّوا منها؟ إن ورودهم فيها لهم حظوة رحمة حيث يرون سجن الظالمين مبتهجين أنهم لم يردوها معذبين فإنها لهم برد وسلام وللظالمين حرق وإيلام! :

وقد يتحدث المسيح ﷺ فيما ينقله برنابا الحواري عن هذا الورود

العام:

(أجاب يسوع: «يتحتم على كل أحد أياً كان أن يذهب إلى الجحيم (٨) بيد أن ما لا مشاحة فيه أن الأظهار وأنبياء الله إنما يذهبون إلى هناك ليشاهدوا لا ليكابدوا عقاباً أما الأبرار فإنهم لا يكابدون إلاّ الخوف (١٠) وماذا أقول لكم؟ أفيدكم أنه حتى رسول الله يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله (١١) فترتعد ثمة الجحيم لحضوره (١٢) وبما أنه ذو جسد بشري يرفع العقاب عن كل ذي جسد بشري من المقضي عليهم بالعقاب فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم (١٣) ولكنه لا يقيم هناك إلاّ طرفة عين (١٤) وإنما يفعل الله هذا ليعرف كل مخلوق أنه نال نفعاً من رسول الله (١٥) ومتى ذهب إلى هناك ولولت الشياطين وحاولت الاختباء تحت الجمر المتقيد قائلاً بعضهم لبعض: اهربوا فإن عدونا محمداً قد أتى (إنجيل برنابا ١٢٦ : ٧ - ١٥):

ثم في الآيات ١٧ - ٢١ - تصريحات أن من مات على دين محمد ﷺ فمصيره إلى الجنة وإن كابد العقوبة للأعمال السيئة وترك الصالحات فإنه بالمآل ينتقل إلى الجنة بدعاء محمد ﷺ وإن عذب في نار البرزخ والقيامة كما يستحق:

﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَ دِدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَلِيغَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اِتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَتَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ :

هرطقة نكراء وطنطنة خواء في قولة هراء من الذين كفروا للذين آمنوا في حوار دائبة بتراء تضللهم أو تقلل من إيمانهم، ولكنما المؤمن حق الإيمان لا يتزعزع بهذه الزلازل، فالمؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف!

﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ لا يتفهمونها وهم يسمعون، مبتهجين ومتبجحين بالقيم المادية الفانية قائلين: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ منا الكافرين ومنكم المؤمنين ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾: قياماً في هذه الحياة بوسائلها المتوفرة لدى

الناشطين، وقواماً فيها، ومكاناً لكل قيام وقوام، فمن هو خير في مثلث ﴿قِيَمًا﴾ «ثم» ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾: نادياً لتنادى الشورى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾<sup>(١)</sup> في مصالحي الحياة! ونادياً لكل أنس والإتيان بمختلف الشهوات ﴿وَتَأْتُونَكَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرِ﴾<sup>(٢)</sup>؟

إنهم يرونهم في نوادي فخمة ومجامع مترفة بكل ترف وفي كل طرف، وإلى جنبهم تلك النوادي المتواضعة والمنتديات الفقيرة، دون أبهة ولا زينة وكبرياء فيتقولون لهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وإذا الإيمان بالله يعجز عن إصلاح الحياة الحاضرة فهو عن إصلاح المستقبلية - لو كانت - أعجز!

ومن هؤلاء سادة من قريش، قادة الكفر - كالنضر بن الحارث وعمرو ابن هشام والوليد بن المغيرة وأبي جهل وأبي لهب وإخوانهم المترفين وجاه سادة الإيمان، كبلال وعمار وخباب وأضرابهم من المؤمنين المعدمين ف ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ...﴾؟ ذلك! رغم أنها حكمة الله في صراط الحق أن تظل العقيدة الصادقة مجردة من الجواذب المادية زينة وطلاء وإغرائاً، ليقبل عليها من يريد لها خالصة لحقها دون زخارفها، ويدبر عنها من يبتغي زينة الحياة الدنيا.

هنا يأتي جواباً واقعياً غابراً عن ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ لمحة إلى مصارع الغابرين:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًا ﴿٧٤﴾﴾:

إن القرون الهالكة المالكة هي أكثر مما يملكون و ﴿أَحْسَنُ أَثْنًا﴾ الظاهرة، بأحسن منهم مظهراً ﴿وَرِئًا﴾ إنها ليست قلة منسية، فعاد ﴿وَتَمُودَ﴾

(١) سورة العلق، الآية: ١٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴿١﴾ هَوْلًا وَأَضْرَابَهُمْ هَمَّ أَحْسَنَ مِنْهُمْ أَثَانًا وَوَسَائِلَ الْعَيْشَةِ وَرَثِيًّا: مَنْظَرًا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَثَانَهُمْ وَبَيْوتِهِمْ وَمَا يَمْلِكُونَ، فَقَدْ هَلَكُوا بِمَا مَلَكُوا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا؟! ﴿١﴾

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ﴿٧٥﴾:

﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ غارقًا تائهاً ومضى على ضلالته رُدْحٌ من الزمن فهو لا يهتدي، أترى ماذا يفعل به الرحمن؟! أحملًا على الهدى وهو مصر على الردى؟ أم لا يمدّه في هوى أو ردى وكفى به - لو أمكن - استمراراً في الردى! أو ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ جزاءً وفاقاً إملاءً: ﴿وَأُمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيَرْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿٣﴾ ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ الإملال الإمهال عُمرًا وأسباباً، من بنين وأموال ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ سُرْعًا لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٤﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥﴾ مَدًّا لهم في أسباب العذاب ثم مَدًّا في العذاب ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ﴿٥﴾:

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ قبل الساعة كتقدمة ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ التي هي بداية العذاب الأصيل وهنا أو هناك ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عين اليقين ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ وجاء ما كانوا يقولون للذين آمنوا ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ حيث يرون أنفسهم شرًّا مكاناً رغم

(١) سورة الفجر، الآيات: ٩-١٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

(٥) سورة مريم، الآية: ٧٩.

ما كانوا يزعمونهم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ وكانوا في زعمهم أحسن ندياً: نادي الأعوان الجنود ونادي الشهوات، فيرونهم «أضعف جنداً! فلا تنفعهم جنود النوادي أياً كانوا بل يضرّونهم كما كانوا يضلّونهم»:

فقد زادوا ضلالاً على ضلال في الدنيا ثم هم يوم القيامة من المرذولين، وأما الذين اهتدوا:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَلِغَتُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٧٦):

كما هناك مدٌّ للذين كفروا، كذلك هنا مد للذين آمنوا وأين مدٌّ من مدٍّ: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَتُّوْلًا وَهتُّوْلًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (١):

فمدّ الهدى يتبنى هدى قبلها كمدّ الردى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (٢) والخير في هذا البين ليس الذي يزعمه الذين كفروا من أثاث ورئي يفسى، بل ﴿وَالْبَلِغَتُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَلِغَتُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٣) (٤):

الأقوال والأعمال كلها باقية بما يستسخها الله ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥) ولكننا الباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً يثوب ويرجع إلى الإنسان حالاً واستقبالاً، حيث الثواب هو رجوع الشيء إلى حالته المقدره المقصودة ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ مكان ردها وزمانه في الجنة يوم القيامة وما قبلها.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٤) راجع تفسير الآية في الكهف فلا نعيده هنا إلا ما أشرنا إليه.

(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.



وأما الطالحات الزائلات بشهواتها ولهواتها، الباقيات بخطراتها التي هي لزام فاعليها، إنها شر عند ربك عقاباً وشر مردّاً، فمن هو إذاً خير مقاماً وأحسن ندياً وأثاثاً ورثياً وخير مكاناً وأقوى جنداً؟ أهم أصحاب الباقيات الصالحات، أم الزائلات الباقيات الطالحات؟!

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَوْ انْخَدَّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا ﴿٨٠﴾﴾:

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ استفهام عجاب واستنكار في ﴿الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيد الربوبية ومعادها والرسالة الإلهية بينهما، كفراً بمثلث الآيات آفاقية وأنفسية .

فرغم أنه ﴿كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ كلها دون إبقاء، يتميع بما يخيل إليه أنه يتمتع ﴿وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هنا أم في الحياة الأخرى، وأنا رابح في الأولى الواقعة، وفي الأخرى لو أنها واقعة ﴿وَلَكِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾<sup>(١)</sup>.

طنطنة حمقاء، وهمهمة جوفاء، ويكأن وفرأ من المال والولد هو جزاء الكفر بآيات ربنا! ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ فيما هنا أم هناك ﴿أَوْ انْخَدَّ﴾ هنا لما هنا وهناك ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ فلا غيب له مطلع، ولا عهد عند الرحمن فإنهما أو واحدهما لزامهما صلة عريقة مع الرحمن، وقد ﴿كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ فما قولته الجوفاء إلا طنطنة خواء وهرطقة هراء والله منها براء:

وإنها قولة تكرر من حماقى الطغيان، كأنهم يملكون الكون بمكوّنه، فهم يحاسبون بديل أن يحاسبوا، فكما هم أولاء هنا غارقون فيما يشتهون، كذلك هم في الأخرى - لو كانت - فيما اشتتت أنفسهم خالدون:

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٦.

وهل أن ﴿الَّذِي.. وَقَالَ﴾ شخص كافر غابر ليخصه التعجيب التأنيب؟  
 علّه نعم حيث العبارة العامة «الذين.. يقولون»! أو علّه لا مهما كان مورداً  
 لنزول الآية حيث المورد لا يخصص، ف «لا تكونن ممن يقول في شيء إنه  
 في شيء واحد».

ويظهر من ﴿كَفَرَ﴾ حادث الكفر بعد الإيمان، أم مزیده دون إيمان،  
 فيعم التعرق في الشرك كالذي خاطب خباب بن الأرت حين طالبه ديناً كان  
 له عليه فأجاب بما أجاب: «موعد ما بيني وبينك الجنة فوالله لأوتين فيها  
 خيراً مما أوتيت في الدنيا»<sup>(١)</sup> كما يعم ضعيف الإيمان الذي كفر حين خيّل  
 إليه أن الكفر يجلب مالاً وولداً!

﴿كَأَنَّ﴾! ليس كما يهرف بما لا يعرف ﴿سَنَكْتُبُ﴾ عليه ﴿مَا يَقُولُ﴾  
 قولة نكراء وهي وبالة عليه ﴿وَنَمُدُّ لَهُ﴾ هناك ﴿مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ بدلاً عن أي  
 مال وولد! ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ لو أوتي هنا أو هناك مالاً وولداً ف ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ  
 الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ دون مال ولا ولد فمّم يكون  
 له - إذاً - مال وولد؟! :

(١) رواه فيمن رواه القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ومثله في معناه في الدر المنثور  
 عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه  
 فقال: لا والله لا أفضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم  
 تبعث، قال فإني إذا مت ثم بعثت جنتني ولي ثم مال وولد فأعطيك فأنزل الله الآية.  
 أقول تخصيص نزول الآية بموردها هذا بعيد، إلا أن يكون من مصاديقها.  
 (٢) سورة مريم، الآية: ٤٠.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تُوْزِعُهُمْ آرَاءَ ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعَجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَلْسَعُ الْأَرْضُ وَنَحْرُ الْجِبَالِ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ :

واذلاهم لمن يتخذ من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً، تحطيماً لكرم الإنسانية، وتعزيراً للذليل وتقديماً له على من خلقه الله في أحسن تقويم، كيف يردُّ نفسه بتخييل العز أسفل سافلين.

أترى العز في ألوهة الأصنام والأوثان والجبت؟ وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن أنفسها شيئاً فضلاً عن عابديها!

أم في ألوهة الطواغيت؟ وقد استكبروا عليهم وحطوا من كرامة إنسانيتهم حيث استخفوهم وسقطوهم عن كرامتهم!

أم في ألوهة الأولياء من الملائكة والنبين؟ وهم يرون عزهم وإياهم في عبادة الله، وليسوا هم ليغنوا عنهم من الله شيئاً إذ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾<sup>(١)</sup> أم ليعتزوا بهم عند الله، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾<sup>(٣)</sup>؟ وفي ذلك مس من كرامة الله أن يتخذوا سلطاناً من دون الله ما آتاهم به الله، وأن يُعبدوا من دون الله إزرأً بساحة الربوبية، وكيف يصلح المبعد مقرباً، أم كيف يطلع البغيض عزيزاً! ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُم يُنصَرُونَ﴾<sup>(٤)</sup> لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُم جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾<sup>(٤)</sup>.

فأين ذلك العز الأعز من ألوهة الله وحده وعبوديته؟ وهكذا يكون دور من يستند إلى غير القرآن ويستعين به تاركاً لكتاب الله، معتزاً بسواه لتعزير دين الله بالقباب براقية مطمئنة، وكلمات عملاقة! هي عن كثير من الحق فاضية خاوية!

«كلا» لا عز هنا وهناك أم هنالك، «وهم» الآلهة ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِتَانًا تَعْبُدُونَ﴾<sup>(٥)</sup>: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾<sup>(٦)</sup>. كما وهم

- (١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨. (٢) سورة يونس، الآية: ١٨.  
 (٣) الزمر، الآية: ٣. (٤) سورة يس، الآيتان: ٧٤، ٧٥.  
 (٥) سورة يونس، الآية: ٢٨. (٦) سورة فاطر، الآية: ١٤.

أولاء ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (١):

وهذا من الطف الجمع بين ضميري الجمع، سيكفرون بعبادتهم حيث يعم الكافرين واقعاً لا تكبير له! ثم ﴿وَيَكُونُونَ﴾ كلٌّ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على كلِّ ﴿ضِدًّا﴾ حيث زيل الله بينهم فظهر الحق عن الباطل وغلب هنالك المبطلون!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْزُهُمْ أَزًّا﴾ (٨٣):

إنهم تهزهم تحريكاً بشدة وإزعاج هزاً، وتحرضهم على الشر حرصاً، ولو لم يكن الكافر هزاً في نفسه بزاً لم يسطع الشياطين أن تهزهم هزاً. ولا يعني الإرسال هنا بعثاً إليهم ليضلّوهم أكثر مما هم، بل عدم المنعة عن هزهم، وهو يمنعهم عن هز المؤمنين، وفي «على» هنا دون «إلى» لمحة حيث تعني الاستعلاء، فيذرهم الله في خوضهم يلعبون وفي غيهم يترددون جزاءً بما كانوا يعملون ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (٢).

فهو - إذا - إرسال «على» وليس إرسالاً «إلى» وليس إلا جزاءً وفاقاً حيث كذبوا المرسلين الصالحين إليهم، فأبدلهم الله بإرسال الشياطين عليهم تَوْزُهُمْ أَزًّا.

فليس ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ فقط في الحياة الأخرى، بل وفي الأولى إذ تَوْزُهُمْ أَزًّا وهم يعبدونهم ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾! وفي «يكونون» هنا وجاه «سيكفرون» لمحة لضدهم في الآخرة والأولى، مهما اختص كفرهم - إلا الصالحين - بعبادتهم في الأخرى.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (٨٤):

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بفنائهم ودمارهم إذ لا يستقلون ويغلبون أماننا، فلا

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

نمهلهم إلا عليهم حيث ﴿نَعُدُّ لَهُمْ﴾ سيئاتهم البئيسة وأنفاسهم التعيسة و﴿عَدًّا﴾ كما قدرنا لهم فالمعدود لهم عدًّا هو «كل شيء حتى النفس»<sup>(١)</sup> بل «لكنه عدد الأنفاس»<sup>(٢)</sup> بما تحمل فيها كل نفس ظالمة من كوارث أنحاس! ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُؤْمِلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُؤْمِلُ لَهُمْ لِيَزِدَّوْا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

ليس أمد بقاء الإنسان بتعميره إلا بلاءً حسناً بتعميره أم سيئاً بتدميره: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾<sup>(٤)</sup>.

وليس قصر المدة أم مدّها إلا كما قدر لكل نفس في صالحاتها وطالحاتها ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾<sup>(٦)</sup>:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾<sup>(٧)</sup> ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾<sup>(٨)</sup> لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾<sup>(٩)</sup>:

إن بين الحشر الوفد والسوق الورد بوناً شاسعاً كما بين المتقين والمجرمين، فالوفد هم القوم الركب الوافدون لزيارة أو استنجاز حاجة وقد «يحشرون على النجائب»<sup>(٧)</sup> والورد هم العطاش المتحرون عن تروية لهم فلا

- (١) الدر المنثور أخرج عبد بن حميد عن أبي جعفر محمد بن علي في الآية: ..
- (٢) الكافي بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا نُؤْمِلُ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مریم: ٨٤] قال عليه السلام ما هو عندك؟ قلت: عد الأيام، قال: الآباء والأمهات يحصون ذلك ولكنه عدد الأنفاس.
- (٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.
- (٤) سورة الكهف، الآية: ٧.
- (٥) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.
- (٦) سورة يونس، الآية: ١١.
- (٧) في محاسن البرقي بإسناده عن حماد بن عثمان وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: =

يردون إلا جهنم ليشربوا من حميمها، هذا لطفواه وذلك لتقواه حيث اتقى يوم الدنيا عن ورد الجحيم، وهؤلاء طغوا وبعوا فلهم - إذاً - ورد الجحيم! :

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ﴾ أن يشفعوا أو يشفع لهم لا أولاء ولا هؤلاء ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ وعامته عهد العبودية ﴿وَأَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ ﴿١﴾ وذلك تعم الشافعين والمشفع لهم، ثم وخاصته عهد الشفاعة كشافعين ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ :

فلا شفاعة هناك بين العباد والمعبودين من دون الله، إذ لا عهد لهم اتخذه عند الرحمن، وقد زال عزهم المخيل إليهم هناك، كما لم يكونوا لهم عزاً هنا ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٣﴾ ﴿حَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٤﴾ !

= يحشرون على النجائب .

وفي تفسير القمي بإسناده عن عبد الله بن شريك العامري عنه عليه السلام قال : سألت علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير هذه الآية قال صلى الله عليه وآله : يا علي ! الوفاء لا يكون إلا ركباناً أولئك رجال اتقوا الله عز وجل فأحبهم واختصهم ورضي أعمالهم فسامهم الله المتقين . .

وروي في حديث آخر تفصيل خروجهم من قبورهم وركوبهم من نوق الجنة ووفودهم إلى الجنة ودخولهم فيها وتنعمهم بما رزقوا من نعمها .

وفي الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في الآية قال صلى الله عليه وآله : أما والله ما يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقاً ولكنهم يؤتون بنوق من الجنة لم تنظر الخلائق إلى مثلها رحالها الذهب وارمتها الزبرجد فيقعدون عليها حتى يقرعوا باب الجنة .

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١ .

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٦ .

(٣) سورة غافر، الآية: ٧٨ .

(٤) سورة الحج، الآية: ١١ .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ :

واتخاذ ولد للرحمن أيًا كان حقيقة أو تشريفًا، إنه إدُّ: منكر فضيح فظيع ﴿شَيْئًا﴾ واقعًا ولن يكون! أم قولاً زوراً فلا يهون.

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۖ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ :

لولا أن الله يمهل هؤلاء الحماقي الأغباش، لكان تفتُّر السماوات وانشقاق الأرض وخرور الجبال هدًّا: في هدم واقع ساقط - واقعًا، إذ هي ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۖ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾<sup>(١)</sup> فإنهم ﴿يَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾<sup>(٢)</sup> ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ فإنه الخالق لكل شيء برحمة رحمانية: فكيف يتخذ ولدًا؟ أبولادة؟ وهو خالق وليس والدًا، أم بتشريف ولا تشريف أعلى من العبودية، والبنوة التشريفية تزييف لساحة الرحمن ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ :

كلهم يأتونه عبدًا ليوم الدنيا ويوم الدين، طوعاً أتوه أم كرهاً حيث العبودية ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم، ومهما هم أتوه هنا بأموال وبنين وسائر زخرفات الحياة زينة لها وابتلاءً فيها، ولكنهم:

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ :

﴿فَرْدًا﴾ عن كلما لديهم يوم الدنيا إلا ما قدمت لهم أنفسهم أو عليهم،

(١) سورة الكهف، الآية: ٥ .

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢ .



فهم إذا فرد يومئذ عما كانوا يظنون، وشفع بما لم يكونوا يحتسبون، فويل لهم من فردهم وويل لهم من شفيعهم، إلا فرداً عبداً، وشفعاً بعبودية! .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦) :

إن الإيمان وعمل الصالحات هما في ميزان الله محوران أصيلان للوُدِّ الحب، جعلاً له قدرهما طول الزمان وعرض المكان، مهما كان ليوم الرجعة والبرزخ واليوم الآخر عرضه العريض كلُّ حسبه، ولكننا الدنيا أيضاً لها نصيب مهما غشيته أية غاشية، فإنها تبرز في مواردها حجة للإيمان ﴿فَأَيُّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١) :

وفي ﴿سَيَجْعَلُ﴾ الرامية إلى مستقبل قريب تلميح مليح بمثلث الأيام، مهما شمل مستقبل الإيمان وعمل الصالحات منذ بزوغها وأين مستقبل من مستقبل، وأين وُدٌّ من وُدٍّ؟ :

وقد تظافت أسباب النزول عن الفريقين في قول الرسول ﷺ : إنها نزلت في علي عليه السلام (٢) وهو أعلى منزل لهذه النازلة الفاضلة كتأويل بأعلى المصدايق وأعلى منه الرسول ﷺ فإنه وده فوق وده، فهذا - إذاً - تأويل مصداق مختلف فيه في قمة الود، يذكره الرسول ﷺ كأنه فقط ذلك الود وترفعاً لمنزلته وتثبيتاً لمحتده، وهذا لا ينافي في عموم الآية لـ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ككل كما هو منطوقها وقد نطق به الرسول ﷺ (٣) :

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣ .

(٢) القمي بإسناده عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قلت قوله ﷺ : ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾

[مريم: ٩٦] قال: ولاية أمير المؤمنين هي الود الذي ذكره الله، وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام قل: اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي عندك وداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة فأنزل الله الآية . . .

(٣) الدر المنثور أخرج الحكيم الترمذي وابن مردويه عن علي عليه السلام قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] ما هو؟ قال: المحبة في قلوب المؤمنين =

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾:

﴿يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ لا فقط «بلغتك»، فمن العربية ما هي صعب التفهم ومن غيرها سهلة، ولكن القرآن العربي اليسر في نفسه بلسان محمد ﷺ بياناً له وتبياناً، فيه مثلث بارع من التيسير، وهذه سنة دائمة للرسول أن يرسلوا بلسان قومهم، لا فقط بلغتهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (١) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

فالتبيين بالقرآن والتبشير والإنذار والتذكير، كل ذلك على ضوء مثلث التيسير تأخذ مسيرها في العالمين كأوضح ما يمكن بياناً للقرآن العظيم، الذي «فيه تبيان كل شيء» حاوياً كافة المعارف الممكنة التعرف إليها وحيماً إلى البشير النذير، تبشيراً للمتقين وإنذاراً لقوم لئلا يؤثر فيهم التبشير ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٣).

﴿يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ بعد أن كان عسيراً في أم الكتاب: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٤) وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ تيسيراً للمحكم بتفصيل، وتيسير ثان تفصيله باللغة العربية، وثالث تفسيره بيان الرسول ﷺ تبييناً للقرآن بنفسه إذ يفسر بعضه بعضاً، وتبييناً ثانياً بسنته.

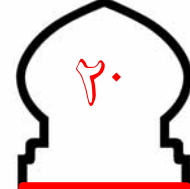
﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ جماعات في قرون مضت قرن بعض وتلوه ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أثراً ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ صوتاً، فلا صيت لهم ولا صوت، وإنما موتٌ دون فوت.

= والملائكة المقربين، يا علي إن الله أعطى المؤمن ثلاثاً: المتعة والمحبة والحلاوة والمهابة في صدور الصالحين.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤. (٢) سورة الدخان، الآية: ٥٨.

(٣) سورة القمر، الآية: ١٧.

(٤) سورة الزخرف، الآيتان: ٣، ٤.



سُورَةُ طٰهٍ





## سُورَةُ طه

مكية وآياتها خمس وثلاثون ومائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِمَنْ يَخْشَى  
 ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ  
 اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ  
 الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ  
 إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى  
 نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ  
 عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ  
 نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾  
 إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ  
 السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ  
 عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ  
 يَمْوَسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ  
 فِيهَا مِثْرَبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ  
 تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمْ

يَدَّكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيِّضًا مِّنْ غَيْرِ سَوْءِ آيَةٍ أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِرُبِّكَ مِنْ  
 آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي  
 صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾  
 وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾  
 وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نَسِيحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذُوكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ  
 بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

ملاحم السورة ومصارحها برهان قاطع لا مرد له أنها كلها مكية، وفيها من ذكريات التسلية من تاريخ الرسالات ولا سيما الموسوية، ما تُطمئن خاطر الرسول الأقدس محمد ﷺ وكما تبدأ به ﴿طه﴾ وتختتم به: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ... وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ... وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ... قُلْ كُلُّ مُرْتَبَضٍ فَفَرِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ وبينهما قصص موسى وهارون، ثم آدم وزوجه وهما أهم القصص الرسالية ومعارضتها طول التاريخ الرسالي، وأكثرها ذكراً في الذكر الحكيم.

ويا لها من ظل ظليل يغمر غالبية جوها، علوي جليل تخشع له القلوب وتحار دونه الألباب وتخضع النفوس: تجلي الرب بالوحي بالوادي المقدس على عبده موسى كما تجلي بربوات المقدسين على «فاران» حرى! تلك المناجاة الطويلة في بزوغ وحي التوراة، والليل ساكن وموسى وحيد، وكما ناجى محمداً ﷺ في ساكن الليل والرسول وحيد بفاران، وبين الرسولين والوحيين والكتابين تشابهات منقطعة النظير عن كل بشير ونذير، مما تربط السورة كلها بهذا البشير النذير.

﴿طه﴾ ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾

﴿طه﴾ اسم من أسماء النبي ﷺ نداء كـ «يس» «ن»<sup>(١)</sup> في القرآن أو سواه<sup>(٢)</sup> وهنا ﴿عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَقَ﴾ دليلان اثنان على ذلك النداء، وثانيتها يبرهن على مدى شقائه في مرضاة الله، هيماً في الله، وشغفاً في ذات الله، ابتغاء مرضات الله، اصطناعاً لنفسه أكثر مما هي، واصطناعاً للمرسل إليهم أكثر مما هم، وكما أمر بالأمرين في المزمّل ﴿فُرُّ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلاً . . . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾<sup>(٣)</sup> فقدم الأمر من الأمرين فقام الليل طويلاً طويلاً حتى تورمت قدماه فجعل يرفع رجلاً ويضع رجلاً<sup>(٤)</sup>، وكان يربط نفسه بحبل كي لا ينام<sup>(٥)</sup> ويضع إحدى رجله على الأخرى<sup>(٦)</sup> وقد يروى عن أخيه

(١) ففي القرآن ما في تفسير البرهان ٣: ٢٩ عن التوحيد للصدوق سعد بن عبد الله عن إبراهيم بن هاشم عن غثم بن عيسى عن حماد الطنافسي عن الكلبي عن أبي عبد الله ﷺ قال: قال يا كلبي كم لمحمد ﷺ من اسم في القرآن؟ فقلت: اسمان أو ثلاثة فقال: يا كلبي له عشرة أسماء: وما محمد إلا رسول - ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد - ولما قال عبد الله - طه - يس - ن - يا أيها المدثر - يا أيها المزمّل - قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً - قال: الذكر اسم من أسماء محمد ونحن أهل الذكر . . .

أقول: وقيل إنه من أسماء القرآن أو السورة أو اسم الله أو مفتاح الاسم الطاهر والهادي، والمصدق منها إضافة إلى أنه من أسماء رسول الله ﷺ مفتاحاً لصفات من الرسول ﷺ واسماً للسورة.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٨٩ - أخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: لي عشرة أسماء عند ربي قال أبو الطفيل: حفظت منها ثمانية: محمد وأحمد وأبو القاسم والفتح والخاتم والمأحي والمعاقب والحاشر وزعم سيف أن أبا جعفر قال: الاسمان الباقيان طه ويس.

(٣) سورة المزمّل، الآيات: ١-٧.

(٤) المصدر أخرج ابن مردويه عن علي ﷺ قال: لما نزل على النبي ﷺ يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً قام الليل كله حتى تورمت قدماه فجعل يرفع رجلاً ويضع رجلاً فهبط عليه جبريل فقال: طه - . . .

(٥) المصدر أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل كي لا ينام فأنزل الله عليه طه.

(٦) المصدر أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: كان النبي ﷺ يربط نفسه ويضع إحدى رجله على الأخرى فنزلت طه . . .

علي عليه السلام : لقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه واصفرَّ وجهه يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله عز وجل : ﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ ﴾ بل لتسعد <sup>(١)</sup> ، ويؤوّل «الليل اجمع» هنا بما يناسب آية المزمّل كما أمر ﴿ فُرُ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ حيث قلل قليل النوم لحد كثير حتى صح القول «يقوم الليل أجمع» فلم يكن مخالفاً لأمر ربه، بل مرجحاً إمر الأمر المخير بين مربعه، ثم «لتسعد» بفتح التاء هي إسعاده الآخرين، والمعنيان عليهما معنيان، فتحلّق ﴿ لِتَشْقَى . . . إِلَّا نَذْكِرُهُ ﴾ على شؤون النزول كلها.

وهي بطبيعة الحال عتاب حنون يدل على شغفه البالغ لحدّ رجح الأكثر مما عليه .

وكما يدل على الجهل البالغ في آباء الجهالات حيث نسبوه إلى الشقاء بنزول القرآن، تركاً لما هم فيه وآباءهم من الجاهليات الساقطة ف «بل لتسعد» تفسيراً لمقابل «تشقى» ناظرة إلى شأني النزول، فلا هو شقي بنزول القرآن خلاف ما افتري عليه، ولا عليه أن يتعب نفسه به في نفسه وفي دعوته، فقد وضع عنه إصر مثلث الشقاء عناءً، ورسول الهدى من غير السعادة في الشقاء براء.

ففي ذلك الخطاب العتاب الحنون رد على الذين قالوا «لقد شقي هذا الرجل بربه فأنزل الله طه» <sup>(٢)</sup> وعله مثلث الشقاء، وقد يروى عن طه «إن الله

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٦٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي روي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام عن الحسين بن علي عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام ولقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

(٢) الدر المنثور أخرج ابن مردويه وابن جرير عن ابن عباس وفي تفسير الرازي ٢٢ : ٣ قال مقاتل : إن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك فقال صلى الله عليه وسلم : بل بعثت رحمة للعالمين قالوا : بل أنت تشقى فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم وتعريفاً لمحمد بأن دين الإسلام هو السلام .



تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمة ينزل عليها هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا»<sup>(١)</sup>.

ولأن الرسول ﷺ كان دائب العبودية في أصعبها ليظهر أكثر وأكثر، وكان دائب الدعوة الصارمة حرصاً على هدايتهم، ضائق الصدر عن رداهم، كما ﴿لِتَشْفَى﴾<sup>(٢)</sup> إلا نذكرك لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ لمحة إجمالية عنهما، وفي القرآن المفصل تفصيلهما، فعله لذلك خوطب هنا بظه، إنه الطاهر لقمتهها دون شقاء في العبادة، والهادي لقمتهها دون شقاء في الدعوة، فهو الطاهر الهادي فلماذا يشقى.

إنه ﷺ الطهارة القمه فهو «ط»<sup>(٢)</sup> وهو الهداية القمه فهو «ه» وذلك بعصمة إلهية بما اصطنعه ربه واصطنع هو نفسه، فتكفيه ما فرض عليه ربه في بعدي العبودية والدعوة دون زيادة وعبء فيه شقوة، فيا له من مكرمة ربانية شغفا بالغاً في تحقيق عُدَّة العبودية وتطبيق المسؤولية في الدعوة، لحدّ يقول له ربه قف يا طه. ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾. ﴿إِلَّا نَذْكِرَ لِمَنْ يَخْشَى﴾ وأنت أوّل العابدين وسيد المرسلين وإمام الأولين والآخرين.

أم أنه «طالب الحق الهادي إليه»<sup>(٣)</sup> فكذلك الأمر، حيث الطلب بالعبودية لاصطناع نفسه والهداية لاصطناع غيره.

- (١) المصدر أخرج الدارمي وابن خزيمة في التوحيد والعقيلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إن الله . . .
- (٢) البرهان تفسير الثعلبي في (ظه) قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: طهارة أهل بيت محمد عليه السلام ثم قرأ آية التطهير.
- (٣) نور الثقلين ٣: ٣٦٧ في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وأما طه فاسم من أسماء النبي عليه السلام ومعناه يا طالب الحق الهادي إليه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد. أقول: علّ التاء هنا مفتوحة ومضمومة حملاً على بعدي السعادة لنفسه والإسعاد لغيره.

وأما أن «طه» كلمة معربة عن لغة «عك» أو النبطية أو الحبشية أو السريانية<sup>(١)</sup> فغير وجيه ولا صحيح، ومعناها فيها «يا رجل» فكيف يخاطب أول العابدين وسيد المرسلين بـ «يا رجل» وهو رسول ونبي في سائر القرآن؟ ومع الغرض عن ذلك الغرض في مكانته فلماذا لم يأت «يا رجل» في صيغته العربية، انتقالاتاً إلى لغة أجنبية غير بهية؟! .

ولا أنه بمعنى «طأ» قلباً لهمزته هاءً، قلباً لرجله إلى الأرض بعد رفعها ما رفع، مهما وردت به رواية، فإنها مردودة إلى راويها حيث تنافي القرآن البيان.

كلا! إنه الطاهر الهادي، أو طالب الحق الهادي إليه، كما يروى في أخرى تناسب موقف القرآن لفظياً، والخطاب معنوياً ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ .

ومن الموافقات هنا في منزلة ذلك البدر الساطع المنير أن «طه» حسب حروف الجمل ١٤ .

وهي ليلة البدر، أتراه بعد متخلفاً عن أمر ربه في «تشقى» حتى يُنهي هنا؟ كلا! فإن ذلك كان طبيعة الحال في عبد شكورٍ مثله حتى تأتيه الرخصة تخفيفاً بعد أمره في المزمّل وبعد ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> وكما أجاب سائله «يا رسول الله لم تتعب نفسك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً!»<sup>(٣)</sup> مما يدل على دؤوبته في صعوبة العبودية على تخفيفه منها بعد طه، وقد عدّه الإمام السجاد عليه السلام في

(١) وهي مروية على الترتيب عن الكلبي وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة كما في الدر المنثور.

(٢) سورة المزمّل، الآية: ٥ .

(٣) المصدر في أصول الكافي بسند عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها فقالت: يا رسول الله . . .

قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجله فأنزل الله سبحانه طه .

مجلس يزيد من مفاخره قائلاً: أنا ابن من هو ﴿طه﴾ مَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ﴿١﴾ .

والشقاء منها العناء في طلب الخير تعباً فوق الميسور كما هنا، ومنها العناء من جراء الشر وهي الضلالة في الأولى والأخرى، وساحة الرسول الأقدس براءً عنها، و﴿مَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى﴾ تلمح لمحة لامعة بمناسبة الحكم والموضوع أن نزول القرآن كان له شخصياً ورسالياً منزل الشقاء والعناء ولأنه قول ثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ فالقول الثقيل يقتضي للمقول له العبء الثقيل، والتعبد الثقيل، دون أن يكتفي بالميسور القليل، ولذلك أخذ يتكبد فيما يتعبد حتى جاء أمر الجليل بالتقليل ﴿طه﴾ مَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ﴿١﴾ :

أجل، ليس القرآن مجالاً للشقاء على أية حال، حيث المحور الأصيل فيه في كافة مجالاته وجلواته يُسردون عسر، فإنه ميسر للذكر لكل مدّكر فضلاً عن مَنْزِلٍ وحيه ومهبط رسالته: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾<sup>(١)</sup> فلا تتجاوز تكاليفه طاقة الإنسان أيّاً كان، إذ لا يفرض إلا ما في الطوق والسعة، نعمة دون شقوة ونعمة.

كما أننا ﴿مَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى﴾ في حمل الناس على الهدى، فتغيُّطاً وتضيُّقاً حين لا يؤمنون، واستزادة حين يؤمنون، إذ ليس عليك هداهم، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولا تك في ضيق مما يمكرون، فإنما الغاية القصوى منه محصورة في:

﴿إِلَّا نَذْكِرَهُ لِمَنْ يَحْشَى﴾ تذكرة للمدّكر، وتبصرة للمتبصر، ف﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) سورة القمر، الآية: ١٧ .

(٢) سورة يس، الآية: ١١ .

والاستثناء هنا من أوصل المتصلات دونما انقطاع، ف ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى﴾ في الأولى أو الأخرى، ولا لأمور أخرى ﴿إِلَّا نَذْكِرَةً لِّمَنْ يَخْشَى﴾ ومما يشهد لذلك الحصر أن الذكر هو من أسماء القرآن الأصيلة، ذكراً لكافة الآيات آفاقية وأنفسية جملة وتفصيلاً.

وقد تتوسع ﴿لِتَشْفَى﴾ وما أولها، إلى أنك تشقى وتتعب في نفسك ودعوتك تذكرة لمن يخشى، حيث تنذر به قوماً لداً، فما شقاؤك وعناؤك كرسول إلا للذكرى، وأما أنت يا رسول الهدى فقد يكفيك ما أنت دون نصب في تعبدك فإنك ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

فالمعني إذا - ضمن ما يعنى - ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى﴾ هكذا ﴿إِلَّا شِقَاءَ وَعِنَاءٍ نَذْكِرَةً﴾ بهذا القرآن ﴿لِّمَنْ يَخْشَى﴾! فلولا تعب المذكر في اصطناع نفسه ثم المحاولة في اصطناع غيره، لم تكن التذكرة تلك الكافية البالغة لمن يخشى.

والخشية هي الضراعة في الجوانح كما الخشوع للجوارح، وهي خوف يشوبه تعظيم عن علم بما يخشى منه ف ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>(٢)</sup> وعلى ضوءها الخشية من الحياة الأخرى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا﴾<sup>(٣)</sup>: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

فحين لا تكون خشية فحمل القرآن حملٌ وشقاء، وإذا جاءت الخشية فحمله نعماء مهما كانت فيه من عناء، وأنت يا أول العابدين في شغف بالغ من خشية الله، يسهل عليك كل عناء في سبيل الله، ولكن لا عليك أن تشقى بالقرآن فوق ما عليك.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٣) سورة النازعات، الآية: ٤٥.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٤٩.

ولأن التذكرة ليست إلا عن غفلة، فلتكن مادتها موجودة لمن يخشى، وهي كذلك لمن يخشى ومن لا يخشى، حيث الفطر مفطورة على معرفة أصول المعارف الدينية، والعقول الصافية الضافية تتبناها في نضدها ونضجها، استيحاءً من وحي الله التي يكملها ويفصلها، فالعقول تأخذ من الفطر بشمائلها الميمونة، ومن الوحي بأيمانها الميمونة، وذلك المثلث البارع ينتج ديناً بارعاً لا عوج فيه ولا ريب يعتريه.

وهكذا يكون القرآن تذكرة بالفعل لمن لم تحجب فطرته، ولم تُكسف عقليته، فهو خاش للحق، متحرٍ عن الحق، متربص تشريفه ليتذكر ما استغفل، ويكتمل على غراره ما هو قاصر، فمن يخشى وهو يسعى فالقرآن له ذكرى، ومن لا يخشى وهو يتلهى لم يكن له ذكرى، باقياً في غفلته، باغياً في غفوته وشقوته.

وترى لماذا التعبير عن عبء التعب بـ ﴿لِتَشْقَى﴾ دون صيغته الأصلية السائغة للكتاب البيان؟ لأنه لا يعني - فقط - منعه ﷺ عن التعب البالغ في بعدي الرسولية والرسالية، بل وجواباً عما افتري عليه: «إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك» إذاً ﴿لِتَشْقَى﴾ بيان مجمل جميل عن هذا المثلث، سلباً للشقاء عناءً وغير عناء، وتثبيناً لشقائه وعناؤه بعض الشيء تذكرة لمن يخشى.

إذاً فشقاؤه ﷺ في ﴿لِتَشْقَى﴾ بين موجبة وسالبة، موجبة دون الحرج تذكرة لمن يخشى، وسالبة حدّ الحرج إذ تورمت قدماء، وسالبة ثانية هي فرية المفترين عليه أن في نزول القرآن شقائه إذ خرج عن دين الآباء!.

وطبعاً ليست «لتتعب» لتعني ما عنته ﴿لِتَشْقَى﴾ من مثلث المعنى المعني حسب شؤون النزول هنا.

﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ (٤):

ذلك القرآن المنزل عليك ذكراً وتذكرة لمن يخشى، حقاً فيه الكفاية

لكل تذكرة، دونما حاجة إلى نسخ أو تكملة، لأنه ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ فكما أن خلقه التكوين يعم الكون كله، كذلك كتابه التشريع التدوين يشمل الخلق كله ﴿نَذْكُرُهُ لِمَنْ يَخْشَى﴾ في كل ذكرى تتطلبها الحياة الإنسانية العليا على مدار الحياة ومر الزمن .

وكما ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ﴿سَيِّطْرَةَ مَلِكِيَّةٍ وَمَالِكِيَّةٍ عَلَى الْكُونَ كُلِّهِ، كَذَلِكَ كِتَابُهُ الْعَظِيمُ مَسِيطِرٌ فِي ذِكْرِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ أَجْمَعِينَ .

وهنا في ﴿تَنْزِيلًا﴾ وجوه عدة وجمعها أوجه: نصباً على المفعولية لـ ﴿يَخْشَى﴾ حيث يخشى تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى» .

ونصباً، بديلاً عن «القرآن»: ما أنزلنا عليك القرآن . . تنزيلاً، وثالثاً على المدح والاختصاص: نخص تنزيلاً . . . وذلك الاختصاص هو الذي يؤهله للتذكرة العامة الدائمة، ورابعاً على الحالية للقرآن المنزل، ومربع المحتملات محتملات تحتملها الآية لفظياً ومعنوياً .

وهنا تقابل الأرض للسموات العلى يلمح أنها جنس الأرض الشامل للأرضين السبع، كما تلمح له ثانية ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ فهما - إذاً - تعبيران عن الكون كله ككل كتاب التكوين، تأشيراً عسيراً أن القرآن هو كل كتاب التدوين .

وإشارة أخرى، الأرض هي أراضي القلوب خاشية وغاشية، والسموات العلى هي القرآن حيث تضم كل سماوات الوحي، يحمله الرسول الخاتم ﷺ، فلا شقاء للسموات العلى أن تمطر غزيرة الوحي الهائل على أراضي القلوب، ثم لا شقاء للقلوب في تقبلها تلك الأمطار، لا شقاء العناء ولا غير عناء، مهما شقيت قلوب مقلوبة خاوية عن الهدى، مليئة بالردى .

ثم ﴿الْعُلَى﴾ في مواصفة «السموات» دليل علوها على الأرض كلها

حول أكنافها، محيطة بها، حائطة لها، منزلة عليها من مائها وسائر رحمتها، إذ فالأرض محاطة بالسموات فمدورة كما السماوات، سائرة حائرة في خضمها، غير مائرة في حراكها حيث ﴿اللَّهُ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ (١).

فكما الأمطار تنزل على الأرض من عليا السماوات مكاناً، كذلك القرآن منزل من عليا سماوات الوحي مكانة، إذ ليس لله مكان ينزل منه القرآن، وإنما ﴿تَنْزِيلًا﴾ من عليا الربوبية، إلى دنيا القلوب.

### ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥):

﴿الرَّحْمَنُ﴾ - رَفَعًا، خَبْرًا عن «هو» المقدره، أم مبتدأ لـ ﴿اسْتَوَى﴾ أو «الله» المؤخرة وكلها صالحة - هي من أعم الصفات الإلهية، شاملة لكل الرحمات تكوينية وتدوينية، فهو مستوٍ مستولٍ بعدما خَلَقَ على كل ما خلق تكويناً وتشريعاً، دون تفلت لها عنه تعالى، ولا تلفت له تعالى عنها، فهو المدبر لها كما هو الخالق إياها، سبحانه وتعالى عما يشركون.

فلله عرشٌ قبل خلق السماوات والأرض وهو على المادة الأولية الأم: «الماء» ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (٢).

وعرشٌ بعد خلقهما في حياتهما الدنيا، وقد تعنيهما العرش هنا ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وعرش في قيامتها ﴿وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ (٣) وكل ذلك يعني استيلاءه على الخلق، مهما اختلف الخلق في مثلث نشأته.

ثم لا عرش لله فعلياً قبل خلق الخلق، حيث السلطة تقتضي مسلطاً

(١) سورة فاطر، الآية: ٤١.

(٢) سورة هود، الآية: ٧.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

عليه، اللهم إلا كامناً في حيطته العلمية وفي القدرة في معنى «خالق إذ لا مخلوق».

فالعرش على أية حال لا يعني مخلوقاً هو سبحانه متكياً عليه، مهما كان الملاً الأعلى من العرش حيث تصدر منه أوامره تكوينياً أو تشريعياً بعد الخلق. وجملة القول في ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾<sup>(١)</sup> إنه «استولى على ما دق وجل»<sup>(١)</sup> و«استوى من كل شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء لم يبعد منه بعيد ولم يقرب منه قريب استوى من كل شيء»<sup>(٢)</sup> «استوى تدبيره وعلا أمره»<sup>(٣)</sup> و«من زعم أن الله من شيء فقد جعله محدثاً، ومن زعم أنه في شيء فقد زعم أنه محصور، ومن زعم أنه على شيء فقد جعله محمولاً»<sup>(٤)</sup> وإنما «بذلك وصف نفسه وكذلك هو مستولٍ على العرش بأين من خلقه من غير أن يكون العرش حاملاً له، ولا أن يكون العرش حاوياً له، ولا أن يكون العرش ممتازاً له، ولكننا نقول: هو حامل العرش وممسك العرش ونقول ما قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾<sup>(٥)</sup> فثبتنا من العرش والكرسي ما ثبتته ونفيها أن يكون العرش أو الكرسي حاوياً وأن يكون **مَحْتَاً** إلى مكان أو إلى شيء مما خلق بل خلقه محتاجون إليه»<sup>(٦)</sup> فهو «المستوي على العرش بلا زوال»<sup>(٧)</sup>.

- (١) نور الثقلين ٣: ٣٧١ في احتجاج الطبرسي عن الحسن بن راشد قال: سئل أبو الحسن موسى **عليه السلام** عن الآية فقال: . . .
- (٢) المصدر في كتاب التوحيد عن أبي عبد الله **عليه السلام** أنه سئل عن الآية فقال: . . .
- (٣) المصدر في الاحتجاج عن أمير المؤمنين **عليه السلام** حديث طويل وفيه قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾<sup>(٥)</sup> [طه: ٥] يعني وكذلك (٤) فيه عنه **عليه السلام**.
- (٤) المصدر.
- (٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
- (٦) نور الثقلين ٣: ٣٦٧ في كتاب التوحيد عن أبي عبد الله **عليه السلام** حديث طويل وفيه قال السائل فقوله: الرحمن على العرش استوى، قال أبو عبد الله **عليه السلام**: . . .
- (٧) المصدر في كتاب التوحيد خطبة لأمير المؤمنين **عليه السلام** وفيها: . . .



وعلى الجملة «إن للعرش صفات كثيرة مختلفة له في كل سبب وضع في القرآن صفة على حدة فقوله: رب العرش العظيم - يقول: الملك العظيم، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ يقول: على الملك احتوى، وهذا ملك الكيفونية في الأشياء، ثم العرش في الوصل منفرد عن الكرسي لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، وهما جميعاً غيبان، وهما في الغيب مقرونان، لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه يطلع البدع ومنه الأشياء كلها، والعرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحد والأين والمشية وصفة الإرادة وعلم الألفاظ والحركات والترك وعلم العود والبداء، فهما في العلم بابان مقرونان، لأن ملك العرش سوى ملك الكرسي وعلمه أغيب من علم الكرسي فمن ذلك قال: رب العرش العظيم، أي صفته أعظم من صفة الكرسي وهما في ذلك مقرونان»<sup>(١)</sup>.

ثم الآية التالية بيان لذلك العرش وكما نجد له بياناً في كل آيات العرش:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾<sup>(١)</sup>:

﴿لَهُ﴾ فقط لا سواه ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ومعهما - بطبيعة الحال - السماوات والأرض ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾.

عرفنا السماوات والأرض، فما هو الثرى وما تحت الثرى؟ هذه الآية منقطعة النظير في ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ فما هنالك آية أخرى تفسرها، إلا أن آيات انحصار الكون في السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، تجعل ما تحت الثرى مما تحتها، إما في السماوات أم في الأرض، هذه أم سائر الأرضين المعنية من الأرض؟ فلنفتش عن الثرى وما تحتها في هذه الثلاث.

(١) المصدر عنه بإسناده إلى حنان بن سدير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العرش والكرسي فقال: ...

الثرى هي التراب الندي، أو الذي إذا بلّ لم يصير طيناً لازباً، والأرض الثرية هي الندية والليّنة بعد الجدوبة، وأثرى المطر بلّ الثرى، وفي الحديث «فإذا كلبٌ يأكل الثرى من العطش» أي التراب الندي، وثرى التراب إذا بلّه، وأرض مُثرية إذا لم يجف ترابها.

إذا ف ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ هو ما تحت الترابات الندية للأرض، وهي في الأغلبية الساحقة في باطن الأرض، وهنا الثرى لا تشمل ما في الأرض على أكنافها حيث تشمله ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فلتكن الثرى الترابات الباطنة لها، وهي بطبيعة الحال ندية.

إذا ف ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ تعم كافة المواد الأرضية التي هي تحت تراباتها الندية من ثروات تحت الأرضية كالفلزات والبتروول والفحم الحجري وما إلى ذلك من أثقالها الباطنة تحت ثراها، وإلى الواجهة الخلفية لكل أفق من الأرض، فحينما كانت الكرة الأرضية مستورة الواجهات الأخرى، وراء الآفاق التي كانوا يعيشونها، ف ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ تعني - فيما تعني - خلفيات الثرى كلها من ثرواتها، ومن الآفاق الخلفية الأرضية ورائها.

إذا فآية الثرى من آيات الكروية الأرضية، وكما تلمح لأرضين أخرى هي أيضاً ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ وتوضّحها آية الطلاق ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزَلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾<sup>(١)</sup> أرضون ست أخرى تماثل أرضنا، وهي كلها ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ منبثة حول الكرة الأرضية في خضمّ الفضاء، فإن كل أفق من الأرض ما تحتها واجهة أخرى من الأرض، فأرض أخرى غير هذه الأرض، فقد تحوّل الأرضون الست حول هذه الأرض في مكاناتها، كما أن ما تحت الثرى تعمها كلها.

ولماذا ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ دون «ما فوق الثرى» حين تعني سائر

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

الأرضين؟ لأن المجهول عند الناس حين نزول القرآن وإلى زمن بعيد هو ﴿وَمَا تَحْتِ الْأَرْضِ﴾ وأما ما فوقها وهي السماء بأنجمها فمعروفة للناظرين، إذاً فحق الكلام كما هو: ﴿وَمَا تَحْتِ الْأَرْضِ﴾.

وأصدق ما يروى وأحسنها تفسيراً لما تحت الثرى ما عن رسول الهدى ﷺ حين سئل «ما تحت هذه الأرض قال: خلق، قال: فما تحتهم؟ قال: أرض، قال: فما تحتها؟ قال: خلق، قال: فما تحتهم؟ قال: أرض حتى انتهى إلى السابعة...»<sup>(١)</sup>.

ف «تحت هذه الأرض» تعني تحت الأفق الذي كان يعيشه السائل، وطبعاً فيه خلق، فإن في كل أكناف الكرة الأرضية خلق كما نحن، ثم «ما تحتهم أرض» هي الأرض الثانية، توسعة في التحت لكل أكناف الأرض! إذاً ف ﴿تَحْتِ الْأَرْضِ﴾ تعم التحت المتصل بالأرض وهو ثرواتها، ووراءها، والمنفصل عنها ومنها سائر الأرضين.

وقد تعني ﴿وَمَا تَحْتِ الْأَرْضِ﴾ كل ما نجعله من خلق الله، فتحت ثرى

(١) الدر المنثور ٤: ٢٩٠ - أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك إذ عارضنا رجل مترحّب يعني طويلاً فدنا من النبي ﷺ فأخذ بخظام راحلته فقال: أنت محمد! قال: نعم - قال: إني أريد أن أسألك عن خصال لا يعلمها أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان فقال: سل عما شئت قال: يا محمد ما تحت هذه يعني الأرض قال: خلق... - إلى السابعة - قال: فما تحت السابعة؟ قال: صخرة، قال: فما تحت الصخرة؟ قال: الحوت. قال: فما تحت الحوت قال: الماء قال: فما تحت الماء قال: الظلمة قال: فما تحت الظلمة قال: الهواء قال: فما تحت الهواء قال الثرى قال: فما تحت الثرى ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء فقال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق أيها السائل ما المسؤول بأعلم من السائل قال: صدقت أشهد أنك رسول الله يا محمد أما أنك لو ادعيت تحت الثرى شيئاً لعلمت أنك ساحر كذاب أشهد أنك رسول الله ثم ولى الرجل فقال رسول الله ﷺ: أيها الناس هل تدرون ما هذا قالوا: الله ورسوله أعلم قال: هذا جبريل. أقول: ونحن لا نعلم عما تحت الأرض السابعة مما روي عنه ﷺ شيئاً.

الأرض منها وهو ثرواتها وخلفها المتصل بها، ثم تحتها من سائر الأرضين الست، هذه الثلاث هي من عامة ما كنا نجهلها، وقد عرفنا شطراً منها بعد أمة من الزمن! ثم يبقى علينا الأرضون الأخرى ولمّا نكشف النقاب عنها، وقد صرح بها آية الطلاق كما لمحت لها آية الثرى، هذه!.

وأما ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ككل ما هنالك فـ «هيهات هيهات عند ذلك ضل علم العلماء»<sup>(١)</sup> «عند ذلك انقضى علم العلماء»<sup>(٢)</sup> «وما يعلم تحت الثرى إلا الله»<sup>(٣)</sup> مهما كان الرسول ﷺ والأئمة «جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بهم والحجة البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى»<sup>(٤)</sup> والحجة البالغة على شيء عارف - بطبيعة الحال - ذلك الشيء، فضلال علم العلماء وانقضائه عند ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ يعني غير الحجة البالغة، واختصاص علمه بالله هو حق العلم بما تحت الثرى كما الثرى وما فوقها.

- (١) المصدر عن أبان بن تغلب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الأرض على أي شيء هي؟ قال: على الحوت قلت: فالحوت على أي شيء هو؟ قال: على الماء قلت: فالماء على أي شيء هو قال: على الصخرة قلت: فعلى أي شيء الصخرة؟ قال: على قرن ثور أملس، قلت: فعلى أي شيء الثور؟ قال: على الثرى قلت: فعلى أي شيء الثرى قال: هيهات... .
- (٢) نور الثقلين ٣: ٣٧٢ في تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام سئل عن الأرض على أي شيء هي؟ قال: على الحوت، قيل له: فالحوت على أي شيء هو؟ قال: على الماء، فقيل له: الماء على أي شيء هو؟ قال: على الثرى، قيل له: فالثرى على أي شيء هو قال: عند ذلك انقضى علم العلماء.
- (٣) المصدر في علل الشرائع عن علي عليه السلام قال ليهودي وقد سأله عن مسائل: أما قرار هذه الأرض لا يكون إلا على عاتق ملك وقدم الملك على الصخرة والصخرة على قرن الثور والثور قوائمه على ظهر الحوت والحوت في اليم الأسفل واليم على الظلمة والظلمة على العقيم والعقيم على الثرى وما يعلم تحت الثرى إلا الله... .
- (٤) المصدر في أصول الكافي بإسناده إلى المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يذكر فيه الأئمة عليهم السلام وفيه: جعلهم الله... ومثله في بصائر الدرجات بسند عن محمد الجعفي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ... وفي الكافي عن سعيد الأعرج عنه عليه السلام مثله.

وممن تحت الثرى سكنة سائر الأرضيين، والأنجم العامرة التي فيها مدن كمثل التي في الأرض<sup>(١)</sup>.

والأحاديث الواردة في ترتيب الثرى بما قبلها مجهولة المعنى إلا في تجهيل من سوى الله لما تحت الثرى.

ولنا أن نفتش عما تحت الثرى، كما حصلنا لحد الآن على مواضع منها، وبقيت أخرى لَمَّا نصل إليها، منها ما علَّنا نصل إليها على ركب العلم روحياً وزمنياً مهما ضل عنها الأولون، ومنها ما لن نصل إليها كما يشير إليها أئمة الهدى «عند ذلك ضل وانقضى علم العلماء، وما يعلم تحت الثرى إلا الله».

وبعبارة أخرى وصيغة أخرى، إن العلم الحق وحق العلم بكل ذلك، كما حق القدرة والقدرة الحقة، إن ذلك كله مخصوص بالله تعالى، كما تلمح له «له...» حيث يدل تقديم الظرف على الحصر، ونحن لا نعلم - فيما نعلم منها - إلا ظاهراً ضئيلاً، وجانباً قليلاً ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٢)</sup>!

﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾<sup>(٧)</sup>:

﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ﴾ أيّاً كان، مع ربك كما في صلاتك وسائر دعائك، أم مع غيره أو نفسك، ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ فضلاً عن الجهر.

فلماذا ﴿تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ﴾ مع ربك؟ لأنه لا يعلم السر؟ ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾! أم لأنك تلتذ بسماع صوت الدعاء إلى الله منك أو سواك، فلا عليك إذاً أن تجهر بالقول، أم لأنك تعني بجهرك أن تُسمع الآخرين تشجيعاً

(١) في البحار عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: إن لهذه النجوم التي في السماء مدائن كمثل التي في الأرض مربوطة بعمودين من نور طولها في السماء اثني عشر عاماً.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

على الدعاء أم تعليماً؟ فكذلك الأمر، أم لأنك ترائي في جهرك ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ  
السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ مهما لا يعلم من نيتك السريرة غير الله: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا  
بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾<sup>(١)</sup> سراً وأخفى، ولكن أدب الدعاء يقتضي دون  
الجهر العال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> وأذكر  
رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ  
الْغَافِلِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

ولقد كان النبي ﷺ يجهر - أحياناً - في الدعاء تعليماً، وهو محبور  
دون الجهر العال إلا إذا اقتضت الحال: ف«كان رسول الله ﷺ إذا سلم  
من صلاته يقول بصوته الأعلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك  
وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله ولا نعبد إلا  
إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين  
ولو كره الكافرون»<sup>(٥)</sup>.

هذا ولكنه دون المرتفع العال وكما قال ﷺ لمن ارتفعت أصواتهم «يا  
أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنه معكم  
سميع قريب»<sup>(٦)</sup>.

أجل ولكل قال مجال، ولكل حال قال يقتضيه المجال، فلا جهر

(١) سورة الملك، الآية: ١٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١١٠.

(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١٦: ١٦٣ قد صح ما يزيد على عشرين حديثاً في أنه ﷺ كثيراً  
ما كان يجهر بالذكر وضح عن أبي الزبير أنه سمع عبد الله بن الزبير يقول: كان رسول  
الله ﷺ . . . .

(٦) المصدر عن الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري قال: كنا مع النبي ﷺ وكنا إذا  
أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا فقال النبي ﷺ: . . . .

لإسماع ربنا المتعال، ولا فوق العال على أية حال، فلا مرجح لجهر القول في الدعاء في ذاته بل هو مرجوح غير ممنوح، اللهم إلا لتعليم أو تذكير، أم سن سنة الدعاء، أم حظوة من سماعها تزيد في عمقها.

ثم ذلك هو السرُّ فما هو الأُخْفَى؟ «السر ما أكننته في نفسك، وأخفى ما خطر ببالك ثم أنسيته»<sup>(١)</sup> ثم وأخفى من ذلك الأُخْفَى ما لم تنوّه، أو لم تعلمه ثم تنوّه، أو لم تعلمه فتعلمه أم لا تفعله<sup>(٢)</sup> والأُخْفَى المطلقة في الآية تعمهما وما لن ينوّه أو يعلمه أو يفعله أبداً، مثلث من الأُخْفَى تقابل السر، والكل مقابل الجهر، وهذه الخمس في علم الله سواء: ﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسْرَرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾<sup>(٣)</sup> مهما كان لا سواء بالنسبة لنا علماً وحظوة في الدعاء الجاهرة في رنينها وطينها وحنينها.

وقد يعني ﴿السِّرَّ﴾ ما هو سرُّ عنك كما عن غيرك حيث أنسيته، ثم ﴿وَأَخْفَى﴾ ما لم تعلمه بعد، وما لن تعلمه، حيث السرُّ هو الكائن السرير، فالأُخْفَى هو غير الكائن الذي بالإمكان كونه بعدُ أم لا، وعوان بين السرِّ والجهر هو النجوى، فإنه جهر لمن تناجيه وسر عن سواه، وهي هنا مشمولة للسرِّ، وإن كان مع النجوى كالظرف والمجرور إذ اجتماعاً افتراقاً وإذا افتراقاً اجتماعاً: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّهُ اللَّهُ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧٣ بسند متصل عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] قال: . . . .

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٩٠ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في الآية قال: السر ما أسرّه ابن آدم في نفسه وأخفى ما خفي عن ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه فإنه يعلم ذلك كله فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٠.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٨٠.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٧٨.

فلأن الآية في مقام عرض العلم المحيط، لم تكن الأخرى لتختص بما سوف تعلمه أو تنويه أو تفعله، بل وما لن تعلمه من الحقائق الكائنة في الكون، بل وغير الكائنة كُوتت بعد أم لم تُكوّن، كما السر لا يختص بغير النجوى، إذ فالسرّ هو دون الجهر من القول من نجوى يسمعها صاحبها، ومن إخفات تسمعه في نفسك وقد يسمعه غيرك، أم إخفات لا تسمعه في نفسك وإنما تعلمه وهو النية السريرة.

ومثلت العلم لله: جهرًا وسرًا وأخفى، هي المواطن الثمانية،  
 ١ - جهرًا، ٢ - دون الجهر نجوى، ٣ - إخفاتاً قد يسمعه غيرك، ٤ - إخفاتاً لا يسمعه غيرك وتسمعه في نفسك، ٥ - أم لا تسمعه، ٦ - وسرًا عن نفسك ما كنت تعلمه ثم أنسيته، ٧ - أم لم تكن تعلمه وبالإمكان أن تعلمه، ٨ - أم ليس بالإمكان أن تعلمه.

فهذه الآية تتكفل عرضاً موجزاً عن عرش العلم في مواطنه الثمانية كما آية الثرى عرضت عرش المَلِكِيَّة المَالِكِيَّة المطلقة، فهما إذاً تفسيران لعرش الرحمن ﴿فِي أَيِّ آءِآءٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾<sup>(١)</sup>.

ومن ثم الأسماء الحسنى لذي العرش الواحد القهار، عرضاً لوحدة الأسماء الحسنى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾<sup>(٨)</sup>:

﴿اللَّهُ﴾ قد يكون تعريف التصريح باسم الجلالة بعد المواصفات السابقة السابغة، من ﴿مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ... الرَّحْمَنُ... لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ... فَإِنَّهُ يَعْلَمُ﴾ فذلك المربع الصفات هو ﴿اللَّهُ...﴾ خبراً عن ﴿هُوَ﴾ المحذوفة، وكما أنه مبتدأ لخبريه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ - ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ والجمع

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.



أجمع وأوفر، رباطاً بما قدم وأخر، مهما كانت هنالك احتمالات آخر<sup>(١)</sup>.  
 في سائر القرآن آيات أربع تتحدث عن أسماء الله الحسنى<sup>(٢)</sup> هذه منها،  
 وقد تحدثنا عنها في حشرها<sup>(٣)</sup> ونزيد هنا أن أسماءه الحسنى لا تختص  
 بالصفات ذاتية وفعلية، بل والرعيلى الأعلى من عباده المخلصين هم من  
 أسمائه الحسنى، نتيجة الصفات الفعلية العليا، فإنهم يدلون على الله  
 ويوجهون إلى الله بما يحملون من رسالات الله وحيّاً أو إلهاماً.

وفيما أمرنا أن ندعوه بها ونذر ما وراءها: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا  
 وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾<sup>(٤)</sup> تعم الدعوة الدعاء الخالصة، فهي  
 بالأسماء الأولى، كل دعاء باسم يناسبها، وبواسطة المقربين، سواءً في  
 دعاء الاستغفار وسواه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ  
 وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾<sup>(٥)</sup>.

أم في دعاء المعرفة والعبودية فهي برجات الرسالات حيث يعرفونه  
 كما عرف لهم نفسه، ويبينون طرق عبوديته ومسالك طاعته كما بين لهم.

فدعاء الله بغير الأسماء الحسنى - سواء الأولى أو الأخرى - قبيحة  
 ملحدة نذرها وراءنا ظهرياً ف ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾<sup>(٦)</sup>.

وأحسن الأسماء الحسنى هو ﴿هُوَ﴾ وهو ﴿اللَّهُ﴾ اسمان للذات  
 المقدسة، وهما مذكوران في كلمة التوحيد التي هي أحسن الكلمات، وهي

(١) كأن يقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨] هما وصفان و«الله» خبراً لـ «هو» أما إذا  
 والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه.

(٢) وكذلك الآيات ٧: ١٣٧ و ١٧: ١١٠ و ٥٩: ٢٤.

(٣) في الفرقان ٢٨: ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٥) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

ضمان الجنة كما يروى عن رسول الهدى ﷺ : «ما زلت أشفع إلى ربي ويشفعني وأشفع إليه ويشفعني حتى قلت يا رب شفعني فيمن قال: لا إله إلا الله - قال - : يا محمد! هذه ليست لك ولا لأحد وعزتي وجلالي لا أدع أحداً في النار قال: لا إله إلا الله»<sup>(١)</sup>.

أجل وهي الشجرة الطيبة الطوبى، والكلم الطيب، والحق المتواصى به، والواحدة الموعوظ بها، والوقفة المسؤول عنها، والقول الثابت في الأولى والأخرى.

وقد قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك به، قال: قل لا إله إلا الله - قال: كل عبادك يقولون: لا إله إلا الله! فقال: قل لا إله إلا الله! قال: إنما أردت شيئاً تخصني به! قال يا موسى: لو أن السماوات السبع ومن فيهن في كفة ولا إله إلا الله في كفة لمالت بهن: لا إله إلا الله»<sup>(٢)</sup>.

وهي بطبيعة الحال ليست فقط قالة القال فإنها قال، بل هي قالة حاكية عن الحال على أية حال وهي درجات.

وترى من قالها بقلبه ولمّا تظهر على لسانه دونما ضنّة ولا استكبار، هل هو من أهلها؟ أجل! وإنها أجلُّ من قالها باللسان لأنها حكاية عما في الجنان، وهو محطة الإيمان، فلو عكس الأمر، قالا باللسان دون الجنان فلا إيمان، مهما قبلت كظاهر الإسلام! هذا - ولكن الذي يعتقدها ثم لا يبرزها بلسانه، كيف يُعرف إيمانه في كتلة الإيمان؟ وحتى إذا عرف فما به لا يبرزها باللسان وهو شعار الإيمان وشعورُ بالإيمان! اللهم ﴿إِلَّا مَنْ

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٢: ١٠ عن أنس بن مالك قال: قال ﷺ: ...

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٢: ١١ أن موسى بن عمران قال: ...

(٣) تفسير الرازي ٢٢: ١٠ - أن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: من قام في السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير «كتب له الله ألف الف حسنة ومحا عنه ألف الف سيئة وبني له بيتاً في الجنة.

أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ وطبعاً فيما إن كانت البُقية على نفسه  
أنفس من ظاهرة الإيمان.

ثم بعد اسمي الذات، الأسماء الثلاثة لصفات الذات: الحي العليم  
القدير، ومن ثم سائر التسعة والتسعين هي أسماء صفات الفعل، وكلها  
حسنى.

فاختلاق أسماء الله في أيّ من هذا المثلث إلحاد في أسمائه، كما  
اختلاق رسالة ليست من الله إلحاد في أسمائه.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا  
لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ ومتى أتاه ومن أين وهو أمي ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكُنْتُ وَلَا  
الْإِيمَانِ﴾ (٢) إلا أن يأتيه بالوحي، وقد ذُكرت القصة في القصص بتفصيل أكثر  
مما هنا، وهي بطبيعة الحال مؤخرة عن ﴿طه﴾ وإلا فقد أتاه حديث موسى  
إن كانت مقدمة عليها، مهما كان في النقلين فوارق تُكَمِّلُ كُلَّ الأخرى،  
والاستفهام هنا لتقرير العجَاب عن حديث موسى وأولى به ثم أولى.

فالقصاص تقص الذي حصل لموسى قبل قصته هنا، وهذا بداية الوحي  
الرسالي لموسى بعد وحي النبأ من ذي قبل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ  
حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣).

﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ عَانَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ  
نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَدْوَةٍ مِنْ  
النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٤﴾ : - .

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٣) سورة القصص، الآية: ١٤.

(٤) سورة القصص، الآية: ٢٩.

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ مكثاً يسيراً ﴿إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا﴾ والإيناس هنا مما يلمح أنه كان في برد قارص كما يدل عليه ﴿لَعَلِّي ءَأْتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ كما تلمح إنه ضل الطريق وكان الليل مظلماً ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾<sup>(١)</sup> وكما يقال أنه في رجوعه من مدين ضل الطريق في ليلة ظلماء وبردة قرصاء، وريح عاصفة وغنم له متفرقة وطلق الزوجة، فرأى ناراً فقال لأهله امكثوا، كأنهم كانوا ناظرين فرجة إلهية وهي الآن على مشارفها!.

وقد نهتدي من ﴿أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ إلى تفرسه من هذه النار هدى رسالية بعد ضلاله في سنيّه العشر، كما ﴿لَعَلِّي ءَأْتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ﴾ قد يخبر بهذه الفروسية.

وطبيعة الحال في هذه الفترة الطائلة عشر سنين تقتضي أن يتفرس في رجعته هذه من النار نوراً ﴿لَعَلِّي ءَأْتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ﴾<sup>(٢)</sup> - ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ وعلى هامشه القبس الجذوة لعلكم تصطلون، ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ لعلكم تهتدون.

هنا موسى - وهو بمنصرفه من مدين إلى مصر ومعه أهله - يأنس من جانب الطور ناراً، وذلك - بطبيعة الحال - استئناس شخصي لموسى دون أهله، وإلا فلماذا ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ دون أهله؟ ولو كانت أهله ترى ما يرى فلماذا ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا﴾<sup>(٣)</sup> دون «ألا تستأنسوا ناراً» وقد أكد شخصية الرؤية بـ ﴿إِنِّي﴾ ثم ﴿لَعَلِّي ءَأْتِيكُمْ﴾ دون «تعالوا معي إلى النار» مما

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧٣ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: «أتاكم منها بقبس» يقول: أتاكم بقبس من النار تصطلون من البرد أو أجد على النار هدى - كان قد أخطأ الطريق - يقول: أو أجد على النار طريقاً.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٩.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢٩.

يؤكد أن رؤية النار وأنسها كانت له دونهم، فقد يُطمئن أنه تفرس من النار نوراً، فإن كانت ناراً ف ﴿لَعَلِّيْ ءَاتِيْكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ - ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾<sup>(١)</sup> وإن كانت نوراً ﴿أَوْ أَحَدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ دون «نجد» إذاً فهي في الأصل هدى شخصية، مهما كانت على هامشها هدى الطريق لأهله ﴿لَعَلِّيْ ءَاتِيْكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

وترى أكانت معه زوجته فقط لمكان «أهله»؟ أهله هنا هم جماعة، منهم زوجته لمكان «امكثوا - تصطلون»! وقد تركهم بعد هذه القالة المرددة ثم لا خبر عنهم حتى نهاية الرسالة.

وإن قصص موسى هي أكثر القصص المقصودة في الذكر الحكيم، محلقة على الحياة الولادية والرسالية الموسوية في بنودها الأصيلة، التي تمت بصلة في الدعوة الرسالية وما تبناها أو تبنته من موادها.

وهي تُعرض بمختلف المسارح المناسبة في سور عده كما تناسب جو السورة، وهنا في «طه» يسبقها مطلع يشف عن رحمته تعالى ورعايته لمن يصطفهم لحمل أعباء الرسالة، وبلاغ الدعوة، طمئنة وذكرى لخاطر الرسول الأقدس ﷺ القريح الجريح من أذى المشركين ولظاهم وكما هي الحال في ذكريات سائر الرسالات ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وكما هي في سائر مجالاتها وحلقاتها، إذاً فلا تكرار في جلواتها، إلا تكراراً لمجالاتها المناسبة لها، كل على قدر.

وترى كيف «رأه ناراً» وهي في الحق كان نوراً تشبه النار؟ إنها في رؤيته البدائية ومن بعد كانت ناراً! ولأنه لم يتأكد كونها ناراً قال ﴿إِنِّيْ ءَأَنْسْتُ نَارًا﴾

(١) سورة القصص، الآية: ٢٩.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٩.

(٣) سورة هود، الآية: ١٢٠.

دون «رأيت ناراً» ثم ﴿لَعَلِّي﴾ مرددةً بين ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْبَاقِيَاتِ﴾ أو أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿تؤكد أنه لم يتأكد كونها ناراً، مهما احتملت ﴿لَعَلِّي﴾ عدم التأكد من أحد الأمرين إذا كانت ناراً، وهي قائمة مقام إن شاء الله! .

والنيران خمس: نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى، ونار محرقة بلا نور وهي نار جهنم، ونار تجمعهما وهي المعروفة لدينا، ونار لا حرقة فيها بالفعل ولا نور وهي نار الشجر الأخضر فمنه توقدون، ونار كل مادة تظهر في التفجرات الذرية.

و﴿حَدِيثُ مُوسَى﴾ (٩) إِذْ رَأَى نَارًا ﴿هو ما حدث له بالفعل لأول مرة في بزوغ الوحي الرسالي، ولماذا ﴿أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ دون «من النار» لأن قضية الحال في النار الموقدة في الصحراء أن عندها أهلاً عليها فهم يهدوننا الطريق، أم أن على النار نفسها هدى وكما اهتدى بما أوحى له منها.

ثم «قبس» كما هنا، و«جذوة» كما في القصص هما بمعنى، وهو قطعة منها تتجزى ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (١) وتستوقدون فتعملون بها لأنفسكم ناراً بها تكتفون (٢).

(١) سورة النمل، الآية: ٧.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٩٠ - أخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال: لما رأى موسى النار انطلق يسيراً حتى وقف منها قريباً فإذا هو بنار عظيمة تفور من ورق شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العليق لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرم ما ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرة وحسناً فوقف ينظر لا يدري ما يصنع إلا أنه قد ظن أنها شجرة تحترق وأوقد إليها موقد فنالها فاحترقت وإنه إنما يمنع النار شدة خضرتها وكثرة مائها وكثافة ورقها وعظم جذعها فوضع أمرها على هذا فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه فلما طال عليه ذلك أهدى إليها بضغث في يده وهو يريد أن يقتبس من لهبها فلما فعل ذلك موسى مالت نحوه كأنها تريده فاستأخر عنها وهاب ثم عاد فطاف بها ولم تنزل تطمعه ويطمع بها ثم لم يكن شيء بأوشك من خمودها فاشتد عند ذلك عجبه وفكر موسى في أمرها فقال: هي نار ممتعة لا يقتبس منها ولكنها تتضرم في جوف شجرة فلا تحرقها ثم خمودها على قدر عظمها في أوشك من طرفة عين فلما رأى موسى ذلك قال: إن لهذه شأنًا =

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ :

وأخيراً أتاهها ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَىٰ﴾ أمن النار أم من الشجرة الطالعة منه النار، تقص لنا القصة إنها من الشجرة المنورة المباركة: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَىٰ إِيَّاتِ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup> وطبعاً من النور المتطلعة عليها ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا...﴾ .

أو كان هناك في الشجرة أم نارها النور تجل من الله، حتى نودي موسى منها ﴿يَمْوَسَىٰ إِيَّاتِ أَنَا اللَّهُ﴾؟ حتى يهرف هارف ويخرف خارف ﴿إِيَّاتِ أَنَا اللَّهُ﴾ قائلاً:

روا باشد «انا الحق» از درختي چرا نبود روا از نيکبختي!:

إذاً جاز لشجرة أن تقول: إني أنا الله، فلماذا لم يجز من سعيد مثلي:

= ثم وضع أمرها على أنها مأمورة أو مصنوعة لا يدري من أمرها ولا بما أمرت ولا من صنعها ولا لم صنعت فوقف متحيراً لا يدري أيرجع أم يقيم، فيينا هو على ذلك إذ رمى بطرفه نحو فرعها فإذا هو أشد مما كان خضرة ساطعة في السماء ينظر إليها يغشى الظلام ثم لم تزل الخضرة تنوراً تصفر وتبيض حتى صارت نوراً ساطعاً عموداً بين السماء والأرض عليه مثل شعاع الشمس تكلُّ دونه الأبصار كلما نظر إليه يكاد يخطف بصره فعند ذلك اشتد خوفه وحزنه فرد يده على عينيه ولصق بالأرض وسمع الحنين والوجس إلا أنه سمع حينئذ شيئاً لم يسمع السامعون بمثله عظماً فلما بلغ موسى الكرب واشتد عليه الهول نودي من الشجرة فقيل: يا موسى فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه وما كان سرعة إجابته إلا استنأساً بالأنس فقال: ليك مراراً إني لأسمع صوتك وأحس حسك ولا أرى مكانك فأين أنت! قال: أنا فوقك ومعك وخلفك وأقرب إليك من نفسك فلما سمع هذا موسى علم أنه لا ينبغي هذا إلا لربه فأيقن به فقال: كذلك أنت يا إلهي فكلامك أسمع أم رسولك، قال: بل أنا الذي أكلمك، فادن مني فجمع موسى يديه في العصا ثم تحامل حتى استقل قائماً فرعدت فرائضه حتى اختلفت واضطربت رجلاه وانقطع لسانه وانكسر قلبه ولم يبق منه عظم يحمل آخر فهو بمنزلة الميت إلا أن روح الحياة تجري فيه ثم زحف على ذلك وهو مرعوب حتى وقف قريباً من الشجرة التي نودي منها فقال له الرب تبارك وتعالى: ما تلك يمينك... .

(١) سورة القصص، الآية: ٣٠.

منصور الحلاج - أم بايزيد البسطامي - أن أقول: أنا الله، حيث تجلى في الله كما في الشجرة.

نص الآية «نودي يا موسى - من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة - : إني أنا الله» فالشجرة - إذاً - هي - فقط - مذياع النداء من نورها، وليس يلزمه أن يكون المذيع بذاته فيها، وكما الملائكة يحملون نداءات الله ولا يحملون ذات الله، فالنداء - كما الشجرة والنار النور - هي من فعل الله، ومهما كان لنداء الله سمت وصوت، فليس لذات الله سبحانه سمت ولا صوت، وإنما حَلَّقَ منه كسائر خلقه، من دون لسان ولا شفه ولا أي عضو، فإنما صوت مخلوق في الشجرة، كما يخلق في الألسنة، والفارق هو خرق المتعود من الصوت النداء، وكما أن أصل الوحي خرق لعادة التعليم، فذلك النداء خارقة في خارقة، بارقة في بارقة نور النار في الشجرة المباركة الميمونة.

لقد كان هذا النداء الرباني من نور من هذه الشجرة من جانب الطور الأيمن ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾<sup>(١)</sup> وهي الزيتون ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿وَالطُّورِ﴾<sup>(٤)</sup> وَكُنْتُمْ مَسْطُورِينَ ﴿٦﴾ في رَقِّ مَشُورٍ ﴿٣﴾ ﴿وَطُورِ سَيْنَاءَ﴾<sup>(٥)</sup>.

آيات بينات تتجاوب مع بعض في مذياع النداء لموسى أنه النور الساطع من الشجرة الزيتون في البقعة المباركة من شاطئ الواد الأيمن، دون أن

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٠.

(٢) سورة مريم، الآية: ٥٢.

(٣) سورة القصص، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الطور، الآيات: ١-٣.

(٥) سورة التين، الآية: ٢.



يكون المذيع ماكناً فيها، أم متجلياً لها، اللهم إلا بأنوار وحيه في صوغ كلامه لسوق وحيه إلى موساه، ولذلك يقول هنا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ وهي هنا ربوبية الوحي، وهناك ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ حيث الوحي موجّه إلى العالمين «ربك» وحيّاً إليك و«رَبِّ الْعَالَمِينَ» فإنه بلاغ منك إلى العالمين!

فلقد كان يرجو ناراً فأوتي نوراً ف «كن لما لا ترجو أرجي منك لما ترجو فإن موسى ﷺ ذهب يقتبس ناراً فانصرف إليهم وهو رسول نبي فأصلح الله تبارك وتعالى أمر عبده ونبيه موسى في ليلة وكذلك الله تعالى يفعل بالقائم الثاني عشر من الأئمة يصلح الله أمره في ليلة كما أصلح الله أمر موسى ويخرجه من الحيرة والغيبة إلى نور الفرج والظهور»<sup>(١)</sup>.

وقد عبر عن مجيء وحيه بجيئته تعالى لأنه إتيان ربوبيته وحيّاً إلى رسله وكما في الأصل العبراني في التوراة تبشيراً بمهابط الوحي الثلاثة:

«وَزَيْتُ هَبْرَ أَخَاهِ أَشْرَ بَرِّخَ مُوشِهَ إِيشَ هَا إِلهِيمَ إِثْ بِنِي إِسْرَائِيلَ لِغْنِي مُوتُوا وَيُومِرُ يَهُوَاهُ مِسِينِي بَاؤ. زَارِحَ مَسْعِيرَ لَامُوا هُوَ فِيعَ مَهَرِ فَارَانُ وَأَتَاهُ مَرِيْبُتْ قُدْسُ مِي مِينُوا إِشْ دَاتْ لَامُوا». (سفر التثنية ٣٣ : ١ - ٢).

«وهذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل عند موته ١ وقال: الله من سيناء جاء. تجلى من ساعير، تلعلع من جبل فاران، وورد مع آلاف المقدسين، من يمينه ظهرت الشريعة النارية»<sup>(٢)</sup>.

وقد جاء مثلها في دعاء السمات «وبمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلمت به عبدك ورسولك موسى بن عمران، وبطلعتك في ساعير، وظهورك في جبل فاران بربوات المقدسين وجنود الملائكة الصافين وخشوع الملائكة المسبحين».

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٤٤ عن أبي عبد الله ﷺ .

(٢) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٤٤ - ٥٣ تجد تفصيل البيان حول هذه البشارة الموسوية ومن حبقوق النبي ﷺ .

وعلى أية حال فلا تجلّي هناك للذات ولن يكون، وإنما جلوات من ربوبية الوحي على موسى كما على المسيح ومحمد ﷺ وسائر المرسلين مهما اختلفت الدرجات والكيفيات .

﴿فَلَمَّا أَنهَا﴾ وفي خلدّه أن يقتبس منها قبساً لعلهم يصطلون أو يجد على النار هدى، فإذا فاجأته هذه الجيئة بنداء من الرب، وطبعاً هو عرف أنها نداؤه دون ريب، فإن ذلك هو طبيعة الحال في الوحي وإن لم تسبق له سابقة، فالذي يوحي إلى عبده، يوحي له معه أنه وحيه، فإنه لزام استقرار الوحي في مستقره، دون أية ريبة فيه، ولا شبهة تعتريه .

لا فحسب رجالات الوحي يعرفون نداء الوحي، بل الإلهامات الإلهية - كذلك - معروفة لدى أهلها قضية تقوى الله، والتوسم الحاصل منها: ﴿يَأْتِيهَا اللَّزِيكُ ءَأَمْتُوا إِنْ تَنَفَّوْا اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾<sup>(١)</sup> وكلما كانت التقوى أقوى فالفرقان على ضوئها أقوى، حتى إذا كانت عاصمة معصومة، ففرقانها أيضاً عاصم معصوم، لا يخالجه شك ولا ريبة .

وقد يروى أنه «لما نودي يا موسى قال ﷺ : من المتكلم؟ فقال : أنا ربك - فوسوس إليه إبليس اللعين لعلك تسمع كلام شيطان! فقال ﷺ : أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بأني أسمع من جميع الجهات بجميع الأعضاء!». ومهما يكن من شيء فلا ريب أنه عرف كونه كلام الرب وحيّاً ومن سائر الجهات، إذ كان الكلام دون جهة من النور خارق العادات، سمعه بكل كيانه سمع الأذن والقلب، وسمع الفؤاد المتفئد بنور المعرفة القمة، فأصبح هو بكله سمعاً وسماعاً .

وقد تنادي ﴿نُودِي﴾ مجهولاً، دون «ناديته» أن لم تكن نور الشجرة مجلّي لذات الرب سبحانه، وإنما خلق فيها صوت النداء دون جهة خاصة .

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٩ .

وعلى أية حال كان ذلك وحيًا دون وسيط ملك الوحي، مهما كان بوسيط كلام من لسان النور الساطع من الشجرة، حجابان اثنان، حيث الوحي درجات عدة كما يقول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ (١).

فَقَرْنُ «وحيًا» بـ ﴿مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ قرينة أنه يعني وحيًا بلا أي حجاب، اللهم إلا حجاب الذات القدسية الألوهية، وقد حصل ذلك الوحي - فقط - للرسول الأقدس محمد ﷺ ليلة المعراج، أم وليلة القدر حيث أنزل عليه القرآن المحكم، دون أي وسيط، لا ملك الوحي، ولا كلام ولا نور ولا نار ولا شجرة أمأهيه من وسائط وحجب، وإنما من الرب إلى قلبه القدسي الرسالي القمّة: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (١٠).

وهو في مقام «أو أدنى» وهو لما تدلّى، خالعا نعل نفسه وحجاب ذاته بعد سائر الحجب، فلم يكن حينئذٍ بينه وبين الله أحد حتى نفسه! (٢).

وقد لا يكون سائر الوحي إلى سائر رجالات الوحي وحيًا أمام ذلك الوحي وكما في الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ (٣).

كما وأن صاحب ذلك الوحي القمّة كأنه هو الرسول النبي لا سواه، بما طواه وحواه، وهو لامح من آيات عدة تخاطبه كأنه هو الرسول لا سواه.

وأما متن النداء الأولى لموسى - وما أمتنها وأمكنها في قلبه بما طواه

وحوى - فهو:

(١) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٢) راجع الفرقان تفسير سورة النجم حول آيات المعراج.

(٣) (٤٢: ١٣).

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ إني المكلّم إياك «أنا» لا سواي ﴿رَبُّكَ﴾ بربوبية رحيمية خاصة ﴿فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ﴾ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ .

وفي مفاجأة هذه الجيئة، بهذه المشاهدة المنيعة، لقد كان القلب يجف والكيان يرتجف، موسى الفريد في صمت مخيم، بليل دامس، ويرد قارص وهو كارث، وأهل بلا حارس، فإذا بنداء لم تسبق لها نظير ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ...﴾!

فأين هذه الذرة الصغيرة الهزيلة التي تتلاعب بها الرياح، وواجهة الجلال الذي لا تدركه الأبصار، وتحار دون معرفته الأفكار، وتتضاءل في ظله الظليل كل حقير وجليل، أين هي كما هيه وتلقي ذلك النداء العال من الرب المتعال، لولا اختياره؟! .

وإنها لحظة ترتفع فيها البشرية، فبحسبها أن يليق في جزء من أجزائها أن تتصل هكذا بالملأ الأعلى، وأفضل منه وأعلى، أن يخاطبها الله بذلك النداء! .

﴿يُمُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ﴾ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ فأنت الآن يا موسى بقرب من الحضرة العلوية، فتجرد عن نعليك، ولا تطأ الوادي بهما وهو مجلى الطلعة المقدسة الربانية! .

أترى ﴿فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ﴾ لـ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾؟ وقد كان يعلم موسى أنه هو ربه ولم يكن خالغ نعليه، وليس الذي حدث الآن معرفة له جديدة أنه هو ربه حتى يخلع نعليه لـ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾!

ثم وليس على كل موحد لله أن يخلع نعليه على أية حال، وإنما ﴿فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ﴾ لـ ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ .

والواد المقدس الذي طواه، هو واد الوحي الرسالي، وهو أقدس واد في الكون، فليكن طاويه أقدس من في الكون، وخلع النعلين هو من كمال القداسة المناسبة لواد الوحي .

عرفنا الواد المقدس وهو مهبط الوحي فما هي «طوى» التي طوى ذكرها آيتا طوى ثانيتهما النازعات ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾<sup>(١)</sup>.

قد تكون ﴿طُوًى﴾ اسماً للواد المقدس، أم اسم وصف له لأن الوصول إليه بحاجة إلى طي مسافات بعيدة من مسالك المعرفة والعبودية أمأهيه، ولكنه يقتضي قلب التعبير كـ «إنك بطوى الواد المقدس» فالواد بَدَلٌ - إذاً - عن طوى أم عطف بيان.

أم هي مصدر الطي، منصرفاً خلاف الأولى، حالاً عن الواد المقدس وعن موسى، فهي بمعنى الفاعل والمفعول مبالغة في الطي، فاعلاً للواد المقدس حيث طوى موسى، ومفعولاً لموسى المطوي به عما سوى الله، وعما سوى الوحي، فليخلع نعليه اللذين طواه عن نور الوحي، فليكن موسى طُوًى كما الواد المقدس طوى، طياً عما طواه وحواه من حُجْب، إلى ما طواه من الوحي وحواه في الواد المقدس، فلما طوى ما طوى عن أهله وتجلل عنهم وسواهم، طواه الله بالوحي بعد انتشار حاله وتفرق باله.

وقد تكون ﴿طُوًى﴾ مثلث المعنى، اسماً وصفيّاً للواد المقدس وحالاً عنه وعن موسى، ويا له من سمو المعنى.

ثم وما هما النعلان اللذان أمر هنالك بخلعهما ﴿فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾؟ أهما نعلا رجلية؟ إذ كانتا من جلد حمار ميت<sup>(٢)</sup> ولبس الميتة غير مشكور، وهو في الصلاة محذور، وطوى الواد المقدس هي كالصلاة بل أولى، لذلك فرعت ﴿فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ﴾ على ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ

(١) سورة النازعات، الآية: ١٦.

(٢) تفسير البرهان ٣: ٣٣ ابن بابويه في الفقيه سئل الصادق عليه السلام عن الآية قال: كانتا من جلد حمار ميت وفي الدر المنثور ٤: ٣٩٢ أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاكم عن علي عليه السلام مثله.

طُوًى ﴿ وكان الواجب عليه خلعهما دون أمر، مع ما في لبسهما في الصلاة والواد من غضاضة ﴾<sup>(١)</sup>.

إلا أننا لا نعرف غضاضتها في الشريعة الموسوية وحتى في الصلاة! ولبس الميتة لا يلازم صحبتها في الصلاة، بل ولا يصح لبس النعل الطاهرة فيها لقداسة الموقف، وقدسية الواد كانت بحاجة إلى بيان وقد تبين ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾.

قد يعني ﴿ نَعَلَيْكَ ﴾ مصاديق لهما عدة، أولاهما في المظهر وأولاهما في

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجبة القائم عليه السلام حديث طويل وفيه قلت: فأخبرني يا بن رسول الله عن أمر الله لنبية موسى: ﴿ فَاخْلَعْ نَعَلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢] فإن فقهاء الفريقين يزعمون أنها كانت من إهاب الميتة قال صلوات الله عليه: من قال ذلك فقد افتري على موسى واستجهله في نبوته لأنه ما خلا الأمر فيها من خطيئتين: إما أن تكون صلاة موسى فيها جائزة أو غير جائزة فإن كانت صلواته جائزة لابسها في تلك البقعة إذا لم تكن مقدسة وإن كانت مقدسة مطهرة فليست بأقدس وأطهر من الصلاة وإن كانت صلواته غير جائزة فيها فقد أوجب على موسى عليه السلام أنه لم يعرف الحلال من الحرام وعلم ما جاز فيه الصلاة وما لم يجز وهذا كفر، قلت: فأخبرني يا مولاي عن التأويل فيها قال صلوات الله عليه: إن موسى ناجى ربه بالواد المقدس فقال: يا رب إني قد أخلصت لك المحبة مني وغسلت قلبي عن سواك وكان شديد الحب لأهله فقال الله تعالى: اخلع نعليك أي انزع حب أهلك من قلبك إن كانت محبتك لي خالصة وقلبك من الميل إلى من سواي مغسول».

أقول هذا الحديث معارض بما تقدم، ثم هو متهافت من جهات عدة، منها «جاز لبسها في تلك البقعة إذا لم تكن مقدسة» وهي مقدسة حسب نص الآية! اثم «فليست بأقدس وأطهر من الصلاة» وهي أقدس منها لأنها بقعة الوحي ومعراجها أرفع من معراج الصلاة! ثم «فقد أوجب الله على موسى أنه لم يعرف الحلال من الحرام» ولماذا، فحين لا يعرف أنها بقعة مباركة، على الله أن يعرفه كما عرفه ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ ولما عرف خلع نعليه، ثم «وعلم ما جاز فيه الصلاة وما لم يجز وهذا كفر»، ماذا يعني؟ فهل هو علمه بالنسبة للصلاة وجهله حكمه بالواد المقدس، وأين الكفر هنا أو الفسق والوحي يعلمه هنا أنه الواد المقدس فاخلع، ثم لا نعلم أن ذلك الخلع كان واجباً في الصلاة كما هنا أم لا، إذاً فالحديث متضارب في نفسه بعد تعارضه الحديث الأول، وعلل الحق ما قلناه في المتن - تأمل.

الظهور هما النعلان الملبوستان، وهذه طبيعة الحال في كل واد مقدس يطوي وارده طياً وينطوي فيه انطواءً، فكما أن أدب الحضور في الصلاة - وهي معراج المؤمن - يقتضي إصلاح الأدب الظاهر على ضوء الباطن، لیساً لطاهر الثياب ومحللها ونظيفها، كذلك خلع النعلين مهما كانا نظيفين فإنهما للمشي في الطرقات دون الغرف المفروشة فضلاً عن الواد المقدس طوى، الذي هو أقدس من الصلاة وأطوى، حيث العلوم الربانية فيها مطوية، فالحفاء هناك أقرب إلى التواضع والحفاوة، ولأنه يلاصق قدمه الوادي فيتبرك به، كما هو يتبرك ببركة الوحي الرباني، فكيف يقدم الواد المقدس طوى وهو مطوي تعلقاً بغير الله، أم في رجله بنعليه، أما هي من تعلقات تنافي الحضور المطلق.

وفي هذه الآية لمحة أكيدة أن لبس النعلين حالة الصلاة غير مشكور، بل هو محذور، ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ولأنهما لم تقرنا بوصف الميتة أم سواها من محظورات، نتلمح أن أصل النعلين غير صالح بالواد المقدس، وأي وادٍ أقدس لنا من وادي الصلاة وهي معراج المؤمن، وحالة التطامن والذل لا يناسبها الوقوف بمظهر الماشي في الطرقات، وقايةً عن القذارات، اللهم لمن اضطر غير متجانف لإثم فلا إثم عليه، كحالة الحرب والفرار عن المحذور، والرواية القائلة إن النبي ﷺ صلى في نعله قاحلة مفترية عليه جاهلة<sup>(١)</sup>.

ومن ثم الأهل زوجة وأولاداً، حيث يتمشى بهما الأهل في حياته،

(١) في تفسير الفخر الرازي ٢٢: ١٨ وقد صلى النبي ﷺ في نعليه ثم خلعهما في الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال: ما لكم خلعتم نعالكم؟ قالوا: خلعت فخلعنا قال: فإن جبريل أخبرني أن فيها قدراً أقول وأقدر منه نسبة هذه الفعلة الهاتكة إلى النبي ﷺ تاركاً أمر ربه ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

﴿هُنَّ لِيَاسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسُ لَهُنَّ﴾<sup>(١)</sup> والنعل من اللباس<sup>(٢)</sup> والسالك إلى الله، وإلى وادي المقدس طوى، عليه أن ينسى أهليه وعبأهم في هذه السبيل، قدر ما هم يصدون عن السبيل، أم عن تكملتها، أم يخرج حبهم عن قلبه، مهما يهتم بأمرهم قدر الواجب في شرعة الله، فخالص الحب في الله، ولا سيما بالنسبة لمن يحمل رسالة الله، لا يلائمه حب غير الله، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾<sup>(٣)</sup> وليكن قلب الرسول مليئاً كافة من حب الله والحب في الله.

وكذلك الأمر «خوفيك» خوفه من ضياع أهله وقد خلفهما بمخض، وخوفه من فرعون<sup>(٤)</sup> ﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾<sup>(٥)</sup>.

فحين يريد الله أن يبلغ موساه إلى مدرجة الوحي، بالواد المقدس طوى، وهو مطوي قبله بالكثرات، يتليه بالعسرات، حيث يسלט عليه البرد وهو مع أهله في الصحراء، وظلمة الليل، وتفرق الماشية، ومخاض المرأة، وعدم انقذاح الزندة، وضلال الطريق حتى اندهش بغاية الدهشة، واستوحش بالغ الوحشة، ثم يريه نوره بمظهر النار المؤنسة، ويبلغه إلى الواد المقدس طوى، طالباً منه ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

ومن ثم رابعة: الخلع، أن يخلع نعلي الدنيا والآخرة، ألا يهوى فيهما

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) ورؤيا النعل والحذاء في المنام تعبر بالزوجة، ومن يقظته أن إبراهيم لما ذهب إلى مكة ليزور إسماعيل فلم يجده في بيته ولم تستقبله زوجته، قال لزوجته: إذا جاء إسماعيل فقول له: بدّل حذاءك، فلما سمعها إسماعيل طلقها تعبيراً للحذاء بالأهل.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

(٤) تفسير البرهان ٣: ٣٣ - ابن بابويه بإسناد متصل إلى الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال في قوله لِيُخْلَعْ لِمُوسَى: اخلع نعليك يعني ارفع خوفيك . . . . .

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.



ولا منهما إلا رضوان الله، دون هوات النعيم في الأولى، ولا لذاته في الأخرى، فإن نعيم القرب والرضوان أنعم من نعيم الآخرة والأولى.

وخامسة هي انخلاءه عن نعلي الحجب: حجاب الإنية الذاتية، والحجب الخارجية، حتى يستعد للوحي في مقام قاب قوسين ذنواً إلى الله حيث ليس بينه وبين الله أحد، وكما يسأل الإمام الصادق عليه السلام ما تلك الغشبية التي تعترى رسول الله ﷺ؟ قال: ذلك هو الوحي، ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد.

وسادسة هي انخلاءه عن نعلي الروح والجسم، حيث الحيوية المتعوده تتبناها، فليتركهما وحالهما، متجرداً بقلبه إلى الله، سافراً سافراً إلى الله، لا يحسب نفسه شيئاً بجنب الله، متغافلاً عما لديه عند الله، متحللاً عما سوى الله، متعلقاً ككل بالله.

هذه أماهيه من نعال فيها انشغال عن الله، عليه أن يخلعهما ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾! فالنعل ما يمشى بها إلى بغية، مادية أم معنوية، فإذا موسى واصل إلى بغيته القصوى، إلى الواد المقدس طوى، فليخلع نعليه، واقفاً حافياً بقدميه، حيث يمشي منذ الآن ويُمَشِّي براحلة الوحي من الله، فلا حراك له بعد ولا سكون إلا بالوحي، دون سائر التعلقات والوسائل الماشية سوى الوحي، فإنه منذ الآن مختار الله.

﴿وَأَنَا أَخْتَرُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (١٤):

وترى موسى المختار لربه هو أدنى من الواد المقدس حتى يؤمر بخلع نعليه؟ أجل! إنه كموسى قبل أن يوحى إليه أدنى من الوحي وواديه، وليست قدسية الوادي إلا بقدسية الوحي، فإن شرف المكان بالمكين، فلا قداسة ولا نحوسة لمكان أو زمان، إلا بما حل في مكان أو زمان، وقد حلت بارقة الوحي البازغة لموسى في ذلك الواد، فقدس بها كما قدس موسى، وأمر أن يخلع نعليه ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

وذلك حكم عام لكل وادٍ مقدس، كالمساجد وحضور الرسول ﷺ والأئمة<sup>(١)</sup> أم قبورهم، حرمة لله، وتبجيلاً للمقربين إلى الله.

هنا موسى خيرة الله - وطبعاً على علم - على العالمين، وإلا فكيف يُبعث رسولاً إلى العالمين، كما هو الصيغة الشاملة لكافة المرسلين، إنهم خير العالمين باختيار رب العالمين.

﴿أَخْتَرْتُكَ﴾ هنا هي بصيغة أخرى هي أدل وأحرى في ﴿طه﴾ نفسها. . . . ﴿فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَفَيْتَ لِنَفْسِ ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَلِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾<sup>(٢)</sup> و﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَ لَمِ يَكْفُؤْكَ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٣﴾﴾<sup>(٣)</sup> أَجَلٌ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾<sup>(٤)</sup>: تصريحات أربع تبين محتدة الرفيع التربوي الرسولي والرسالي! .

أجل والرسول كلهم صنائع الرب لنفسه، ليحمّلهم رسالاته آمنين مأمونين، حتى لا تشوبهم شائبة، ولا تنال منهم نائلة نائبة، فتصبح مساعيهم خائبة.

فيا لموسى تكريماً كريماً أن يختاره الله ويصطنعه لنفسه، وهكذا تكون رسالة الوحي، لا تُستحق على الله، فإنها خيرة الرب لا سواه، وليست سائر الأسباب للمختار برسالة الله، إلاّ تقدمة لظرفها الصالح لها، دون أن تكون المساعي الشخصية، أو الشوراءات، لها مدخل قاطع في تلقي الوحي،

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧٤ في الخرائج والجرائح قال علي بن أبي حمزة: كنت مع موسى ﷺ (أي موسى بن جعفر) بمنى ثم مضى إلى دار بمكة فأتيته وقد صلى المغرب فدخلت عليه فقال: اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى فخلعت نعلي وجلست معه.

(٢) سورة طه، الآيات: ٤٠ - ٤٢ .

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤ .

(٤) سورة طه، الآية: ٣٩ .

فإنما هي خيرة الله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنَ النَّاسِ﴾ (١).  
 فهي إذا رعاية الرحيم الرحمن لهذا الإنسان ﴿فَيَأْتِيءَ آءَالَآءَ رَبِّكُمَا  
 تَكْذِبَانَ﴾ (٢)؟

والاختيار افتعال من الخير، فقد يختار الإنسان نفسه بما يعتمل من  
 صالحات فيكتمل، ولكنه لقصوره في ذلك الاختيار لا يصل إلى القمة وهي  
 العصمة علمية وعملية وتطبيقية.

ولكنه حين تمتد إليه يد الرحمة الإلهية الخاصة، بعدما سعى سعيه وقد  
 اختار له ربه ظروف السعي العليا منذ أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، وإلى  
 الولادة والنضوجة العقلية، آنذاك تشمله الخيرة الإلهية الثانية لإفاضة العصمة  
 والتسديد الرباني، فهو مختار الله في أبعاد ثلاثة، والزاوية الوسطى بينها هي  
 مساعي العبد باختياره على ضوء ما قدم الله له من قبل، ونظرة ما يؤخره له  
 من بعد، والله الأمر من قبل ومن بعد.

وهاتان آيتان بدائيتان من الوحي القدامي أمام وحي الرسالة، تهيئتان  
 لموسى ظرف الاستماع لذلك الوحي بسمع القلب وقلب السمع، ﴿فَأَسْتَمِعْ لِمَا  
 يُوحَىٰ﴾ وكان سامعاً لما أوحى قبلها ولكن منذ الآن عليه الاستماع بعد  
 سمع، تحضيراً لمسامع قلبه ولبه وفؤاده، بعد سمعه.

فحين يتم الاختيار الرباني لرجل رباني يحين حين استماع الوحي بعد  
 سماعه، وبعد تحمل مشاق في سبل التخير، التي فيها أشلاء ودماء  
 وحرمانات وكل ما هو آت في هذه السبيل المليئة بالأتعاب والأشغاب.

وفي تفريع الاستماع ﴿فَأَسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ على الاختيار ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾ دليل  
 أن الاختيار دليل الاستماع، فلولا الاختيار لم يك استماع لما يوحى، فهو  
 اختيار لوحي الرسالة، بعدما اختير لعبودية كاملة هي ذريعة للرسالة.

(١) سورة الحج، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

وموسى هنا بطبيعة الحال يستعد للاستماع بكامله وقد يصح ما قيل فيه إنه وقف على حجر واستند إلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره وأصغى بشراشره، فأصبح كله أذناً صاغية واعية، ومن أدب الاستماع حضور المستمع بكل محاضره ومسامعه، تأهباً لتعلمه وتفهمه، ثم تطبيقه ونشره، وذلك هو الاستماع الكامل الحافل لغايته، وهو استماع الرسالة ورسالة الاستماع، وإلا فلا سماع ولا استماع.

فموسى الرسول هنا يستمع كرسول، دون ما استمعه من قبل بما يتبنى شخصه قبل رسالته نبوءة شخصية: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَايَاتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ يُجْرَىٰ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

فقد كان اصطناعه مرحلياً كسائر الرسل، شخصياً كما يجب ثم رسالياً ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾:

وهنا يختصر الوحي في بدايته الرسالية في بنود ثلاثة مترابطة مع بعض، التوحيد والعبودية والساعة، وهي بصيغة أخرى: المبدأ والمعاد وما بين المبدأ والمعاد، وهذه هي الأصول الموضوعية الرئيسية للشرعة الإلهية ككل وفي كافة الرسالات.

ولماذا ﴿لِمَا يُوحَىٰ﴾ بعد ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾ دون «ما أوحى»؟ علّه لأنه مما يوحى لكافة الرسل ككل، لا فقط لموسى، بل ﴿لِمَا يُوحَىٰ﴾ على طول خط الرسالات، إيناساً له بعامته الوحي وهامته:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾<sup>(١)</sup>:

كلمات ثلاث هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ومن ثم إلى إحدى عشرة آية، عرض لواجب الرسالة تدريباً لآياتها ﴿وَمَا تَلَكَ

(١) سورة القصص، الآية: ١٤.

بِيَمِينِكَ . . . لِزَيْكٍ مِّنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿١﴾ ثم ذهاباً إلى فرعون وهو رأس الزاوية في متاهة الضلالة، ومن ثم اثنتي عشرة آية أخرى يتطلب فيها موسى من ربه شرح صدره، وتيسير أمره، وحل العقدة من لسانه، وشد أزره بوزير من أهله تكملة لأمره.

فقد فصّلت الأصول الثلاثة هنالك بعدما أجملت، خلال ثلاث وعشرين آية، عرضاً موجزاً عن كل الرسالة الموسوية وكافة الرسالات فإنها سلسلة موصولة في خيوطها وخطوطها على مدار الزمن الرسالي إذ ﴿لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (١).

﴿إِنِّي﴾ لا سواي ﴿أَنَا اللَّهُ﴾ لا سواي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ لا سواي، توحيداً في كافة جنات الألوهية والربوبية.

وهذه هي قضية الحضور في الوحي، تعريف المسمى الحاضر باسمه في توحيده، تعريفاً للذات بوصف الاسم، لا تعريف الاسم بوصف الذات، فالنص ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ لا «إن الله أنا».

فالله ذاته هو حاضر بذاته، يعرف نفسه باسمه الذي يخطؤه الجاهلون إلى سواه: «إني أنا» المسمى بـ «الله» لا سواي، ف ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (٢)؟ وهنا بعد إثبات أنه هو الله دون سواه، إذاً ف ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ لأن الكل غير الله، فكيف يشرك غير الله بالله، والألوهية الأصيلة خاصة بالله كما يعترف بها المشركون، ولكنهم يشركون به من لا يسمونهم باسم الله، وإنما آلهة دون الله، متهمين الله أنه أشركهم بنفسه، أم هم يشركونهم به إذ لا يصلون إليه نفسه، فليصلوا بالهة أخرى هم من خاصة عباده ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٣).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣.

وهنا ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ يفرّع عبوديته الوحيدة على ألوهيته الوحيدة، فأصل عبوديته لـ ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ وانحصارها فيه حيث ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ والعبودية وهي خالص الخضوع والخشوع للمعبود لا تحقق إلا لخالق الوجود ومدبر كل موجود، وهو هو الله الخالق المدبر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

فالألوهية الوحيدة هي قوام العقيدة وقضية العمل وفقها، والعبادة تشملها توجهاً إلى الله الواحد في كل نشاطات الحياة وواجهاتها، فليكن العبد بشراشره ظاهرة وباطنة عبداً لله وتعبداً في الله، وليست العبودية إلا بعد المعرفة حيث تتبناها في البداية ثم زائد المعرفة تتبنى العبودية كما تتبنى سائر وسائلها.

ولأن الصلاة هي قمة العبودية وعمود الدين العبادة، لذلك تختص بالوصية بعد مطلق العبودية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ فيا لهذا الوحي الحبيب من طلاوة، وفي تلاوته من حلاوة، حيث يؤثر فيمن يحمل غضاضة بكل هزازة وهو الخليفة عمر حيث يأخذ سيفه ليقتل محمداً ﷺ لأنه صبأ وأصبأ معه جماعة آخرين، فلما يقرأ طه إلى هنا يؤمن!<sup>(٢)</sup> أجل

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٩٢ - أخرج ابن سعد وأبو يعلى والحاكم والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: خرج عمر متقلداً بالسيف فلقى رجل من بني زهرة؟ فقال له: أين تغدو يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً ﷺ قال: وكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك قال: أفلا أدلك على العجب أن أختك وختتك قد صبوا وتركوا دينك فمشى عمر حتى أتاهما وعندهما خباب فلما سمع خباب بحسّ عمر توارى في البيت فدخل عليهما فقال: ما هذه الهيمنة التي سمعتها عندكم وكانوا يقرؤون طه فقالا: ما عدا حديثاً تحدثنا به قال: فلعلكما قد صبوتما فقال له ختته: يا عمران كان الحق في غير دينك فوثب عمر على ختته فوطئه وطأً شديداً فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفخها بنفخة بيده فدمى وجهها فقال عمر: أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرؤه فقالت أخته: إنك رجس نجس =

﴿وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾<sup>(١)</sup>.

ولأن ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ تحمل قمة البيان للصلاة والدافع لها وغايتها، لأنها بداية الوحي على موسى، وهي موجّهة كذلك وبأحرى إلى محمد آل طه، فلتكن حاوية كل ما للصلاة من صلوات بالعبد وباللّه وبانفسها شروطاً وأجزاء ومقارنات ومقدمات، بهذه الصيغة الاجمالية الجميلة، وهي كذلك حين نتأملها كيف نتعملها.

ف «أقم» تحمل كافة القيامات الظاهرية والباطنية، فردية وجماعية للصلاة، فإنها قد تؤتى غير مقامه بما يتوجب فيها، وهذا قيام إليها دون إقامة لها ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالِي يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالِي﴾<sup>(٣)</sup> ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾<sup>(٤)</sup> وهذه وأشباهها هي من إضاعة الصلاة ولم تؤمر في كل القرآن إلا بإقام الصلاة.

والصلاة تعمها قالاً وحالاً وأفعالاً، فلتكن مُقامة في مثلثها على أية حال.

= وإنه لا يمسه إلا المطهرون فقم فتوضأ فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ طه حتى انتهى إلى ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] فقال عمر: دلوني على محمد فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال: أبشري يا عمر فإنني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ... فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب ؓ قال: حدثنا رسول الله ﷺ عن جبريل ؑ قال: قال الله ﷻ: إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدي من جاءني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله بالإخلاص دخل في حصني ومن دخل في حصني أمن من عذابي.

(١) سورة مريم، الآية: ٩٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ٤٣.

ومن ثم «الذكري» تحمل احتمالات عدة تلائم أدب اللفظ وحذب المعنى:

فالذكر هنا بين دافع وغاية، والاضافة في كلِّ بين ما هي إلى فاعل أو مفعول، واللام في ﴿لِذِكْرِي﴾ بين توقيت وتعليل، والظرف بين تعلقه بـ ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ و﴿وَأَقِمِ﴾ و﴿الصَّلَاةَ﴾.

ثم الذكر بين قال وحال وأفعال، تواملاً في ذلك المثلث البارع، من ذكر اللسان وذكر الأفعال وذكر الأحوال، فطرية وعقلية، وفكرية وصدورية وقلبية، وليية، وفؤادية، حتى يصبح المصلي كله ذكراً لله كما كله عبد وعبادة لله.

فدافع الذكر للصلاة هو بإضافة المصدر إلى فاعله: لذكري إياك، فكما إني أذكركم في عطيات دائبة فأقيموا الصلاة ذكراً لي كما أذكركم، ذكراً بذكر وأين ذكر من ذكر.

ودافع ثان أن ذكري مفطورٌ في فطركم وعقولكم فأقيموا الصلاة بدافع ذكري الفطري، حيث فطرتكم بتوحيدي، حتى وإن لم آمركم بها، حيث الأحكام الفطرية ليست بحاجة إلى أوامر منفصلة، اللهم إلا أن تكون لها ذكري، وكذلك سائر ذكري في الآفاق وفي أنفسكم، من وحي العقل ووحى الرسالات ووحى الكائنات أن لا اله إلا أنا فاعبدني حيث الكائنات برمتها هي ذكر لله بما قرره الله!.

ثم وغاية الذكر بالصلاة هي بإضافة المصدر إلى مفعوله، أقم الصلاة لذكرك أي، لتذكرني بها فإنها خير ذكر قالاً وحالاً وأفعلاً، وإلى فاعله لغاية ذكري إياك في أولاك وأخراك، وهذه كلها في وجه التعليل المستفاد من اللام، دافعية أم غائية.

ومن ثم ﴿لِذِكْرِي﴾ توقيتاً، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ حين تذكرني، لا حين الغفوة والغفلة كمن يأتون الصلاة كسالى أم سكارى، ثم لوقت ذكري الذي



قررته لي ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾<sup>(١)</sup> ومن ثم توقيتاً هامشياً لمن نسي صلاته في وقتها ف ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ حين تذكرها كما ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السَّمْسِ﴾<sup>(٢)</sup>.

وإنما كررت - فقط - هذه الأخيرة فيما يروى عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، لأنها أخفى مصاديقها بين المحتملات بما هي هامشية غير أصيلة.

فقد «سئل رسول الله ﷺ عن رجل غفل عن الصلاة حتى طلعت الشمس أو غربت ما كفارتها؟ قال: يتقرب إلى الله ويحسن وضوءه ويصلي فيحسن الصلاة ويستغفر الله فلا كفارة لها إلا ذلك أن الله يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا يتبين أن الفائنة مقدمة على الحاضرة، إلا إذا خيف على فوت الحاضرة كما استفاضت به الرواية عن الأئمة الطاهرة<sup>(٤)</sup>.

وهناك ذكر القول في قليات الصلاة، بحال ومنها النية الصادقة الصافية، وبأفعال هي كل أفعال الصلاة، وهذه المحتملات بضرب بعضها في بعض تصيح (٢٤٠) احتمالاً وإن كان بعضها مكروراً وآخر بين منكور ومشكور، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه، ولأن الصلاة هي خير موضوع لذلك «لا تترك الصلاة بحال».

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٩٤ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن عباد بن الصامت قال: سئل... أقول: وقد أخرج قضاء الصلاة هكذا سناداً إلى الآية بعدة طرق عن الرسول ﷺ.

(٤) نور الثقلين ٣: ٣٧٥ بسند صحيح عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إذا فاتتك صلاة فذكرتها في وقت أخرى فإن كنت تعلم أنك إذا صليت التي فاتتك كنت في الأخرى في وقت فابدأ بالتي فاتتك فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ - وإن كنت تعلم أنك إذا صليت التي فاتتك التي بعدها فابدأ بالتي أنت في وقتها فصلها ثم أقم الأخرى.

وهكذا نرى أن للصلاة صلوات عريقة دافعية وغائية وزمنية، كلها تحور على محور ذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وكيف لا؟ وإنما أكمل صورة من صور العبادة وسيرها، وأفضل وسيلة من وسائل الذكر حيث تتمخض لهذه الغاية، وتحصل بذلك الدافع، وتتجرد من كل الملابس الأخرى، فتجتمع للإنسان للاتصال بالله، حيث تعلقه بالله بما دنى بها العبد أو تدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، ولذلك يروى عن صاحب المعراج قوله «الصلاة معراج المؤمن»!

ثم وفي تقسيم خاصر يحوي كل هذه التقاسيم ﴿لِذِكْرِي﴾ إنه بين قلبي وقلبي، وقلب الذكر هو ذكر القلب، وليس القلب إلا حاكياً عن القلب فمزيداً لذكر القلب، والجمع فيهما هو جمع الذكر، أن يصبح الإنسان كله ذكراً لله، إيصالاً للصلاة القلبية إلى الصلاة القلبية، ومن ثم إلى كافة المراحل الروحية.

فحين تحلق الصلاة الذكر والذكر الصلاة على الإنسان ككل، يصبح كله صلوات بالله بصلاة لله، وأنداك ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (١).

ومن أفحش الفحشاء الرئاء، فصلاة المرئي ليست ﴿لِذِكْرِي﴾ بل لذكر الناس في أسفل درك من الرئاء، ولجمع الذكرين في سائر دركاتهما، وإن ذكر الفطرة وذكر العقل وذكر الوحي لله، وكذلك ذكر الله وكل ذكر دافعاً وغاية، إنها تنافي الرئاء وتنافيها الرئاء!

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آئِنَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ (١٥):

وفي هذه الزاوية الثالثة من أركان الشريعة الإلهية تكتمل أصول الدعوة

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

مبدأً ومعاداً وما بين المبدأ والمعاد، وهذا هو الوحي بأحكام العبودية وفي قمتها الصلاة، فتمت بذلك أصول الدين بفروع في صيغة مختصرة محتصرة، هي لكل شرعة إلهية، مهما اختلفت الشرائع في طقوس عبادية حسب المظهر والصورة.

ولأنه ليس ليلتزم عبودية الله - فقط - لأنه الله لا إله إلا هو - إلا من شغفه حباً وهي عبادة الأحرار، وهم قلة قليلة بين عباد الله، ثم الثلثة الباقية هم بين عبيد وتجار، لذلك يشن دافع المبدأ بالتوحيد المعرفة الخالصة، بدافع المعاد، فبين المبدأ والمعاد يكثر العباد رغبة في الثواب وخوفاً من العقاب.

وعرض المعاد في ذلك المثلث البارع، عرض عريض في المعنى الاجمالي عن المعاد واقعاً وغاية قصوى، وهناك تتم الشرعة الإلهية أصولاً وفروعاً في مطلع الوحي الموسوي كما هو في كافة المطالع الرسالية السامية، وقد جمعت لسيد المرسلين وإمام النبيين أتمها وأعمها وأهمها كما يناسب الخلود.

نجد ﴿السَّاعَةَ﴾ المعنية بها القيامة في إحدى وأربعين آية بين (٤٨) مرة «الساعة» في سائر القرآن، وهي ثانية الأسماء كثرة وشهرة بعد القيامة السبعين، مما يدل على مدى أهميتها تعبيراً عن ذلك اليوم العظيم.

وأصل الساعة من ساع الشيء إذا زال وضاع، فهي إذاً وقت ضياع الكائنات عن بكرتها في قيامة التدمير، وإطلاق الساعة على جزء من الزمان إنما هو لتصرفه وضياعه دونما رجعة، وكذلك أمر الساعة إذ لا رجعة فيها إلى الأولى، وإنما هي الأخرى ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى﴾.

وقد تعني ﴿السَّاعَةَ﴾ الساعات الثلاث كلها «ساعة الرجعة والموت والقيامة» ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى﴾ حيث المجهولية في كل منها تدفع إلى

السعي خوفاً منها، مهما كانت الأخيرة هي الأصلية بينها، والأوليان تتبينانها.

ثم ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ في مواصفة الساعة، قد تعني سلب الخفاء وإيجابها معاً، فلو عنت السلب فقط، فقضية الفصاحة: أكاد أظهرها، حيث السلب في مادة الإفعال بحاجة إلى قرينة تسلبها عن إيجابها كما في ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ فِدْيَةَ طَعَامٍ مَسْكِينٍ﴾<sup>(١)</sup> أي مسلوبى الطاقة في الصيام، ثم وعناية الإيجاب هي قضية ظاهر الإيجاب.

والجمع هنا بين سلب الخفاء وإيجابها جمع بين ما يعني من الساعة، فـ ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ سلباً لخفائها لمدى الحتمية القاطعة لوقوعها، لحد أكاد أظهرها قبل أوانها، أم أعلن بوقتها قبل مرساها، ولكن ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ تَنَزَّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

فذلك السلب مستحيل، و﴿أَكَادُ﴾ فيه مبالغة لتحقق وقوعها لحد أكاد أسلب الآن خفاءها، ومن ثم سلب الخفاء عن واقعها وهو إقامتها في وقتها، وذلك ممكن، وأكاد فيه تقريب لوقوعها: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾<sup>(٣)</sup>.

وإيجاباً: أن الساعة خفية حسب الحكمة العالية والمصلحة الملزمة، لحد ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ على نفسي<sup>(٤)</sup> كما أخفيها على غيري، فـ ﴿أَكَادُ﴾ هنا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥١.

(٤) نور الثقلين ٣: ٣٧٥ في مجمع البيان وروى عن ابن عباس «أكاد أخفيها من نفسي» وهي كذلك في قراءة أبي وروى ذلك عن الصادق عليه السلام أقول هذه القراءة مطروحة أو مؤولة إلى =

مبالغة لطيفة تعني غاية الخفاء لها، لحد لو أمكن لكنت أخفيها على نفسي!.  
 و﴿أَكَادُ﴾ هنا لا تكاد تعني قرب الزمن لإخفائها سلباً أو إيجاباً، وإنما هي تأكيد لامعة لتأكد واقعها في وقتها، واستحالة إظهارها قبل وقتها حيث «ثقلت في السماوات والأرض لا يجليها لوقتها إلا هو»! وما ألطفها وأعمقها تعبيراً عن مدى خفاء الساعة، ولماذا؟

﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى﴾: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آئِنَةٌ...﴾ ﴿لِتُجْزَى...﴾.

و﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى﴾ فأصل الجزاء هو غاية الساعة في إتيانها، وخفاؤها غاية ﴿بِمَا تَسَعَى﴾، أم ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى﴾ غاية لهما.

فإن الساعة هي الموعد المرتقب للجزاء العدل والفضل، فتتجه إليها النفوس المؤمنة فتحسب حسابها، سائرة في الطريق مراقبة تخشى الانزلاق بجيئتها المفاجئة الفجيعة.

فإذا كانت المجازاة هي المقصودة من إتيان الساعة، فلتكن قاطعة الإتيان لحد ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ إزالة لخفائها، ولتكن خفية في وقتها ليكون الخلق في كل حين على حذر من مجيئها ووجل من بغتها، فيستعدوا لها قبل حلولها، ويمهدوا أنفسهم قبل نزولها ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى﴾.

والمجهول زمنياً، القاطع إتياناً، هو عنصر أساسي في حياة الإنسان أم أي مكلف كان، لتكوينهم النفسي، متطلعين إليه، متبنين حياتهم عليه، فلو كانت الساعة لهم مكشوفة لوقفت نشاطاتهم، وأمنت حياتهم، ولكنهم وراء المجهول المأمول يُجْرُونَ، فيعملون لما يأملون، ويجربون ويتعلمون، ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وسائر الطاقات، فيرون آيات الله في الآفاق

= أنها كتفسير لأخفيها وفي الدر المنثور أخرج تفسير «من نفسي» عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبي صالح وعن ابن مسعود: أكاد أخفيها من نفسي يقول: أكتمها من الخلاق حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت، وعن أبي: أكاد أخفيها من نفسي فكيف أطلعكم عليها.

وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد .

تلك الساعة المجهولة الأمد تبشرهم بثوابها إن عملوا الصالحات، وتحذّرهم عن عقابها إن عملوا الطالحات، فهم بذلك مندفعون إلى كل خير، دافعون عن أنفسهم كل شر، حتى إذا أتتهم ساعة الجزاء فتبغثهم رابحين، ساعة الموت أو الرجعة أم القيامة الكبرى ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ - ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٣٩) ﴿وَأَنَّ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ (٤١) (١) .

وهنا نعرف أن السعي - فقط - هو عامل الجزاء ليس إلا، فلا فوضى هنالك في الجزاء، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم ولا جزاء بنية دون عمل فإنها ليست مما ﴿تَسْعَىٰ﴾ اللهم إلا نية الصالحات لمن لم يستطع أن يعملها، فلصاحبها الجزاء الحسنى فضلاً من العلي الأعلى، وذلك بدلالات أخرى غير ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ وكما أن آيات حصر الجزاء بالأعمال ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢) تخص العقوبات - فيما تخص - بالأعمال الطالحة دون النيات فقط .

ثم ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ دون «بما تعمل» قد تلمح بكدح في العمل، فالصالحات المتفلتة دون سعي، والطالحات مثلها كما اللمم، قد لا يجزى بها أم يقل، ففي الأولى القلة حاصلة، وفي الطالحات العفو على شروطه المسرودة في الذكر الحكيم .

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (١١) :

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ تأكيد صارم صدأً عن الصد عنها، تفريراً على ﴿إِنَّ

(١) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١ .

(٢) سورة النمل، الآية: ٩٠ .

السَّاعَةَ ءَإِنِّيَ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١﴾ صدأً عقيدياً عن إتيانها، أو خفاءً عنها، أم جزاء كل نفس فيها بما تسعى، أم صدأً عملياً رغم التصديق بها، والصداد عنها هو ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في نكرانها والدعاية ضدها، فلو صدقت عنها ﴿فَرَدَّيْ﴾ في جحيم الضلالة والمناهة، بما تتردى في همجية الأعمال بسفاسف الأخلاق.

وهناك ردّي في نكران المبدأ والمعاد هي أردىء، وهنا أخرى بنكران المعاد عقيدياً، وثالثة عملياً، ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ تشمل ذلك الثالث كله، حيث الصد عن المعاد بعد الصد عن المبدأ أردىء فتشمله ﴿فَرَدَّيْ﴾ بأولى وأحرى.

وقد تعني ﴿عَنْهَا﴾ و﴿بِهَا﴾ - فيما عنتا - كلمة التوحيد المستفادة من ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ والعبادة المعنية من «فاعبدني» والصلاة المذكورة بنفسها وفي خلالهما الرسالة المبيّنة لهما كما تعني الساعة أخيراً، وقد تقتضيها طبيعة الحال في بنود الرسالة المسرودة هنا، فإن إثباتها يقتضي تأكيد السلب عن الصّد عنها، وهنالك تردّيات عدة في الانصداد عن كلّ منها، فهنا في المرجع لضميري «عنها وبها» احتمالات يحتملها اللفظ والمعنى<sup>(١)</sup>.

﴿فَرَدَّيْ﴾ في هوات الإشراف بالله عند الصد عن كلمة التوحيد، فتهلك في هذه الردى.

﴿فَرَدَّيْ﴾ في الشهوات واللهوات في صدك عن عبادته وعن الصلاة لذكره تعالى.

﴿فَرَدَّيْ﴾ عن التزامات العبودية والصلاة ولزاماتها عند الصد عن الساعة، فهنالك - إذاً - ثالث من التردّيات والتهلكات في الانصداد عن مثلث المعتقدات.

(١) رجوعاً للأول تارة إلى المجموعة المستفادة مما سبق، وأخرى إلى كل واحدة منها، توحيداً ونبوة وعبادة وصلاة وساعة، وهكذا الأمر في الثاني، والمحتملات ٢٨.

وقد تعني كلُّ من «عنها وبها» فيما عنتا، كلاً من هذه الثلاثة، حيث اللايمان في كلِّ منها يصد عن الأخرى كما يصد عن نفسها، فنكران التوحيد صدٌّ عن العبودية والساعة، ونكران العبودية والصلاة صد عن المبدأ والمعاد، ونكران الساعة كذلك صد عنهما.

ومن هنا نعرف أن الواجب في أصول الدين وفروعه ليس هو الاعتقاد بها والعمل لها فحسب، بل والتصلب والصمود فيها لحد لا تنفصم عراها. وهنا في واجب العلم بالأصول وفروعها مراحل: القناعة الشخصية دون تزعزع ولا تلكؤ، ثم الحفاظ عليها في المخالطات الضرورية مع الناس، ومن ثم في السَّبْح الطويل في خضم المجتمع، ثم الدعوة إليها والدعاية الصالحة لها.

فالمرحلتان الأوليان مفروضتان، إذ لا بد للإنسان من مخالطة حيوية مع المجتمع، كضرورة للحياة، والثالثة لا تصح إلا لمن صحح يقينه لحد لا ينفصم بمن يصد عنه، وإلا فذلك تورط وتردُّ في ورطات وهوات.

والرابعة هي للدعاة إلى الله على شروطاتها، أخذاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى القيادة الربانية الشاملة غير المعصومة، وإلى قيادة العصمة في أئمة الهدى، إلى قيادة الرسالة، وكلُّ درجات ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ﴾ ﴿بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

والبلاء العام في ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ هو ﴿وَأَتَّبِعْ هَوْنَهُ﴾ إذ لا برهان على الصد عنها فطرياً ولا عقلياً ولا أياً كان، اللهم إلا اتباع الهوى، ولا يتبع هوى أصحاب الهوى إلا من هو من أصحابها، تغافلاً عن فطرته وتجاهلاً عن عقليته، وتعامياً عن آيات الرسالات الإلهية.

ف «إنما أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الأمل أما اتباع الهوى



فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة»<sup>(١)</sup> و«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى»<sup>(٢)</sup>.

وترى موسى المختار من ربه لوحيه ما كان موحداً يعبد ربه ويصلي لذكره ويعلم آية الساعة، حتى يخاطب في بازغ وحيه جملة عن تفصيل ما أوتي في الألواح، بهذه الأصول المعرفية والعملية.

أجل ولذلك اختاره الله، ولكنه كرسول يحمل - بما يوحي - رسالة الله إلى العالمين، إضافة إلى تكملته نفسه بأكمل مما كان كما هو قضية الحال في كل رسول على آية حال، وقد أمر محمد ﷺ ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾<sup>(٣)</sup> وما إلى ذلك من أوامر، تصطنع شخصه أكثر مما كان، ورسالته إلى العالمين.

هنالك تمت المرحلة الأولى لنداء موسى، حاوية جملة الرسالة، وبينما هو في شغف الاستماع وشغفه بكل كيانه حيث أصبح كأنه كله سمع واستماع، إذاً بمرحلة ثانية في مسألة حبيبة:

﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾<sup>(٧)</sup>

«و» هنا عطفاً على نبوءة الوحي قد تلمح أن في سؤاله بجوابه وحي آخر نبوءة أخرى كما مضت، أم رسالة أماهيه من خارقة إلهية.

(١) نور الثقلين ٣: ٣ عن أصول الكافي بسند عن يحيى بن عقيل قال: قال أمير المؤمنين ﷺ: ...

(٢) أصول الكافي بسند متصل عن أمير المؤمنين ﷺ ومثله في النهج باختلاف يسير في بعض ألفاظه.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

ثم «ما» سؤال عن الماهية دون فاعليتها، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى عصاه تأشيراً أنه تعالى يعرفها كما هي ولكنه يعني بسؤاله موسى أن يعرفها كما هي، يعرفها لبيان البون بينهما، الذي لا يعرفه موسى.

و﴿يَمِينِكَ﴾ دون «يدك» علّه لبيان الموضع، فعلاً بيساره شيئاً آخر كالأخاتم وسواه.

فلم يكن السؤال استفهاماً، بل هو اختبار لمدى معرفة موسى بعصاه حتى يزيد أخرى لا يعرفها، وما اختيار موسى لما يوحى بالذي يدل على أنه يعرف الأمور كلها، بل هو كما كان هو الآن بحاجة في معرفة عصاه إلى تعريف من ربه، فضلاً عما سواها من معرفيات.

ونرى موسى بدلاً عن أن يجيب عن ماهية عصاه، يكتفي بذكر اسمها ثم مآربها عنده، وقد كان يكفي ﴿هِيَ عَصَاي﴾ عسى أن يزيده ربه تعريفاً بعصاه، ولكنه لشغفه البالغ لتلك المحاوراة الحبيبة مع ربه، حين ما يسأله عن أبسط شيء متعطفاً عليه، لذلك يطول في الجواب بأقصى ما يعرفه عن عصاه، عساه أن يزيده ربه علماً بعصاه.

وقد عنى من هذا السؤال أن يستحضر موسى معرفته بعصاه، وأنها كعصاه منسوبة إليه ليست إلا كما عرفها، فلما تصبح حية تسعى أو ثعباناً مبيناً بما ألقى، يعرف أن ذلك من ربه وليس منه، فقد كانت معه ردحاً كثيراً من الزمن فلم تكسب من معيته ما كسبت من مفارقتها بإلقاء موسى، ثم ليؤكد أنها خشبة كسائر الأخشاب حتى إذا قُلبت حية تسعى فلا يخشاها، بل يعرف أنها قلبة الهيئة عصا رسالية لموسى بعدما كانت عصا بشرية، وأين عصي من عصا؟.

وترى أن موسى بذلك الخطاب دون حجاب يفضل على نبينا؟ كلا حيث خوطب نبينا ﷺ دون أي حجاب، ولموسى حجاب النور والشجرة،

ثم موسى لم يصل في وحيه إلى مقام «أَوْ أَدْنَى» ومحمد ﷺ وصلها، وقد أعلن الوحي الخاص إلى موسى في إذاعة تورانية وقرآنية، ووحي محمد الخاص به لم يعلن بعد: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾<sup>(١)</sup>!

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ﴾<sup>(٢)</sup>:

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هِيَ﴾ التي بيميني ﴿عَصَايَ﴾ وفي الخبر أنها «قضيبة من آس من غرس الجنة»<sup>(٢)</sup>.

«كانت لآدم ﷺ فصارت إلى شعيب ثم صارت إلى موسى وإنها عندنا»<sup>(٣)</sup> أي أهل البيت ﷺ، ولا تصدقها ﴿هِيَ عَصَايَ﴾... أو تكذبها، ولئن كانت فيها من قبل خوارق عادات لذكرها في عداد العاديات من فوائدها، اللهم إلا أن تكون معنية فيما يعنى عن ﴿مَنَازِبُ أُخْرَىٰ﴾.

ولو أن ﴿مَنَازِبُ أُخْرَىٰ﴾ تعني ما قد يروى من خوارق العادات، فكان موسى - إذاً - تعودها منها، فلماذا يخافها إذا هي حية تسعى؟! ﴿قَالَ حُدَّهَا

(١) سورة النجم، الآية: ١٠.

(٢) تفسير البرهان ٣: ٣٤ عن الكافي بسند عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله يقول: كان عصا موسى قضيبة آس من غرس الجنة أتاه بها جبرائيل لما توجه للقاء مدين وهي وتابوت آدم في بحيرة طبرية ولن يبليا ولن يتغيرا حتى يخرجهما القائم ﷺ إذا قام.

(٣) المصدر عن الكافي بسند عن محمد بن الفيض عن أبي جعفر ﷺ قال: كانت عصا موسى لآدم فصارت إلى شعيب ثم صارت إلى موسى بن عمران وإنها لعندنا وإن عهدي بها أنفأ وهي خضراء كهيئته حين انتزعت من شجرتها وإنها لتنطق حين استنطقت، أعدت لقائنا يصنع بها ما كان يصنع بها موسى ﷺ وإنها لتروع وتلقف ما يأفكون، وتصنع ما تؤمر به أنها حيث أبلت تلقف ما يأفكون يفتح لها شعبتان إحداهما في الأرض والأخرى في السقف وبينهما أربعون ذراعاً تلقف ما يأفكون بلسانها.

وفيه عنه ﷺ قال: خرج أمير المؤمنين ﷺ ذات ليلة بعد عتمة وهو يقول همهمة وليلة مظلمة خرج عليكم الإمام عليه قميص آدم وفي يده خاتم سليمان وعصا موسى.

وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿١٩﴾! ومن المحتمل أن الخوارق من هذه العصا بدأت منذ ألقى، وإلى ضربها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، والبحر فحصل بها فيه اثني عشر طريقاً يبساً، ثم إلى القائم منا ﷺ وعساه يعمل بعصاه هذه أكثر من موسى وكما قد يروى.

وموسى هنا بعد تسمية العصا ذكر لها مآربين من مآربه، قاصداً تطويل الجواب آنساً طائلاً في نداء ربه، إذا بالكلام متفلتاً عنه استحياء منه أم لعدم مساعدة الحال واضطراب البال فأجمل سائر مآربه إلى قوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَثَابٌ أُخْرَى﴾ أو يعني بها ما يجهله الآن وقد تلمّحه من ملامح البيان عساه يذكره ربه لعصاه، وبينهما مآرب التوكؤ والهش، فلنفسه: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ اعتماداً في مثلث القيام والمشى والوقوف، ولغنمه: ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي﴾ خبطاً لأوراق الأشجار الهش وهو الرخو اللين سريع الحث والكسر لحد يكفيه هش العصا.

ثم ومن ﴿مَثَابٌ أُخْرَى﴾ التي أجملها، الاستظلال بها ركزاً لها وجاه الشمس وإلقاء لكسائه عليها، ودفعاً لذئب وسواه من الضاريات حين تعرضه وغنمه أماهيمه من مآرب أخرى معنيّة.

والمآرب جمع المأربة وهي الحاجة، وقد ذكر منها اثنتين بعد تعريفه بما يمينه، ثلاثة غير مسؤول عنها حيث السؤال بـ «ما» ليس إلا عن الماهية، دون «كيف» وأضرابها التي هي للكيفية، ولكنه ما كان ليعرف من ماهيتها إلا ﴿هِيَ عَصَاي﴾ ثم الله أبرز لها ماهية أخرى فإذا هي حية تسعى.

﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾﴾:

ترى ولماذا إلقاءها هنا لتكون حية تسعى؟ إن ذلك تدريب له بما تعد له من آيات ربه الكبرى، وليكون على معرفة وأهبة بما سوف يفعله الله عند فرعون آية لموسى!.

وقد يعني على هامش ذلك المعني إبرازاً لسيرة ما يتوكؤ عليه من غير الله أنه حية تسعى، تخليصاً. لموسى أن يتوكأ نفسياً على أي متكىء سوى الله، كما خلع عنه نعليه إذ هو بالواد المقدس طوى، حيث التجرد من كل التعلقات لزام الحضرة الربانية لتلقى الوحي، وهناك انعكس خلع النعلين - لتخليه عما سوى الله - وحيأ يوحى، ثم إلقاء عصاه آية لوحيه أمام عدوه حية تسعى.

وكيف تنقلب العصا حية تسعى كما هنا، أم جاناً مهتزاً كما في النمل (٣١) والقصص (١١): ﴿رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أم ثعباناً مبيناً كما في الشعراء (٣٢) والأعراف (١٠٧) والأوليان حالة واحدة، والأخيرة حين ذهب إلى فرعون؟.

إنها خارقة إلهية كآية تدل على وحي الرسالة ورسالة الوحي، وركب العلم السائر مهما كان حائراً فيها وحق له أن يحترار، ولكنه ببلوغه ذروة من رقيه يختار ما فيه يحترار، إنه في إمكانية الانقلاب يوافق الأصول العلمية الثابتة، ولكنه لا يسطع عليه إلا الله دون سواه، حيث العناصر تتركب من جزيئات، وهي من ذرات، وهي من أجزائها من الكترونات وبروتونات..

إذاً فالأصول الفيزيائية والكيمائية لكافة العناصر هي الذرات المنتهية إلى أجزائها معروفة وسواها، وما اختلاف العناصر والجزيئات والذرات إلا باختلاف التركبات مادة ومدة وعدة وعدة.

وقد أتيح للعلم لحد الآن تبديل عناصر إلى أخرى! أفلا يتاح للقدره الربانية الخلاقة لها تبديلات أخرى لا يقدر العلم عليها، اختصاصاً بساحة الربوية كما هو في أصل الخلق وفروعه.

فالأجزاء التي تتشكل منها الحية هي التي شكلت منها العصا، ثم هنالك. خارقتان اثنتان، أولاهما القفزة الزمنية لذلك الانقلاب سراعاً، وقد

يحتاج إلى الآفات من السنين وتوافقات لا يعلمها ويقدر عليها إلا الله،  
وثانيتها خلق روح الحية كما في سائر الأرواح على الإطلاق.

إذا فليست الخارقة الإلهية خرقاً لضوابط العلية، وحرقاً للعلل، بل هي  
تسريع في ترتيب العلل بقفزة زمنية أماهيه من جانب علة العلل، فهو الخالق  
للأسباب والمسببات، وله الأمر في شروطاتها وكافة لزاماتها وتدبيراتها  
وتقديراتها ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

ثم وما خَلِقُ حية تسعى من عصا بأصعب منها المخلوقة بولادتها، أم  
في أصلها الأول حيث خلقت من تراب، والأفعال الإلهية كلها من  
اختصاصات ساحة الربوبية ليس لأحد فيها نصيب حتى المرسلين، فإنهم  
ليسوا إلا أداة ومظاهر لفعل الرب، وحيأ أم آية تثبته.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (٢):

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّى  
أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ (٢) ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى  
مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ  
حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣).

لقد خاف موسى من حية تسعى وهي من عصاه؟ عساها تلدغه عله ظلم  
وعصى، فنهاه ربه «لا تخف» بعدما ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ﴿وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ  
مِنَ الْأَمِينِ﴾ (٤) كمن معك، و﴿لَا يَخَافُ... إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ كما ظلم فرعون  
وخاف ثعبانه العظيم ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ وهي حية  
تسعى ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ بعد أخذك إياها ﴿سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ وهي العصا.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣١.

(٣) سورة النمل، الآيتان: ١٠، ١١.

(٤) سورة القصص، الآية: ٣١.

وترى كيف يجوز لموسى أن يخاف فعل الله الآية، وهو لدى الله، رسالة من عند الله، يخاف آية الرسالة الإلهية؟.

موسى هنا وفي بداية الحال، المنقطعة النظير حتى الحال، لم يكن يعرف أنه آية إلهية لرسالته، فعله حسبها امتحاناً من الله ببليّة جليلة عما قدم فأخره عن رسالته وكما قال حين قضى على القبطي ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾<sup>(١)</sup> أم خافها خوفاً أن تكون هي الحية التي أضل آدم وأغوى.

ثم وخوفه منها دليل أن قلب العصا إليها لم يكن من فعله فما هو إذاً بسحر حيث السحر من فعل الساحر فلا يخافه، وهكذا تكون آيات الرسالة كلها أنها من أفعال الله تظهر على أيدي رسل الله لتدل بذلك على اختصاصهم بالله فيصدقون في وحي الله.

وهنا ﴿سَتُعِيدُهَا﴾ دليل أمره بأخذها وهي حية تسعى، ولكنه تعالى طمأنه أنه سيعيدها بعد أخذها سيرتها الأولى، وهي آية أخرى، فكما أن قلب العصا آية كذلك قلب الحية عصا آية، وفيها كرامة لموسى أن أظهرهما بيده، ولكي يعرف بذلك اختصاصه بكرامة ربه رسالة بآية بيّنة.

فإنما عليه الإلقاء وعلى الله قلبها بذلك حية تسعى، ثم عليه أخذها وعلى الله أن يعيدها سيرتها الأولى، وقوعاً للمعجزة في صورتها الأخرى كما كانت العصا في حالتها الأولى.

ولماذا ﴿سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ دون صورتها، حيث الصورة الأولى لا تلازم السيرة الأولى، فقد يجوز أن تتصور الحية بصورة العصا، ولكن السيرة الأولى وهي الخشبية تلازم صورتها الأولى.

وترى ما هو عامل النصب لـ ﴿سِيرَتَهَا﴾ أنصباً بنزع الخافض؟: إلى

(١) سورة القصص، الآية: ١٦.

سيرتها الأولى، أم بفعل مقدر من نفس السيرة: تسير سيرتها الأولى،  
والحذف دون مرجح ولا قرينة خلاف الفصاحة!

«نعيدها» أديباً تتطلب مفعولاً ثانياً هو بطبيعة الحال ﴿سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ وهو  
المتعين معنوياً حيث الإعادة متعلقة بحية تسعى، والمُعَاد هنا ليست الصورة  
الأولى بل مثلها ضمن السيرة الأولى الخشبية، والمادة نفس المادة، زيدت  
لها صورة حية تسعى بسيرتها، ثم أعيدت المادة نفسها إلى ما كانت سيرة  
وصورة، وذلك إعادة مثل الصورة الأولى إلى المادة وليست هي إلا هيه.

وإعادتها صورتها الأولى نفسها مستحيلة في بعدين، إعادة المعدوم فإنها  
ممتنعة، وتبديل المادة صورة بلا مادة، وأما إعادتها سيرتها فليست إعادة  
شيء بل هي تعني قلب الصورة الثانية وسيرتها إلى الصورة الأولى وسيرتها  
والمادة هي المادة.

فهنا في قلب العصا حية تسعى، قلب لصورة العصا وسيرتها، إعداماً  
لهما إلى أخرى، ثم في إعادتها سيرتها الأولى سلب أول هو سلب روحها،  
وسلب ثان هو سلب صورة الحية، وبينهما خلق لمثل الصورة الأولى،  
ومجموع هذه الثلاث عبّر عنها بإعادتها.

هناك قال موسى عن عصاه ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا...﴾ ﴿عَصَاً  
لمآربه كموسى، وهنا انقلبت إلى عصا الرسالة حيث يتوكؤ عليها فيها،  
ويهش بها على غنمه - وهي أمته - هشاً، ولانفجار اثنتي عشرة عيناً من  
الحجر، ولنفس العدد طريقاً يبساً في البحر، ثم له فيها مآرب أخرى قدرها  
الله لهذه العصا، علّ منها مآرب القائم المهدي (صلوات الله عليه) من هذه  
العصا أفضل مما كان لموسى.

هذه آيتا العصا، ومن ثم آية اليد البيضاء، وهي ألصق به من الآية  
الأولى:



﴿وَأَضْمَمَّ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (١)

﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَّ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَلَدَانِكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١).

الجناح هو الكتف والإبط تشبيهاً بجناح الطائر حيث يعني منه هنا أن يجنح طائر الرسالة الموسوية إلى محطة الدعوة القاسية الفرعونية، فأصبحت اليد والعصا برهانين من ربه إلى فرعون وملائته.

و﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تعني أن بيضاءها سليمة دون برص أو مرض (٢)،  
فلذلك، ترجع إلى ما كانت كما أعيدت العصا إلى سيرتها الأولى.

وقد خرجت يد موسى - وعلها هي اليمنى - بيضاء مشرقة وقد كانت سمراء (٣) وقد تكون إشارة إلى إشراق اليد الرسالية الموسوية في بلاغها، وكما خرجت مشرقة في بلوغها، فهنا موسى يسلك يده ويدخلها تحت إبطه، وقد صور له صورة الجناح لما فيها من رفرقة وطلاقة في ذلك الموقف المُجَنِّح الطليق من رتبة الأرض وثقله الجسم لتخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى.

﴿لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢)

﴿لِرَبِّكَ﴾ قد تتعلق بـ «ألقها» و«اضمم» كبدائية وتقدمة: قلنا لك ألقها وضمم لنريك... وأخرى بـ «أذهب» كغاية: اذهب لنريك من آياتنا

(١) سورة القصص، الآية: ٣٢.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٧٥ في كتاب طب الأئمة بإسناده إلى جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام في الآية قال: يعني من غير مرض وفي البرهان ٣: ٣٥ عن ابن بابويه بسند عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: من غير مرض.

(٣) البرهان ٣: ٣٥ - عن تفسير القمي بسند عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان موسى شديد السمرة فأخرج يده من جيبه فأضاءت له الدنيا.

الكبرى، كما قدمنا لك من آياتنا الصغرى مثلاً ونموذجاً للكبرى، وحقاً إن الآيات التي أوتيتها موسى هي من الآيات البصرية الكبرى، لها دلالاتها البالغة القصوى، آيات لفرعون وملائته، وأخرى لهم ولقوم موسى.

وترى إذا كانت العصا واليد البيضاء ﴿مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ فكيف تكون آية القرآن هي الكبرى وهي في القمة العليا، لا نظير لها ولا تسامي؟.

﴿مِنْ﴾ هنا تعني أنها البعض من الكبرى، مهما كانت الكبرى درجات، كما أولو العزم من الرسل خمسة وهم درجات، أم تعني - فقط - الآيات البصرية وهي في الحق من الكبرى، وقد تسامي آيات بصرية لرسول الهدى، وأما الآية البصرية فهي منحصرة في القرآن، منحصرة عما سواه من كتابات الوحي، فلا تعنيها هنا ﴿الْكُبْرَى﴾ لأنها الوحيدة لا تناظر أو تسامي، فلا تدخل في نطاق الجمع من ﴿آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ وهي الكبرى الوحيدة غير الوهيدة بأية نظيرة في آيات الرسالات، لأنها منقطعة النظر بين كل بشير ونذير!

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٢٤):

يُذكر فرعون في أربعة وخمسين موضعاً من الذكر الحكيم، مما يدل على مدى فرعنته اللعينة، ثم «الشیطان» في (٦٨) مهما ذكر إبليس (١١) مرة، والمجموع تزيد خمسة وعشرين على فرعون، فهو - إذاً أخ له كبير بين الملائين الملاعين من إخوته الشياطين!

ولما تبلغ الفرعنة إلى ذلك الطغيان على الله ادعاءً للربوبية: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (١)، وعلى عباد الله استخفافاً فتعبداً له: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ (٢) عند ذلك التتمرد والتمرد التفرعن يؤمر موسى بالذهاب إليه، دون نظرة لذهاب فرعون إليه، إذ صده طغيانه عن الله فضلاً عن رسول الله!

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٤.

فالى هنا كان الوحي بأياته لموسى نبوءة دون رسالة، وهنا بزغت الرسالة الضخمة الصعبة الملتوية، فلقد عاش جواً من طغيان الفرعنة ردحاً من عمره، فلا يرى من نفسه نجاحاً تاماً في هذه الرسالة إلا بإمدادات ربانية، فليسأل ربه في هذه الحضرة المباركة ما يطمئنه في هذه المواجهة الخطيرة، ويكفل له قوامه في هذه الرسالة، فلذلك:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾:

هنا يتطلب نصرة ذاتية متصلة بساحة هذه الرسالة في بنود ثلاثة، ومن ثم نصرة منفصلة في ثلاثة أخرى هي أزرٌ للأولى وأولى له ثم أولى أن يستعد بزاد أزيد وراحلة أرحل في هذه السفرة الشاقة الطويلة، لا لأمر إلا لـ ﴿كَيْ تُسَيِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذُكَّرَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾<sup>(١)</sup>!

نرى سؤال موسى هنا في إحدى عشرة آية، لم يكن ليسألها قبل أمر الرسالة، مما يدل على أنها كلها سؤال الرسالة بمسؤولياتها الخطيرة.

والبند الأول من سؤاله الأول ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وذلك شرح لتلك الرسالة بعد شرحه للوحي النبوءة فليس - إذاً - سؤالاً لسؤال حاصل، فإنه سؤال جاهل، وسؤال قاحل، فقد اختاره الله حين أوحى إليه، وكيف يختار ضائق الصدر عن تلقي الوحي؟ وكما شرح الله صدر محمد ﷺ وإن كان دون سؤال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾<sup>(٢)</sup> «لك» كرسول إلى قوم لدُّ وأمة خالدة، وكذلك لموسى إلى فرعون اللدود وأمة لدودة.

فانشراح الصدر لنبوءة الوحي أمر، وانشراحه للرسالة بعدها والنبوءة أمر آخر، حيث يلتقي فيها جماهير الأمة، ومكذبو الرسالة، فلكل مجال حال

(١) سورة طه، الآيات: ٣٣-٣٥.

(٢) سورة الشرح، الآية: ١.

ولكل حالٍ مجال، ولكل هدى شرح للصدر كما لكل ضلال ضيق: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ...﴾ (١).

فانشراح الصدر في سبيل الرسالة يحوّل مشقة المسؤولية الكبرى إلى متعة، وعناها إلى لذة، مهما كانت السبيل شاقة شائكة وملتوية طويلة، وهنالك ينجح الرسول وتنجح الرسالة في هدفها الأسمى بمكانتها العليا.

أجل إنه وجد لنفسه ضيقاً في هذه الرسالة دون ما قبلها: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْغَلَامِ الْظَالِمِينَ﴾ (١٢) ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَنْقُورُونَ﴾ (١١) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (١٢) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ﴾ (١٣) ﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (١٤) ﴿٢﴾ فشرح الله صدره عن ضيقه في نفسه وبوزيره هارون.

وفي تقديم نداء الرب في الدعاء «رب» تعليم لكيفية الدعاء أنها تبدأ باسم الربوبية، فإن من قضيتها الاستجابة بعد الدعاء بشروطها، والتربية الرسالية تتطلب في سؤلها شرح الصدر عطاءً من الله، كما تتطلب العصمة الإلهية.

و«لي» هنا دون «لنا» دليل الاختصاص لذلك الشرح، فللمؤمنين به، الصابرين معه، المثابرين على إيمانهم، أن لهم شرحاً كأمة، ولموسى الرسول شرح كرسول وأين شرح من شرح؟.

أجل ﴿أَشْرَحْ لِي﴾ فأنا الذي أمرتني بالذهاب إلى فرعون، اشرح لي حتى لا يضيق إذا ازدحمت عليّ عقبات الدعوة وخلفيات الدعاية.

والبند الثاني: ﴿وَيَبِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وطبعاً هو أمر الرسالة المعسور، يتطلب

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٠-١٤.

إلى ربه أن يجعله الميسور، وليس ذلك سؤالاً لتخفيف في رسالته، أم تطفيف عن وحيه ودعوته، كأنه يباين سؤال الرسالة، فإنه مزيد منها في كل حلقاتها، وحيّاً وآية وسعة في دعوة ودعاية.

إنما هو يسرها لموسى على عسرها، بمثلث من التأييد الرباني، مزيداً في تصبُّره، ووزيراً من أهله، وتأييداً في نجاحه من عنده تيسراً للعسير، لا تقليلاً للكثير، فإنه حط من ساحته، ومسّ من كرامته، وكيف يدعو عاقلُ ربه هكذا فضلاً عن نبي كموسى!.

ففي ذلك التيسير ضمان لنجاح الرسالة، مهما أوزي الرسول في سبيلها، حيث الهدف الأسمى منها نجاحها، لا أريحية الرسول في حياته الدنيوية دونما أية صعوبة، فإن طبيعة كل رسالة هي الدوائر المتربصة بها، المحتفة عليها، كلما كانت الرسالة أوسع، والمرسل إليهم أشرس، فدوائر السوء عليها أكرس وأكثر.

والبند الثالث: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ مِّن لِّسَانِي ﴿٧٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٧٨﴾﴾.

ففقه القول الرسالي ضرورة في متن الرسالة، فلتحلل كافة العُقَد عن لسان الرسول حتى يفقهوا ما يقول.

أترى ﴿عُقْدَةَ﴾ هنا كانت حبسة في لسانه لخلل عضوية<sup>(١)</sup>؟ وتلك حبسة في أوصل وسائل الرسالة، ونقص في الرسول، فإن السنة القولية هي من

(١) في نور الثقلين ٣: ٣٧٧ عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: وكان فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل كلما يلدون ويربي موسى ويكرمه ولا يعلم أن هلاكه على يده فلما درج موسى كان يوماً عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد لله رب العالمين - فأنكر فرعون ذلك عليه وقال: ما هذا الذي تقول؟ فوثب موسى على لحيته وكان طويل اللحية فهلها أي قلعتها فألمه ألماً شديداً فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته: هذا غلام حدث لا يدري ما يقول وقد لطمته بلطمتك إياه فقال فرعون: بل يدري فقالت له: ضع بين يديه تمراً وجمراً فإن ميز بينهما فهو الذي تقول فوضع بين يديه تمراً وجمراً وقال له: كل فمد يده إلى التمر فجاء جبرائيل فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه وصاح وبكى فقالت آسية لفرعون: ألم أقل لك إنه لم يعقل فعنى عنه.

مثلث السنة المعصومة الرسالية، بل هي أولها دلالة مهما كانت العملية أولها تأثيراً، فقصور اللسان أم تقصيره في بلاغ الرسالة خلاف كونه حجة بالغة الهية، ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾<sup>(١)</sup>!

ثم ﴿وَأَخِي هَكَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾<sup>(٢)</sup> إنها تكذب نقص العضو، وتحبس عن لسانه حبسته العضلانية، فإن معقود اللسان ليس فصيحاً حتى يكون هارون أفصح منه.

ثم الفصاحة ليست سبب التصديق، ولا خلافها سبب التكذيب، فرب فصيح يكذب، ورب غير فصيح أم أخرس يصدق!.

فتلك إذا عقدة عن الإفصاح تقيه أمأهيه، فحل عقدة هنا هو إزالة التقية عن لسانه وكفاية سطوة فرعون وغواته، حتى يؤدي عن الله آمناً، ويقول متمكناً لا خائفاً ولا وجلاً، فلا يكون معقود اللسان بالتقية، ومعكوم الفم بالخوف والمراقبة.

فتراه يقول: ﴿وَضَبِقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَهَمُّ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾<sup>(٣)</sup> فكما أن ضيق صدره كان بالنسبة لهذه الرسالة، كذلك عدم انطلاق لسانه لأنه رُبي عند فرعون وليداً، وقتل من غواته نفساً، وطبيعة الحال هنا تقتضي بتثاقل اللسان مهما كان فصيحاً، وبتكذبه وهو أصدق الصادقين: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ١٨-٢٢.

فقد يعقد لسان المتكلم الفصيح لعقد نفسانية أم خارجية، فلا يسطع إفصاحاً لمرامه، أو مضياً في مرامه، أو يطلق لسان غير الفصيح، وحتى المعقود اللسان أو الأخرس، لطلاقة نفسية وتجاوب خارجي، وموسى على سابقته، بمجابهة فرعون أن قتل منه نفساً، رغم تربيته الولادية عنده، ما كاد ليفصح عما يروم، صدأ نفسياً عن إفصاحه، وآخر خارجياً وجاه فرعون وغواته، فلا بد له إذاً من وزير تخفيفاً عن وزره، وشداً لأزره، ورداءً لكلامه.

هذا وإن كنا قد نصدق حسب الرواية هذه الحبسة العضوية إلى حين الرسالة، حفاظاً على حياة موسى، ولكنها حلت منذ الرسالة بدعائه المستجاب: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ وقد تلمح ﴿عُقْدَةَ﴾ منكرة دون «العقدة» إنها تعني العقدتين وقد حلها بإزالة الرثة العضوية والضيقة النفسانية، ثم بأخيه هارون رداءً يصدقه.

ومن هنا يبدأ بتطلب سؤله الثاني في بنود ثلاث ليكتمل الأول في إنجاح رسالته.

﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) ﴿هَرُونَ أَخِي﴾ (٣٠) ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي﴾ (٣١) ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ (٣٢) ﴿كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٣) ﴿وَنَذُوكَ كَثِيرًا﴾ (٣٤) ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (٣٥):

وهنا البند الأول ﴿وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ وهو حامل وزر الرسالة الموسوية وحيًا ودعوة ودعاية، فكما الله وضع عن محمد ﷺ وزره بوزيره علي ﷺ أخيه، كذلك يضع عن موسى وزره بهارون أخيه، وكما تواتر عنه ﷺ «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» فعلي يحمل وزر الرسالة المحمدية دون وحي ورسالة، وهارون يحمل وزر الرسالة الموسوية بوحي ورسالة، والوزارة هنا كالوزارة هناك إلا النبوة.

والوزير من الوزر: الثقل - حيث الوزير يحمل ثقل الملك مع الملك، أم من الوزر: الجبل الذي يلتجئ إليه، حيث الملك يلتجئ إليه في مهامه،

والأول أسلم لساحة النبوة حيث يكون فيه الوزير الحامل الثاني لجمل المُلْك وعبئه، وهو الشخصية الثانية لمسؤولية القيادة العليا، زمينياً أو روحياً أم كليهما، كما حق للقيادة الروحيين أنبياء وأئمة وعلماء ربانيين .

ثم البند الثاني والثالث هما كتفسير وإيضاح لحدود الوزارة، فشد الأزر هو تحكيم القوة الرسالية والعون فيها، والشركة في الأمر هي في أمر بلاغ الرسالة بالوحي، وليس الوحي فقط إذ لم يكن عبئاً عليه شخصياً، وإنما هي في حمل الرسالة بكل مسؤولياتها، وأما الدعاية لها والدعوة إليها بعد بلاغها الرسالي، فهو على عواتق المؤمنين بها ككل، دون اختصاص بوزير من أهله، فإنهم كلهم وزراءه في ذلك الأمر قضية الإيمان به، فالوزارة - إذاً - منصب خاص يتلو منصب القيادة العليا بانتصاب إلهي ليس إلا .

فلتكن الشركة المعنية هي في شؤون الرسالة وقيادتها الشاملة روحياً وزمناً، فهو النائب الأول، والوزير الوحيد في كل ما قلّ وجلّ من الشؤون الأصيلة الرسالية كما هي على عاتق موسى، إزرراً وردءاً وتصديقاً لتلك الرسالة السامية ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۗ إِنَِّّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (١) .

وقضية الحال هنا أن لو دام هارون بعد موسى لكان خليفته في رسالته، فإن الوزير في حياة الأمير هو الشخصية الأولى بين الشعب في كافة شروط القيادة، فهو الأمير بعد وفاته دون سواه .

هنا ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ تقتضي الشركة في كافة شؤون الرسالة، وحيماً وبلاغاً وحجة أمّاهيه، ولذلك نرى الرسول ﷺ يجعل علياً منه كما هارون من موسى ثم يستثنى النبوة .

(١) سورة القصص، الآية: ٣٤ .



ولا فحسب أن علياً عليه السلام وزير الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في متواتر السنة تنظيراً بآية الوزارة، بل وهو أخوه وولده بل ونفسه المقدسة لآية المباهلة ومتواتر السنّة، فقد كملت الشروط وافية فيه لعرش الخلافة الاسلامية، ولادة وأخوة ووزارة ونفسية نفيسة هي أنفس القواعد الأربع لعرش الخلافة.

ولنرجع هنا إلى مادة الدعاء لموسى في هذه الوزارة السامية، لكي نتعرف إلى الوزارة العلوية العالية، وعلى ضوء متواتر الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم على غرار الآية وقرارها.

﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا...﴾ دليل أن جعل الوزارة الرسالية مخصوص بالله، وليس للرسول أن ينتصب لنفسه وزيراً في أمره فضلاً، عن أمته فكما الرسالة هي من الله، كذلك وزارتها من الله، وإلا فلماذا يسأل الله أن يجعل له وزيراً.

﴿مَنْ أَهْلِي﴾ وطبعاً هي الأهلية الرسالية دون النسبية فحسب، ولا سواها من أهليات لا تؤهل لوزارة الرسالة.

﴿هَرُونَ أَخِي﴾ ويا للأهلية من جمع جميل أن تعم جانبي الرسالة والرسول، فهارون أهل لذلك الرسول رسالياً، وأهل له نسبياً، فهو أخوه في كلتا المرحلتين.

﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي﴾ والأزر من إزار الرجل وهو الموضع الذي يشده إذا استعد لصعاب الأمور، وهارون يشد أزر موسى في بلاغ الرسالة رسالياً، لا فقط إيمانياً، فإنه يعم كافة المؤمنين بهذه الرسالة، ولذلك يلحق إشراكه في الأمر بشد الأزر.

﴿وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي﴾ شركة رسالية في كافة بنودها دونما إبقاء لواحدة منها، إلا أن موسى هو القائد الرسالي وهارون وزيره.

فالأزر هنا هو ظهر الرسالة الموسوية، لا يُشد إلا بمظاهر رسالي من

نفس النمط وهو عضد الرسالة كما قال ﴿سَأَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْدِنَا﴾ (١).

وقد تنطبق هذه المواصفات بصورة أجلى وسيرة أسمى وأعلى في وزارة علي عليه السلام للرسول ﷺ فسورة الانشراح تشرح آية الوزارة، ومتواتر الرواية عن طريق الفريقين يؤكد ذلك الشرح.

هنا تعالى معي إلى سرد لألفاظ ما أخرجه الحفاظ والرواة عن النبي ﷺ لتعرف أبعاد هذه الوزارة العلوية العلووية.

لقد روى حديث المنزلة أول ما روى الرسول ﷺ عن الله تعالى إذ «هبط جبرائيل على النبي ﷺ فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: علي منك بمنزلة هارون من موسى لكن لا نبي بعدك» (٢).

ومن ثم يكرره الرسول ﷺ في عدة مواطن وقد رواه عنه ﷺ جماعة من الصحابة منهم الإمام علي عليه السلام نفسه أن رسول الله ﷺ أراد أن يغزو غزاة فدعى جعفرأ فأمره أن يتخلف على المدينة فقال لا أتخلف بعدك يا رسول الله ﷺ قال: فدعاني رسول الله ﷺ فعزم علي أن أتخلف قبل أن أتكلم قال: فبكيت فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا علي؟ قلت: يا رسول الله ﷺ يبكيني خصال غير واحدة، تقول قريش غداً ما أسرع ما تخلف عن ابن عمه وخذله، وتبكيني خصلة أخرى كنت أريد أن أتعرض للجهاد في سبيل الله لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَطَّوُّنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صٰلِحٌ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيْعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣) فكنت أريد أن أتعرض لفضل الله، فقال رسول الله ﷺ: أما قولك يقول

(١) سورة القصص، الآية: ٣٥.

(٢) أخرجه جماعة عن أسماء بنت عميس عنه ﷺ منهم محب الدين الطبري في الرياض النضرة (٢: ١٤٤) وفي ذخائر العقبى ص ٦٤ والقندوزي في ينابيع المودة ص ٢٠٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

قريش ما أسرع ما تخلف عن رسول الله ﷺ وخذله فإن لك بي أسوة، قالوا لي ساحر وكاهن وكذاب، وأما قولك: أتعرض الأجر من الله أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير إنه لا نبي بعدي»<sup>(١)</sup>.

ومنهم عمر بن الخطاب أنه رأى رجلاً يسب علياً فقال: إني أظنك منافقاً سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما علي مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»<sup>(٢)</sup>.

ومنهم معاوية بن أبي سفيان حيث سأله رجل عن مسألة فقال: سل عنها علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه أعلم، قال: يا أمير المؤمنين قولك فيها أحب إلي من قول علي فقال: بس ما قلت ولؤم ما جئت به لقد كرهت رجلاً كان رسول الله ﷺ يغيره العلم غراً ولقد قال له رسول الله ﷺ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ولقد كان عمر بن الخطاب يسأله فيأخذ عنه ولقد شهدت عمر إذا أشكل عليه شيء قال: ها هنا علي، قم لا أقام الله رجلك ومحى اسمه من الديوان»<sup>(٣)</sup>.

ولقد روى حديث المنزلة عن رسول الله ﷺ بألفاظ عدة في مواطن متعددة ثلثة من الأصحاب<sup>(٤)</sup>.

(١) رواه جماعة من القوم منهم النيسابوري في المستدرک ٢: ٣٣٧ والحموي في فرائد السمطين والذهبي في تلخيص المستدرک والهيتمي في مجمع الزوائد ٩: ١١٠ والمتقي الهندي في منتخب كنز العمال ٥: ٥٥ والبديخي في مفتاح النجا ص ٤٥ والحلي في إنسان العيون (٣): ١٣٢ والبغدادي في تاريخه ٧: ١٩٤.

(٢) أخرجه عنه جماعة منهم البغدادي في تاريخ بغداد ٧: ٤٥٢ ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة ٢: ١٦٢ وقلندر الهندي الحنفي في الروض الأزهر ص ٩٨.

(٣) أخرجه عنه جماعة منهم ابن المغازلي في كتاب مناقب أمير المؤمنين عليه السلام والطبري في ذخائر العقبى ص ٧٩ عن الإمام أحمد في المناقب وفي الرياض النضرة ٢: ١٩٥ والحموي في فرائد السمطين والواسطي في المناقب ص ١١٨.

(٤) مثل سعد بن أبي وقاص ٣ - وجابر بن عبد الله الأنصاري روى عن عشرة كتب ٤ - وأبي سعيد عن ١٥، ٥ - وحشي بن جنادة السلولي عن ٤، ٦ - وسعد بن مالك عن ٥، =

وهؤلاء الأعاظم كلهم سمعوا حديث المنزلة عن رسول الله ﷺ

= ٧ - وأسماء بنت عميس عن ٨، ٨ - وابن عمران عن ١٠، ٩ - وابن أبي ليلى عن كتب عدة،  
١٠ - ومالك بن الحريث عن كتب عدة، ١١ - وسفيان الثوري عن ٣، ١٢ - وابن عباس عن  
سنة، ١٣ - وأم سلمة عن عدة كتب، ١٤ - وعبد الله بن مسعود، ١٥ - وأنس بن مالك، ١٦ -  
وزيد بن أرقم، ١٧ - وأبي أيوب، ١٨ - وأبي بردة، ١٩ - وجابر بن سمرة، ٢٠ - وغيرهم  
من الصحابة والتابعين من الحفاظ والمحدثين كلهم عن كتب معدودة هنا وغير معدودة وإليكم  
أسماء قسم من الكتب:

٣ - فسعد بن أبي وقاص يرويه عنه إبراهيم بن سعد رويناه عن أربعة وعشرين من كتب أعاظم  
محدثي العامة، وعائشة بنت سعد عن تسعة كتب وعامر بن سعد عن خمسة عشر ومصعب بن  
سعد عن أحد وثلاثين وسعيد بن المسيب عن تسعة عشر، وحديث آخر عنه عن أربعة، وعبد  
الدين سعد عن ثلاثة وعبد الله بن بديل عن عدة كتب.

٤ - وجابر بن عبد الله أخرجه عنه أحمد بن حنبل في المسند ٣: ٣٣٨ والترمذي في صحيحه  
١٣: ١٧٥ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٣: ٤٨٨ وابن الأثير في جامع الأصول ١:  
٤٦٩ والحموي في فرائد السمطين والقرشي في البداية والنهاية ٧: ٣٤١ والعسقلاني في  
لسان الميزان ٥: ٣٧٨ والسيوطي في ذيل اللثاليء ص ٥٩ والميمني في شرح الديوان ١٧٣  
والواسطي في المناقب ١١٨.

٥ - وأبو سعيد أخرجه عنه وابن سعد في الطبقات الكبرى ٣: ٢٤ والقشيري في تاريخ الرقة  
١٣٣ وابن المغازلي في المناقب والهيتمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٩ والهروي القاري في  
شرح العين ٣٥٦ والقندوزي في ينابيع المودة ٥٠ والنبهاني في الفتح الكبير ٣: ٣٤٣ والهيتمي  
والنعساني في تعليقه على تاريخ الرقة ١٣٣.

٦ - وحبشي بن خبابة أخرجه عنه أبو نعيم في أخبار أصبهان ١: ٢٨١ والنعساني ١٣٣  
والطبراني في المعجم الصغير ١٩٠ والهيتمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٩.

٧ - وسعد بن مالك أخرجه عنه ابن سعد في الطبقات ٣: ٢٤ وأحمد بن حنبل في مسنده ١:  
١٧٣ و٣: ٥٧ و٦٦ و٧٤ وفي المناقب ٣: ١٢٤ والنسائي في المخصص نص ١٧.

٨ - وأسماء بنت عميس أخرجه عنها الإمام أحمد في المستدرک ٦: ٤٣٨ والفضائل ٣: ١٠٧  
والنسائي في الخصائص ١٧ والبغدادي في تاريخه ١٠: ٤٣ و١٢: ٣٢٣ وابن عبد البر في  
الاستيعاب ٣: ٤٥٩ والحموي في الفرائد والذهبي في تاريخ الإسلام ٤: ٩٤١ والهيتمي في  
مجمع الزوائد.

٩ - وابن عمران أخرجه عنه الهيتمي في مجمع الزوائد ٩: ١١٠.

١٠ - وابن أبي ليلى أخرجه عنه المتقي الهندي في منتخب كنز العمال ٥: ٣٠.

١١ - ومالك بن الحريث أخرجه عنه البخاري في التاريخ الكبير ٤: ٣٠١.

أخرجه عن كل منهم جماعة من الأساطين وهم حسب ترتيب العدد يذكر بعضهم في الهامش .

وكل هذه الإخراجات متفقة في «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» أم بزيادة «أما ترضى» ثم «إلا أنه لا نبي بعدي»<sup>(١)</sup> «لا نبوة بعدي»<sup>(٢)</sup> «لا نبوة بعد نبوتي»<sup>(٣)</sup> «إلا النبوة»<sup>(٤)</sup> . . . . .

١٢ - وسفيان الثوري أخرجه عنه الخطيب في ٤ : ٧١ من تاريخه وفي موضع أوهام الجمع والتفريق والطبري في الرياض النضرة ٣ : ١٦٣ .

١٣ - وابن عباس أخرجه عنه أبو نعيم في تاريخ أصفهان ٣ : ٣٢٨ وابن المغازلي في المناقب وابن عساكر في التاريخ الكبير ١ : ١٠٧ والهيتمي في المجمع ٩ : ١٠٩ والبدخشي في مفتاح النجاة ٤٤ والقندوزي في ينابيع المودة ٢٣٤ .

١٤ - وأم سلمة أخرجه عنها اللدمشقي في البداية والنهاية ٧ : ٢٤١ والهيتمي في المجمع .

١٥ - وابن مسعود أخرجه عنه ابن المغازلي في مناقبه .

١٦ - وأنس بن مالك أخرجه عنه ابن المغازلي والمتقي الهندي في منتخب كنز العمال ٥ : ٢١ .

١٧ - وزيد بن أرقم أخرجه عنه الشفشاوي في سعد الشموس والأقمار ٣٠٩ والهيتمي في مجمع الزوائد .

١٨ - وأبو أيوب أخرجه عنه الهيتمي في المجمع ٩ : ١١١ .

١٩ - وأبو بردة أخرجه عنه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ٢٣ .

٢٠ - وجابر بن سمرة أخرجه عنه القندوزي في الينابيع ٥٠ والهيتمي في المجمع .

(١) هذا هو الأكثر المطلق ويعني «من بعدي» من بعد نبوتي لا بعد وفاتي، كما يفسره سائر النصوص .

(٢) أخرجه الكنجي الشافعي في كفاية الطالب ١٤٨ عن عدة طرق عن سعد بن عامر عنه رضي الله عنه وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٨٥ وجماعة آخرون من الحفاظ .

(٣) أخرجه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء ٧ : ١٩٥ والنسائي في الخصائص ١٥ .

(٤) أخرجه الشيباني المروزي في المسند ١ : ١٧٠ وفي الفضائل، والنسائي في الخصائص ١٤ و١٦ والحموي في الفرائد والدمشقي في البداية والنهاية ٧ : ٣٤٠ والمتقي الهندي في كنز العمال ٦ : ١٥٣ وعبد الرحمن الرازي في علل الحديث ٢ : ٣٩٠ والخطيب في تاريخه ٨ :

٥٢ وابن المغازلي في المناقب كلهم عن عائشة بنت سعد عن رسول الله ﷺ والبخاري في التاريخ الكبير ١ : ١١٥ عن سعد عنه رضي الله عنه .

«لا نبي معي»<sup>(١)</sup>. «غير أنه لا نبي»<sup>(٢)</sup> «ولو كان لكانته»<sup>(٣)</sup> «إلا أنك لست بنبي»<sup>(٤)</sup> «إلا النبوة وأنت خليفتي»<sup>(٥)</sup> «إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي»<sup>(٦)</sup> صارخة صارخة أن لا استثناء عن تلك المنزلة إلا منزلة النبوة، حيث ختمت بمحمد ﷺ بهذه التصريحات العشر.

وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله: «يا علي أنت مني بمنزلة هبة الله من آدم، وبمنزلة سام من نوح، وبمنزلة إسحاق من إبراهيم وبمنزلة هارون من موسى، وبمنزلة شمعون من عيسى إلا أنه لا نبي بعدي»<sup>(٧)</sup>.

وحديث المنزلة على ضوء آيتها ليس يثبت لعلي ﷺ فقط الخلافة بعد الرسول، بل الوزارة زمن الرسول ﷺ والوزير في حياة الرسول، أخرى أن يكون الأمير بعد وفاته.

وهذه قلة من ثلة من أحاديث المنزلة والتفصيل إلى المفصلات.

- (١) أخرجه ابن المغازلي الواسطي في المناقب والقندوزي في بيايع المودة ٨٦.
- (٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٦ : ١٠٧ دخل سعد على معاوية فقال له بعد مكالمة بينهما : إنك لتأمرني أن أقاتل رجلاً سمعت فيه من رسول الله ﷺ يقول : أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي فقال له معاوية من سمع هذا معك قال : فلان وفلان وأم سلمة .
- (٣) الخطيب البغدادي في تاريخه ٣ : ٢٨٨ بسند متصل عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ لعلي ﷺ أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ولو كان لكانته .
- (٤) أخرجه ابن المغازلي في مناقبه والبدخشي في مفتاح النجا ٤٤ مخطوط وابن سعد في طبقات الكبرى ٣ : ٢٤ عن البراء بن عازب وزيد بن أرقم .
- وأحمد بن حنبل في مسنده ١ : ٢٣٠ والفضائل ٢ : ٢٤٠ والنسائي في الخصائص ٨ والنيسابوري في المستدرک ٣ : ١٣٢ .
- (٥) أخرجه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ٢٣ عن أبي بردة قال خرج علي . . .
- (٦) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ٧ : ٣٣٨ .
- (٧) البحار الطبعة الحديثة ٣٧ : ٢٠٤ بالإسناد عن الصادق ﷺ عن آبائه ﷺ قال رسول الله ﷺ والإخراجات السابقة نقلناها عن تعليقات إحقاق الحق للعلم الحجة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ج ٥ ص ١٣٢ - ٣٣٤ .

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ (٣٦) :

والسؤال هو الحاجة وهي هنا حاجة عضد الرسالة وأزرها، وقد أوتيت لموسى، وكذلك سأل الرسول محمد ﷺ لأخيه علي عليه السلام ما سأله موسى لأخيه هارون فأوتي بسؤله<sup>(١)</sup> وأين سؤال من سؤال وسؤال من سؤال، فقد سجل سؤال موسى بسؤله في الذكر الحكيم في آيات بضع، وسجل سؤال الرسول دون سؤال في سورة الانشراح!

هذه هي المنة الثالثة على موسى، وقبلها أصل الوحي والرسالة، وقبلهما: ولقد مننا . . .



(١) الدر المثور ٤ : ٢٩٥ - أخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن أسماء بنت عميس قالت: رأيت رسول الله ﷺ بإزاء ثبير وهو يقول أشرق ثبير أشرق ثبير اللهم إني أسألك بما سألك أخي موسى ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) وَيَبِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ بِفَقْهُوَا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَيِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴿طه: ٢٥-٣٤﴾ وفيه أخرج السلفي في الطيوريات بسند عن أبي جعفر محمد بن علي قال: لما نزلت: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) هَرُونَ أَخِي ﴿٣١﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣٢﴾ ﴿طه: ٢٩-٣١﴾ كان رسول الله ﷺ على جبل ثم دعا ربه وقال: اللهم أشدد أزري بأخي علي فأجابه إلى ذلك وروى أبو نعيم الحافظ بإسناده عن رجاله عن ابن عباس قال: أخذ رسول الله ﷺ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام ويدي ونحن بمكة وصلني أربع ركعات ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إن نبيك موسى بن عمران سألك فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) وَيَبِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ . . . وأنا محمد نبيك أسألك ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) وَيَبِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ بِفَقْهُوَا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴿طه: ٢٥-٣٢﴾ قال ابن عباس: فسمعت منادياً ينادي: قد أوتيت سؤالك.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ  
 أَفْذِيهِ فِي التَّابُوتِ فَافْذِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي  
 وَعَدُوٌّ لَهُمُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي  
 أُخْطَاكَ فَفَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ  
 عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَّتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَنَّكَ فَتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ  
 فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾  
 أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ  
 طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّتُنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا  
 نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَنَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ  
 أَسْمَعُ وَارَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ  
 وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾  
 إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ :

وهي المنة الأولى وإن كانت هي الأخرى بالنسبة لما هنا :

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ :

مهما بان البون بين وحيين، فثانیهما ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ إلى رسول الهدى وحي رسالي، والأول وحي إلهامي إلى أم موسى وقد شمل ذلك الوحي نبأ عن وحي التكوين إلى اليم وأن يأخذه عدو لله وعدو لموسى .



وذلك المن الأول دون سؤال يؤكد تحقيق منه بسؤال، ولا سيما بعد الرسالة، وعلّ **﴿قَدْ أُوتِيَ سُؤْلَكَ﴾** تشمل كل سؤله منذ ولادته إلى تربيته وإلى رسالته ومتطلباتها، فإن ذلك قضية المضي المؤكد بـ «قد» في **﴿قَدْ أُوتِيَ﴾** فمنه تعالى مرة أخرى وهي الأولى داخل في سؤله فإنه ليس سؤالاً حتى يختص بالحال، بل هو حاجة تقتضيه الحال على أية حال، سألها بلسان القول أو الحال أم لم يسألها في مقتضى الحال.

ولماذا **﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾** والمذكور في ما يوحى من ثمان؟ علّه لأنه نظراً إلى حياته الرسالية وقبلها، فالمن عليه في كل منهما مرة مهما كانت شتى، فقبل رسالته منة هي ثمان أم تزيد، وقبلها أخرى هي ستة أم تزيد فهما منتان كمجموعتين، وهما منن - لأقل تقدير - هي أربعة عشر كعديدها.

فالمن الأول من الأخرى: **﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى﴾** فإن مادة الوحي كانت لصالح الحفاظ على حياة موسى:

**﴿أَنْ أَفْذِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾**  
وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾:

أترى هذه المادة الهامة الخطيرة من وحي الإلهام كانت رؤيا في المنام، كان تأويلها قذفه في التابوت ثم في اليم؟ وليست هنالك قاطعية في تأويلات الروئي إلا أن يكون المؤول من الأنبياء، والنص هنا لا يشير إلى رؤياً ولا تأويله ولا نبي في اليم!

إنها - بطبيعة الحال - وفي هذه الهامة الخطيرة، إلهام إلى قلبها في حد من الظهور والبهور لا يقبل أي تردد، وكأنها تحس الواقع المستقبل من نجاة موسى، لحدّ ألقته في التابوت إلى اليم.

كيف لا و**﴿إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾**

أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿١﴾ .

أو ليست أم موسى من هؤلاء - وهي تحمل أمانة الرسالة الإلهية - حتى تستحق نزول الملائكة عليها بذلك الوحي، حفاظاً على رسالة الوحي؟! وكما تمثل لأم عيسى روح الأمين ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (٢) لكي يلقي إليها غلاماً سوياً.

فهنا أم موسى يوحى إليها ما فيه الحفاظ على وليدها، وهناك أم عيسى يوحى إليها ليلقي إليها بشراً سوياً، وهما من أفضل الوحي فيما سوى النبوة والرسالة، ومن أدناه الوحي إلى النحل ثم للأرض.

فما كل ما يسمى وحيًا، يحمل رسالة إلهية، وهو في الأصل إشارة في رمز تكويناً أو تشريعاً، خيراً أو شراً، كما ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْمِنَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّدَ لَكُمْ﴾ (٣) !.

وكما أن وحي الشيطان دركات، كذلك وحي الرحمن درجات، أدناها للأرض، وأعلىها إلى المرسلين وبينهما متوسطات.

فلقد قذف في قلب أم موسى لأول ما يوحى ﴿أَنْ أَقْرِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ . . . أم حنون تلد ولداً كموسى، فبدل أن تحتضنه تقذفه في التابوت، وهي ما يلقي في الماء!

صحيح إنها تؤكدته وحيًا من الله، ولكنها كيف تجرؤ على الإقدام بما تؤمر، والعاطفة المرهفة والهيمنان البالغ تمنعانها عن ذلك، مهما الوحي يأمرها بذلك؟! .

هنا قذف في التابوت، ثم قذف في أليم، قد يلمحان بسرعة في العمل

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

دون أية رعاية، تعجلاً دون أي تأجيل، مما يوحش ولا سيما الأم الحنونة، لولد تعرفه من هو؟! .

ولكنما النص التالي يُطْمئنُّها أن ليس في إلقائه إغواء: ﴿فَلْيَلْقَهُ أَلِيمٌ بِالسَّاحِلِ﴾ أمراً تكوينياً لليم أن تلقيه من خضمها إلى الساحل، ثم أمر آخر كما الأول لأقسي قلب وأعصى عبد: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ﴾ وهو فرعون الطاغية، عدو الله إذ ينكر ربوبيته بل يدعي هو الربوبية بديله، وعدو لموسى إذ يعلم أن بيده قضاء فرعنته وملكه، ولذلك أخذ يقتل الذكران من بني إسرائيل<sup>(١)</sup> ولكنه مأمور تكوينياً باختيار أن يأخذ عدوه موسى ويحتضنه

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٢٥ عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما حملت به أمه لم يظهر حملها إلا عند وضعها له وكان فرعون قد وكل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط تحفظهن وذلك لما كان بلغه عن بني إسرائيل أنهم يقولون إنه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون وأصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك: لأقتلن ذكور أولادهن حتى لا يكون ما يريدون وفرق بين الرجال والنساء وحبس الرجال في المحابس فلما وضعت أم موسى بموسى نظرت إليه وحزنت عليه واغتمت وبكت وقالت: تذبح الساعة، فعطف الله الموكلة بها عليه فقالت لأم موسى ما لك قد اصفر لونك فقالت: أخاف أن يذبح ولدي فقالت: لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلا أحبه وهو قول الله: ﴿وَالْقَبْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] فأحبه القبطية الموكلة به وأنزل الله على أم موسى التابوت ونوديت: ضعيه في التابوت فاقدفيه في اليم وهو البحر ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فوضعت في التابوت وأطبقت عليه وألقته في النيل وكان لفرعون قصر على شط النيل متنزه فنظر من قصره ومعه آسية امرأته إلى سواد في النيل ترفعه الأمواج وتضربه الرياح حتى جاءت به على باب قصر فرعون فأمر فرعون بأخذه فأخذ التابوت ورفع إليه فلما فتحه وجد فيه صبياً فقال: هذا إسرائيلي فألقى الله في قلب فرعون لموسى محبة شديدة وكذلك في قلب آسية وأراد أن يقتله فقالت آسية: لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون أنه موسى ولم يكن لفرعون ولد فقال: التمسوا له ظئراً تربيته فجاؤوا بعدة نساء قد قتل أولادهن فلم يشرب لبن أحد من النساء وهو قول الله: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ...﴾ [القصص: ١٢]. وفي بحار الأنوار ١٣ : ٤٦ فضضه روى مجاهد عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في =

ليحتزن به على جهله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خُفِتْ عَلَيْهِ فَأَلَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَأَلْقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا...﴾ (١).

هنا وهناك يُطَلِّعه ربه عرضاً عليه من منة قبل رسالته، ليزيد علماً وطمأنينة إنه لم يذهب ولن.. غَفَلًا عن عين الله ورعايته حين ضعفه على أية حال، فكيف يذهب غفلاً في تلك الحال وقد بلغ أشده وأرسل بالوحي وآيات الرسالة القاهرة الباهرة؟.

أترى لماذا الإلقاء في التابوت وهي لحمل الجنائز مما يخيف بدل أن يُظْمِنَ؟.

﴿التَّابُوتُ﴾ معرفاً دليلاً أنه صندوق خاص، وعلّ أصله «تابوه» من «تباه» العبرية (؟؟؟) وهي بين: الصندوق - فلك نوح وتابوت العهد، والهاء في آخر (تباه) إذا أضيفت إلى كلمة أخرى تقلب تاء فيقال: تَبَّتْ مِكتَابِيتِ صندوق الرسائل.

إذاً فالتابوت لغوياً صندوق خاص فيه صيانة تامة لما فيه، وشاهداً له قرآنياً ﴿إِنَّ ءَايَةَ مَلِكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

= خبر طويل قال: إن موسى بن عمران عليه السلام كان فرعون في طلبه يبقر بطون النساء الحوامل ويذبح الأطفال ليقتل موسى عليه السلام فلما ولدته أمه أمرها أن تأخذه من تحتها وتقذفه في التابوت وتلقي التابوت في اليم فقالت وهي ذعرة من كلامه يا بني إني أخاف عليك الغرق فقال لها: لا تحزني إن الله يردني إليك فبقيت حيرانة حتى كلمها موسى وقال لها: يا أم اقدفيني في التابوت وألقي التابوت في اليم قال: ففعلت ما أمرت به فبقي في اليم إلى أن قذفه الله في الساحل ورده إلى أمه برمته لا يطعم طعاماً ولا يشرب شراباً معصوماً مدة.

وفيه عن الكافي عن سدير الصيرفي عن الصادق عليه السلام قال: إن فرعون لما وقف على أن زوال ملكه على يد موسى أمر بإحضار الكهنة فدلوه على نسبه وأنه من بني إسرائيل فلم يزل يأمر أصحابه بشق بطون الحوامل من بني إسرائيل حتى قتل في طلبه نيفاً وعشرين ألف مولود وتعذر عليه الوصول إلى قتل موسى لحفظ الله تبارك وتعالى إياه.

(١) سورة القصص، الآيتان: ٧، ٨.

وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ .

فكما في هذا التابوت سكيئة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، كذلك التابوت الذي قذف فيه موسى وقذف في اليم تحمله رعاية الله في خِضْمِ اليم ﴿فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾! وعلّه هو التابوت الأوّل نفسه وقد وضع موسى فيه المن وعصا هارون ولوحي العهد، كما في الرسالة إلى العبرانيين الإصحاح التاسع: وأمر اللاويين أن يضعوا فيه كتاب التوراة بجانب عهد الرب في التابوت كما في تشية التوراة ٣١: ٢٥.

وعلى أية حال هو فاعول يدل على مبالغة في معناه، يوضع فيه الثمين الثمين حفاظاً عليه - بالغاً - عن الضياع، وقد يسمى تابوت الميت باسمه، لأنه يصونه عن الضياع حيث كان يوضع في صندوق ويدفن معه بماله من حاجيات ضرورية حيوية عله يحتاجها في قبره! .

ولماذا ﴿فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ دون «إلى الساحل»؟ علّ الساحل هنا مأمور كما اليم، فاليم يلقيه بواسطة الساحل الذي يلتقيه، فقد يلقي اليم ولا يتلقى الساحل ما ألقاه، أم يتلقى الساحل ولكن اليم لا يلقي، فهنا هما مأموران تكوينياً دون اختيار إلقاءً وتلقياً، وكما فرعون مأمور قذفاً في قلبه تكوين الإختيار!

إذاً فهنا أوامر أربعة، أولها لأم موسى «وثانيها لليم: ﴿فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ﴾ وثالثها للساحل: ﴿بِالسَّاحِلِ﴾ ورابعها فرعون: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ .

وترى ﴿الْيَمُّ﴾ هنا هو البحر؟ أو النيل النهر؟ فلماذا لم يأت كلُّ باسمه الخاص! .

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨ .

إنه البحر وعظيم النهر، فلأن النيل كان في عظمه كالبحر الملتطم، لذلك جاء بصيغة اليم.

والضمائر الأربعة كلها راجعة إلى موسى «اقذفه . فاقذفه . فليلقه . . يأخذه» فإنه الأفسح الأصح من اختلاف المراجع، في أدب اللفظ وأدب المعنى، حيث المحور الأصيل هنا هو موسى، وما التابوت إلا حاملاً له كسفينة مأمورة في أمر اليم والساحل.

وكيف ﴿يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ﴾؟ حيث ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ فإن فرعون كان يعادي كل إسرائيلي عله موسى، فكان يعاديه كأحدٍ منهم بهذه الحائطة، وأصل عدائه لأن بيده انهياره، فلم ينج بهذه الطريقة الخارقة للعادة أن يأمر بأخذه من الساحل إلا بما ألقى عليه محبة منه ولحدّ تقول أهله: ﴿فُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾<sup>(١)</sup>! أحبته فأحبه فرعون خلافاً لما يحكمه الجو الفرعوني!

ف «ألقى» إلقاء خاص بإلغاء كل بواعث العداة وكوارثه، و﴿عَلَيْكَ﴾ تجعل المحبة الملقاة سترًا له يشملها كله، فظاهره يجلب وباطنه يجذب، اللهم إلا فيمن يعرفه من هو وهو يعاديه لأنه هو، كفرعون الطاغية، ولكنه عرفه بعد وعانده ما عاند.

وترى ﴿مَنِّي﴾ متعلقة بـ «ألقى»: إلقاء مني؟ أم بمحذوف كـ «حاصلة»؟ أو المعنيان معنيان، فكما المحبة ملقاة من الله كعناية خاصة، كذلك هي حاصلة من قبل الله لمن يحب الله فيحبه الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾<sup>(٢)</sup>.

فموسى وإن لم يكن منذ ولادته كما وصف الله حتى يجعل له وداً -

(١) سورة القصص، الآية: ٩.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٦.

وهو كما وصف وفوقه - ولكنه يوده لأنه سيجعله رسوله، فهو يصنعه على عينه، وذلك فوق الإيمان شريطةً لاستحقاق الود من الرحمن .

ثم ﴿مَحَبَّةٌ﴾ منكرة تلمح إلى ضخامتها وفخامتها القليلة النظير، و﴿مَنِّي﴾ تجعلها خاصة من لدنه، فقد استقرت عليه محبةً ربانية، فلا يراه أحد إلا أحبه دون أن يعرفه، إلا أن يعرفه عدوُّ له .

فيا للقدرة العجيبة التي تجعل من المحبة اللينة الهينة درعاً تتكسر عليها الضربات، وتتحطم عليه الأمواج، وتعجز كل قوَّات الشر والطغيان عن أن تمس حاملها بسوء وإن كان طفلاً رضيعاً، كيف وقد بلغ أشده، ثم حين عرفه عدوه يتربص به كل دوائر السوء فلا يقدر عليه أو يغدر به حتى إذا أدركه الغرق ونجى موسى ومن معه! .

فالقوى الطاغية المتربصة بالطفل لا تقوى عليه على طغواها، حيث ﴿مَحَبَّةٌ مِّنِّي﴾ تحرسه عنها، دون نزال له ولا صيال، وهي بكل صيال ونزال! .

ولماذا ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾؟ لأمر عدة تستحقها رحمة مني ولتُصنَع على عيني» وهكذا يصنع الله على عينه من يشاء أن يلقي عليه محبة منه .

أم «ولتضع على عيني» - ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ حيث الرسل صنائع الله يصنعهم على عينه كما يشاء ويصلح لحمل أعباء الرسالة الإلهية .

ف«عيني» هنا، وهي ككل الرقابة، تعني عين العلم والقدرة والتربية الربانية، فمثلت العين التربوية الإلهية تصنعه كما يريد، وليس يعني أن في الكون شيئاً يغيب عن رؤية الله، ولكنه يفيد الاختصاص بشدة الرعاية وفرط الحفظ والكلاءة أن تتربى بحيث أراك وأرعاك، فلأن الحافظ لشيء في الأغلب يديم رعايته بعينه، جاء هنا باسم العين بدلاً من الحفظ، تليظاً في الكلام، ومشابهة لما بين الأنام، فإنه تعالى يكلمنا بألستنا .

وهذه الصناعة تحلّق على كل كيانه وكونه، منذ أصلاب الآباء وأرحام

الأمهات، إلى الولادة، إلى التربية، وإلى النبوة والرسالة والنبوة، وإلى أن قضى نحبه.

وقد تعني ﴿وَلِصْنَعٍ﴾ فيما عنته، أمه، فإن صناعتها هي من صناعته في طيب الحمل والولادة، وحسن الصنعة باثتمارها أمر ربها في قذفها في اليم، وما أجمله جمعاً بين الصناعتين فإنهما صناعته، ولأنه صيغة التذكير، ليست لتختص بها فإنها «لتصنعي» خطاباً، اللهم إلا في غياب الصيغة وهو بعيد عن السياق، والجمع أجمع وأجمل.

أنت تُصنع على عيني تحت عين فرعون عدواً لي وعدواً لك، كما تحت عيني أمك، فكما أنت على عين أمك بكل حنانها، كذلك تحت عين فرعون وفي متناوله بلا أي حارس وعلى أشرف كل كارث، ولكن عينه لا تمتد إليك إلا على عيني، لأنني ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾!

وترى ﴿مَحَبَّةً مِنِّي﴾ ميزة لموسى وحتى على خاتم الأنبياء ﷺ إذ لم يشمل النص، ولم يختص بنص آخر؟ إن الرسول محمد يفوق موسى ومن فوقه بفائقات عدة، منها أن «لا تتم الشهادة إلا أن يقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ينادى به على المنابر فلا يرفع صوت بذكر الله ﷻ إلا رفع بذكر محمد ﷺ معه<sup>(١)</sup> وذلك قوله ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾<sup>(٢)</sup>! وإنه رسول إلى النبيين كما إلى جميع العالمين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧٩ في كتاب الاحتجاج روى موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين ابن علي ﷺ قال: إن يهودياً من يهود الشام وأخبارهم قال لأمير المؤمنين ﷺ فلقد ألقى الله على موسى ﷺ محبة منه؟ قال علي ﷺ لقد كان كذلك ولقد أعطى الله محمداً ﷺ ما هو أفضل منه لقد ألقى الله ﷻ عليه محبة منه فمن هذا الذي يشركه في هذا الاسم إذ تم من الله ﷻ به الشهادة فلا تتم الشهادة... .

(٢) سورة الشرح، الآية: ٤.



مَعَكُمْ لَتُؤْمِنَنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١﴾ .

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَجَيْتَكَ مِنَ الْعِغْرِ فَفَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِئِي ﴿١١﴾﴾ :

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيبُ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنِ جُنُبٍ وَهَمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ \*  
وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَمْ نَصْحُوكَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ (٢) .

هنا - وبعد قذفه في اليم والتقاط آل فرعون له - تقصه أخته بأمر أمه فتبصر به عن جنب وهم لا يشعرون، ولأنه لم يكن يرتضع من أي ثدي حيث حرمت عليه المراضع من قبل إلا أمه، عرضت لهم من يكفله رضعاً ونصحاً، كفالة لحاجته روحية إضافة إلى بدنية، وهم بطبيعة الحال يفتشون عن هكذا مرضعة .

﴿إِذْ تَمْشِي ﴿١١﴾﴾ عله ظرف ل ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ أخذاً لصناعته منذ رضاعته وهو صنيع ربه قبلها وبعدها حتى ارتحاله إلى رحمة ربه، ولكنما الرضاعة لأهميتها هنا كأنها بداية صناعة الرب، وهو صنيعه منذ أصلاب الآباء وأرحام الأمهات حتى النهاية في تطواف الرسالة وقضاء أمرها .

فلقد كان من صناعته له على عينه أن جعله لا يقبل ثدي المرضعات ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ (٣) فال فرعون يبحثون له عن مرضعة مرضية،

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١ .

(٢) سورة القصص، الآيات: ١١-١٣ .

(٣) سورة القصص، الآية: ١٢ .

وتتسامع المرضعات هذه الطلبة الفرعونية فتسابق إلى القصر تكسباً لهذه المفخرة أن تصبح إحداهن مرضعة فرعونية، فيدبر الله أمره أن تمشي أخته ضمن المشاة فتقدمهما لما يتطلبون ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ ولكي يتم وعد الله له حيث حرمت عليه المراضع من قبل، وذلك من قرير عينها ألا يرتضع إلا منها جمعاً بين حق الربوبية وصالح الرسالة وبغية الأمومة! .

وهكذا يتم التدبير الرباني للطفل وأمه، حيث تأتمر وحيه، وتقذف فلذة كبدها في اليم، ليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو الله وعدو له ﴿وَلِئَصْغَ عَلَيَّ عَيْقٍ﴾ فيكون الأمن بإلقائه في خِصْمِ اليم الملتطم، وتكون النجاة من فرعون بإلقائه بين يديه بلا حارس ولا معين وبكل كارث! .

وهنا يتناسى السياق مساع موسى منذ ارتضاعه إلى بلوغ أشده، إلى عرض منة أخرى:

﴿وَقُلْتَ نَفْسًا فَجَئْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَايَنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَنُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمُْوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُْوسَىٰ إِنَّكَ

أَمَلًا يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٥﴾ فُجِرَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴿٢٧﴾ ﴿١﴾ .

فلقد اغتم موسى بهذه القتلة الخاطئة غير القاصدة كما تلمح له ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ - ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ - ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ فقد وكزه وكزه فأصبحت قتلة خاطئة<sup>(٢)</sup> وحتى لو كانت عامدة ما كانت منه خطيئة، فإن القبطي كان وثنياً محارباً وحكمه واضح، ولكن هذه القتلة غير العامدة خلّفت تأخيراً للرسالة الموسوية، وهي من هذه الناحية كانت خطأً وغماً فنجاه الله من غمه .

﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ عدة، منذ رضاعتك وصباك وبلوغ أشدك في البلاط الفرعوني، إلى قتل النفس، وإلى قضاياك في مدين، وفتن الرسالة هي طبيعة الحال لمن يعدُّ لها عُدَّةً، ولكي يتمرن على المصائب المصاعب، ويتدرب على درب الرسالة الشاقة الملتوية، ويتجرب بما يحضّره لكل نائبة .

وتراه كيف قتل نفساً خطأً وهو صنيع ربه، معصوماً عن كل وصمة عامدة أو خاطئة؟ علّه من فتن الله، المعني من «فتونا» ولكي يعرف أنه لو وكله إلى نفسه طرفة عين لتطرّف وانحرف، وذلك قبل الرسالة الرسمية حيث حصلت بعد سنّي مدين الفاتنة له، المربية إياه .

يمنتحنه ربه بالخوف والهرب من القصاص، وبالغربة ومفارقة الأهل والوطن، وبالخدمة ورعي الغنم، نحلة لأهله ونفقة، وقد تربى منذ ولادته حتى حينه في قصر أعظم ملوك الأرض!

(١) سورة القصص، الآيات : ١٤-٢٢ .

(٢) الدر المثور ٤ : ٢٩٦ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والخطيب عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأً يقول الله : وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفي المجمع روي عن النبي ﷺ أنه قال : رحم الله أخي موسى قتل رجلاً خطأً وكان ابن اثني عشرة سنة .

## ﴿ فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْؤِسُونَ ﴾ :

وهذه السنون هي من ضمن فتنة الفتون، حيث يصنعه ربه على عينه في شغل رعاية الغنم ورعيها، نحلةً عن زواجه، واستعداداً لرعاية الرسالة العالمية ورعي الأمة الاسرائيلية.

و﴿سِنِينَ﴾ هذه بين ثماني حجج وعشر، وعله قدم العشر تقديماً لأفضل الأمرين الإمرين وأتمهما<sup>(١)</sup> كما هي شيمة الرسل بجنب الله.

وطالما النص يلوي عن عرض أشغاله في سني مدين، حيث الأهم هو عرض هامة الرسالة ببندوها، ولكن ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْؤِسُونَ﴾ تقدّر مقادير تحضره في سنيّه الفائتة الفائتة.

وذلك القَدَر هو قَدَر ولاية عزم الرسالة كما قَدَر الله، الوقت المقدر لما نضج واستعد وخرج عن كل هرج ومرج، حيث ابتلي وصبر وامتحن فجاز الامتحان، كما وتهيأت الظروف في مصر لتقبُّل الدعوة الموسوية، إذاً فهو قَدَر التقدير وقتاً، وقَدَر المقدار حالة نفسية كما ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾<sup>(٢)</sup> وأين قدر عام من ذلك القدر، ومن قدره عمره الأربعون.

فموسى قبل جيئته هذه كان «إلى قدر» ولكنه بعد ربح من الزمن، وذوق الفتن كما الذهب غير الخالصة تفتن لخلاصها فخلوصها ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ واصلاً إليه، محيطاً عليه، لاثقاً لابقاً لحمل أعباء الرسالة إلى فرعون وملئه، وفي هذه الجيئة الثانية:

## ﴿ وَأَصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِي ﴾ :

وهي افتعال من صنعتك، إذ ليست الصناعة الرسالية الموسوية كسائر

(١) نور الثقلين ٣: ٣٨٠ في تفسير القمي قيل للصادق عليه السلام أي الأجلين قضى؟ قال: أتمها عشر حجج.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٩.

الصنعة لسائر الناس، فإن فيها مزيداً عليهم، يحضّره رسولاً إليهم و﴿لِنَفْسِي﴾ بيان لغاية ذلك الاصطناع، حتى يكون رسولاً معصوماً أميناً من الله.

فليس موسى لنفسه ولا لسواه إلا الله، يعيش حياته الرسالية في الله والله، دون اتباع لهواه آمن سواه، فإنه بعين الله ومختار الله وصنيع الله، فكيف يكون لغير الله!.

ثم المنتفع من غاية اصطناعه ليس إلا هو ومن ثم المرسل إليهم، فإن الله ليس لينتفع من عباده ﴿وَاللَّهُ الْعَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾<sup>(١)</sup> وما لم يكن العبد لله لم يكن لنفسه ولا لعباد الله.

ولأنني ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ وجعلت لك وزيراً من أهلك هارون أخاك ف:

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾:

﴿أَذْهَبَ﴾ بحمل الرسالة العالمية لبلاغها ﴿أَنْتَ﴾ كأصل فيها ورأس الزاوية لها ﴿وَأَخُوكَ﴾ أزرأ ووزيراً، ﴿بِآيَاتِي﴾ الدالة على رسالتكما الإلهية ﴿وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ من الوني: الفترة والضعف والكلال والإعياء والإهمال والتقصير.

ثم ﴿ذِكْرِي﴾ هي من إضافة المصدر إلى الفاعل وإلى المفعول: ذكري إياكم وذكركم إياي، قالاً وحالاً وأفعالاً، في أنفسكم وفي المرسل إليهم، حيث العقبات أمام ذكر الله كثيرة خطيرة، فلتكافح الرسالة كافة العراقيل، لتجتازها إلى تحقيق رسالة الله في عباد الله.

ولقد كان الأمر قبل استجابته في سؤله يخصه: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ وهنا يُشْفَعُ به أخوه تحقيقاً لسؤاله، وترى هارون الغائب الآن عن هذا المحضر كيف يؤمر بما يؤمر به موسى؟ إنه يؤمر ضمن ما يؤمر موسى،

(١) سورة محمد، الآية: ٣٨.

وبلاغه إليه على عاتق موسى، وكما أوحى إلى هارون نفسه في نفس الوقت مهما كان بعيداً عن ذلك المحضر، حيث الكون كله محضر لله، يخاطب من يريد خطابه مهما اختلف الزمان والمكان.

أم أنه خوطب بعدما اجتمع إلى هارون، ودليلاً عليه ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَ﴾<sup>(١)</sup> والسياق القرآني يطوي الزمان والمكان ويترك فجوات بين مشاهد القصص، هي معلومة من نفس السياق، ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر الأعمق في سير القصص وفي وجدان الناس.

وفي جمعية الآيات ﴿بِأَيَّتِي﴾ ولم يؤت من ذي قبل إلا آيتي العصا واليد البيضاء، تشير لهما إلى آيات أخرى.

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾<sup>(٢)</sup>:

وهنا تخص دعوة الداعية بعد عمومها فرعون الطاغية لأنه رأس الزاوية في عرقات الدعوة، وكل دعوة إلهية تبدأ بالسلب وتنتهي إلى الإيجاب، فما دامت الفرعات قائمة، لا تجد الدعوة الإلهية مجالاً لتحقيقها، إذا ف ﴿أَذْهَبَا﴾ في بداية الدعوة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ولماذا؟ ل ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ استعباداً لبني إسرائيل، واستعباداً بالحكم عليهم، فلتبدأ بحسمه وقصمه لكي تجد الدعوة سبيلاً إلى تطبيقها.

ترى وكيف يصلح ذهاب الداعية إلى الطاغية، إصلاحاً له، أم سداً عن بأسه وصدماً عن سلطانه؟

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾<sup>(٣)</sup>:

ونص القول اللين نجده في النزاعات ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾<sup>(٤)</sup>

(١) سورة طه، الآية: ٤٥.

أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ  
فَنَخَشِي ﴿١٩﴾ ﴿١﴾ وكما نجده هنا ﴿فَقُولَا...﴾ .

ونرى الداعية موسى طول حوارها مع فرعون الطاغية لا يقول له إلا قولاً  
ليناً لعلّه يتذكر أو يخشى» ولكنه زاد طغوى على طغوى، وهذه طبيعة حال  
الدعوة الصالحة أن تكون لينة بالتي هي أحسن، بالحكمة والموعظة الحسنة  
والجدال بالتي هي أحسن، استنباطاً لدفين الحق المستور تحت ستار  
الهُوى، وفي آخر المطاف ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُ فَعَاقِبَةُ الْمُتَّقِينَ﴾ وَلَئِن  
صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾ .

ثم القصد من هذا الذهاب إلى فرعون بقول لين ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ فتحصل  
له تقوى بعد طغوى، أم إذا لم يتذكر هكذا ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ لأقل تقدير، فتلك  
عبادة التجار وهذه عباد العبيد وقبلهما للأحرار أن يعبدوا الله لأنه الله .

ولأن موسى قد تربى عند فرعون، ثم قتل منه نفساً، ثم يأتيه رسولاً،  
وهو الطاغية الباغية، فهذه الأربع تدفع الداعية إلى قول لين معه أكثر من

(١) سورة النازعات، الآيات: ١٦-١٩ .

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٦ .

(٣) الدر المنثور ٤: ٣٠١ - أخرج أحمد في الزهد عن ابن عباس قال: لما بعث الله موسى إلى  
فرعون قال: لا يغرنكما لباسه الذي ألبسته فإن ناصيته بيدي فلا ينطق ولا يطرف إلا بإذني ولا  
يغرنكما ما متع به من زهرة الدنيا وزينة المترفين فلو شئت أن ازينكما من زينة الدنيا بشيء  
يعرف فرعون أن قدرته تعجز عن ذلك لفعلت وليس ذلك لهوانكما علي ولكني ألبستكما  
نصيبكما من الكرامة عن أن لا تنقصكما الدنيا شيئاً وإني لأذود أوليائي عن الدنيا كما يذود  
الراعي إبله عن مبارك الغيرة وإني لأجنبهم كما يجنب الراعي إبله عن مراتع الهلكة أريد أن  
أنور بذلك صدورهم وأطهر بذلك قلوبهم في سيماهم الذين يعرفون بهم وأمرهم الذي  
يفتخرون به وأعلم أنه من أخاف لي ولياً فقد بارزني وأنا الثائر لأوليائي يوم القيامة .  
أقول: مثل ابن عباس لا ينقل حديثاً قدسياً عن الله دون أن يسمعه من رسول الله ﷺ إذا فهو  
عنه ﷺ .

الواجب في طبيعة الحال الرسالية حيث القصد - لأقل تقدير - سدُّ أذاه وإخماد لظاه، وخشن القول مما يزيد لظي في أذى.

وكيف ﴿لَعَلَّهُ﴾ ولا تردُّد في علمه سبحانه أنه لا يتذكر ولا يخشى؟ إنه ترجُّح للداعية نتيجة الدعوة بصورة عامة، وحتى إذا تأكد أنه لا يتذكر ولا يخشى، فإنها ﴿عُدْرًا أَوْ نُذْرًا﴾<sup>(١)</sup> فالنذر بين تذكر وخشية، والعذر لبلاغ الحجة، ولكي لا تكون للناس على الله حجة، حيث الناس في انقسامات ثلاث، ناس وأشباه ناس ونسناس، فالناس بين دعاة يدعون، ومدعوين يتقبلون الدعوة، والنسناس هم المصرون على الباطل، وأشباه الناس عوان بينهما متوقفين بين الأمرين.

وعلى الدعاة أن يكونوا في دعوتهم ﴿عُدْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ فالعذر أمام النسناس لبلاغ الحجة، والنذر للذين يتقبلون الدعوة دون إمهال فهم المتذكرون، وللعوان المترددين المتقبلين بإمهال فهم الخاشون، و﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ يخص الأخيرين ويجمعهما ﴿نُذْرًا﴾ ثم ﴿عُدْرًا﴾ على الأولين.

والباعث القوي للدعوة أن يتذكر المدعو أو يخشى، وأما أن يطغى كفرعون فباعث الدعوة فيه ضعيف، ورجاء التأثير في الدعوة هو الباعث لها بقوة.

ف ﴿عُدْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ هما رسم لخطوط الدعوة وخيوطها بصورة عامة، وأما الدعوة الخاصة كما إلى فرعون، فلا تصلح أن يؤكد فيها أنه ﴿عُدْرًا﴾ قطعاً بعدم التأثير، فإنه ونبيُّ الدعوة شاء الداعية أم أبي، «فإنما قال: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ليكون أحرص لموسى على الذهاب»<sup>(٢)</sup> أم وبأحرى أنه تذكر

(١) سورة المرسلات، الآية: ٦.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٨٠ في علل الشرائع بسند متصل عن محمد بن أبي عمير قال: قلت لموسى بن جعفر عليه السلام: أخبرني عن قول الله تعالى ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾: ﴿أَذْهَبًا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا =



وخشي ولكن متى؟ عند رؤية البأس، حين لا تنفعه الخشية والذكرى<sup>(١)</sup>.  
وعلى أية حال فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء  
الزائف التي يعيشها الطغاة، بل ومن شأنه إيقاظ القلب غير المقلوب،  
والحجة القاطعة على القلوب.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَنَ﴾ (٤٥):

هنا خوف الداعية في سبيل الدعوة، يعرضه على الله، لا إعراضاً عن  
أمر الله، وإنما سؤالاً لمزيد التأييد كما سأل من ذي قبل فأعطي سؤله.

= لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿طه: ٤٣-٤٤﴾ فقال: أما قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾ [طه: ٤٤] أي كُنْيَاهُ  
وقولا له يا أبا مصعب وكانت كنية فرعون أبا مصعب الوليد بن مصعب، أما قوله: ﴿لَعَلَّهُ  
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] فإنما قال ليكون أحرص لموسى على الذهاب وقد علم الله ﷻ أن  
فرعون لا يتذكر ولا يخشى إلا عند رؤية البأس ألا تسمع الله ﷻ يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ  
الْعُرْفُ قَالَ ءَأَمَنْتَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فلم يقبل الله  
إيمانه وقال: ﴿ءَأَلْفَنُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].  
وفيه عن تفسير القمي عن عدي بن حاتم وكان مع أمير المؤمنين ﷺ في بعض حروبه أن  
علياً ﷺ قال ليلة الهرير بصفين حين التقى مع معاوية رافعاً صوته يسمع أصحابه: لأقتلن  
معاوية وأصحابه ثم قال في آخر قوله: إن شاء الله - يخفض به صوته وكنت منه قريباً فقلت:  
يا أمير المؤمنين إنك حلفت على ما قلت ثم استثنيت فما أردت بذلك؟ فقال: إن الحرب  
خدعة وأنا عند أصحابي صدوق فأردت أن أطمع أصحابي في قولي كي لا يفشلوا ولا يفروا  
فأفهم فإنك تنفع بهذا بعد اليوم إن شاء الله تعالى، وعن الكافي مثله وفيه بعد إن شاء الله تعالى:  
واعلم أن الله جل ثناؤه قال لموسى ﷻ حين أرسله إلى فرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ  
يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] وقد علم أنه يتذكر ولا يخشى ولكن ليكون ذلك أحرص لموسى ﷻ على  
الذهاب.

(١) البحار ١٣: ١٣٥ عن أبي عبد الله ﷺ في حديث له طويل حول القصة قال له سفيان: قلت  
يا ابن رسول الله ﷺ هل يجوز أن يُطمع الله ﷻ عباده في ما لا يكون؟ قال: لا فقلت:  
فكيف قال الله ﷻ لموسى وهارون ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] وقد علم أن فرعون لا  
يتذكر ولا يخشى؟ فقال: إن فرعون قد تذكر وخشي ولكن عند رؤية البأس حيث لم ينفعه  
الإيمان.

فلم يكن خوفاً للداعية على نفسه ﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾<sup>(١)</sup> إذ طمأنه ربه لما أعطاه سؤله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾<sup>(٢)</sup>.

ف ﴿أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ كرسولين، فرطاً على الدعوة تعجيلاً بالعقوبة قبل الآية المعجزة، و﴿أَوْ أَنْ يَطَّعَنِي﴾ هي طغوى عليهما وعلى بني إسرائيل، بعدما طغى، فهي مزيد الطغوى، إظهاراً لدفينها.

فذلك - إذاً - خوف على الدعوة أن يسبقها فرط من فرعون بقتل الداعية، أم يزيد طغوى على طغوى، فلا تفيد - إذاً - هذه الدعوة إلا بنصرة إلهية هي المطلوبة في ذلك العرض.

فها هما ذان الرسولان المأموران الخائفان على بلاغ الرسالة يتوجهان إلى ربهما بمخاوفهما، ويطمئنهما ربهما فيطمئنان على طول الخط إلى نهاية المطاف.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾<sup>(٣)</sup>:

﴿لَا تَخَافَا﴾ على أية حال لـ ﴿إِنِّي مَعَكُمَا﴾ معية العلم والقدرة والنصرة و﴿أَسْمَعُ﴾ المقال ﴿وَأَرَىٰ﴾ الحال، ولست أهمل الرسول والرسالة، أو أمهل الفارط والطاغي على الدعوة، فإن ذلك نقص في الرسالة، ونقض للهدف من الدعوة!

وهذه المعية الربانية تعم المرسلين كافة والذين معهم على درجاتهم: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ﴾<sup>(٣)</sup> ولا تعني النصر الضمان على حياة الرسول والمؤمنين، وعدم أذاهم، وإنما هي

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٥.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.

الضامنة لحياة الرسالة والإيمان وتقدمهما وثباتهما مهما صعبت الظروف والتوت.

فلا تعني ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ عدم مسهما بأي أذى وقدمتهما أذى كثيرة، حتى ولا عدم قتلهما مهما لم يقتلا، وهذه هي سنة الربوبية في الرسائل كلها ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

وترى كيف خافا على أي أمر كان وهما رسولان و﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ (١)؟  
المهم هنا موقف «الذي» وقد حصلت لهما لما ظمأنهما ربهما ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ فزال عنهما كافة المخاوف في سبيل الدعوة إلى فرعون الطاغية ومن معه!

ومن ﴿قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ هنا بعدما في النزاعات ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكِّي﴾ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشَىٰ ﴿١٩﴾ (٢): بصيغة أخرى تفصيلاً للأخرى:

﴿فَأَنبَاهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾:

وتراهما كيف أتياه ومن عادة الطغاة عدم السماح لمن يستأذن منهم، إلا إذا كان لصالحهم وهم يعرفون بصدق لهم وإخلاص؟.

يروى أنه «أتى بابه فاستأذن عليه ولم يؤذن له فضرب بعصاه الباب فاصطلت الأبواب مفتحة ثم دخل على فرعون فأخبره أنه رسول من رب العالمين.. (٣)

(١) سورة النمل، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) سورة النازعات، الآيتان: ١٨، ١٩.

(٣) البحار ١٣: ١٢٠ عن القمي أبي عن ابن فضال عن أبان بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام =

ولكنه خلاف اللين في اللقاء مهما كان مع البواب، وقد تعامت الآية عن كيف دخل فنسكت عما سكت الله عنه .

ونرى هنا أئين اللين في بزوغ الدعوة، فلم يقولوا «إنا رسولا رب العالمين» كي لا ينبري لإدخاله في العالمين، وهو داخلهم! ولا «إنا رسولا ربنا» فصلاً له عن ربهما وهو فصل عن قبول أصل الدعوة، وهو الطاغية الداعية: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾<sup>(١)</sup> وإنما ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الذي رباك، فلست أنت رباً لنفسك، ولا لغيرك ممن هو مثلك من العالمين، ولا أنت رب العالمين، وإنما لك رب رباك كما ربانا وربى سائر العالمين، تهديماً لصرح الخرافات الوثنية أن لكل قوم إلهاً أو آلهة كما كانت سائدة بينهم .

ف ﴿رَبِّكَ﴾ هنا اختصاصاً له بربوبيته تعالى يوافق طبيعة حاله، ويستحثة على سؤاله العجاب، من هو ذلك الرب، وطبعاً هو ربكما كما هو ربي، ولذلك أرسلكما إلي على زعمكما .

= قال : لما بعث الله موسى إلى فرعون أتى بابه . . وفيه ١٣ : ١٠٩ الصدوق بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن فرعون بنى سبع مدائن فتحصن فيها من موسى فلما أمره الله أن يأتي فرعون جاءه ودخل المدينة فلما رآته الأسود بصبغت بأذناها ولم يأت مدينة إلا انفتح له حتى انتهى إلى التي هو فيها ففعد على الباب وعليه مدرعة من صوف ومد عصاه فلما خرج الأذن قال له موسى عليه السلام : إني رسول رب العالمين إليك فلم يلتفت فضرب بعصاه الباب فلم يبق بينه وبين فرعون باب إلا انفتح فدخل عليه وقال : أنا رسول رب العالمين فقال : اتنني بأية فألقى عصاه وكان لها شعبتان فوقعت إحدى الشعبتين في الأرض والشعبة الأخرى في أعلى القبة فنظر فرعون إلى جوفها وهي تلتهب ناراً وأهوت إليه فأحدث فرعون وصاح يا موسى خذها ولم يبق أحد من جلساء فرعون إلا هرب فلما أخذ موسى العصا ورجعت إلى فرعون نفسه همّ بتصديقه فقام إليه هامان وقال : بينا أنت إله تعبد إذ أنت تابع لعبد واجتمع المملأ وقالوا : هذا لساحر عليم ، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم فلما ألقوا لهم عصيهم ألقى موسى عصاه فالتقتما كلها وكان في السحرة اثنان وسبعون شيخاً خرّوا سجداً ثم قالوا لفرعون : ما هذا سحر لو كان سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ثم خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل يريد أن يقطع بهم البحر . . أقول ثم هنا تفصل بين بداية أمره ونهايته كما هو مستفاد من آيات القصة .

(١) سورة النازعات، الآية: ٧٩ .

وقد جمع في ﴿إِنَّا رَسُولًا رَّبِّكَ﴾ حجة بارعة قارعة على لينها، دون أن تؤثر اللينة في قاطعية الحجّة فتنقص عنها، ولا أن تؤثر الحجّة في تحول اللينة إلى المساواة، وهذه هي الجدال بالتي هي أحسن، أن تزداد عنها مساوتها، وتزداد فيها محاسنها، فتصبح قاطعة على لينونته، ولينة على قاطعيته!

ثم في هذه البداية لا يفرعان على ﴿إِنَّا رَسُولًا رَّبِّكَ﴾ تطلب الإيمان به من فورهما، وإنما أدنى ما يُتطلب من مربوب لربه أن يتخلى عن سلطته الظالمة على مستضعفي عبادة:

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبَهُمْ﴾ كان ذلك هو فقط مادة الرسالة إليه لا سواها، ولكي لا تأخذه العزة بالإثم والغيرة، فيأتي بمعرة فوق معرة.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كإيجاب واحد في هذه الرسالة ﴿وَلَا نُعَذِّبَهُمْ﴾ كسلب واحد فيها، و﴿وَلَا نُعَذِّبَهُمْ﴾ بدل «لا تظلمهم» ليونة في التعبير، حيث الظلم يخص القبيح، والعذاب منه قبيح ومنه صحيح، ولأنهما يرأسان بني إسرائيل، فلو أنهم يستحقون العذاب فحوّل عذابهم إلينا وأرسلهم معنا، فلا لكم ولا عليكم أي شأن منهم شائناً أم سواه.

ولئن تطلب برهاناً على هذه الرسالة ف﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ آية ذات دالتين، أولاهما أنه ربك، وثانيتها أنا رسولا ربك.

ولماذا «آية» وقد أوتي موسى تسع آيات حيث أرسل ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾<sup>(١)</sup>؟.

لأن الموقف هنا في مقام إثبات رسالتها بآية إلهية، دون كمها وكيفها، وإن الآيات التسع هي كواحدة في أصل التدليل على صحة الربوبية والرسالة، فأيات الرسائل كلها تنحو منحى هدف واحد هو إثبات الرسالة الإلهية، على اختلاف صورها وسيرها.

(١) سورة النمل، الآية: ١٢.

وهنا بعد ثبوت الرسالة والألوهية - وهما الهدى الإلهية - بخط مصير كل من أهل الهدى والردى بمسيرهما:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ دون من عارضها، أم لا لها ولا عليها، فهلا تريد يا فرعون أن تكون من أهل السلام باتباع الهدى وترك الهوى.

ثم العذاب وأنت تعذب بني إسرائيل ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ كذب الهدى بعد إتيانها، وتولى عنه إلى غيرها، فهل أنهم كذبوا الهدى وتولوا عنها حتى يستحقوا عذابك؟ وهم موحدون مهتدون!.

أم أنت المكذب للهدى، المتولي عنها ولذلك تطغى، فاترك الطغوى إلى التقوى حتى يسلم السلام على من اتبع الهدى، وذلك تنديد بكل مكذب بحق متولٍ عنه أياً كان<sup>(١)</sup>.

نرى هنا في ذلك العرض الحكيم لتلك الرسالة السامية كل برهنة ساطعة قوية بكل ليونة، فلا ينسبان إلى الطاغية تكديباً للهدى وتولياً عنها واستحقاقاً للعذاب بصيغة صريحة، وإنما يوضح أسباب الهدى والردى بمسيرهما ومصيرهما، وليعرف فرعون من هو من هذا البين ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَخْشَوْنَ﴾! فهنا ترغيب واستمالة ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ فلعله منهم، يتلقى السلام باتباع الهدى، ثم تحديد وتحذير غير مباشرين كي لا يستثيرا كبرياءه أو

(١) نور الثقلين ٣: ٢٨١ في أصول الكافي بإسناده إلى عبد الله بن إبراهيم الجعفري قال: كتب أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام إلى يحيى بن عبد الله بن الحسن: أما بعد فإني أحذرك ونفسي وأعدك أليم عذابه وشديد عقابه وتكامل نعماته وأوصيك ونفسي بتقوى الله فإنها زين الكلام وتثبيت النعم - إلى قوله - : أحذرك معصية الخليفة وأحثك على بره وطاعته وأن تطلب لنفسك أماناً قبل أن تأخذك الأظفار ويلزمك الخناق من كل مكان فتروح إلى النفس من كل مكان ولا تجده حتى يمن الله عليك بمنه وفضله ورقة الخليفة أبقاه الله فيؤمنك ويرحمك ويحفظ فيك أرحام رسول الله صلى الله عليه وآله والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى.

يحطاه من علوائه: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فلعله ليس ممن كذب وتولى.

ولماذا هنا ﴿رَسُولًا رَبِّكَ﴾ وفي سائر القرآن «رسول - أو - رسولا رب العالمين»<sup>(١)</sup>؟.

لأن الذي هو رب فرعون المدعي للألوهية أخرى أن يكون رباً للعالمين أجمعين، إذا ف ﴿رَسُولًا رَبِّكَ﴾ صيغة أخرى عن «رسولا - أو - رسول رب العالمين» أم أنه قالهما بصيغة عامة لكافة المرسل إليهم وأخرى خاصة بفرعون رعاية لليونة التعبير.

هنا يمتنُّ فرعون على موسى أن رباه وليداً كأنه نعمة تمنعه عن هذه الرسالة جزاءً بها: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَمِثْنَا مِنْ نَحْنِكَ سِنِينَ ﴿٧﴾ وَفَعَلْنَا فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾<sup>(٢)</sup>.

فهنا نرى الطاغية يلوي شذقه متجاهلاً أن الله ربه، سائلاً موسى وهارون عن ربهما دون ربه ولما يعترف به.



(١) ففي الأعراف والزخرف ﴿وَلِكَيْ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١] وفي الشعراء ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٨-٢٣.





## الفهرس

الصفحة

الموضوع

### تتمة سورة الكهف

٧	.....	سورة الكهف، الآيات: ٢٧ - ٣١
٢٤	.....	سورة الكهف، الآيات: ٣٢ - ٤٦
٤٢	.....	سورة الكهف، الآيات: ٤٧ - ٥٩
٦٧	.....	سورة الكهف، الآيات: ٦٠ - ٨٢
١٠٤	.....	سورة الكهف، الآيات: ٨٣ - ١٠٢
١١٧	.....	المركبة الفضائية الأولى لذي القرنين
١٣٧	.....	أين ردم ذي القرنين؟
١٣٩	.....	ومن يأجوج ومأجوج؟
١٥٥	.....	سورة الكهف، الآيات: ١٠٣ - ١١٠

### سورة مريم

١٧٥	.....	سورة مريم، الآيات: ١ - ١٥
٢٠٠	.....	زكريا ويحيى في القرآن والعهدين

٢٠٣	.....	سورة مريم، الآيات: ١٦ - ٤٠
٢٣٢	.....	صحة الأناجيل خطر على قدسية المسيح ﷺ
٢٣٤	.....	المسيح وأمه حسب الإنجيل
٢٣٦	.....	مريم في القرآن
٢٣٧	.....	المسيح في القرآن
٢٤١	.....	«متى أرسل بالإنجيل وصار نبياً؟»
٢٤٨	.....	سورة مريم، الآيات: ٤١ - ٥٠
٢٥٨	.....	سورة مريم، الآيات: ٥١ - ٥٧
٢٦٤	.....	سورة مريم، الآيات: ٥٨ - ٧٢
٢٨٩	.....	سورة مريم، الآيات: ٧٣ - ٨٠
٢٩٥	.....	سورة مريم، الآيات: ٨١ - ٩٨

### سورة طه

٣٠٥	.....	سورة طه، الآيات: ١ - ٣٦
٣٨٠	.....	سورة طه، الآيات: ٣٧ - ٤٨